



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه  
صباح  
الرمضان

WWW. **Ghaemiyeh** .com  
WWW. **Ghaemiyeh** .org  
WWW. **Ghaemiyeh** .net  
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٢٧	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١١
٢٧	اشاره
٢٨	اشاره
٣٤	«سوره النور»
٣٤	اشاره
٣٤	فضل سوره النور:
٣٤	محتوى سوره النور:
٣٤	اشاره
٣٤	المرحله الأولى:
٣٥	المرحله الثانيه:
٣٥	و فى المرحله الثالثه:
٣٥	و فى المرحله الرابعه:
٣٥	و فى المرحله الخامسه:
٣٦	و فى المرحله السادسه:
٣٧	الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ١ الى ٣]
٣٧	اشاره
٣٧	التفسير
٣٧	اشاره
٣٧	حد الزانى و الزانيه:
٤٢	ملاحظات
٤٢	اشاره
٤٢	١-الحالات التى يعدم فيها الزانى
٤٢	٢-لماذا ذكرت الزانيه أولاً؟

- ٤٣- لماذا تكون العقوبه عليه؟
- ٤٤- ماذا كان حدّ الزانى سابقا؟
- ٤٤- منع الإفراط و التفريط عند تنفيذ الحدّ!
- ٤٥- شروط تحريم الزواج بالزانية و الزانى:
- ٤٥- فلسفه تحريم الزنا:
- ٤٧- الأيتان [سوره النور (٢٤): الآيات ٤ الى ٥]
- ٤٧- اشاره
- ٤٧- التفسير
- ٤٧- اشاره
- ٤٧- عقوبه البهتان:
- ٤٩- بحوث
- ٤٩- اشاره
- ٤٩- ١- المراد من كلمه «رمى»
- ٥٠- ٢- لماذا أربعة شهود؟
- ٥١- ٣- الشرط المهم فى قبول التوبه
- ٥٢- ٤- أحكام القذف:
- ٥٤- الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٦ الى ١٠]
- ٥٤- اشاره
- ٥٤- سبب النزول
- ٥٤- التفسير
- ٥٤- اشاره
- ٥٤- عقاب توجيه التهمه إلى الزوجه!
- ٥٨- ملاحظات
- ٥٨- اشاره
- ٥٨- ١- لماذا استثنى الزوجان من حكم القذف؟
- ٥٩- ٢- كيفيه اللعان

٥٩ ..... ٣-العقاب المحذوف في الآيه: .....

٦١ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ١١ الى ١٦] .....

٦١ ..... اشاره .....

٦١ ..... سبب النزول .....

٦١ ..... اشاره .....

٦٧ ..... تحقيق المسأله: .....

٦٩ ..... التفسير .....

٦٩ ..... اشاره .....

٦٩ ..... حديث الافك المثير: .....

٧٥ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ١٧ الى ٢٠] .....

٧٥ ..... اشاره .....

٧٥ ..... التفسير .....

٧٥ ..... اشاره .....

٧٥ ..... حرمه إشاعه الفحشاء: .....

٧٨ ..... بحوث .....

٧٨ ..... اشاره .....

٧٨ ..... ١-ما معنى إشاعه الفحشاء؟ .....

٨٠ ..... ٢-مصيبه الشائعات .....

٨١ ..... ٣-استصغار الذنب .....

٨٢ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٢١ الى ٢٦] .....

٨٢ ..... اشاره .....

٨٣ ..... التفسير .....

٨٣ ..... اشاره .....

٨٣ ..... للعقوبات حساب! .....

٨٩ ..... بحوث .....

٨٩ ..... اشاره .....

- ٨٩ ..... ١- من هن الخبيثات و من هم الخبيثون؟
- ٩١ ..... ٢- هل هذا حكم تكويني أم تشريعي؟
- ٩٢ ..... ٣- جواب استفسار:
- ٩٤ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٢٩]
- ٩٤ ..... اشاره
- ٩٤ ..... التفسير
- ٩٤ ..... اشاره
- ٩٤ ..... لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم:
- ٩٤ ..... بحوث
- ٩٤ ..... اشاره
- ٩٤ ..... ١- الأمن و الحريه فى حريم المنزل
- ٩٩ ..... ٢- ما المقصود بالبيوت غير المسكونه؟
- ٩٩ ..... ٣- عقاب من يتلصص على منازل الناس:
- ١٠١ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٣٠ الى ٣١]
- ١٠١ ..... اشاره
- ١٠١ ..... سبب النزول
- ١٠٢ ..... التفسير
- ١٠٢ ..... اشاره
- ١٠٢ ..... مكافحه السفور و خائنه الأعين:
- ١٠٧ ..... بحوث
- ١٠٧ ..... اشاره
- ١٠٧ ..... ١- فلسفه الحجاب
- ١٠٧ ..... اشاره
- ١١٠ ..... الإشكال الذى يورده معارضو الحجاب:
- ١١٣ ..... ٢- استثناء الوجه و الكفليين
- ١١٤ ..... ٣- ما المقصود من نساين؟



١١٥ ----- ٤-تفسير عبارہ اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُنَّ

١١٥ ----- ٥-تفسير اُولَى الْاِزْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ

١١٦ ----- ٦-اى طفل مستثنى من هذا الحكم؟

١١٧ ----- ٧-لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم؟

١١٧ ----- ٨-تحريم سبل الاثارة!

١١٨ ----- الايات [سوره النور (٢٤): الايات ٣٢ الى ٣٤]

١١٨ ----- اشاره

١١٨ ----- التفسير

١١٨ ----- اشاره

١١٨ ----- الترغيب فى زواج يسير التكليف:

١٢٤ ----- مسائل مهمه:

١٢٤ ----- اشاره

١٢٤ ----- ١-الزواج سته إلهيه

١٢٤ ----- ٢-المراد من عبارہ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .

١٢٧ ----- ٣-ما هو عقد المكاتبه؟

١٢٨ ----- الايات [سوره النور (٢٤): الايات ٣٥ الى ٣٨]

١٢٨ ----- اشاره

١٢٨ ----- التفسير

١٢٨ ----- اشاره

١٢٨ ----- آيه النور!

١٣٩ ----- ملاحظات

١٤٤ ----- الايتان [سوره النور (٢٤): الايات ٣٩ الى ٤٠]

١٤٤ ----- اشاره

١٤٤ ----- التفسير

١٤٤ ----- اشاره

١٤٤ ----- أعمال سراييه

الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٤١ الى ٤٢] ..... ١٤٩

اشاره ..... ١٤٩

التفسير ..... ١٤٩

اشاره ..... ١٤٩

الجميع يستبح لله: ..... ١٤٩

مسائل مهمه: - ..... ١٥٠

اشاره ..... ١٥٠

١-ماذا تعنى عباره أَلَمْ تَرَ ..... ١٥٠

٢-التسبيح العام لجميع المخلوقات ..... ١٥١

٣-التسبيح الخاص بالطيور: ..... ١٥٢

٤-عبارته كَلَّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ: ..... ١٥٣

٥-ما المقصود بالصلاه؟ ..... ١٥٣

الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٤٣ الى ٤٥] ..... ١٥٥

اشاره ..... ١٥٥

التفسير ..... ١٥٥

اشاره ..... ١٥٥

جانب آخر من الخلق العجيب: ..... ١٥٥

ردّ على استفسار: ..... ١٥٧

بحوث ..... ١٦٠

اشاره ..... ١٦٠

١-ماذا يعنى الماء هنا؟ ..... ١٦٠

٢-جواب على استفسار ..... ١٦١

٣-صوره الحياه المختلفه: ..... ١٦٢

الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٤٦ الى ٥٠] ..... ١٦٤

اشاره ..... ١٦٤

سبب النزول ..... ١٦٤

التفسير ..... ١٦٥

اشاره ..... ١٦٥

الإيمان و قبول حكم الله: ..... ١٦٥

بحثان ..... ١٦٨

اشاره ..... ١٦٨

١-مرض النفاق ..... ١٦٨

٢-الحكومة العادله هي الحكومة الإلهيه فقط: ..... ١٦٩

الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٥١ الى ٥٤] ..... ١٧٠

اشاره ..... ١٧٠

التفسير ..... ١٧٠

اشاره ..... ١٧٠

الإيمان و التسليم التام إزاء الحق: ..... ١٧٠

الآيه [سوره النور (٢٤): آيه ٥٥] ..... ١٧٥

اشاره ..... ١٧٥

سبب النزول ..... ١٧٥

التفسير ..... ١٧٦

اشاره ..... ١٧٦

حكومة المستضعفين العالميه: ..... ١٧٦

بحوث ..... ١٧٧

اشاره ..... ١٧٧

١-تفسير عبارہ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..... ١٧٧

٢-الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض: ..... ١٧٨

٣-الهدف النهائي عباده خالصه: ..... ١٨٠

الآيتان [سوره النور (٢٤): الآيات ٥٦ الى ٥٧] ..... ١٨٢

اشاره ..... ١٨٢

التفسير ..... ١٨٢

١٨٢ ..... اشارة

١٨٢ ..... استحاله الفرار من حكومته تعالى:

١٨٤ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦٠]

١٨٤ ..... اشارة

١٨٤ ..... التفسير

١٨٤ ..... اشارة

١٨٤ ..... آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين:

١٨٩ ..... بحثان

١٨٩ ..... اشارة

١٨٩ ..... ١- فلسفه الاستئذان و المفاسد المترتبه على عدم الالتزام به

١٩١ ..... ٢- حكم الحجاب بالنسبه للنساء العجائز:

١٩٤ ..... الآية [سوره النور (٢٤): آيه ٦١]

١٩٤ ..... اشارة

١٩٤ ..... التفسير

١٩٤ ..... اشارة

١٩٤ ..... البيوت التي يسمح بالأكل فيها:

١٩٩ ..... بحوث

١٩٩ ..... اشارة

١٩٩ ..... ١- هل أن تناول غذاء الآخرين غير منوط بإذنتهم؟

٢٠١ ..... ٢- فلسفه هذا الحكم الإسلامى:

٢٠٢ ..... ٣- من هو الصديق؟

٢٠٣ ..... ٤- تفسير عباره مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ

٢٠٤ ..... ٥- السلام و التحيه

٢٠٥ ..... الآيات [سوره النور (٢٤): الآيات ٦٢ الى ٦٤]

٢٠٥ ..... اشارة

٢٠٥ ..... سبب النزول

التفسير ..... ٢٠٧

اشاره ..... ٢٠٧

لا تتركوا النبي وحده! ..... ٢٠٧

سوره الفرقان ..... ٢١٣

اشاره ..... ٢١٣

محتوى سوره الفرقان: ..... ٢١٥

فضيله سوره الفرقان: ..... ٢١٦

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٢] ..... ٢١٧

اشاره ..... ٢١٧

التفسير ..... ٢١٧

اشاره ..... ٢١٧

المقياس الأعلى للمعرفه: ..... ٢١٧

بحث ..... ٢٢٠

اشاره ..... ٢٢٠

تقدير الموجودات بدقه: ..... ٢٢٠

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣ الى ٦] ..... ٢٢٤

اشاره ..... ٢٢٤

التفسير ..... ٢٢٤

اشاره ..... ٢٢٤

الانتهامات المتعدده الألوان: ..... ٢٢٤

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٧ الى ١٠] ..... ٢٣١

اشاره ..... ٢٣١

سبب النزول ..... ٢٣١

التفسير ..... ٢٣٢

اشاره ..... ٢٣٢

لم لا يملك هذا الرسول كنوزا و جنات؟! ..... ٢٣٢

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١١ الى ١٦] - ٢٣٨

اشاره ..... ٢٣٨

التفسير ..... ٢٣٨

اشاره ..... ٢٣٨

مقارنه بين الجنه و النار: ..... ٢٣٨

ملاحظات ..... ٢٤٢

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١٧ الى ١٩] - ٢٤٤

اشاره ..... ٢٤٤

التفسير ..... ٢٤٤

اشاره ..... ٢٤٤

المحاكمه بين المعبودين و عبدتهم الضالين: ..... ٢٤٤

مسائل مهمه: ..... ٢٤٤

اشاره ..... ٢٤٤

١-من هم المقصودون بالمعبودين هنا؟! ..... ٢٤٤

٢-دافع الانحراف عن أصل التوحيد ..... ٢٤٧

٣-كلمه «بور» ..... ٢٤٩

الآيه [سوره الفرقان (٢٥): آيه ٢٠] - ٢٥٠

اشاره ..... ٢٥٠

سبب النزول ..... ٢٥٠

التفسير ..... ٢٥١

اشاره ..... ٢٥١

هكذا كان جميع الأنبياء ..... ٢٥١

سؤال: ..... ٢٥٢

و الجواب: ..... ٢٥٢

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٢٤] - ٢٥٤

اشاره ..... ٢٥٤

التفسير ..... ٢٥٤

اشاره ..... ٢٥٤

الادعاءات الكبيره: ..... ٢٥٤

آفات العمل الصالح: ..... ٢٥٩

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢٥ الى ٢٦] ..... ٢٦٢

اشاره ..... ٢٦٢

التفسير ..... ٢٦٢

اشاره ..... ٢٦٢

تشقق السماء بالغمام: ..... ٢٦٢

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢٧ الى ٢٩] ..... ٢٦٦

اشاره ..... ٢٦٦

سبب النزول ..... ٢٦٦

التفسير ..... ٢٦٧

اشاره ..... ٢٦٧

أضلنى صديق السوء ..... ٢٦٧

بحث ..... ٢٦٩

اشاره ..... ٢٦٩

أثر الصديق في مصير الإنسان: ..... ٢٦٩

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٠ الى ٣٤] ..... ٢٧٢

اشاره ..... ٢٧٢

التفسير ..... ٢٧٢

اشاره ..... ٢٧٢

إلهي، إن الناس قد هجروا القرآن: ..... ٢٧٢

بحوث ..... ٢٧٥

اشاره ..... ٢٧٥

١- تفسير جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا . ..... ٢٧٥

- ٢- الأثار العميقه لنزول القرآن التدريجي ..... ٢٧٧
- ٣- معنى الترتيل فى القرآن: ..... ٢٧٩
- ٤- تفسير يُخْشَوْنَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ..... ٢٨٠
- الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٥ الى ٤٠] ..... ٢٨٢
- اشاره ..... ٢٨٢
- التفسير ..... ٢٨٢
- اشاره ..... ٢٨٢
- مع كل هذه الدروس و العبره و لكن ... ..... ٢٨٢
- بحثان ..... ٢٨٥
- اشاره ..... ٢٨٥
- ١- من هم «أصحاب الرس» ..... ٢٨٥
- ٢- مجموعه من الدروس المؤثره: ..... ٢٨٨
- الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٤٤] ..... ٢٩٠
- اشاره ..... ٢٩٠
- التفسير ..... ٢٩٠
- اشاره ..... ٢٩٠
- أضلّ من الأنعام: ..... ٢٩٠
- بحثان ..... ٢٩٤
- اشاره ..... ٢٩٤
- ١- اتباع الهوى و عواقبه الأليمه ..... ٢٩٤
- ٢- لماذا أضلّ من الأنعام؟! ..... ٢٩٨
- الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤٥ الى ٥٠] ..... ٣٠١
- اشاره ..... ٣٠١
- التفسير ..... ٣٠١
- اشاره ..... ٣٠١
- حركه الضلال: ..... ٣٠١



ملاحظات ----- ٣٠٧

اشاره ----- ٣٠٧

و هنا ملاحظات مهمه: ----- ٣٠٧

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٥١ الى ٥٥] ----- ٣١٠

اشاره ----- ٣١٠

التفسير ----- ٣١٠

اشاره ----- ٣١٠

بحران متجاوران:عذب فرات و ملح أجاج: ----- ٣١٠

مسألتيان ----- ٣١٨

اشاره ----- ٣١٨

١-وحده القيادة ----- ٣١٨

٢-القرآن وسيله الجهاد الكبير ----- ٣١٨

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٥٦ الى ٥٩] ----- ٣٢١

اشاره ----- ٣٢١

التفسير ----- ٣٢١

اشاره ----- ٣٢١

أجرى هو هدايتكم: ----- ٣٢١

مسألتيان ----- ٣٢٥

اشاره ----- ٣٢٥

١-أجر الرساله ----- ٣٢٥

٢-على من يجب التوكل؟ ----- ٣٢٦

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٦٠ الى ٦٢] ----- ٣٢٨

اشاره ----- ٣٢٨

التفسير ----- ٣٢٨

اشاره ----- ٣٢٨

البروج السماويه: ----- ٣٢٨

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤٣ الى ٤٧] - - - - - ٣٣٣

اشاره - - - - - ٣٣٣

التفسير - - - - - ٣٣٣

اشاره - - - - - ٣٣٣

الصفات الخاصه لعباد الرحمن: - - - - - ٣٣٣

مسألان - - - - - ٣٣٨

اشاره - - - - - ٣٣٨

١- طريقه مشى المؤمنين - - - - - ٣٣٨

٢- البخل و الإسراف - - - - - ٣٣٩

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤٨ الى ٧١] - - - - - ٣٤١

اشاره - - - - - ٣٤١

التفسير - - - - - ٣٤١

اشاره - - - - - ٣٤١

بحث آخر فى صفات عباد الرحمن: - - - - - ٣٤١

تبديل السيئات حسنات: - - - - - ٣٤٥

هنا عدّه تفاسير، يمكن القبول بها جميعا: - - - - - ٣٤٥

الآيات [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٧٢ الى ٧٦] - - - - - ٣٤٨

اشاره - - - - - ٣٤٨

التفسير - - - - - ٣٤٨

اشاره - - - - - ٣٤٨

جزاء «عباد الرحمن»: - - - - - ٣٤٨

الآيه [سوره الفرقان (٢٥): آيه ٧٧] - - - - - ٣٥٦

اشاره - - - - - ٣٥٦

التفسير - - - - - ٣٥٦

اشاره - - - - - ٣٥٦

لو لا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمه: - - - - - ٣٥٦

٣٥٨ ..... بحث

٣٥٨ ..... اشاره

٣٥٨ ..... الدعاء طريق إصلاح النفس و معرفه الله:

٣٦٢ ..... سورة الشعراء

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٤ ..... محتوى سورة الشعراء:

٣٦٥ ..... فضيله سورة الشعراء:

٣٦٧ ..... الآيات [سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١ الى ٦]

٣٦٧ ..... اشاره

٣٦٧ ..... التفسير

٣٦٧ ..... اشاره

٣٦٧ ..... إنهم يعرضون عن كل جديد!

٣٧١ ..... ملاحظتان

٣٧٤ ..... الآيات [سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٧ الى ٩]

٣٧٤ ..... اشاره

٣٧٤ ..... التفسير

٣٧٤ ..... اشاره

٣٧٤ ..... الزوجيه في النباتات:

٣٧٧ ..... الآيات [سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٠ الى ١٥]

٣٧٧ ..... اشاره

٣٧٧ ..... التفسير

٣٧٧ ..... اشاره

٣٧٧ ..... بدايه رساله موسى:

٣٨٢ ..... الآيات [سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦ الى ٢٢]

٣٨٢ ..... اشاره

٣٨٢ ..... التفسير

٣٨٢ ..... اشارة

٣٨٢ ..... مواجهه فرعون مواجهه منطقيه و قاطعه:

٣٨٨ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٢٣ الى ٢٩]

٣٨٨ ..... اشارة

٣٨٨ ..... التفسير

٣٨٨ ..... اشارة

٣٨٨ ..... الاتهام بالجنون و التهديد بالسجن:

٣٩٣ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٣٠ الى ٣٧]

٣٩٣ ..... اشارة

٣٩٣ ..... التفسير

٣٩٣ ..... اشارة

٣٩٣ ..... بلادكم فى خطر:

٣٩٨ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٣٨ الى ٤٢]

٣٩٨ ..... اشارة

٣٩٨ ..... التفسير

٣٩٨ ..... اشارة

٣٩٨ ..... اجتماع السحرة من كل مكان:

٤٠١ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٤٣ الى ٥١]

٤٠١ ..... اشارة

٤٠١ ..... التفسير

٤٠١ ..... اشارة

٤٠١ ..... نور الإيمان فى قلوب السحرة:

٤٠٨ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٥٢ الى ٥٩]

٤٠٨ ..... اشارة

٤٠٨ ..... التفسير

٤٠٨ ..... اشارة

- ٤٠٨ ..... مصير الفراعنه:
- ٤١١ ..... ملاحظتان
- ٤١١ ..... اشاره
- ٤١١ ..... ١- هل حكم بنو إسرائيل في مصر؟! .....
- ٤١٣ ..... ٢- ترتيب الآيات .....
- ٤١٤ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٦٠ الى ٦٨] .....
- ٤١٤ ..... اشاره
- ٤١٤ ..... التفسير
- ٤١٤ ..... اشاره
- ٤١٤ ..... عاقبه فرعون و أتباعه الوخيمه .....
- ٤١٨ ..... مسائل مهمه: .....
- ٤١٨ ..... اشاره
- ٤١٨ ..... ١- معبر بنى إسرائيل! .....
- ٤٢٠ ..... ٢- كيفيه نجاه بنى إسرائيل و غرق فرعون و قومه .....
- ٤٢١ ..... ٣- الله عزيز رحيم .....
- ٤٢٢ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٦٩ الى ٨٢] .....
- ٤٢٢ ..... اشاره
- ٤٢٢ ..... التفسير
- ٤٢٢ ..... اشاره
- ٤٢٢ ..... أعبد ربًا...هذه صفاته: .....
- ٤٢٨ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٨٣ الى ٨٧] .....
- ٤٢٨ ..... اشاره
- ٤٢٨ ..... التفسير
- ٤٢٨ ..... اشاره
- ٤٢٨ ..... دعاء إبراهيم عليه السلام: .....
- ٤٣٣ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٨٨ الى ١٠٤] .....

٤٣٣ ..... اشارة

٤٣٣ ..... التفسير

٤٣٣ ..... اشارة

٤٣٣ ..... الخصام بين المشركين و معبوداتهم:

٤٣٨ ..... ملاحظات

٤٣٨ ..... اشارة

٤٣٨ ..... ١-القلب السليم-وحده-وسيله النجاه

٤٤١ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ١١٥]

٤٤١ ..... اشارة

٤٤١ ..... التفسير

٤٤١ ..... اشارة

٤٤١ ..... يا نوح،لم يحف بك الأردلون!؟

٤٤٤ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١١٦ الى ١٢٢]

٤٤٤ ..... اشارة

٤٤٤ ..... التفسير

٤٤٤ ..... اشارة

٤٤٤ ..... نجاه نوح و غرق المشركين:

٤٤٩ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٢٣ الى ١٣٥]

٤٤٩ ..... اشارة

٤٤٩ ..... التفسير

٤٤٩ ..... اشارة

٤٤٩ ..... جنایات عاد و اعمالهم العدوانيه:

٤٥٤ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٣٦ الى ١٤٠]

٤٥٤ ..... اشارة

٤٥٤ ..... التفسير

٤٥٤ ..... اشارة

٤٥٦ ..... لا تتعب نفسك في نصحنأ:

٤٥٨ ..... الأيات [سوره الشعراء (٢٦): الأيات ١٤١ الى ١٥٢]

٤٥٨ ..... اشارة

٤٥٨ ..... التفسير

٤٥٨ ..... اشارة

٤٥٨ ..... لا تطيعوا المسرفين المفسدين:

٤٦١ ..... ملاحظه:

٤٦١ ..... اشارة

٤٦١ ..... العلاقه بين الإسراف و الفساد فى الأرض!

٤٦٣ ..... الأيات [سوره الشعراء (٢٦): الأيات ١٥٣ الى ١٥٩]

٤٦٣ ..... اشارة

٤٦٣ ..... التفسير

٤٦٣ ..... اشارة

٤٦٣ ..... عناد قوم صالح و لجاجتهم:

٤٦٧ ..... الأيات [سوره الشعراء (٢٦): الأيات ١٦٠ الى ١٦٦]

٤٦٧ ..... اشارة

٤٦٧ ..... التفسير

٤٦٧ ..... اشارة

٤٦٧ ..... السفله المعتدون:

٤٦٩ ..... بحثان

٤٦٩ ..... اشارة

٤٦٩ ..... ١- الانحراف الجنسى انحراف مخجل

٤٧٠ ..... ٢-العواقب الوخيمه للانحراف الجنسى.

٤٧٢ ..... الأيات [سوره الشعراء (٢٦): الأيات ١٦٧ الى ١٧٥]

٤٧٢ ..... اشارة

٤٧٢ ..... التفسير

٤٧٢ ..... اشارة

٤٧٢ ..... عاقبه قوم لوط:

٤٧٧ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٨٤]

٤٧٧ ..... اشارة

٤٧٧ ..... التفسير

٤٧٧ ..... اشارة

٤٧٧ ..... شعيب و أصحاب الأيكة:

٤٨٣ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٨٥ الى ١٩١]

٤٨٣ ..... اشارة

٤٨٣ ..... التفسير

٤٨٣ ..... اشارة

٤٨٣ ..... عاقبه الحمقى:

٤٨٦ ..... بحوث

٤٨٦ ..... اشارة

٤٨٦ ..... ١-الانسجام التام فى دعوات الأنبياء

٤٨٨ ..... ٢-التقوى،بدايه دعوه الأنبياء جميعا:

٤٨٨ ..... ٣-الانحرافات الاخلاقيه

٤٩٠ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٢ الى ١٩٧]

٤٩٠ ..... اشارة

٤٩٠ ..... التفسير

٤٩٠ ..... اشارة

٤٩٠ ..... عظمه القرآن فى كتب «السابقين».

٤٩٤ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٨ الى ٢٠٣]

٤٩٤ ..... اشارة

٤٩٤ ..... التفسير

٤٩٤ ..... اشارة



٤٩٤ ..... لو نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى الْأَعْرَابِ...

٤٩٥ ..... بحوث

٤٩٥ ..... اشاره

٤٩٥ ..... ١-العصبيه القوميه و القبليه الشديده!...

٤٩٨ ..... ٢-طلب الرجوع إلى الدنيا...

٤٩٨ ..... ٣-فضل العجم:

٥٠٠ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٢٠٤ إلى ٢١٢]

٥٠٠ ..... اشاره

٥٠٠ ..... التفسير

٥٠٠ ..... اشاره

٥٠٠ ..... تهمة أخرى للقرآن:

٥٠٥ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٢١٣ إلى ٢٢٠]

٥٠٥ ..... اشاره

٥٠٥ ..... التفسير

٥٠٥ ..... اشاره

٥٠٥ ..... و أنذر عشيرتک الأقربین...

٥٠٨ ..... بحثان

٥٠٨ ..... اشاره

٥٠٨ ..... ١-تفسير وَ تَقَلَّبَكَ فِي الشَّاجِدِينَ .

٥١٠ ..... ٢-إنذار الأقربین «حديث يوم الدار»

٥١٢ ..... الآيات [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٢٢١ إلى ٢٢٧]

٥١٢ ..... اشاره

٥١٢ ..... التفسير

٥١٢ ..... اشاره

٥١٢ ..... التبي ليس شاعرا:

٥١٧ ..... بحوث

٥١٧ ..... اشارة

٥١٧ ..... ١-لم كانوا يتهمون التبي بالشعر

٥١٧ ..... ٢-الشعر و الشاعريه فى الإسلام

٥٢٣ ..... ٣-ذكر الله:

٥٣٧ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱















### فضل سوره النور:

جاء فى حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «من قرأ سوره النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن و مؤمنه فيما مضى و فيما بقى».

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «حصنوا أموالكم و فروجكم بتلاوه سوره النور و حصّونا بها نساءكم، فإنّ من أدمن قراءتها فى كل يوم أو فى كل ليله لم يزن أحد من أهل بيته أبدا حتى يموت» (١).

و الاهتمام بمضمون السوره الذى دعا بطرق مختلفه إلى مكافحه عناصر الانحراف بالتزام العفّه، يوضح الغايه الاساسيه فى الحديثين أعلاه و مفهومهما العملى.

### محتوى سوره النور:

يمكن اعتبار هذه السوره خاصّه بالطهاره و العفّه، و كفاح الانحطاط الخلقى، لأن محور تعاليمها ينصب على تطهير المجتمع بطرق مختلفه من الرذائل و الفواحش، و القرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هى:

### المرحله الأولى:

بيان العقاب الشديد للمرأة الزانيه و الرجل الزانى، و هو ما ورد حاسما فى الآيه الثانيه من هذه السوره.

ص: ٧

---

١ - ١) - تفسير مجمع البيان للآيه موضع البحث، و كتاب ثواب الأعمال للصدوق (حسبما نقله نور الثقلين، المجلد الثالث. صفحه ٥٦٨).

## المرحلة الثانية:

بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلا بشروط مشدده للغايه، إذ لا بدّ من أربعة شهود يشهدون أنّهم رأوا بأمّ أعينهم رجلا غريبا يزنى بامرأه غريبه عنه، يفعل بها فعل الزوج بزوجه ساعه مباشرته إيّاها.

و لو شهد الرجل على زوجته بالزنا للاعن القاضى بينهما، أو يقرّ أحدهما أو كلاهما بالحق.

و من اتّهم محصنه و لم يأت بأربعة شهود جلده القاضى أربعة أخماس حدّ الزنا، أى ثمانين جلده، لثلا يتصوّر أحد أنّ بإمكانه الطعن على الناس و هتك حرمتهم و هو فى منجى عن العقاب.

ثمّ طرحت الآيه بهذه المناسبه الحديث المعروف باسم الإفك، و ما فيه من اتّهام إحدى نساء النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم. فعقّب القرآن المجيد على هذه المسأله موضحا للمسلمين مدى بشاعه الافتراء و التهمه، و فظاعه إشاعه الفاحشه عدوانا على الناس، و كاشفا عمّا ينتظر القائم بذلك من عقوبات إلهيه.

## و فى المرحلة الثالثه:

تناولت الآيه أحد السبل المهمه لاجتناب التدهور الأخلاقى، من أجل ألا يتصوّر أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبه المذنبين.

فطرحت الآيه نظر الرجال إلى النساء بشهوه أو بالعكس، و حجاب المرأه المسلمه، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسى المهمه ناجم عن هاتين المسألتين.

و إذا لم تحل هاتان المسألتان جذريًا، لا يمكن القضاء على الانحطاط و التفسخ.

## و فى المرحلة الرابعه:

كخطوه للنجاه من التلوث بما يخلّ بالشرف -دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف، ليحارب الإشباع الجنسى غير المشروع بإشباع مشروع.

## و فى المرحلة الخامسه:

بيّنت الآيات جانبًا من آداب المعامله، و مبادئ تربيّه الأولاد و عدم دخول الأبناء الغرفه المخصصه للوالدين فى ساعات الخلوه و الاستراحه إلا بإذن منهما، بغيه المحافظه على أفكارهم من الانحراف. كما بيّنت

## و فى المرحله السادسه:

جاء ذكر مسائل خاصّه بالتوحيد و المبدأ و المعاد و الامثال لتعاليم النبى صلى الله عليه و آله و سلم. كل ذلك خلال البحوث المطروحه. و من المعلوم أن الإعتقاد بالوحدانيه و النبوه و المبدأ و المعاد. يدعم مناهج الترييه الأخلاقيه فى الفرد و الجماعه، فذلك الإعتقاد هو الأصل، و ما عداه من أمور فروع عليه، تورق وثمر إذا قوى الأصل و اشتد.

و تطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومه المؤمنين الصالحين العالميه، و أشارت إلى تعاليم إسلاميه أخرى، و هى تشكّل - بمجموعها - وحده متكامله شامله.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

التفسير

اشاره

حد الزاني و الزانية:

سميت هذه السوره بالتور لأن آيه النور فيها من أهم آياتها،إضافه إلى أن مضمونها يشعشع في جوانح الرجل و المرأه و الأسره و البشر عفه و طهاره،و حراره تقوى،و يعمر القلوب بالتوحيد و الإيمان بالمعاد و الاستجابه لدعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و أولى آيات هذه السوره المباركه بمثابة إشاره إلى مجمل بحوث السوره سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

«سوره» كلمه مشتقّه من «السور» أى الجدار المرتفع، ثم أطلقت على الجدران التى تحيط بالمدن لحمايتها من مهاجمه الأعداء. و بما أنّ هذه الجدران كانت تعزل المدينة عن المنطقه المحيطة بها، فقد استعملت كلمه «سوره» تدريجيا فى كل قطعه مفصوله عن شىء، و منها استعملت لتعنى قسما من القرآن. كما قال بعض اللغويين: إنّ «سوره» بناء جميل مرتفع، و هذه الكلمه تطلق أيضا على قسم من بناء كبير، و تطلق السوره على أقسام القرآن المختلفه المفصوله بعضها عن بعض (1).

و على كل حال فإنّ هذه العبارة إشاره إلى كون أحكام و مواضع هذه السوره -من اعتقادات و آداب و أوامر إلهيه- ذات أهميه فائقه، لأنّها كلها من الله.

و تؤكّد ذلك عباره «فرضناها»، لأنّ «الفرض» يعنى قطع الشىء الصلب و التأثير فيه كما يقول الراغب فى مفرداته.

و عباره آياتٍ بيّناتٍ قد تكون إشاره إلى الحقائق المنبعثه عن التوحيد و المبدأ و المعاد و النبوه، التى تناولتها هذه السوره. و هى إزاء «فرضنا» التى تشير إلى الأوامر الإلهيه و الأحكام الشرعيه التى بيّنتها هذه السوره. و بعباره أخرى:

إحداها تشير إلى الاعتقادات، و الأخرى إلى الأحكام الشرعيه.

و يحتمل أن تغنى «الآيات البيّنات» الأدله التى استندت إليها هذه الأحكام الشرعيه.

و عباره لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تؤكّد أن جذور جميع الاعتقادات الصحيحه، و تعاليم الإسلام التطبيقيه، تمكن فى فطره البشر.

و على هذا الأساس فإن بيانها يعتبر نوعا من التذكير.

و بعد هذا الاستعراض العام. تناولت السوره أوّل حكم حاسم للزانى و الزانيه

ص: ١١

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِيَ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

و لتأكيد هذا الحكم قالت وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

و أشارت الآية في نهايتها إلى مسأله أخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهي وَ لِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و تشمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

١-الحكم بمعاقبه النساء و الرجال الذين يمارسون الزنا.

٢-إقامه هذا الحكم الإلهي بعيدا عن الرأفه بمن يقام عليه،فهذه الرأفه الكاذبه تؤدى إلى الفساد و انحطاط المجتمع.و تضع الآية الإيمان بالله و يوم الحساب مقابل الرأفه التي قد يحس بها أحد تجاه الزاني و الزانيه ساعه إقامه الحدّ عليهما،لأنّ أداء الأحكام الإلهيه من غير تأثر بالعواطف دليل على صدق الإيمان بالمبدأ و المعاد،و الإيمان بالله العالم الحكيم يعنى أنّ لكل حكم من أحكامه غايه و هدف حكيم،و الإيمان بالمعاد يشعر الإنسان بالمسؤوليه إزاء كل مخالفه.

و ذكر بهذا الصدد حديث مهم

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم: «يؤتى بوال نقص من الحدّ سوطا،فيقال له:لم فعلت ذلك؟فيقول:رحمه لعبادك،فيقال له:أنت أرحم بهم منى؟!فيؤمر به إلى النار،و يؤتى بمن زاد سوطا،فيقال له:لم فعلت ذلك؟فيقول:

لينتهوا عن معاصيك!فيقول:أنت أحكم به منى؟!فيؤمر به إلى النار!». (١)

٣-أوجب الله حضور عدد من المؤمنين فى ساحه معاقبه الزناه ليتعظ الناس بما يرون من إقامه حكم الله العادل على المذنبين،و بملاحظه النسيج الاجتماعى للبشر نرى أن انحطاط الشخص لا ينحصر فيه،بل يسرى إلى الآخرين،و لإتمام التطهير يجب أن يكون العقاب علنا مثلما كان الذنب علنا.

ص: ١٢

و بهذا يتضح الجواب عن السؤال: لم يعرض الإسلام كرامه إنسان بين الناس إلى الخدش و الامتهان؟ فيقال: ما دام الذنب سرًا لم يطلع عليه أحد و لم يبلغ القضاء، فلا بأس بكتمانه في النفس و استغفار الله منه، فإنه تعالى يستره بلطفه و يحب من يستره، أما إذا ظهر الجرم بالأدلة الشرعيه، فلا بد من تنفيذ العقاب بشكل يبطل آثار الذنب السيئه، و يبعث على استفظاعه و بشاعته. و من الطبيعي أن يولى المجتمع السليم الأحكام اهتماما كبيرا، فتكرار التحدى للحدود الشرعيه يفقدها فاعليتها في صيانته الطمأنينه و الاستقرار في النفوس، و من هنا وجبت إقامه هذا الحد علنا ليمتنع الناس من تكرار فاحشه ساءت سيلا.

و يجب أن لا ننسى أن كثيرا من الناس يهتم باطلاع الناس على سوء فعله أكثر من اهتمامه بما ينزل به من العقاب على ذلك الفعل الشنيع. و لهذا وجبت إقامه الحد على الزانى بحضور الناس، و هذا الإعلان لإقامه هذا الحد الإلهي أمام الناس قد يمنع المفسدين من الاستمرار فى الفساد و يكون بمثابة فرامل قويه امام التمادى فى ركوب الشهوات.

و بعد بيان حد الزنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء فى الآيه الثالثه و كما يلى الزانى لا ينكح إلا زانيه أو مشركه و الزانيه لا ينكحها إلا زان أو مشرك و حرّم ذلك على المؤمنين .

اختلف المفسرون فى كون هذه الآيه بيانا لحكم إلهي، أو خبرا عن قضيه طبيعيه.

فيرى البعض أنّ الآيه تبين واقعه ملموسه فقط، فالمنحطون يختارون المنحطات، و كذلك يفعلن هن فى اختيارهن، بينما يسمو المتطهرون المؤمنون عن ذلك. و يحرمون على أنفسهم اختيار الأزواج من ذلك الصنف تزكيه و تطهيراً، و هذا ما يشهد به ظاهر الآيه الذى جاء على شكل جمله خبريه.

إلا أنّ مجموعه أخرى ترى فى هذه العبارة حكما شرعيا و أمرا إلهيا يمنع



المؤمنين من الزواج مع الزانيات، و يمنع المؤمنات من الزواج مع الزناه، لأنَّ الانحرافات الأخلاقية كالأضرار الجسميه المعديه فى الغالب.فضلا عن أنّ ذلك عار يآباه المؤمن و ينأى عنه.

مضافا إلى المصير المبهم و المشكوك للأبناء الذين ينشؤون فى احضان ملوثه و مشكوكه.ينتظر الأبناء من مثل هذا الزواج! و لهذه الأسباب و الخصوصيات منعه الإسلام.

و الشاهد على هذا التفسير جملة وَ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي تَدَلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الزَّانَا. □

و الدليل الآخر أحاديث عديده رويت عن النبى الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و سائر الأئمه المعصومين عليهم السَّلام التى فسرت هذه الآيه باعتبارها حكما إلهيا ينص على المنع.

و حتى أن بعض كبار المفسرين كتب بشأن نزول هذه الآيه: إنَّ رجلا من المسلمين استأذن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فى أن يتزوج «أم مهزول» و هى امرأه كانت تسافح و لها رايه على بابها، فنزلت الآيه (١)، عن عبد الله بن عباس و ابن عمر و مجاهد و قتاده و الزهري، و المراد بالآيه النهى و إن كان ظاهرها الخبر.

و يؤيده ما

روى عن أبى جعفر عليه السَّلام و أبى عبد الله عليه السَّلام أنَّهما قالا: «هم رجال و نساء كانوا على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء، و الناس على تلك المنزله، فمن شهر بشيء من ذلك و أقيم عليه الحد فلا تزوجه حتى تعرف توبته» (٢).

و لا بد أن نذكر أن العديد من الأحكام جاء جملا خبريه. و لا ضروره لأن تكون إنشائية أمره ناهيه.

و الجدير بالانتباه أنّ المشركين كانوا يعطفون على الزناه، و هذا يكشف عن

ص: ١٤

١-١) -مجمع البيان، تفسير الآيه موضع البحث و القرطبي فى تفسيره لهذه الآيه. حيث روى هذا الحديث.

٢-٢) -مجمع البيان، من تفسير الآيه موضع البحث.

أَنَّ الزَّنا وَ الشَّرْكُ صَنوان.

قال الرّسول الأ-كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم «لا- يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن، ولا- يسرق السارق حسن يسرق و هو مؤمن، فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص» (١).

## ملاحظات

### اشاره

#### ١-الحالات التى يعدم فيها الزانى

ما ذكرته الآيه السابقه حكم عامّ يستثنى منه زنا المحصّن و المحصنه، فحدّهما القتل، إذا ثبت عليهما الجرم.

و يقصد بالمحصن الرجل الذى له زوجه تعيش معه، و المحصنه هى المرأه المتزوجه التى يعيش زوجها معها فمن توفر له السبيل المشروع لإرضاء الغريزه الجنسيه ثمّ يزنى فإنّ حدّه القتل.

كما أن الزنا بالمحرمات حكمه الإعدام.

و كذلك الزنا بالعنف و الإكراه، أى الاغتصاب فحكمه القتل أيضا. و فى بعض الحالات يحكم إضافة إلى الجلد بالنفى و أحكام أخرى ذكرتها الكتب الفقهيّه.

#### ٢-لماذا ذكرت الزانيه أولا؟

لا شك فى أنّ ممارسه هذا العمل الذى يخالف العفه، هى فى غايه القبح، و تزداد قبحا و بشاعه بالنسبه للمرأه، فحياؤها أكثر من حياء الرجل، و الخروج عليه دليل تمرد شديد جدّا. و إضافة إلى أنّ عاقبته المشؤومه بالنسبه لها أكبر رغم فداحته و وباله على الطرفين كليهما.

ص: ١٥

---

١ - ١) -الكافى،الأصول،المجلد الثانى،صفحه ٢٦(المطبعه الإسلاميه عام ١٣٨٨).حسبما نقله صاحب نور الثقلين،المجلد الثالث،ص ٥٧١.

و يحتمل أن تكون المرأه مصدر الوسوس فى اقتراف هذا الذنب،و تعتبر فى كثير من الأحيان السبب الأصلى فيه.و لهذا كله ذكرت الآيه الزانيه أولا ثم الزانى.

إلا أن النساء و الرجال من أهل العفه و الإيمان يجتنبون هذه الأعمال.

### ٣- لماذا تكون العقوبه عليه؟

تستوجب الآيه السابقه-التي جاءت بصيغه الأمر-حضور طائفه من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا،لكنّ القرآن لم يشترط أن يجرى ذلك فى الملاء العام،بل وقفه على الظروف،و يكفى حضور ثلاثه أشخاص أو أكثر وفق ما يقرر القاضى (١).

و فلسفه هذا الحكم واضحه،لأنه أولا: إنّ الهدف هو أن يكون هذا الحكم عبره للناس جميعا،و سببا لتطهير المجتمع.

و ثانيا:ليكون خجل المذنب مانعا له من ارتكاب هذا الذنب فى المستقبل.

و ثالثا:متى نفذ الحدّ بحضور مجموعه من الناس يتبرأ القاضى و القائمين على تنفيذ الحدّ من أيه تهمة كالارتشاء أو المهادنه أو التفرقه أو ممارسه التعذيب و أمثال ذلك.

و رابعا:حضور مجموعه من الناس يمنع التعنت و الإفراط فى تنفيذ الحدّ.

و خامسا:حضور الناس يمنع المجرم من نشر الشائعات و الاتهامات ضد القاضى،كما يحول هذا الحضور من نشاط المجرم التخريبي فى المستقبل و غير ذلك من الفوائد.

ص: ١٦

---

١-١) -شكك عدد من المفسرين فى ضروره حضور مجموعه من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا،فى حين أن الأمر بالحضور ظاهر من الآيه،و هى لا تقصد الاستحباب.

#### ٤- ماذا كان حد الزاني سابقا؟

يستفاد من الآيتين (١٥) و(١٦) من سورة النساء أنّ الحكم قبل نزول سورة التور كان السجن المؤبد للزانية فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ و إلحاق الأذى بالزناه غير المحصنين فَأَذُوهُمَا و لم يحدد مقدار هذا الأذى حتى حددته هذه الآية بمائه جلده. و على هذا حل الإعدام محل السجن المؤبد فى الحكم على الزانية المحصنه، و حدّد الأذى لغير المحصن بمائه جلده (و لمزيد من الاطلاع راجع التفسير الأمثل فى تفسير الآيتين (١٥) و(١٦) من سورة النساء).

#### ٥- منع الإفراط و التفريط عند تنفيذ الحد!

لا ريب فى أنّ القضايا الإنسانية و العاطفيه توجب بذل أقصى الجهود لمنع إصابه برىء بهذا العقاب، و إصدار العفو وفق الأحكام الإلهيه، أما إذا ثبت الذنب فلا بدّ من الحسم من غير تأثر بالمشاعر الكاذبه و العواطف البشريه إلاّ بالحقّ، فهيجانها الجارف يلحق بالنظام الاجتماعى ضررا كبيرا.

و لا سيما و قد وردت فى الآيه عبارته: «فى دين الله» أى: عند ما يكون الحكم من الله فهو أبصر و أحكم بمواقع الرأفه و الرّحمه، فحين ينهى عن الانفعال العاطفى فى إقامه حكم شرعى من أجل أنّ أكثرية الناس تتملكهم هذه الحاله، فيحتمل غلبه عواطفهم و احساساتهم على عقلهم و ايمانهم. و لا جدال فى وجود فئه قليله من الناس تميل إلى العنف، و هذا انحراف عمّا دعانا إليه ربّ العزّه و الحكمه - سبحانه - من العدل و الإحسان اللذين لا يظهران إلاّ بإقامه أحكامه الرشیده، فلا ينبغى لمسلم أن يزيد أو ينقص فى حكم الله سبحانه.

## ٦- شروط تحريم الزواج بالزانية و الزانى:

ذكرنا أن ظاهر الآيات السابقة يحرم الزواج من الزانية و الزانى، و خصصت الأحاديث الشريفه ذلك بالذين اشتهروا بالزنى و لم يتوبوا، و أمّا إذا لم يشتهروا بهذا العمل القبيح، أو أنّهم تركوه و طهّروا أنفسهم منه، و حافظوا على عفتهم، فلا مانع من الزواج منهم.

أمّا الدليل على الصورة الثّانية، و هى حاله التوبه، فإنه لا ينطبق عنوان الزانى و الزانية على هؤلاء فكانت حاله مؤقّته زالت عنهم. أمّا فى حاله الأولى فقد ورد هذا القيد فى الروايات الإسلاميه و يؤيده سبب نزول الآية السابقه. ففى حديث معتبر

عن الإمام الصادق عليه السّلام أن الفقيه المعروف «زراره» سأله عن تفسير الزّانى لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً. فقال الإمام عليه السّلام: «هن نساء مشهورات بالزنا و رجال مشهورون بالزنا، قد شهروا بالزنا و عرفوا به، و الناس اليوم بذلك المنزل، فمن أقيم عليه حد الزنا، أو شهر بالزنا، لا ينبغي لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه توبته» (١).

كما جاءت أحاديث أخرى بهذا المضمون.

## ٧- فلسفه تحريم الزنا:

لا يخفى على أحد مساوئ هذا العمل القبيح على الفرد و المجتمع، و مع ذلك نرى من اللازم بيان هذا المعنى باختصار: إن ممارسة هذا العمل القبيح و انتشاره يعرض النظام الأسرى إلى الدمار.

و يجعل العلاقة بين الابن و أبيه غامضه و سلبيه.

و قد بيّنت لنا تجربه أنّ الأولاد المجهولى النسب يتحولون إلى جناه خطرين

ص: ١٨

على المجتمع.

كما أنّ هذا العمل القبيح يؤدي إلى مصادمات بين أصحاب المطامع و الأهواء.

إضافه إلى انتشار أنواع الأمراض النفسيه و الجلديه.و ذلك ليس خافيا على أحد.

و من نتائجه المشؤومه الإجهاض و ارتكاب الجرائم من هذا القبيل(و لمزيد الاطلاع راجع التفسير الأمثل آخر الآيه ٣٢ من سوره الإسراء).

ص: ١٩

اشاره

وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ  
(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

التفسير

اشاره

عقوبه البهتان:

قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقه من عقوبات شديده للزاني و الزانيه فيسيئون للمتطهرين، فبيّنت الآيات اللاحقه هنا عقوبات شديده للذين يرمون المحصنات، و يسخرّون هذا الحكم لأغراضهم الدنيئه. فجاءت هاتان الآيتان لحفظ الحرمات الطاهره و صيانه الكرامات من عبث هؤلاء المفسدين.

تقول الآية: وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافي العفّه (أى الزنا)، و لم يأتوا بأربعة شهود عدول لاثبات ادعائهم. فحكمهم فاجلدوهم ثمانين جلدَةً و تضيف

الآية حكيم آخريين: وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

فهنا لا يقع مثل هؤلاء الأشخاص تحت طائله العقاب الفيزيقي الشديد فحسب، بل إن كلامهم و شهادتهم يسقطان عن الإعتبار أيضا، لكيلا يتمكنوا من التلاعب بسمعه الآخرين و تلويث شرفهم في المستقبل، مضافا إلى أن وصمه الفسق تكتب على جبينهم فيفتضح أمرهم في المجتمع. و ذلك لمنعهم من تلويث سمعه الطاهرين.

و هذا التشديد في الحكم المشرّع لحفظ الشرف و الطهاره، ليس خاصا بهذه المسأله، ففي كثير من التعاليم الإسلاميه نراه ماثلا أمامنا للأهميه البالغه التي يمنحها الإسلام لشرف المرأه و الرجل المؤمن الطاهر.

و

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء» (١).

و لكنّ المولى العزيز الحكيم سبحانه و تعالى لا يسدّ باب رحمته في وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم و طهروا أنفسهم، و ندموا على ما فرطوا، و سعوا في تعويض ما فاتهم من البرّ إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ .

و قد اختلف المفسّرون في كون هذا الاستثناء يعود إلى جملة أولئك هم الفاسقون أو إلى جملة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، فإذا كان الاستثناء عائداً إلى الجملتين معاً، فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبه و إزالته الحكم بنفسقهم. أمّا إذا كان عائداً إلى الجملة الأخيره، فإن الحكم عليهم بالفسق سيزول عنهم في جميع الأحكام الإسلاميه، إلاّ أن شهادتهم تظل باطله لا تقبل منهم حتى آخر أعمارهم.

إلاّ أن المبادئ المعمول بها في «أصول الفقه» تقول: «إن الاستثناء الوارد

ص: ٢١

١-١) -أصول الكافي، المجلد الثاني، صفحه ٢٦٩، باب التهمه و سوء الظن.



بعد عدّه جمل يعود إلى الأخيره منها، إلا في حاله وجود قرائن تنص على شمول هذه الجمل بهذا الاستثناء. و هنا يوجد مثل هذه القرينه، لأنه عند ما يزول الحكم بالفسق عن الشخص بتوبته إلى الله، فلا يبقى دليل على ردّ شهادته لأنّ عدم قبول الشهاده كان من أجل فسقه. فإذا تاب و رجعت إليه ملكه العداله فلا يسمى فاسقا.

و جاءت أحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام مؤكّده هذا المعنى،

فقد روى أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد و حماد عن القاسم بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السّلام عن الرجل يقذف الرجل فيجلد حدا، ثم يتوب و لا نعلم منه إلا خيرا أ تجوز شهادته؟ قال: «نعم. ما يقال عندكم؟».

قلت: يقولون: توبته فيما بينه و بين الله، و لا تقبل شهادته أبدا.

فقال: «بئس ما قالوا: كان أبى يقول: إذا تاب و لم نعلم منه إلا خيرا جازت شهادته» (١).

كما رويت أحاديث أخرى في هذا الباب بهذا المعنى، و لكن يوجد حديث واحد يحمل على التقيه.

و من الضروري أن نذكر بأن كلمه «أبدا» في جمله لا تقبلوا لهم شهاده أيدا دليل على عموميه الحكم. و كما نعلم فإنّ كل عام يقبل الاستثناء (خاصّه الاستثناء المتصل به)، فالرأى القائل أن لفظه (أبدا) تمنع تأثير التوبه خطأ مؤكّد.

## بحوث

## إشارة

### ١- المراد من كلمه «رمى»

«الرمى» في الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر و أمثالهما، و طبعى أنه

ص: ٢٢

يؤذى فى معظم الأوقات، وقد استخدمت الكلمه هنا كناية عن اتهام الأشخاص و سبابهم و وصفهم بما لا يليق، لأن هذه الكلمات كالسهم يصيب الشخص و يجرحه.

و لعل ذلك هو السبب فى استخدام هذه الآيات-و الآيات المقبله-لهذه الكلمه بشكل مطلق، فلم ترد الآيه على هذا النحو(و الذين يرمون المحصنات بالزنا) و إنما جاءت وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ لِأَنَّ مَفْهُومَ «يرمون» و خاصه مع ملاحظه القرائن الكلاميه يستبطن معنى(الزنا)، و عدم التصريح به و لا سيما عند الحديث عن النساء العفيفات نوع من الاحترام لهن. و هذا التعبير مثال بارز لإكرام المتطهرين، و نموذج لاحترام الآداب و العفه فى الكلام.

## ٢- لماذا أربعة شهود؟

من المعلوم أن شاهدين عادلين يكفیان-فى الشريعه الإسلاميه- لإثبات حق، أو ذنب اقترفه شخص ما، حتى و إن كان قتل النفس. أمّا فى إثبات الزنا فقد اشترط الله تعالى أربعة شهود. و قد يكون ذلك لأن الناس يتعجلون الحكم فى هذه المسأله، و يتناولون يالصاق تهمة الزنا بمجرد الشك، و لهذا شدّد الإسلام فى هذا المجال ليحفظ حرمان الناس و شرفهم. أمّا فى القضايا الأخرى-حتى قتل النفس- فإن موقف الناس يختلف.

إضافه إلى أن قتل النفس ذو طرف واحد فى الدعوى، أى إنّ المجرم واحد، أمّا الزنا فذو طرفين، حيث يثبت الذنب على شخصين أو ينفي عنهما، فإذا كان المخصص لكل طرف شاهدين، فيكون المجموع أربعة شهود.

و هذا الكلام تضمنه الحديث التالى:

عن أبى حنيفه قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام أيهما أشدّ الزنا أم القتل؟ قال: فقال عليه السلام: القتل: قال: فقلت: فما بال القتل جاز فيه شاهدان، و لا يجوز فى الزنا إلا أربعة؟ فقال لى: ما عندكم فيه يا أبا حنيفه، قال:

قلت: ما عندنا فيه إلا- حديث عمر، إنَّ الله أجرى في الشهاده كلمتين على العباد، قال: ليس كذلك يا أبا حنيفه و لكنَّ الزنا فيه حدان، ولا- يجوز أن يشهد كلَّ اثنين على واحد، لأنَّ الرجل و المرأة جميعا عليهما الحدّ، و القتل إنّما يقام الحدّ على القاتل و يدفع عن المقتول (١).

و هناك حالات معينه في الزنا، ينفذ الحد فيها على طرف واحد (كالزنا بالإكراه و أمثاله) إلا أنها حالات مستثناه و المتعارف فيه اتفاق الطرفين، و من المعلوم أن غايات الأحكام تتبع الغالب في الأفراد.

### ٣- الشرط المهم في قبول التوبه

قلنا مرارا: إنّ التوبه ليست فقط بالندامه على ما اقترفه الإنسان و تصميمه على تركه في المستقبل، بل تقتضى-إضافه إلى هذا-أن يقوم الشخص بالتعويض عن ذنوبه اقترفها، فإذا وجّه المرء تهمة لامرأه أو رجل طاهر ثمّ تاب، فيجب عليه أن يعيد الاعتبار إلى من تضرّر باتّهامه، و ذلك بأن يكذب هذه التهمه بين كل الذين سمعوا عنه.

فعباره وَ أَصْلِحُوا التي أعقبت عبارته تائبوا هي إشارة إلى هذه الحقيقه، حيث أوجبت التوبه- كما قلنا-أولا، ثمّ إصلاح ما أفسده و إعادته ماء وجه الذي أساء إليه، و ليس صحيحا أن يتّهم إنسان أخاه ظلما في ملاءم عام، أو يعلن عن ذلك في الصحف و أجهزة الإعلام، ثمّ يستغفر في خلوه داره-مثلا-و يطلب من الله الصّح عنه، و بالطبع لن يقبل الله مثل هذه التوبه.

لذلك

روى عن أئمة المسلمين قال الزّاوي: سألته عن الذي يقذف المحصنات، تقبل شهادته بعد الحدّ إذا مات؟ قال: نعم، قلت، و ما توبته؟ قال:

ص: ٢٤

لا يجيء فيكذب نفسه عند الإمام و يقول: «قد افترت على فلانه و يتوب ممّا قال» (١).

#### ٤- أحكام القذف:

يوجد باب تحت عنوان «حد القذف» في كتاب الحدود.

و«القذف» على وزن «فعل» يعنى لغم رمى الشىء نحو هدف بعيد، إلاّ أنه استخدمت كلمه «رمى» كناية عن اتهام شخص ما فى عرضه، أو بتعبير آخر: هو سباب يرتبط بهذه الأمور.

و«القذف» إذا جرى بلفظ صريح، و بأى لغم و أية صورته فحدّه - كما قلنا سابقا - هو ثمانون جلده. و إذا لم يكن صريحا فيعزّر القاذف. (و لم ترد فى الشريعة الإسلاميه حدود للتعزير، بل و كل التعزير إلى تقدير القاضى، ليقرر حدودها وفق خصائص المذنب و كيفية وقوع الذنب و الشروط الأخرى).

و إذا وجه شخص اتهاماً لمجموعه من الناس، و كرره بالنسبه لكل واحد منهم، فإنه يواجه حدّ القذف لكل تهمة تفوّه بها، أمّا إذا اتهمهم مرّة واحدة، فينقذ بحقه حدّ واحد إن طالبوا القاضى جميعاً مره واحده. و أمّا إذا أقام كلّ واحد منهم الدعوى بصوره مستقله، فإنه يعاقب المذنب بعدد هذه الدعاوى.

و هذا الموضوع من الأهميه إلى درجه أنه إذا اتهم شخصا و مات المتهم، فلورثته الحق فى المطالبه باقامه الحدّ على الذى اتهم مورثهم بشىء. و بما أن هذا الحكم مرتبط بحق الشخص، فلصاحب الحق العفو عن الذنب و إسقاط الحدّ عنه، باستثناء حاله تكرر هذا الذنب من شخص معين بحيث يعرض وجود و شرف المجتمع إلى الخطر، فيكون حسابه عسيرا.

ص: ٢٥

و إذا تسابَّ شخصان سقط الحد عنهما، إلا أنّ حاكم الشرع يعزرها، و لهذا لا يجوز للشخص ردّ السباب بالمثل، بل له أن يطلب من حاكم الشرع معاقبه المذنب.

و على كل حال فإنّ هذا الحكم الإسلامى يرمى إلى المحافظه على سمعه الناس و شرفهم، و إلى الحيلولة دون انتشار المفاسد الاجتماعيه و الأخلاقيه التى يبتلى المجتمع بها عن هذا الطريق. و لو ترك المفسدون يعملون ما يحلو لهم يسبّون و يتهمون الأشخاص و المجتمع متى شأؤوا دون رادع، لتعرض شرف الناس و كرامتهم إلى الهتك، و لوصل الأمر بسبب هذه التهم الباطله إلى وقوع الريبه بين الزوج و زوجته، و سوء ظن الأب بشرعيه ولده إلى الخطر. و يسيطر الشك و سوء الظن على المجتمع كله. و تروّج الشائعات فتصيب الطاهرين أيضا. و هنا يستوجب العمل بحزم كبير مثلما عامل الإسلام هؤلاء المسيئين مرّوجى التهم و الشائعات.

أجل، يجب أن يضربوا ثمانين جلده إزاء كل تهمة بالزنا ليقفوا عند حدّهم، و لتتم المحافظه على كرامه الناس و شرفهم.

اشاره

وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يُكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَهُ  
أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَهُ  
أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سبب النزول

روى ابن عباس أن سعد بن عباده (سيد الأنصار) من الخزرج، قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحضور جمع من  
الأصحاب: «يا رسول الله! لو أتيت لكاع (زوجته) وقد يفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، فوالله ما كنت  
لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته و يذهب، و إن قلت ما رأيت إن فى ظهري لثمانين جلده، فقال النبى صلى الله عليه وآله  
وسلم.

يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟ فقالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور. ما تزوج امرأة إلا بكرا، ولا طلق امرأة له فاجتري رجل منا أن يتزوجها.

فقال سعد بن عباد: يا رسول الله، بأبي أنت و أمي، والله إنني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فإن الله يأبى إلا ذاك.

فقال: صدق الله و رسوله.

فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له، يقال له: هلال بن أمية قد رأى رجلا مع امرأته ليلا، فجاء شاكيا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنني جئت أهلي عشاء فوجدت معها رجلا رأيت به بعيني و سمعته بأذني.

فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى رؤيت الكراهه في وجهه، فقال هلال: إنني لأرى الكراهه في وجهك، والله يعلم إنني لصادق، وإنني لأرجو أن يجعل الله لي فرجا.

فهم رسول الله بضره، و اجتمعت الأنصار و قالوا: ابتلينا بما قال سعد، أ يجلد هلال و تبطل شهادته؟ فنزل الوحي و أمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل، فأنزل الله تعالى وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُم الْآيَاتِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

أبشر يا هلال، فإن الله تعالى قد جعل فرجا.

فقال: قد كنت أرجو ذاك من الله تعالى. (١)

و بنزل الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكله، و شرحها كما يأتي.

ص: ٢٨

---

(١-١) -تفاسير مجمع البيان، و في ظلال القرآن، و نور الثقلين، و الميزان، في تفسير الآيات موضع البحث (مع بعض الاختلاف).

## عقاب توجيه التهمة إلى الزوجه!

يستنتج من سبب النزول أنّ هذه الآيات في حكم الاستثناء الوارد على حد القذف، فلا يطبق حدّ القذف (ثمانين جلده) على زوج يتهم زوجته بممارسه الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها. ويمكن في هذه الحالة أن يكون صادقا كما يمكن أن يكون كاذبا في شهادته. وهنا يقدم القرآن المجيد حلا أمثل هو:

على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق ادعائه و الذين يزعمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فهم فشهادته أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين و الخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين و بهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة «أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا» أربع مرات لإثبات ادعائه من جهة، و ليدفع عن نفسه حد القذف من جهة أخرى.

و يقول في الخامسة: «لعنه الله علىّ إن كنت من الكاذبين».

و هنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإما أن تقر بالتهمة التى وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففى الحالة الأولى تثبت التهمة.

و فى الثانية و يدروا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين و الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. و بهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس -أيضا- لتنفى التهمة عنها. بأن تكرر أربع شهادات «أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا» و فى الخامسة تقول «أن غضب الله علىّ إن كان من الصادقين».

و هذه الشهادات منهما هى ما يسمّى ب«اللعان»، لاستخدام عبارته اللعن فى الشهادة.

و ليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.



أولها: انفصالهما دون طلاق.

و ثانيها: تحرم الزوج على الزوجه إلى الأبد، أى لا يمكنهما العوده إلى الحياه الزوجيه معا بعقد جديد.

و ثالثها: سقوط حد القذف عن الرجل، و حد الزنا عن المرأة (و إذا رفض أحدهما تنفيذ هذه الشهادات يقام عليه حد القذف إن كان الراض الرجل، و إن كانت المرأة يقام عليها حد الزنا.

و رابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضييه لا ينسب إلى الرجل، و تحفظ نسبته للمرأة فقط.

و لم ترد تفاصيل الحكم السابق فى الآيات المذكوره أعلاه، و إنما جاء فى آخر الآيه موضع البحث وَ لَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ .

فهذه الآيه إشاره إجماليه إلى تأكيد الأحكام السابقه، لأنها تدل على أن اللعان فضل من الله، إذ يحل المشكله التى يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

فمن جهه لا يجبر الرجل على التزام الصمت إزاء سوء تصرف زوجته و يمتنع من مراجعته الحاكم الشرعى.

و من جهه أخرى لا تتعرض المرأة إلى حد الزنا الخاص بالمحصنه بمجرد توجيه التهمه إليها، بل يمنحها الإسلام حق الدفاع عن نفسها.

و من جهه ثالثه لا يلزم الرجل البحث عن شهود أربعة إن واجه هذه المشكله، لاثبات هذه التهمه النكراء و الكشف عن هذه الفضيحه المخزيه.

و من جهه رابعه يفصل بين هذين الزوجين و لا يسمح لهما بالعوده إلى الحياه الزوجيه بعقد جديد فى المستقبل أبدا، لتعذر الاستمرار فى الحياه الزوجيه إن كانت التهمه صادقه، كما أن المرأة تصاب بصدمه نفسه إن كانت التهمه كاذبه.

و تجعل الحياه المشتركه ثانيه صعبه للغاية و لا تقتصر على حياه بارده و حامله، بل ينتج عن هذه التهمه عدااء مستفحل بينهما.

و من جهه خامسه توضح الآيه مستقبل الوليد الذى يولد بعد توجيه هذه التهمه.

هذا كله فضل من الله و رحمه منّ بها على عباده. و حل هذه المشكله بشكل عادل يعبر عن لطف الله بعباده و رحمته لهم. و لو دققنا النظر فى الحكم لرأينا أنه لا- يتقاطع مع ضروره وجود شهود أربعه فى هذه القضيه. إذ أن تكرار كل من الرجل و المرأه شهادتهما أربع مرات يعوض عن ذلك.

## ملاحظات

### اشاره

#### ١- لماذا استثنى الزوجان من حكم القذف؟

السؤال الأول الذى يطرح نفسه هنا: ما هى خاصيه الزوجين، ليصدر هذا الحكم المستثنى بحقهما؟ و نجد جواب هذا السؤال من جهه فى سبب نزول الآيه، و هو عدم تمكن الرجل من التزام الصمت إزاء مشاهدته لزوجته و هى تخونه مع رجل آخر.

كيف له أن يمتنع عن رد الفعل إزاء الاعتداء على شرفه؟ و إذا توجه إلى القاضى و هو يصرخ و يستنجد، فقد يواجه حدّ القذف، لعدم تيقن القاضى من صدق دعواه. و إذا حاول إحضار أربعه شهود، فإن ذلك صعب عليه لمساسه بشرفه، و قد تنتهى الحادثه و لا يمكنه إحضار شهوده فى الوقت المناسب.

و من جهه أخرى، فإنّ الغرباء يتهمون بعضهم بعضا بسهولة، و لكن الرجل و المرأه نادرا ما يتهم أحدهما الآخر.

و لهذا السبب حكم الشارع فى هذه القضيه بوجوب إحضار أربعه شهود فى غير الزوجين، و إلا نفذ حدّ القذف على الذى يوجه تهمة الزنا، و ليس الأمر كذلك بالنسبه للزوجين، و لهذا خصّهما الحكم المذكور لما فيهما من ميزات خاصه فى هذه الحاله.

## ٢- كيفية اللعان

توصلنا بعد الإيضاحات التي ذكرناها خلال تفسير هذه الآيات، إلى وجوب تكرار الرجل شهادته أربع مرات ليثبت صحه دعواه في اتهامه لزوجته بالزنا، و لينجو من حدّ القذف. و بهذا فإن هذه الشهادات الأربع من الزوج بمثابة أربعة شهود، و في الخامسة يتقبل لعنه الله عليه إن كان كاذبا.

و مع الالتفات إلى أن تنفيذ هذه الأحكام يتم عادة في محيط اسلامي ملتزم و بيئه متديّنه، و يرى الزوج نفسه مضطرا للوقوف بين يدي الحاكم الشرعي، ليدلي بشهادته أربع مرات بشكل حاسم لا يقبل الشك و الترديد، و في الخامسة يطلب من الله أن يلعنه إن كان كاذبا، فهذا كله يمنع الرجل من التهور و توجيه اتهام باطل إلى زوجته.

أما المرأة التي تريد الدفاع عن نفسها و ترى نفسها بريئة من هذه التهمه، فعليها تكرار شهادتها أربع مرات و تشهد أن التهمه باطله، لإيجاد موازنه بين شهادتي الرجل و المرأة، و بما أن التهمه موجهه للمرأة، فإنها تدافع عن نفسها بعباره أقوى في المرحله الخامسة، حيث تدعو الله أن ينزل غضبه عليها إن كانت كاذبه.

و كما نعلم فإنّ «اللعه» ابتعاد عن الرحمه.

و أما «الغضب» فإنه أمر أشد من اللعه، لأنّ الغضب يستلزم العقاب، فهو أكثر من الابتعاد عن الرحمه.

و لهذا قلنا في تفسير سوره الحمد: إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَسْوَأُ مِنَ الضَّالِّينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الضَّالِّينَ هُمْ بِالتَّأْكِيدِ بَعِيدُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

## ٣- العقاب المحذوف في الآيه:

جاءت الآيه الأخيره-مما نحن بصدده-جملة شرطيه لم يذكر جزاءها

حيث تقول: **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**. لكنّها لم تذكر نتيجة ذلك. و بملاحظه القرائن فيها يتّضح لنا جواب الشرط. و الصمت إزاء مسأله ما يكشف عن أهميتها البالغه، و يثير في مخيله المرء تصورات عديده لها. و كل تصور منها له مفهوم جديد. فهنا قد يكون جواب الشرط: لولا فضل الله و رحمته عليكم، لكشف عن أعمالكم و فضحكم.

أو: لولا فضل الله و رحمته عليكم، لعاقبكم فوراً و أهلككم.

أو: لولا هذا الفضل، لما وضع الله سبحانه و تعالى مثل هذه الأحكام الدقيقه من أجل تربيتكم.

و في الواقع فإن حذف جواب الشرط يثير في فكر القارئ كل هذه الأمور (1).

ص: ٣٣

---

١ - ١) - ذكر تفسير «الميزان» جواب الشرط بشكل يشمل التفاسير الأخرى قال: «لولا ما أنعم الله عليكم من نعمه الدين و توبته لمذنبكم و تشريع الشرائع لنظم أمور حياتكم، لزمتمكم الشقوه، و أهلكتم المعصيه و الخطيئه، و اختل نظام حياتكم بالجهاله».

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَوَلِّنَكَ عَنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)

سبب النزول

اشاره

ذكر سببين لنزول الآيات السابقة:

أولهما: ما

روته عائشه زوجة الرسول قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن

ص: ٣٤

يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيتهاً خرج سهمها خرج بها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم معه. قالت عائشه: فأقرع بيننا في غزوه (١) غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم بعد ما نزل الحجاب و أنا أحمل في هودجى و أنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم من غزوته تلك و قفل.

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليله بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار (٢). قد انقطع فالتمست عقدى و حبسنى ابتغأؤه و أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب، و هم يحسبون أنى فيه، و كانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم إنما تأكل المرأة العلقه (٣) من الطعام فلم يستنكر القوم خفه الهودج حين رفعوه و كنت جاريه حديثه السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم و ليس بها داع و لا- مجيب فيممت منزلى الذى كنت به فظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى فىنا أنا جالس فى منزلى غلبتنى عينى فممت.

و كان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكر إنى من وراء الجيش فأدلج (٤) فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى و كان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى و الله ما كلمنى كلمه واحده و لا سمعت منه كلمه غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطى على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحله حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين فى نحر الظهيره فهلك فى من هلك.

ص: ٣٥

١-١) -هى غزوه بنى المصطلق فى العام الخامس للهجره.

٢-٢) -ظفار كقطاع بلد باليمن قرب صنعاء، و جزع ظفارى منسوب إليها و الجزع الخرز و هو الذى فيه سواد و بياض.

٣-٣) -العلقه من الطعام ما يمسك به الرمق.

٤-٤) -أدلج القوم: ساروا الليل كله أو فى آخره.

و كان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا و الناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، و هو يرينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى إنما على فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذاك الذى يرينى و لا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت و خرجت معى أم مسطح قبل المناصع (١) و هى متبرزنا و كئيا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، و ذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا و أمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا و أم مسطح فأقبلت أنا و أم مسطح قبل بيتى قد أشرعنا (٢) من ثيابنا فعثرت أم مسطح فى مرطها (٣) فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أ تسبين رجلا شهد بدرا؟ قالت: إى هتاه (٤) أو لم تسمعى ما قال؟ قلت: و ما قال:

فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى.

فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أ تأذن لى أن آتى أبوى؟ قالت: و أنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما- قالت: فأذن لى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فجئت لأبوى فقلت لأمى: يا أمته ما يتحدث الناس؟ قالت يا بنيه هونى عليك فو الله لقلما كانت امرأه قط و ضيئه عند رجل يحبها و لها ضرائر إلا أكثرن عليها فقلت: سبحان الله و لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقا لى دمع و لا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى.

ص: ٣٦

١-١) -المناصع:المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجه.

٢-٢) -أى رفعنا ثيابنا.

٣-٣) -المرط-بالكسر-كساء واسع يؤتزر به و ربما تلقيه المرأة على رأسها و تلتفع به.

٤-٤) -خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه.

و دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبِثَ الْوَحْيَ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا اسْمُهُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَدِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَهْلُكَ وَ لَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَ أَمَّا عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَضِيقَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَ النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرَةٌ وَ إِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقَكَ، فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِرَبْرِهِ فَقَالَ: أَيُّ بَرِيرَةٍ هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا يَرِيْبُكَ؟ قَالَ بِرَبْرِهِ: لَا وَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمَضَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنَنَامُ عَنْ عَجِينٍ أَهْلَهَا فَيَأْتِي الدَّاجِنَ فَيَأْكُلُهُ.

فَقَامَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَقَالَ وَ هُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ:

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذَرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَ لَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَ مَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَعْذَرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتَ عُنُقَهُ وَ إِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَ هُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَ لَكِنْ أَحْتَمِلْتَهُ الْحَمِيَّةَ ابْنَ عَمِّ سَعْدٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ: كَذَبْتَ لِعَمْرِ اللَّهِ مَا تَقْتُلُهُ وَ لَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ خُضَيْرٍ وَ هُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ، قَالَ: كَذَبْتَ لِنَقْتُلُهُ فَإِنَّكَ مَنَافِقٌ تَجَادَلُ عَنِ الْمَنَافِقِينَ، فَتَتَاوَرَا الْحَيَّانَ: الْأَوْسَ وَ الْخَزْرَجَ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا عَلَى الْمَنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَخْفِضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا سَكَتًا.

فَبَكَيْتَ يَوْمَئِذٍ ذَلِكَ فَلَا يَرِقَالِي دَمْعٌ وَ لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ فَأَصْبَحَ أَبُو أَيُّوبٍ عِنْدِي وَ قَدْ بَكَيتَ لَيْلَتَيْنِ وَ يَوْمًا لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَ لَا يَرِقَالِي دَمْعٌ وَ أَبُو أَيُّوبٍ يَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبْدِي.



فبينما هما جالسان عندي و أنا أبكى فاستأذنت عليّ امرأه من الأبصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ ثم جلس و لم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها و قد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأنى بشيء، فتشهد حين جلس ثم قال: أمّا بعد يا عائشه إنه بلغنى عنك كذا و كذا فإن كنت بريئه فسيروك الله، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ مقالته قلص (1) دمعى حتى ما أحس منه قطره، فقلت لأبى: أجب عني رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ. قال: و الله ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ، فقلت لامي: أجيبي عنى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ، قالت: و الله ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ.

فقلت و أنا جاريه حديثه السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إننى و الله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم و صدقتم به فلئن قلت لكم: إننى بريئه و الله يعلم أنى بريئه لا تصدقونى، و لئن اعترفت لكم بأمر و الله يعلم أنى منه بريئه لتصدقننى، و الله لا أجد لى و لكم مثلا إلا قول أبى يوسف: فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون.

ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشى و أنا حينئذ أعلم أنى بريئه و أن الله مبرئى ببراءتى و لكن و الله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى و حيا يتلى، و لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى، و لكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ رؤيا يبرئنى الله بها.

قالت: فو الله ما رام رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ مجلسه و لا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدّر منه

ص: ٣٨

مثل الجمان من العرق و هو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم سرى عنه و هو يضحك فكان أول كلمه تكلم بها أن قال: أبشرى يا عائشه أما الله فقد برأك، فقالت أمة: قومى إليه، فقلت: و الله لا أقوم إليه و لا أحمد إلا الله الذى أنزل براءتى، و أنزل الله: «إن الذين جاؤا بالإفك عصبه منكم» العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر، و كان ينفق على مسطح بن أثاثه لقرابته منه و فقره: و الله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشه ما قال فأنزل الله: «و لا- يأتل أولو الفضل منكم و السعه أن يؤتوا أولى القربى و المساكين- إلى قوله- رحيم» قال أبو بكر: و الله إني أحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقه التى كان ينفق عليه، و قال: و الله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشه: فكان رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم يسأل زينب ابنه جحش عن أمرى فقال:

يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى و بصرى ما علمت إلا خيرا، قالت: و هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وآله و سلم فعصمها الله بالورع، و طفقت أختها حمته تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. (١)

إمام باقر عليه السلام يقول: لما هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم حزن عليه حزنا شديدا فقالت عائشه: ما الذى يحزنك عليه؟ ما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم عليا عليه السلام و أمره بقتله.

فذهب على عليه السلام و معه السيف و كان جريح القبطى فى حائط فضرب على عليه السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى عليا عليه السلام عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم يفتح باب البستان فوثب على عليه السلام على الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه و ولى جريح مدبرا فلما خشى أن يرهقه (٢) صعد فى نخله و صعد

ص: ٣٩

١-١) - تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٩٦-١٠٠.

٢-٢) - أرهقه: أدركه.

على عليه السلام فى أثره فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء.

فانصرف على عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله إذا بعثتنى فى الأمر أكون كالسماز المحمى فى الوبر أم أثبت؟ قال: لا- بل تثبت. قال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا السوء أهل البيت. (١)

### تحقيق المسأله:

على رغم مما ذكرته معظم المصادر الإسلاميه لهذين السببين فإن هناك أموراً غامضه فى السبب الأول تشير النقاش، منها:

١- استفاد من تعابير هذا الحديث- رغم تناقضاته- أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقع تحت تأثير الشائعه، و أدى ذلك إلى مشاورته أصحابه و تغيير سلوكه مع عائشه حتى ابتعد عنها لمدّه طويله.

و هذا الموضوع لا ينسجم مع عصمه النبى صلى الله عليه وآله وسلم و حسب، بل كل مسلم ثابت الإيمان لا ينبغي أن يقع تحت تأثير الشائعات دون مبرر، و إذا تأثر بالشائعه فعليه ألا يغير سلوكه عملياً، و لا يستسلم للشائعه و أثرها فكيف بالمعصوم.

فهل يمكن التصديق أن العتاب الشديد الذى ذكرته الآيات التاليه و تساءلت:

لماذا وقع بعض المؤمنين تحت تأثير هذه الشائعه، و لماذا لم يطلبوا شهوداً أربعه، يشمل النبى صلى الله عليه وآله وسلم؟ هذه تساؤلات تدفعنا فى أقل تقدير إلى الشك فى صحه سبب النزول الأول.

ص: ٤٠

٢- رغم أن ظاهر الآيات يدلّ على أن حكم القذف (الاتهام بعمل مخل بالشرف و العفه) نزل قبل حديث الإفك، فلما ذا لم يستدع النبي صلى الله عليه و آله و سلم عبد الله بن أبي سلول و عددا آخر ممن نشروا هذه الشائعه ليجرى الحد الذي فرضه الله؟ (الآ أن يقال بأن آيات القذف و الافك نزلت سويه، و أن حكم القذف قد شرح حينذاك لتناسبه مع الموضوع، ففي هذه الصوره ينتفى هذا الإشكال و لكن يبقى الأوّل على قوّته).

أما بالنسبه لسبب النزول الثّاني، فإنّ ما يثير فيه النقاش هو عدّه أمور، منها:

١- إن الذي وجه التهمه-وفقا لسبب النزول هذا- هو شخص واحد لا غير، في الوقت الذي ذكرت الآيات فيه أنّهم مجموعه، و قد روجوا لها لدرجه شيوعها تقريبا في المدينه كلها. لهذا استخدمت الآيات ضمير جمع للمؤمنين الذي عاتبتهم بشدّه، و الذين تورّطوا في تصديق و ترويج هذه الشائعه، و هذا لا ينسجم أبدا مع سبب النزول الثّاني.

٢- يبقى سؤال هو: إذا كانت عائشه ارتكبت هذا الإثم (القذف) ثمّ ثبت خلاقه، فلما ذا لم ينقذ النبي صلى الله عليه و آله و سلم حدّ القذف بحقها؟ ٣- كيف يمكن للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أن يصدر حكم القتل بحق شخص بشهاده امرأه واحده؟ مع أنّ التنافس بين زوجات رجل واحدا أمرا اعتياديا، و الانحراف عن الحق و العدل أو ارتكاب إحداهن لخطأ على الأقل ممكن.

و ليس مهما ما يكون سبب النزول، بل المهم أن نعلم من مجموع الآيات هو أنه قد اتهم شخص برىء بعمل مخلّ بالعفه و الشرف حين نزول هذه الآيات، و أن الشائعات كانت منتشره في المدينه، كما يفهم من الدلائل الموجوده في هذه الآيه، أن هذه التهمه كانت موجهه لشخص له أهميه خاصّه في المجتمع آنذاك. و أن مجموعه من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الإخلال بالمجتمع الإسلامى بترويجهم هذه الشائعه، فنزلت هذه الآيات، و تصدّت لهذه الحادثه بقوه، و دفعت

المنحرفين و المنافقين الحاقدين إلى جحورهم.

و مهما يكن سبب نزول هذه الأحكام، فإنها لا تخص سبب النزول وحده، و لا تنصرف لزمانه و مكانه فقط، بل هي أحكام نافذة في كل بيئه و زمان.

بعد هذا الحديث نشرع في تفسير هذه الآيات لنرى كيف يتابع القرآن بفصاحته و بلاغته هذه الحادته الخاصه، و كيف يبحث تفاصيلها بدقه.

## التفسير

### اشاره

### حديث الافك المثير:

تقول أول آيه من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادته إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَأَن من علائم الفصاحه و البلاغه، حذف الجمل الزائده، و الاكتفاء بما تدل عليه الكلمات من معان شامله.

كلمه «الإفك» على وزن «فكر» كما يقول الراغب الأصفهاني: يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذي يحق له أن يكون عليه، و منه قيل للرياح العادله عن المهاب «مؤتفكه» ثم أطلقت على كل كلام منحرف عن الحق و مجانب للصواب، و من ذلك يطلق على الكذب «أفك».

و يرى «الطبرسى» في مجمع البيان أن الإفك لا يطلق على كل كذبه بل الكذبه الكبيره التي تبدل الموضوع عن حالته الأصليه، و على هذا استفاد أن كلمه «الإفك» بنفسها تبين أهميه هذه الحادته و كذب التهمه المطروحه.

و أقرباً كلمه «العصبه» فعلى وزن «فعله» مشتقه من العصب، و جمعها أعصاب، و هي التي تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، و على شكل شبكه منتشره في الجسم، ثم أطلقت كلمه «عصبه» على مجموعه من الناس متحده و ذات عقيدته واحده.

و استخدام هذه الكلمه يكشف عن الارتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين فى ترويح حديث الإفك، حيث كانوا يشكلون شبكه قويه منسجمه و مستعده لتنفيذ المؤامرات.

و قال البعض: إن هذه المفرده تستعمل فى عشره إلى أربعين شخصا (1).

و على كل حال فإن القرآن طمأن و هدأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمه إلى شخصيه متطهره لا تحسبوه شراً لكم <sup>□</sup> بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لأنه كشف عن حقيقه عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء، و فصح أمر هؤلاء المرأين، و سؤد وجوههم إلى الأبد.

و لو لم تكن هذه الحادثه، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، و لكانوا أكثر خطرا على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علم المسلمين أن أتباع الذين يروجون الشائعات يجزهم إلى الشقاء، و أنّ عليهم أن يقفوا بقوه امام هذا العمل. كما علم هذا الحادث المسلمين درسا آخر، و هو أنّ لا ينظروا إلى ظاهر الحادث المؤلم، بل عليهم أن يتبحروا فيه، فقد يكون فيه خيرا كثيرا رغم سوء ظاهره.

و ممّا يلفت النظر أنّ ذكر ضمير «لكم» يعم جميع المؤمنين فى هذا الحادث، و هذا حق، لأن شرف المؤمنين و كيانهم الاجتماعى لا ينفصل بعضه عن بعض، فهم شركاء فى السراء و الضراء.

ثمّ تعقب هذه الآيه بذكر مسألتين:

أولاهما: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ إشاره إلى أنّ المسؤوليه الكبرى التى تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤوليه، و لهذا يتحمل كل شخص مسؤوليته إزاء أیه مؤامره.

ص: ٤٣

---

١- ١) -نقل تفسير «روح المعانى» هذا المعنى عن كتاب «الصحيح».

و المسأله الثانيه: وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ قال بعض المفسرين: إن الشخص المقصود هو «عبد الله بن أبي سلول» قائد أصحاب الإفك.

و قال آخرون: إنه مسطح بن أثاثه. و حسان بن ثابت كمصاديق لهذا الخطاب.

و على كل حال، فإنّ الذي نشط في هذا الحادث أكثر من الآخرين، و أضرَم نار الإفك، هو قائد هذه المجموعه الذي سيعاقب عقابا عظيما لكبر ذنبه. (و يحتمل أن كلمه «تولى» يقصد بها رأس مروجى حديث الإفك).

ثمّ توجهت الآيه التاليه: إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلا متهم بشده لَوْ لَا إِذٍ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا .

أى: لماذا لم تظنوا في وجه المنافقين بقوه، بل استمتمت إلى أقوالهم التي مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزله أنفسكم منكم. و لماذا لم تدفعوا هذه التهمه و تقولوا بأن هذا الكلام كذب و افتراء: وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ .

أنكم كنتم تعرفون جيدا الماضى القبيح لهذه المجموعه من المنافقين، و تعرفون جيدا طهاره الذى اتهم، و كنتم مطمئين من عدم صدق هذه التهمه وفق الدلائل المتوفره لديكم.

و كنتم تعلمون أيضا بما يحاك من مؤامرات ضدّ النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم من قبل الأعداء و المنافقين، لذا فإنكم تستحقون اللوم و التأنيب لمجرد هذه الشائعات الكاذبه، و لالتزامكم الصمت إزاءها، فكيف بكم و قد اشرتكم في نشر هذه الشائعه بوعى أو دون وعى منكم؟ و ممّا يلفت النظر أن الآيه السابقه بدلا من أن تقول: عليكم أن تحسنوا الظن بالمتهم و تصدقوا تهمته، فإنها تقول ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا و هذه العبارة - كما قلنا - إشاره إلى أنّ أنفس المؤمنين كنفس واحده، فإذا اتهم

أحدهم، فكان التهمة موجهة لجميعهم، ومثالهم في ذلك كمن اشتكى عضو منه فهبت بقيه الأعضاء لنجدته.

وهكذا يجب أن يهب المسلم للدفاع عن إخوته وأخواته في الدين مثلما يدافع عن نفسه (١).

وقد استعملت كلمه «الأنفس» في آيات أخرى من القرآن في هذا المعنى أيضا- في مثل هذه الحالات- كما هو في الآية (١١) من سورة الحجرات وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ! أمّا الاستناد إلى الرجال والنساء المؤمنين فيشير إلى قدره الإيمان على ردع سوء الظن بالآخرين.

وحتى هذه اللحظة كانت الملامه ذات طابع أخلاقي ومعنوي، وتقضى بعدم التزام المؤمنين جانب الصمت إزاء مثل هذه التهم القبيحه، أو أن يكونوا وسيله بيد مروّجى الشائعات.

ثم تهتم الآيات بالجانب القضائي للمسأله فتقول: لَوْ لَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ أَى لِمَاذَا لَمْ تَطْلُبُوا مِنْهُمْ الْإِتْيَانَ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ. فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

إنّ هذه الملامه تبيّن أن الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وكذلك حد القذف في حاله عدمه قد نزل قبل الآيات التي تناولت حديث الإفك.

وأما الجواب عن سؤال: كيف لم يقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تنفيذ هذا الحد؟ فإنه واضح، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقدم على شىء ما لم يسند من قبل الناس، فالتعصب القبلى قد يؤدي إلى مقاومه سلبيه لبعض أحكام الله و لو بصوره مؤقتة، وقد ذكر المؤرخون أنّ الأمر كان هكذا في هذه القضية.

و أخيرا جمعت الآية التاليه هذه الملامات، فقالت

ص: ٤٥

١- ١) - أو أما قول البعض بأن المضاف محذوف و تقديره «ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفس بعضهم خيرا» ليس صائبا و يفقد الآية جمالها و روعتها.



وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

و نظرا لأن «أفضتم» مشتقه من الإفاضه، بمعنى خروج الماء بكثره، و استعملت في حالات أخرى للتوغل في الماء، نتج من هذه العبارة أن شائعه الاتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافا إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

و تبين الآيه التاليه-في الحقيقه-البحث السابق. و هو كيف ابتلى المؤمنين بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم؟ فتقول إذ تَلَقَّوْنَهُ بِاللِّسَانِ أَتَى كَيْفَ رَحِمْتُمْ بِهِ هَذِهِ التَّهْمَةَ الْبَاطِلَةَ فَتَنَاقَلْتُمُوهَا وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ .

و تشير هذه الآيه إلى ثلاثه أنواع من ذنوبهم العظيمه في هذا المجال:

الأول: تقبل الشائعه: استقبالها و تناقلها.

الثاني: نشر الشائعه دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثالث: استصغار الشائعه و اعتبارها وسيله للهو و قضاء الوقت، في وقت تمس فيه كيان المجتمع الإسلامى و شرفه، إضافة إلى مساسها بشرف بعض المسلمين.

و مما يلفت النظر أن الآيه استعملت تعبير «بالسنتكم» تاره أخرى تعبير «بأفواهكم» على الرغم من أن جميع الكلام يصدر عن طريق الفم و اللسان، إشاره إلى أنكم لم تطلبوا الدليل على الكلام الذى تقبلتموه، و لا تملكون دليلا يسوغ لكم نشره، و الأمر الوحيد الذى كان بأيديكم هو لقلقه لسانكم و حركات أفواهكم.

و نظرا لهول هذه الحادته التى استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآيه ثانيه، فأنتبهم مره أخرى و لدعتهم بعباراتها إذ قالت وَ لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ .

و سبق لهذه الآيه أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الاتهام باطلا، و هنا تقول الآيه: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، و لا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم و قد كنتم سببا لنشرها! عليكم أن تعجبوا لهذه التهمة الكبيره، و أن تذكروا الله سبحانه و تعالى، و أن تلجأوا إلى الله يطهركم من نشر هذه التهمة و إشاعتها. و مع كل الأسف استصغرتموها و نشرتموها بكل يسر، فأصبحتم بذلك آله بيد المنافقين المتآمرين المروجين للشائعات.

هذا و سنتناول بالبحث-خلال تفسير الآيات القادمه-ذنب اختلاق الشائعه و دوافعها، و السبيل إلى مكافحتها، بعون الله و توفيقه.

## إشاره

يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنْ اللَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

## التفسير

## إشاره

### حرمه إشاعه الفحشاء:

تحدثت هذه الآيات أيضا عن حديث الإفك، و النتائج المشؤومه و الأليمه لاختلاق الشائعات و نشرها، و اتهام الأشخاص الطاهرين بتهمه تمس شرفهم و عفتهم. و هذه القضية مهمه بدرجه أن القرآن المجيد تناولها عدّه مرات، و عرض لها من طرق مختلفه مؤثره، باحثا محللا لها من أجل ألا تتكرر مثل هذه الوقعه الأليمه في المجتمع الإسلامي، فذكر أولا يعظكم الله أن تعودوا لِمِثْلِهِ (١) .

ص: ٤٨

١ - ١) - لهذه الجملة كلمه محذوفه هي حرف «لا» و تقديرها: «يعظكم الله أن لا- تعودوا لمثله أبدا» و إذا لم نقدر محذوفاً، فإن عبارته «يعظكم» تعني ينهاكم. أي إن الله ينهاكم من العوده إلى مثل هذا العمل.

أى أن من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، وإذا ارتكبها فذلك يدل على عدم إيمانه أو ضعفه، و الجملة المذكوره تشكل فى الحقيقه-أحد أركان التوبه، إذ أن الندم على الماضى لا يكفى، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب فى المستقبل، لتكون توبه كامله.

و لتأكيد أكثر على أن هذا الكلام ليس اعتياديا، بل صادر عن الله العليم الحكيم، و لبيان الحقائق ذات الأثر الفعال فى مصير الإنسان، يقول سبحانه و تعالى وَ بَيَّنُّوا لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فهو يعلم تفاصيل أعمالكم تمام العلم، و يصدر أحكامه بمقتضى حكمته الهاديه لكم. و بتعبير آخر: إنه يعلم حاجاتكم و ما يضرّكم و ما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، و يصدر أحكامه و أوامره المتناسبه لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

و لتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

و ممّا يلفت النظر أن القرآن الكريم لم يقل «الذين يشيعون الفاحشه، بل قال:

الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ

و هذا يحكى عن الأهميه القصوى التى يدلها القرآن لذلك. و بعبارة أخرى: أنه لا ينبغى توهم أن ذلك كان من أجل زوجه النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو شخص آخر بمنزلتها، بل من أجل كل مؤمن و مؤمنه، فلا خصوصيه فى ذلك، إنما هى عامه للجميع على الرغم من أن كل حاله لها خصائصها، و قد تزيد الواحده على الأخرى فى الخصائص أو تنقص.

كما يجب الانتباه إلى أن إشاعه الفحشاء لا تنحصر فى ترويح تهمه كاذبه ضد مسلم مؤمن، يتهم بعمل مخل بالشرف، بل هذه مصداق من مصاديقها و لهذا التعبير مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء و المنكر.

و قد وردت فى القرآن المجيد كلمه «الفحشاء» غالبا للدلاله على العمل

المخل بالعفّة و الشرف.و لكن من الناحيه اللغويه،فقد ذكر الراغب الإصفهاني مفهوما واسعا لها فقال: الفحش و الفحشاء و الفاحشه،ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.

و يستعمل القرآن أحيانا هذا المفهوم الواسع،حيث يقول وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ . (١)

و بهذا يتّضح المفهوم الواسع للآيه:

أمّا قول القرآن الكريم: لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا فقد يكون إشاره إلى الحدود و التعزيرات الشرعيه.و ردود الفعل الاجتماعيه،و ما يبتلى به الناس في هذه الدنيا من مظاهر مشؤومه بسبب أعمالهم القبيحه،إضافه إلى عدم تقبل أيه شهاده منهم،و إدانتهم بالفسق و الفجور و افتضاح أمرهم. كل ذلك من النتائج الدينويه التي تترتب على أقوالهم و أعمالهم القبيحه.

و أمّا عذابهم الأليم في الآخره،فيكون في ابتعادهم عن رحمه الله، و استحقاقهم غضب الله و عذاب النار.

و تختتم الآيه بالقول وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أجل،و إن الله يعلم بالعاقبه المشؤومه التي تنتظر الذي يشيعون الفحشاء في الدنيا و الآخره،و لكنكم لا تعلمون أبعاد هذه القضيه.

إنّه يعلم الذين يبيتون في قلوبهم حب هذا الذنب،و يعلم الذين يمارسونه تحت واجهات خداعه،أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك و لا تدركونه.

أجل،يعلم الله كيف ينزل أحكامه ليحول دون ارتكاب هذه الأعمال القبيحه.

و كررت الآيه الأخره-مّمّا نحن بصدده من الآيات التي تناولت حديث الافك و مكافحه إشاعه الفحشاء،و قذف المؤمنين المتطهرين-هذه الحقيقه

ص :٥٠

لَتؤكد القول وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ . (١)

بحوث

أشاره

### ١- ما معنى إشاعه الفحشاء؟

بما أن الإنسان مخلوق اجتماعي، فالمجتمع البشري الذي يعيش فيه له حرمة يجب أن لا تقل عن حرمة الشخصيه، و طهاره كل منهما تساعد في طهاره الآخر، و قبح كل منهما يسرى إلى صاحبه. و بموجب هذا المبدأ كافح الإسلام بشده كل عمل ينشر السموم في المجتمع، أو يدفعه نحو الهاويه و الانحطاط.

و لهذا السبب حارب الإسلام-بقوه-الغيبه و النميمه، لأن الغيبه تكشف العيوب الخفيه، و تسيء إلى حرمة المجتمع.

أوجب الإسلام ستر العيوب و السبب في ذلك هو ما تقدم من الحيلولة دون انتشار الذنوب في المجتمع، و اكتسابها طابع العموميه و الشمول.

و عند ما نرى اختصاص الذنب العلني بأهميه أكثر من الذنب الذي يرتكب في الخفاء، حتى

أن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «المذيع بالسيئه مخذول و المستتر بالسيئه مغفور له» (٢). فالسبب هو ما ذكرنا.

و هكذا لنفس السبب يدين القرآن-بشده-ارتكاب الذنوب في العلن، كإشاعه الفحشاء التي ذكرتها الآيات السابقه فارتكاب الذنوب كالنار التي تسرى في الهشيم، تأتي على المجتمع من أساسه فتخرجه حتى تهدمه و تدروه، لهذا يجب الإسراع لإطفاء هذه النار، أو لمحاصرتها على الأقل. أما إذا زدنا النار لهيبا،

ص: ٥١

١-١) -لهذه الجملة محذوف كما يبدو في آيات أخرى سبقت، و تقديره «لو لا فضل الله عليكم لمسيكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم».

٢-٢) -أصول الكافي، المجلد الثاني، باب ستر العيوب.

و نقلناها من مكان إلى آخر، فإنها ستحرق الجميع، ولا يمكن بعدئذ إطفائها أو السيطرة عليها.

و إضافه إلى ذلك، فإنه لو عظم الذنب في نظر عامّة الناس، و تمت المحافظه على سلامه ظاهر المجتمع من التلوث و الفساد، فإن ذلك يمنع انتشار الفاحشه بصوره مؤكده. أما اشاعه الفحشاء و الذنوب و التجاهر بالفسق، فمن نشأتها أن تحطم هذا السد الحاجز للفساد. و يستصغر شأن الذنوب من قبل الناس، و يسهل التورط فيها.

و

قد جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم قوله «من أذاع فاحشه كان كمتدئها» (١).

و

جاء في حديث آخر عن محمد بن الفضيل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال:

قلت له: جعلت فداك الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك و قد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال الإمام عليه السلام لي: «يا محمد كذب سمعك و بصرك عن أخيك، و إن شهد عندك خمسون قسامه. و قال لك قول فصدقه و كذبهم، و لا تديعن عليه شيئا تشينه به و تهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ (٢) (٣)» .

و ممّا يلزم ذكره أنّ لإشاعه الفحشاء صوراً عديده فتاره يكون من قبيل افتعال تهمة كاذبه و نقلها بين الناس.

و اخرى يكون بإنشاء مراكز للفساد و نشر الفحشاء.

ص: ٥٢

١-١ - أصول الكافي، المجلد الثاني، باب القبح.

٢-٢ - كتاب ثواب الأعمال، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحہ ٥٨٢.

٣-٣ - لهذه القضية استثناءات، منها موضوع الشهادة في المحكمة، أو حالات النهي عن المنكر حيث لا سبيل إلا بكشف العمل القبيح الذي يرتكبه شخص ما و الشهاده ضده.

و ثالثه بتوفير وسائل المعصيه للناس، أو تشجيعهم على ارتكاب الذنوب.

و رابعه يرتكب الذنب فى العلن دون ملاحظه الدين، و لا- رعايه لقانون و لا- التفات لآداب عامه، و كل هذه مصاديق لإشاعه الفحشاء، لأنّ لهذه الكلمه مفهومها و اسعا(فتأملوا جيدا).

## ٢- مصيبه الشائعات

إن اختلاق و نشر الشائعه الكاذبه يودى إلى سيطره القلق و استبداد الاضطراب و انعدام الثقه، و هذه من أهم ما ترمى إليه الحرب النفسيه للمستعمرين بغيه إثارة البلبله و نشر الفزع، ليتسنى لهم التغلب العسكرى و السياسى.

فعند ما يعجز العدو عن إلحاق الضرر بصوره مباشره، يقوم بنشر الشائعات، لبث الرعب و القلق فى الناس، ليشغلهم بأنفسهم، و ليحرفهم عن أهم قضاياهم حساسيه، و ليتسنى له الظهور عليهم و التمكّن منهم فى كل مجال. و اختلاق الشائعه من الأسلحه المخبره المستعمله ضدّ الصالحين و الطيبين، لعزلهم و إقصاء الناس عنهم.

و بحسب أسباب التّزول المعروفه بشأن الآيات موضع البحث لجأ المنافقون إلى أحسن السبل لتلوّث سمعه النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و الحط من شأنه المقدّس لدى الناس، باختلاق شائعه تمسّ طهاره و عفه إحدى زوجاته مستغلين فى ذلك فرصه سنحت لهم، ممّا أدى إلى تشويش أفكار المسلمين، و إدخال الحزن إلى قلوبهم، بحيث اضطرب الجميع. و أصاب المؤمنين القلق الشديد حتى نزل الوحي و أنقذهم من هذه الحاله، و مرّغ أنوف المنافقين فى الوحل بما اختلقوا هذه الشائعه.

و جعلهم عبره للآخرين.

و رغم أن اختلاق الشائعه يعد نوعا من الكفاح فى المجتمعات التى تسودها الدكتاتوريه و يفتقد الناس فيها الحريه إلا أن من أسبابها و دوافعها الانتقام،



و تصفيه الحساب مع أشخاص معينين، وإزاله الثقة العامه بالشخصيات الكبيره.

و حرف الرأى العام عن القضايا الجوهرية.

ولا- يهمننا أن نعلم دوافع اختلاق الشائعات، إنما المهم تحذير المجتمع من مغبه الوقوع فى برائن الذين يختلقون الشائعات و ينشرونها بين الناس، و بذلك يدمرون المجتمع و أنفسهم بأيديهم! و أن نعلم الناس بأن يذفنوا الشائعه فى مهدها، و إلا فقد أدخلنا السرور إلى قلب العدو، و عرضنا أنفسنا إلى عذاب الدنيا و الآخره كما نصت عليه الآيات السابقه.

### ٣- استصغار الذنب

يستفاد من الآيات السابقه أنها استنكرت استصغار نشر البهتان و التهمه، و هو خطأ فادح و جرم عظيم و فى الحقيقه إن استصغار الذنب بذاته ذنب آخر. فالذى يرتكب الذنب و يشعر بعظمه ذنبه، و يندم على ما فعل هو الذى يؤمل فيه التوبه و الجبران.

أما الذى يستصغر الذنب و يقول: ما أسعدنى إن كان ذنبى هذا فقط فهذا الشخص يسير فى طريق خطر و قد يواصل ارتكاب ذنبه، لهذا نقرأ

فى حديث للإمام على عليه السلام قوله: «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه» (١).

ص: ٥٤

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَيْدٍ أَيْدَاءٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْحَبِيبَاتُ لِلْحَيْثُونَ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّزُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

## للعقوبات حساب!

على الرغم من عدم متابعه هذه الآيات حديث الإفك بصراحه، إلا إنها تعتبر مكمله لمضمون ذلك البحث، و تحذّر المؤمنين جميعا من تأثير الأفكار الشيطانية التي تبدو أولا في صوره باهته، فلا بدّ من الانتباه إليها، وإلا فالنتيجه سيئه للغاية، و لا يمكن تلافيها بسهولة فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأول وسوسه شيطانية بإشاعه الفحشاء أو ارتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوّه حاسمه، حتى يمنع من انتشاره و توسعه.

و تخاطب الآيه الأولى المؤمنين، فتقول يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ (١).

و إذا فسّرنا الشيطان بأنه كل مخلوق مؤذ و فاسد و مخرب، يتضح لنا شموليه هذا التحذير لأبعاد حياتنا كلها، و حيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّه واحده إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوه بعد أخرى فى طريق الفساد:

الخطوه الأولى: مرافقه الملوئين و المنحرفين.

الخطوه الثانيه: المشاركه فى مجالسهم.

الخطوه الثالثه: التفكير بارتكاب الذنوب.

الخطوه الرابعه: ارتكاب الأعمال المشتبّه بها.

الخطوه الخامسه: ارتكاب الذنوب الصغيره.

و أخيرا الابتلاء بالكبائر. و كأنّ الإنسان فى هذه المرحله يسلم نفسه لمجرم

ص: ٥٦

(١ - ١) - هناك محذوف لجمله و مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ هو جواب الشرط و تقديره «و من يتبع خطوات الشيطان ارتكب الفحشاء و المنكر فإنه يأمر بهما» (روح المعانى، المجلد الثامن عشر، صفحہ ١١٢ تفسير آخر الآيات موضع البحث) و يجب الانتباه إلى أن جمله فإنه يأمر بالفحشاء، لا يمكن اعتبارها جوابا للشرط.

ليقوده نحو الهاويه، أجل هذه خُطواتِ الشَّيْطَانِ (١).

ثُمَّ تَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى أَهَمِّ النِّعَمِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هِدَايَتِهِ فَتَقُولُ: وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَّيْتُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

و لا شك في أنّ الفضل و الرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الانحطاط و الانحراف من الذنوب جميعا، فالله منحه العقل، و لطف به فأرسل إليه الرُّسُلَ، و يَسِّرُ له سبيل الارتقاء و الاهتداء، و أعانه على استكمال الخير. و إضافه إلى هذه المواهب شمل الله الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصه، و إمداداته التي يستحقونها، و التي تعتبر أهم عنصر في تطهير و تزكيه النفس.

و كما أسلفنا. مرارا، فإنّ عبارته «من يشاء» لا تعني المشيئة دون مبرر، بل إنّ الله يهدي عباده الذين يسعون في نيلها، الذين يسرون في الطريق إلى الله، و يجاهدون في سبيله، فيمسك الله بيدهم و يحفظهم من وساوس الشيطان و كيده حتى يبلغهم الهدف الأسمى.

و بعباره أخرى: إنّ الفضل و الرحمة الإلهية تارة يكون لهما جانب تشريعي عن طريق الرسل عليهم السلام و الكتب السماويه و ما فيها من تعاليم إلهيه و بشارات و إنذارات سماويه. و أخرى يتخذ الفضل و الرحمة الإلهية جانبا تكوينيا عن طريق الإمدادات المعنويه الإلهيه.

و الآيات موضع البحث استهدفت القسم الثاني، بدليل عبارته «من يشاء»، و يجب الانتباه إلى أنّ «الزكاه» و «التركيه» تعني في الأصل النمو، و العمل من أجل النمو، إلاّ أنها وردت غالبا بمعنى التطهّر و التطهير.

و يمكن إرجاعها إلى أصل واحد، إذ أنّ النمو و الرشد لا يمكن أن يتحققا إلاّ

ص: ٥٧

و ذكر عدد من المفسرين سببا لنزول الآيه الثانيه-من الآيات موضع البحث -يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقه،قال:إنّ هذه الآيه نزلت بشأن عدد من الصحابه أقسموا على عدم تقديم مساعده ماليه إلى الذين تورطوا في هذه القضيه و أشاعوا هذه التهمه بين الناس،و ألا يشاركوهم همومهم،فنزلت هذه الآيه لتمنعهم من ردّ فعل قاس،و أمرتهم بالعفو و السماح.

و قد روى سبب النزول هذا«القرطبي»في شأن نزول هذه الآيات في تفسيره عن ابن عباس و الضحّاك،و رواه المرحوم«الطبرسي»عن ابن عباس،و رواه آخرون لدى تفسير الآيات موضع البحث،و هو يمتاز بعموميته.

إلا أن مجموعه من مفسري أهل السنه يصرون على أن هذه الآيه نزلت بخصوص«أبي بكر»حيث أقسم بعد حادث الإفك على عدم تقديم أيه مساعده ماليه ل-«مسطح بن أثاثه»الذي كان ابن خالته،أو ابن أخته،و هو الذين نشر شائعه الإفك،في حين أنّ الضمائر التي استعملتها الآيه،جاءت بصيغه الجمع، و تبين أنّ مجموعه من المسلمين اتخذوا قرارا بقطع مساعداتهم عن هؤلاء المجرمين،إلا أنّ هذه الآيه نهتهم عن العمل.

و من المعلوم أنّ الآيات القرآنيه لا تختص بسبب النزول فقط،بل تشمل جميع المؤمنين إلى يوم القيامه،فهى توصى المسلمين جميعا بالأستسلاموا لعواطفهم، و ألا يتخذوا مواقف عنيفه إزاء أخطاء الآخرين.

نعود الآن إلى تفسير الآيه بملاحظه سبب النزول هذا:

يقول القرآن وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عددا ممن تورط في قضيه الإفك كانوا من المهاجرين في سبيل الله إذ خدعهم المنافقون،و لم يجز الله طردهم من المجتمع

الإسلامى لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر مما يستحقونه.

كلمه «يأتل» مشتقه من «أليه» (على وزن عطيه) أى اليمين، أو إنها مشتقه من «ألو» (على وزن دلو) بمعنى التقصير و الترك.

و على هذا، فإن الآيه تعنى وفق المعنى الأول النهى عن هذا القسم بقطع مثل هذه المساعدات (1)، و على المعنى الثانى النهى على التقصير فى مساعدتهم و ترك مثل هذا العمل.

ثم تضيف الآيه وَ لِيُعْفُوا وَ لِيُصْفَحُوا لتشجيع المسلمين و ترغيبهم فى العفو و الصفح بقولها: أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .

فإنكم مثلما تأملون من الله العفو عنكم و أن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو و الصفح عن الآخرين وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و المثير للدهشه أن أصحاب الإفك أدينوا بشده فى آيات شديده اللهجه، إلا أنها تسيطر على مشاعر المفرطين لمنعهم من تجاوز الحد فى العقوبه بثلاث جمل ذات تشعشع أخاد، الأول: الأمر بالعفو و السماح.

ثم تقول: أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ فينبغى عليكم أن يعفوا و تصفحوا كذلك.

و لتأكيد ذلك تذكر الآيه صفتين من صفات الله «الغفور» و «الرحيم».

و هكذا تقول الآيه للناس: لا- يمكنكم أن تكونوا أحرص من الله الذى هو صاحب هذا الحكم، و هو يأمركم بالأل- تقطعوا مساعداتكم.

مما لا شك فيه أن جميع المسلمين الذين تورطوا فى حادثه الإفك لم يكونوا مشاركين فى التآمر بهذا الصدد، و لكن المنافقين هم الذين وضعوا أساس فتنه الإفك و تبعهم مسلمون مضللون.

و لا شك فى أنهم جميعا مقصرون و مذنبون، و لكن بين هاتين المجموعتين

ص: ٥٩

(١- ١) - فى هذه الحاله يجب تقدير وجود حرف «لا» قبل «يؤتوا» فيكون التقدير «و لا يأتل... أن لا يؤتوا».

فرق كبير، و على هذا يجب أن لا يعامل الجميع سواسيه.

و على كل حال، ففي الآيات السابقه درس كبير لحاضر المسلمين و مستقبلهم، و تذكير لهم بأن لا يتجاوزوا الحدّ المقرّر في معاقبه المذنبين، و لا ينبغي طردهم من المجتمع الإسلامى، أو إغلاق باب المساعدة في وجوههم، ذلك من أجل المحافظه عليهم كى لا يزدادوا انحرافا فيقعوا في أحضان العدو، أو ينحازوا إلى جانبه.

و ترسم هذه الآيات صورته للتعادل الإسلامى في جذبته و دفعه، و تشكل آيات الإفك و العقوبات الشديده التى تفرض على الذين يتهمون الآخريين في شرفهم «قوه الدفع». و أمّا الآيه موضع البحث التى تتحدث عن العفو و الصفح و كون الله غفورا رحيمًا. فإنها تكشف عن «قوه الجذب»! ثم تعود الآيه إلى قضيه القذف و اتّهام النساء العفيفات المؤمنات في شرفهن، فتقول بشكل حازم: إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ذكرت هذه الآيه المباركه ثلاث صفات لهؤلاء النسوة، كلّ واحده تشكل دليلا على مدى الظلم الذى تعرضن إليه باتهامهنّ في شرفهنّ: «المحصنات» أى العفيفات الطاهرات الذيل و «الغافلات» البعيدات عن كل تهمة و تلوّث و «المؤمنات»، كما تكشف العذاب العظيم الذى ينتظر من يقترف هذا العمل (1).

كما أنّ عبارته -«غافلات» تلفت النظر، لأنها تكشف عن منتهى طهارتهنّ من أى انحراف و تلوّث، أى أنهن غافلات عن كل تلوّث جنسى إلى درجه و كأنهن لا يعلمن بوجود مثل هذا العمل فتاره يكون الإنسان في مقابل الذنب أن لا يخطر على ذهنه وجود مثل هذا الذنب في الخارج و هذه مرحله عاليه من التقوى.

ص : ٦٠

و يحتمل أن يكون المراد من «الغافلات» أنهن لا يعلمن بما ينسب اليهنّ من بهتان في الخارج، و لهذا السن في صدد الدفاع عن أنفسهنّ، و في النتيجة فإنّ الآيه تطرح موضوعا جديدا للبحث، لأن الآيات السابقه تحدثت عن مثيرى التهم الذين يمكن التعرف عليهم و معاقبتهم، إلّا- أنّ الحديث هنا يدور حول مثيرى الشايعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب و الحدّ الشرعى: فتقول الآيه: أنّ هؤلاء لا يتصوروا أنّهم بهذا العمل سيكون بإمكانهم تجنب العقاب الإلهى دائما، لأنّ الله تعالى سيبعدهم عن رحمته في هذه الدنيا. كما ينتظرهم العذاب العظيم في الآخره.

إن هذه الآيه رغم مجيئها بعد حديث الإفك، و ظهورها بمظهر الارتباط بذلك الحادث، فإنها كبقية الآيات التى تنزل لسبب خاص، و هى ذات مفهوم عامّ، لا تختص بحاله معينه.

و الذى يثير الدهشه هو إصرار بعض المفسّرين كالفخر الرازى فى «التفسير الكبير»، و آخرين، على أنّ مفهوم هذه الآيه خاص باتهام نساء النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و يجعلون هذا الذنب بدرجه الكفر، و يستدلون بكلمه «اللعن» التى ذكرتھا الآيه، فى الوقت الذى لا- يمكن فيه اعتبار توجيه التهمه-حتى إن كان هذا الذنب عظيما كاتهام نساء النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم لوحده سببا للكفر. لهذا لم يعامل النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أصحاب الإفك معاملة المرتدين عن دينهم. بل إن الآيات التالىة التى بيّنا شرحها توصى بعدم تجاوز الحد المقرر لهم و عدم الإفراط فى عقابهم، فذنبهم لا يوازى الكفر بالله.

و أمّا «لعنه الله» فهى تصدق على الكافرين و مرتكبي الكبائر أيضا، و عليه أوردت هذه الآيات المتحدّثه عن حدّ القذف (فى الأحكام الخاصّه باللعان) مرتين كلمه «لعن» ضد الكذابين المسيئين للناس. كما استعملت الأحاديث الإسلاميه كرارا كلمه «اللعن» ضد مرتكبي الذنوب الكبيره. و حديث «لعن الله فى الخمر عشر طوائف...» معروف.



و تحدد الآيه التاليه وضع الذين يتهمون الناس بالباطل فى ساحه العدل الإلهى،قائله يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

تدور ألسنتهم بما لا تشتهى أنفسهم لتستعرض الحقائق.و عند ما يجد المجرمون الدلائل و الشواهد العينيه على ما اقترفوه من أعمال إجراميه،تراهم يعرفون بذنوبهم و يفضحون أمرهم خلافا لرغبتهم الباطنيه،حيث لا- ينفع فى ذلك اليوم إنكارهم للتهم الموجهه إليهم.

و تشهد أيديهم و أرجلهم،و كما ذكرت الآيات القرآنيه:تنطق جلودهم و كأنها شريط مسجل،تنطق بما اقترف صاحبها من ذنوب،حيث رسمت آثار الجرائم عليها طوال عمره،حقا إنه يوم البروز و الافتضاح،و يوم تنكشف فيه السرائر.

و إذا وجدنا فى بعض آيات القرآن إشاره إلى يوم القيامه تذكر اليَوْمَ نَخِمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تَكَلَّمْنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١) فإنّه لا- خلاف فيها مع هذا البحث،إذ يمكن أن تتعطل الأفواه عن الكلام أولا،فتشهد سائر أعضاء الجسم.و عندها تكشف الأيدي و الأرجل الحقائق،ينطق اللسان بما جرى و يعترف بالذنوب كلها.

## بحوث

## إشاره

### ١-من هن الخبيثات و من هم الخبيثون؟

ذكر المفسرون تعاريف مختلفه ل«الخبيثات»و«الخبيثون»و«الطيبات» و«الطيبون».

١-قيل أن المراد هو الكلام السىء و التهمه و الافتراء و الكذب الصادر عن

ص: ٦٢

المخطئين و المذنبين من الناس، و على العكس من ذلك الكلام الطيب ما يصدر عن الطيبين المتطهرين، و حسبما يقول المثل المأثور «ينضح الإناء بما فيه».

٢- و قيل إن كلمه «الخبثات» تعنى «السيئات» و كل الأعمال السيئه و غير المرغوب فيها التى تصدر عن الخبثات من الناس، و على العكس من ذلك «الحسنات» الخاصه بالطيبين من الناس.

٢- «الخبثات» و «الخبثون» تعنيان النساء و الرجال الساقطين، و هم عكس (الطيبات) و (الطيبون) الخاصتين بالنساء و الرجال المتطهرين.

و ظاهر الآيه قصد هذا المعنى بذاته، حيث هناك قرائن تؤكد هذا المعنى:

أ- جاءت هذه الآيات إثر آيات الإفك- و بعد آيه الزانى لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هذا التفسير ينسجم مع مفهوم تلك الآيات.

ب- إن جملة أولئك مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ التى تقصد الرجال و النساء الطاهرين من الدنس دليل آخر على صحة هذا التفسير.

ج- قرينه المقابله لجمع المذكر السالم فى «الخبثون» حيث يقصد بها الرجال الخبيثون، فمن ذلك يعلم أن الخبثات جمع مؤنث حقيقى، و تعنى النساء الساقطات.

د- إضافه إلى ذلك

روى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام «إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَأَيِّهِ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً هُمْ رِجَالٌ وَ نِسَاءٌ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ٦ مشهورين بالزنا فهى الله عن أولئك الرجال و النساء و الناس على تلك منزله..» (١).

كما نقرأ فى روايات كتاب النكاح، كيف كان أصحاب الإمام يستفسرون منه

ص: ٦٣

أحيانا عن الزواج بالخبيثات فيجيبهم سلبا. وهذا يدل على أن الخبيثه تعنى المرأه الساقطه، و ليس الكلام السيء و لا- العمل المنحط (١).

و السؤال الآخر: هل أن خبث هذه المجموعه من النساء و الرجال أو طيبهم يراد به الشرف و العفّه، أو يتعلّق بانحطاط في الفكر أو العمل أو القول؟ إنّ المفهوم الأوّل للآيه هو الأ-صوب، لأنّه يطابق ما جاء في الآيات و الأحاديث، لكنّ بعض الأحاديث يعطى معنى واسعا لكلمتى الخبيث و الطيب اللتين وردتا في هذه الآيات، و لا يحصرهما بالانحطاط الخلقى و طهاره الشخص.

و على هذا فلا- يبعد أن يكون مفهوم الآيه الأولى خاصا بذلك المعنى الخاص، إلاّ أنه بملاحظه الملاك و الغايه من الحكم يمكن تعميمه و توسعته.

و بتعبير آخر: إن الآيه السابقه بيان لميل الصنو إلى صنوه، رغم اختصاصها من حيث الموضوع ببحث العفّه و الانحطاط الخلقى، «تأملوا جيدا».

## ٢- هل هذا حكم تكويني أم تشريعي؟

لا شكّ في أن الأمثال التاليه تشير إلى سنه تكوينيه تطبق على المخلوقات جميعا، حتى على ذرات الوجود في الأرض و السماء، و هى جذب الشئ لنظيره كما يجذب الكهرب التبن.

أصحاب النور ينجذبون إلى أصحاب النور.

و أصحاب النار يميلون إلى أصحاب النار.

و«السنخيه علّه الانظام» كما يقول المثل.

و على كل حال، فإن كل صنو يتبع صنوه، و كل مجموعه متجانسه ترتاح

ص: ٦٤

لأفرادها، إلا- أن هذه الحقيقة لا- تمنع من كون الآيه السابقه كما هي عليه الآيه الزائيه لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ إشاره إلى حكم شرعى يمنع الزواج من النساء اللواتى اشتهن بالعمل المخلّ بالشرف.

أليس لجميع الأحكام التشريعيه جذور تكوينيه؟ أليس هناك انسجام بين السنن الإلهيه، التشريعيه منها و التكوينيّه؟ (لإيضاح أكثر راجع شرح الآيه التى ذكرناها).

### ٣- جواب استفسار:

الاستفسار هو: إننا نشاهد عبر التاريخ أو فى حياتنا حالات لا تنسجم مع القانون السابق؟ و مثال ذلك ما جاء فى القرآن المجيد  
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا (١) ...

و مقابل هذه الحاله ذكر القرآن المجيد زوجه فرعون مثالا للإيمان و الطهاره:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

(٢)

كما شوهد نظير هاتين الحالتين فى صدر الإسلام، حيث ابتلى بعض قاده المسلمين بنساء سيئات، و آخرون من الله عليهم بنساء مؤمنات جاء ذكرهن فى كتب التاريخ الإسلامى.

و فى الجواب عن ذلك نقول أنه مضافا إلى أن لكل قانون استثناءات، فلا بد من ذكر مسألتين:

١- قلنا خلال تفسير الآيه موضع البحث: إنَّ القصد من الخبث الانحطاط الخلقى و السقوط بارتكاب أعمال مخله بالشرف، و الطيب ضد الخبث، و على

ص: ٦٥

١- ١) -سوره التحريم، ١٠.

٢- ٢) -سوره التحريم، ١١.

هذا فجواب السؤال السابق يكون واضحاً، لأن نساء الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام.

لم ينحرفن و لم يخبثن أبداً، وإنما القصد من الخيانة في قصة نوح و لوط عليهما السلام، التجسس لمصلحه الكفار و ليس خيانه شرفهما، و أساساً إن هذا العيب من العيوب المنقره و نعلم أن المحيط العائلي للأنبياء عليهم السلام يجب أن يكون طاهراً من أمثال هذه العيوب المنقره للناس حتى لا يتقاطع مع هدف التوبه في جذب الناس إلى الرساله الإلهيه.

٢-إضافه إلى ذلك، فإن نساء الأنبياء و الأئمه عليهم السلام، لم يكنن كافرات منذ البدايه، بل يصبين بالضلال أحيانا فيما بعد، و لهذا تستمر علاقته الأنبياء و الأولياء بهنّ على ما كانت عليه قبل ضلالهنّ، كما أنّ امرأه فرعون لم تكن مؤمنه برّب موسى حين زواجها، إذ أنّ موسى عليه السلام لم يكن قد ولد بعد، و قد آمنت برسالته السماويه بعد أن بعثه الله، و لم يكن لها مخرج إلاّ بمواصله حياتها الزوجيه و الكفاح، حتى انتهت حياتها باستشهادها.

ص: ٦٦

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

التفسير

اشاره

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم:

بينت هذه الآيات جانبا من أدب المعاشره، و التعاليم الإسلاميه الاجتماعيه التى لها علاقه وثيقه بقضايا عامه حول حفظ العفه، أى كيفيه الدخول إلى بيوت الناس، و كيفيه الاستئذان بالدخول إليها.

حيث تقول أولا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

و بهذا الترتيب عند ما تعزمون على الدخول لا بدّ، من إخبار أصحاب البيت بذلك و نيل موافقتهم.

و الذى يلفت النظر فى هذه الجملة استعمالها «تستأنسوا» و لم تستعمل «تستأذنوا» لأنّ الجملة الثانيه لبيان الاستئذان بالدخول فقط، فى الوقت الذى تكون الجملة الأولى مشتقّه من «أنس» أى الاستئذان المرافق للمحبّه و اللطف و المعرفه و الإخلاص، و تبين كيف يجب أن يكون الاستئذان برفق و أدب و صداقه، بعيدا عن أى حدّه و سوء خلق. و لو تبحرنا فى هذه الجملة على هذا الأساس لوجدنا فيها الكثير من الأدب الذى يدور حول هذا الموضوع، و هو يعنى ألا- تصرخوا و ألا تقرعوا الباب بقوه، و ألا تستأذنوا بعبارات حادّه، و ألا تدخلوا حتى يؤذن لكم، فتسلّموا أولا سلاما يستبطن مشاعر السلام و الود و رساله المحبه و الصداقه.

و ممّا يلفت النظر فى هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانيه و عاطفيه واضحه، مرافقه لجملتين أولاها: ذلّكم خير لكم و ثانيها: لعلّكم تذكّرون. و هذا بحدّ ذاته دليل على أن لهذه الأحكام جذورا فى أعماق العواطف و العقول الإنسانيه، و لو دقق الإنسان النظر فيها لتذكر أن فيها الخير و الصلاح.

و تمّ هذا الحكم بجملة أخرى فى الآيه التاليه: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ .

قد يكون المراد من هذه العبارة أنّه ربّما كان فى المنزل أحد، و لكن من لديه حقّ إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

أو قد لا- يوجد أحد فى المنزل، و لكن صاحب المنزل على مقربه من ذلك المكان، أو فى منزل الجيران بحيث لو طرق المرء الباب أو نادى صاحبه فقد يسمعه، ثمّ يحضر ليسمح له بالدخول، و على أى حال، فالمسأله المطروحه أن

لا ندخل منزلاً دون إذن.

ثم تضيف الآية وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَاَرْجِعُوا هُوَ اَزْكٰى لَكُمْ اِشَارَهٗ اِلَى اَنَّهُ لَا لَزُومَ لِانْتِزَاعِ الْمَرْءِ اِنْ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ بِالْدُخُولِ، فَلَعَلَّ صَاحِبَ الْمَنْزَلِ فِي وَضْعِ غَيْرِ مَرِيحٍ، اَوْ اَنْ مَنْزِلَهُ لَمْ يَهَيِّأْ لِاسْتِقْبَالِ الضُّيُوفِ! وَ بِمَا اَنْ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَدْفَعُهُمْ حَبَّ الْاِطْلَاعِ وَ الْفُضُولِ حِيْنَ رَفَضَهُمْ اسْتِقْبَالَهُ عَلٰى اسْتِرَاقِ السَّمْعِ، اَوْ التَّجَنُّسِ مِنْ ثَقْبِ الْبَابِ لِكَشْفِ خَفَايَا اَهْلِ الْمَنْزَلِ وَ لِيَطَّلِعَ عَلٰى اَسْرَارِهِمْ، لِهَذَا قَالَتْ الْاَيَةُ: وَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

و بما أن لكل حكم استثناء، لرفع المشكلات و الضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ .

و تضيف في الختام وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ . و لعل ذلك إشاره إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرع بأن المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونه متذرعاً بعدم علمه بأنها مسكونه، إلا أن الله يعلم بكل هذه الأعمال، و يعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

**بحوث**

**إشاره**

### ١- الأمن و الحرية في حريم المنزل

لا- ريب في أن لوجود الإنسان بعدين: بعد فردي، و آخر اجتماعي، و لهذا فله نوعان من الحياه: حياه خاصه، و أخرى عامه. و لكل واحده خصائصها و آدابها، حيث يضطر الإنسان في البيئه الاجتماعيه إلى تحمل قيود كثيره من حيث اللباس و الحرکه، و مواصله الإنسان حياهه على هذا النسق وحده- خلال الأربع

ص: ٦٩



و العشرين ساعه-متعب و يبعث على الضجر، إذ أنه يرغب في أن يكون حرا خلال فتره من الليل و النهار ليستريح بعيدا عن هذه القيود، مع أسرته و بين أولاده، لهذا يلجأ إلى منزله الخاص به، و ينعزل بذلك عن المجتمع بشكل مؤقت، ليتخلص من قيوده، فيجب أن يكون محيط المنزل آمنا إلى حدّ كاف.

و أمّا إذا أراد كلّ عابر الدخول إلى منازل الآخرين، فلا تبقى حرمة لمنازل الناس، و يسلب منها أمنها و حرّيتها، و بهذا تتحول إلى بيئه عامّه كالسوق و الشارع. و لهذا السبب كانت بين الناس -على مرّ العصور- أعراف خاصّه في هذا المجال. حتى أن جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان و تعاقب عليه، و حتى في حالات الضروره القصوى و لغرض حفظ الأمن و غايات أخرى أجز عدد قليل على وفق القانون بالدخول إليها.

و نصّت الأحكام الإسلاميه على تعاليم و آداب خاصّه في هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلا نادرا.

نقرأ

في حديث أن الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري استأذن على الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو مستقبل الباب فقال عليه الصلاه و السّلام: «لا تستأذن و أنت مستقبل الباب». (١)

و

جاء في حديث آخر أن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب.

من تلقاء وجهه و لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السّلام عليكم، و ذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

و جاء في الأحاديث الإسلاميه ضروره استئذان المرء حين دخوله إلى منزل والده أو والدته، و حتى حين الدخول إلى منزل ولده.

(٢)

و

جاء في حديث عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم جوابا على استفسار رجل: قال: استأذن

ص: ٧٠

(١-١) -تفسير فخر الرازي، المجلد ٢٣، ص ١٩٨، آخر آيه موضع البحث.

(٢-٢) -المصدر السابق.

على امي؟ أجاب صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ: نعم. قال: إنها ليس لها خادم غيري أفاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ: أتعجب أن تراها عريانه؟ قال الرجل لا، فقال صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ:

فاستأذن عليها (١).

و

جاء في حديث آخر عن الامام الباقر عليه السَّلام عن جابر بن عبد الله الانصارى قال: «خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ يريد فاطمه عليها السَّلام وأنا معه فلما انتهينا إلى الباب وضع يده فدفعه ثم قال: السَّلام عليكم، فقالت: فاطمه عليها السَّلام: عليك السَّلام يا رسول الله، قال: أدخل؟ قالت: ادخل يا رسول الله، قال صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ: أدخل و من معي؟ قالت:

يا رسول الله ليس عليّ قناع، فقال: يا فاطمه خذي فضل ملحفتك فقنعي به رأسك ففعلت، ثم قال: السَّلام عليكم، فقالت: و عليك السَّلام يا رسول الله، قال: أدخل؟ قالت: نعم يا رسول الله، قال أنا و من معي؟ قالت: و من معك، قال جابر: فدخل رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ فدخلت...» (٢) وهذا الحديث يبيّن لنا كيف كان النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ و هو القدوة للمسلمين كافه، يراعى هذه الأمور بدقه، و حتى جاء في حديث.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السَّلام قال: «الاستئذان ثلاثة: أولهنّ يسمعون، و الثّانيه يحذرون، و الثّالثه إن شأؤوا أذنوا و إن شأؤوا لم يفعلوا فيرجع المستأذن». (٣)

و يرى بعض المفسيّرين ضروره وجود فواصل زمنيّه بين كل استئذان و آخر، إذ قد يكون صاحب المنزل لم يتهيأ -بعد- بلباس مناسب، أو يريد تغيير هيئته أو إعداد منزله، فيجب إعطاءه فرصه ليعدّ نفسه و منزله لاستقبال ضيفه، و على الضيف الانصراف دون انزعاج أو توتّر إن لم يسمح له بالدخول.

ص: ٧١

١-١) -تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، الصفحة ٥٨٦.

٢-٢) -نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٥٨٧.

٣-٣) -وسائل الشيعه المجلد الرابع عشر، صفحه ١٦١، أبواب مقدمات النكاح، الباب ٢٣.

## ٢- ما المقصود بالبيوت غير المسكونه؟

فى معرض الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من الإشارة إلى اختلاف المفسّرين فى ذلك، فقد قال البعض: يقصد بها المباني التى لا يسكنها شخص معين، وهى لعموم الناس، كالمنازل العامّة فى الطرق البريه و الفنادق و الحمامات العامّة و أمثالها. وقد جاء هذا المعنى بصراحه فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام (١).

و فسّر البعض ذلك بالخرائب التى ليست لها جدران و لا أبواب، يدخلها من يشاء، غير أنّ هذا التفسير يبدو بعيدا جدا عن الصواب، فلا أحد يضع متاعه فى هذه المنازل.

و قال آخرون: إنّها إشارة إلى مخازن التجار و حوانيتهم، التى احتوت على متاع الناس أمانه لديهم لغرض البيع، و يمكن لكلّ صاحب متاع الدخول إلى هذا المخزن ليأخذ متاعه، و هذا التفسير أيضا يبدو غير منسجم مع ما قصده الآيه.

كما يحتمل أنّها قصدت المنازل التى ليس فيها أحد، و يضع المرء متاعه فيها أمانه بعد علمه برضا صاحبها ضمنا فى حراستها و رفعها عند الحاجة.

و بعض هذه التفاسير لا يتناقض مع غيره، إلا أنّ التفسير الأوّل ينسجم انسجاما أفضل مع معنى الآيه و قصدها، و يتضح بذلك أنّه لا يجوز لشخص له متاع فى منزل أن يدخل المنزل دون استئذان من صاحبه حتى لو لم يكن فى البيت أحد حينذاك.

## ٣- عقاب من يتلصص على منازل الناس:

جاء فى كتب الفقه و الحديث. إذا تلصّص شخص على داخل منزل و شاهد امرأه فيه لم تتحجب، فلاهل الدار أوّلا نهيه عن هذا العمل، و إن امتنع رموه

ص: ٧٢

بالحجاره.و إن عاود،فيامكانهم الدفاع عن أعراضهم بأله جارحه،فلو قتل هذا الشخص فى هذه الحاله فدمه هدر ولا ديه له.  
و طبيعى أنه لا بدّ من تتبع هذه الخطوات أولاً بأول.أى:عليهم أولاً إتباع السبيل اليسير لمنعه،ثمّ اتباع أسلوب العنف.

ص: ٧٣

اشاره

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

سبب النزول

جاء في كتاب الكافي حول سبب نزول أول آيه من الآيات السابقة، عن

الإمام الباقر عليه السّلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة و كان النساء يقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها و هي مقبله، فلما جازت نظر إليها و دخل زقاق قد سمّاه يعنى فلان، فجعل ينظر خلفها و اعترض وجهه عظم فى الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره، فقال: و الله لا تين رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و لأخبرته، قال: فاتاه فلما رآه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال له: ما هذا فأخبره، مهبط جبرئيل عليه السّلام بهذه الآية: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . (١)

## التفسير

## اشاره

### مكافحه السفور و خائنه الأعين:

قلنا فى البدايه: إنّ هذه السوره- فى الحقيقه- اختصت بالعفه و الطهاره و تطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسيه، و بحوثها منسجمه، و هى تدور حول الأحكام الخاصه بالنظر إلى الأجنبيه و الحجاب، و لا يخفى على أحد ارتباط هذا البحث بالبحوث الخاصه بالقذف.

تقول الآية أولاً: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .

و كلمه «يغضوا» مشتقه من «غضّ» من باب «ردّ» و تعنى فى الأصل التنقيص، و تطلق غالباً على تخفيض الصوت و تقليل النظر. لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم. بل أمرت أن يغضوا من نظرهم. و هذا التعبير الرائع جاء لينفى غلق العيون بشكل تام بحيث لا- يعرف الإنسان طريقه بمجرد مشاهدته امرأه ليست من محارمه، فالواجب عليه أن لا- يتبحر فيها، بل أن يرمى ببصره إلى الأرض، و يصدق فيه القول أنه غضّ من نظره و أبعد ذلك المنظر من مخيلته.

ص: ٧٥

١ - ١) - وسائل الشيعه، المجلد الرابع عشر، صفحہ ٣٩، تفسير نور الثقلين، و الميزان، و روح المعانى مع بعض الاختلاف فى تفسير الآيه موضع البحث.

وَمِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَحْدُدِ الشَّيْءَ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ غَضَّ النَّظْرِ عَنْهُ. (أَيُّ أَنَّهُ حَذَفَ مُتَعَلِّقُ الْفِعْلِ) لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى عُمُومِيَّتِهِ. أَيُّ غَضَّ النَّظْرَ عَنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ النَّظْرَ إِلَيْهَا.

وَلَكِنْ سِيَاقُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَخَاصَّةً فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ قَضِيَّةِ الْحِجَابِ، يُوَضِّحُ لَنَا جِدًا أَنَّهَا تَقْصِدُ النَّظْرَ إِلَى النِّسَاءِ غَيْرِ الْمُحَارَمِ، وَ يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى سَبَبُ التَّرْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ (١) سَابِقًا.

وَ يَتَّضِحُ لَنَا مِمَّا سَبَقَ أَنَّ مَفْهُومَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ لَيْسَ هُوَ حَرْمَةُ النَّظْرِ الْحَادِ إِلَى النِّسَاءِ غَيْرِ الْمُحَارَمِ، لِيَتَصَوَّرَ الْبَعْضُ أَنَّ النَّظْرَ الطَّبِيعِيَّ إِلَى غَيْرِ الْمُحَارَمِ مَسْمُوحٌ بِهِ، بَلْ إِنَّ نَظْرَ الْإِنْسَانِ يَمْتَدُّ إِلَى حَيْزٍ وَاسِعٍ وَ يَشْمَلُ دَائِرَتَهُ وَاسِعَةً، فَإِذَا وَجَدَ امْرَأَةً مِنْ غَيْرِ الْمُحَارَمِ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَهَا عَنْ دَائِرَتِهِ نَظْرَهُ. وَ أَلَّا يَنْظُرَ إِلَيْهَا، وَ يُوَاصِلَ السَّيْرَ بَعَيْنٍ مَفْتُوحَةٍ، وَ هَذَا هُوَ مَفْهُومُ غَضِّ النَّظْرِ. (فَتَأْمَلُوا جِدًا).

الْحُكْمُ الثَّانِي فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: هُوَ «حِفْظُ الْفُرُوجِ». وَ «الْفَرْجُ» - كَمَا قَلْنَا سَابِقًا - يَعْنِي الْفَتْحَةَ وَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، إِلَّا أَنَّهَا هُنَا وَرَدَتْ كَنَائِهِ عَنِ الْعَوْرَةِ.

وَ الْقَصْدُ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ - كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ - هُوَ تَغْطِيَتُهُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَ

قَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ: «كُلُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِيهَا ذِكْرُ الْفُرُوجِ فَهِيَ مِنَ الزَّانَا، إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَإِنَّهَا مِنَ النَّظْرِ» (٢).

إِنَّ الْإِسْلَامَ نَهَى عَنِ هَذَا الْعَمَلِ الْمُنْدَفِعِ مَعَ الْأَهْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ وَ الشَّهَوَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَرْكَبٌ لَكُمْ كَمَا نَصَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ - مَوْضِعُ الْبَحْثِ فِي خَتَامِهَا.

ثُمَّ تَحْذَرُ الْآيَةُ أَوْلَادَكُمْ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ بِشَهْوَةٍ إِلَى غَيْرِ مُحَارَمِهِمْ، وَ يَبْرُرُونَ عَمَلَهُمْ هَذَا بِأَنَّهُ غَيْرُ مُتَعَمِّدٍ فَتَقُولُ: وَاللَّهِ يَعْزَمُ مَا تَصْنَعُونَ

ص: ٧٦

١ - ١) - اختلف المفسرون في تعليل وجود «من» في جملة يَعْزَمُونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ فقال بعضهم إنها للتبعيض و قيل: إنها زائده، و قيل: ابتدائية. و لكن الظاهر هو المعنى الأول.

٢ - ٢) - أصول الكافي، و تفسير علي بن إبراهيم (وفق ما نقله نور الثقلين المجلد الثالث، صفحته ٥٨٨، ٥٨٧).

و تناولت الآيه التاليه شرح واجبات النساء فى هذا المجال، فأشارت أولاً إلى الواجبات التى تشابه ما على الرجال، فتقول: وَقُلْ  
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .

و بهذا حرم الله النظر بريبه على النساء أيضا مثلما حرّمه على الرجال، و فرض تغطيه فروجهن عن أنظار الرجال و النساء مثلما  
جعل ذلك واجبا على الرجال.

ثم أشارت الآيه إلى مسأله الحجاب فى ثلاث جمل:

١- وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .

اختلف المفسرون فى تفسير الزينه التى تجب تغطيتها، و الزينه الظاهره التى يسمح باظهارها.

فقال البعض: إنّ الزينه المخفيه هى الزينه الطبيعیه فى المرأه (جمال جسم المرأه) فى حين أن استخدام هذه الكلمه بهذا المعنى  
قليل.

و قال آخرون: إنّها تعنى موضع الزينه: لأن الكشف عن أداه الزينه ذاتها كالعضد و القلاده مسموح به، فالمنع يخص موضعها، أى  
اليدين و الصدر مثلا.

و قال آخرون: خصّ المنع أدوات الزينه عند ما تكون على الجسم، و بالطبع يكون الكشف عن هذه الزينه مرادفا للكشف عن  
ذلك الجزء من الجسم. (و هذين التفسيرين الأخيرين لهما نتيجة واحده على الرغم من متابعه القضييه عن طريقين مختلفين).

و الحق أننا يجب أن نفسر الآيه على حسب ظاهرها و دون حكم مسبق، و ظاهرها هو التفسير الثالث.

و على هذا، فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهن المخفيه، و إن كانت لا تظهر أجسامهن، أى لا يجوز لهن الكشف عن لباس يتزيّن  
به تحت اللباس العادى أو العباءه، بنصّ القرآن الذى نهاهنّ عن ذلك.



و ذكرت الأحاديث التي رويت عن أهل البيت عليهم السلام هذا المعنى، فقد فسّروا الزينه المخفيه بالقلاده و الدمليج (حلى يشدّ أعلى الساعد) و الخلخال (١).

و قد فسّرت أحاديث عديده أخرى الزينه الظاهره بالخاتم و الكحل و أمثاله، لهذا نفهم بأن المراد من الزينه المخفيه الزينه التي تحت الحجاب (فتأملوا جيدا).

٢- و ثانی حکم ذکرته الآيه هو: وَ لِيُضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ و كلمه «خمر» جمع «خمار» على وزن «حجاب» في الأصل تعنى «الغطاء»، إلا أنه يطلق بصوره اعتياديه على الشىء الذى تستخدمه النسوه لتغطيه رؤوسهن.

و «الجيوب» جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقه القميص، و أحيانا يطلق على الجزء الذى يحيط بأعلى الصدر لمجاورته ياقه.

و يستنتج من هذه الآيه أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبه و جانبا من الصدر، فأمرهن القرآن برمي أطراف الخمار حول أعناقهن أى فوق ياقه القميص ليسترن بذلك الرقبه و الجزء المكشوف من الصدر. (و يستنتج هذا المعنى أيضا عن سبب نزول الآيه الذى ذكرناه آنفا).

٣- و تشرح الآيه فى حكمها الثالث الحالات التى يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهن و إظهار زينتهن، فتقول وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا .

١- لِبُعُولَتِهِنَّ .

٢- أَوْ آبَائِهِنَّ .

٣- أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ .

٤- أَوْ أَبْنَائِهِنَّ .

٥- أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ .

ص: ٧٨

٦- أَوْ إِخْوَانِهِمْ .

٧- أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ .

٨- أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ .

٩- أَوْ نِسَائِهِمْ .

١٠- أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .

١١- أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَى الرجال الذين لا رغبة جنسيه عندهم أصلا بالعنن أو بمرض غيره.

١٢- أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .

٤- وَ تَبَيَّنَ الْآيَةُ رَابِعَ الْأَحْكَامِ فَتَقُولُ وَ لَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِئَلَّا يَكْفُرَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ أَى على النساء أن يتحفظن كثيرا، و يحفظن عفتهن، و يتعدن عن كل شىء يثير نار الشهوه فى قلوب الرجال، حتى لا يتهمن بالانحراف عن طريق العفه.

و يجب أن يراقبن تصرفهن بشده بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم، و هذا كله يؤكّد دقه نظر الإسلام إلى هذه الأمور.

و انتهت الآيه بدعوه جميع المؤمنين رجالا و نساء إلى التوبه و العوده إلى الله ليفلحوا وَ تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَ تَوُوبُوا أَيُّهَا النَّاسُ مِمَّا ارْتَكَبْتُمْ مِنْ ذُنُوبٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ، بعد ما اطلعتن على حقائق الأحكام الإسلاميه، و عودوا إلى الله لتفلحوا، فلا نجاه لكم من كل الانحرافات الخطره إلاّ بلطف من الله و رحمته، فسلموا أمركم إليه! صحيح أنه لا معنى للذنوب و المعاصى- فى هذه المسأله- قبل نزول هذه الأحكام من الله، إلاّ- أننا نعلم بأنّ قسما من المسائل الخاصه بالانحطاط الخلقى ذا جانب عقلانى و كما فى الاصطلاح أنها من «المستقلات العقلية» و يكفى لوحده فى تحديد المسؤوليه.

مما لا شكّ فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين في عصرنا الذي سمّوه بعصر التعري و الحريه الجنسيه، ليس حديثا سارًا حيث يتصوّرونه أسطوره يعود لعصور خلت.

إلا- أنّ الفساد الذي لا حدّ له، و المشاكل المتزايدة و الناتجه عن هذه الحرّيات التي لا قيد لها و لا حدود، أدى بالتدرّج إلى إيجاد الأذن الصاغية لهذا الحديث.

و قد تمّ حلّ كثير من القضايا في بيئات إسلاميه و دينيه أخرى، خاصّه في أجواء إيران بعد الثوره الإسلاميه، و أوجب عن الكثير من هذه الأسئلة بشكل مقنع.

و مع كل هذا تستوجب أهميه الموضوع بحث هذه القضيه بحثا واسعا و عميقا.

و القضيه المطروحه (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحيح أن تستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع و النظر و اللمس (باستثناء المجامعه) و أن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الأمور خاصّه لأزواجهنّ؟ إنّ النقاش يدور حول هذا السؤال: هل يجب بقاء النساء في سباق لا نهايه له في عرض أجسامهنّ، و تحريك شهوات و أهواء الرجال؟ أو يجب تصفيه هذه الأمور من أجواء المجتمع، و تخصيصها بالأسره و الحياه الزوجيه؟! الإسلام يساند الأسلوب الثّاني. و يعتبر الحجاب جزءا من هذا الأسلوب، في الوقت الذي يساند فيه الغربيون و المتغربون الشّهوانيون الأسلوب الأوّل! يقول الإسلام: إنّ الأمور الجنسيه سواء كانت مجامعه أو استلذاذا عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاصّ بالأزواج، و محرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث المجتمع و انحطاطه، و عبارته هُوَ أَزْكَى لَكُمْ التي جاءت في الآيه

السابقه تشير إلى هذه المسأله.

إنّ فلسفه الحجاب ليست خافيه على أحد للأسباب التاليه:

١- إنّ تعرى النساء و ما يرافقه من تجميل و تدلل -و ما شاكل ذلك- يحرك الرجال -خاصّه الشباب- و يحطّم أعصابهم، و تراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، و أحيانا يكون ذلك مصدرا للأمراض النفسيه، فأعصاب الإنسان محدوده التحمّل، و لا تتمكن من الاستمرار فى حاله الهيجان؟ ألم يقل أطباء علم النفس بأنّ هذه حاله من الهيجان المستمر سبب للأمراض النفسيه؟ خاصّه إذا لاحظنا أنّ الغريزه الجنسيه، أقوى الغرائز فى الإنسان و أكثرها عمقا، و كانت عبر التاريخ السبب فى أحداث داميه و إجراميه مرعبه، حتى قيل: إنّ وراء كلّ حادثه مهمّه امرأه! أليس إثاره الغرائز الجنسيه لعبا بالنار؟ و هل هذا العمل عقلانى؟ الإسلام يريد للرجال و النساء المسلمين نفسا مطمئنه و أعصابا سليمه و نظرا و سماعا طاهرين، و هذه واحده من فلسفات الحجاب.

٢- تبين إحصاءات موثقه ارتفاع نسب الطلاق و تفكّك الأسره فى العالم، بسبب زياده التعرّى، لأنّ الناس أتباع الهوى غالبا، و هكذا يتحوّل حبّ الرجل من امرأه إلى أخرى، كلّ يوم، بل كل ساعه.

أمّا فى البيئه التى يسودها الحجاب (و التعاليم الإسلاميه الأخرى) فالعلاقه وثيقه بين الزوج و زوجته، و مشاعرهما و جبهما مشترك.

و أمّا فى سوق التعرى و الحريره الجنسيه، حيث المرأه سلعه تباع و تشتري، أو فى أقلّ تقدير موضع نظر و سمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمة، و تنهار أسس الأسر بسرعه كأنهيار بيت العنكبوت، و يتحمل هذه المصيبه الأبناء

بعد أن يفقدوا أولياءهم و يفقدوا حنان الأسره.

٣-انتشار الفحشاء و ازدياد الأبناء غير الشرعيين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء الحجاب، و لا- حاجه إلى إحصائيه بهذا الصدد، فشواهدا ظاهره فى المجتمع الغربى، و اوضحه بدرجه لا تحتاج إلى بيان.

لا- نقول: إنَّ السبب الرئيسى فى ازدياد الفحشاء و الأبناء غير الشرعيين ينحصر فى إلغاء الحجاب و عدم الستر، و لا نقول: إنَّ الاستعمار المشؤوم و القضايا السياسيه المخربه ليس لها دور قوى فيه، بل نقول: إن التعرى من الأسباب القويه لذلك.

و كما نعلم فإن انتشار الفحشاء و ازدياد الأبناء غير الشرعيين مصدر أنواع الجرائم فى المجتمعات البشريه قديما و حديثا.

و بهذا تتضح الأبعاد الخطره لهذه القضيه.

و عند ما نسمع أنَّ الولادات غير الشرعيه فى بريطانيا بلغت بحسب إحصائياتهم خمسمائه ألف طفل كلَّ عام، و أنَّ علماءها حدَّروا المسؤولين من مغبه هذا الوضع، ليس لأنَّه- كما يقولون- بسبب مخالفته للقضايا الأخلاقيه و الدينيه، و إنَّما بسبب الخطر الذى أوجده هؤلاء الأبناء لأمن المجتمع، فقد وجدوا أنَّهم يمثلون القسم الأعظم من ملفات القضايا الخاصه بالجرائم.

و من هنا ندرك أهميه هذه القضيه، و أنَّها كارثه حتى للذين لا يؤمنون بدين و لا يهتمون بأخلاق.

و كلَّما انتشر الفساد الجنسى فى المجتمعات البشريه اتَّسع التهديد لهذه المجتمعات و تعاظم الخطر عليها، و قد برهنت دراسات العلماء فى التربيه على ظهور الأعمال المنافيه للعفه، و تفشَّى الإهمال فى العمل و التأخر، و عدم الشعور بالمسؤوليه، فى المدارس المختلطه و المنشآت التى يعمل فيها الرجال و النساء بشكل مختلط.

٤-قضية «ابتذال المرأة» و سقوط شخصيتها فى المجتمع الغربى ذات أهميه كبيره لا تحتاج إلى أرقام، فعند ما يرغب المجتمع فى تعرى المرأة، فمن الطبيعى أن يتبعه طلبها لادوات التجميل و التظاهر الفاضح و الانحدار السلوكى، و تسقط شخصيه المرأة فى مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسيه، ليجعلها وسيله إعلاميه يروج بها لبيع سلعه أو لكسب سائح.

و هذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانيه، إذ يصبح شبابها و جمالها و كأنه المصدر الوحيد لفخرها و شرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنها أداه لاتباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسره فى صور البشر! كيف يمكن للمرأة فى هذا المجتمع أن تبرز علميا و تسمو أخلاقيا؟! و من المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، و تشتهر و تكسب المال الوفير، و تنحط إلى حد الابتذال فى المجتمع، ليرحب بها مسير و هذا المجتمع المنحط خلقيا، فى المهرجانات و الحفلات الساهره؟! هكذا حال المرأة فى المجتمع الغربى، و قد كان مجتمعنا قبل انتصار الثوره الإسلاميه كذلك، و نشكر الله على إنهاء تلك المظاهر المنحطه فى بلادنا بعد تأسيس الجمهوريه الإسلاميه، فقد عادت المرأة إلى مكانتها الساميه التى أرادها الله لها، و ها هى ذى تمارس دورا إيجابيا فى المجتمع مع محافظتها على حجابها الإسلامى، حتى أنها ساهمت بشكل فعّال خلف جبهات الحرب بمختلف الأعمال لدعم الجبهه و الجهاد فى سبيل الله.

و كان هذا جانبا من الفلسفه الحيويه لموضوع الحجاب فى الإسلام. و هو ينسجم مع تفسيرنا.

### **الإشكال الذى يورده معارضو الحجاب:**

نصل هنا إلى الانتقادات التى يطرحها معارضو الحجاب، فنبحثها بشكل

١- أهم الانتقادات التي يذكرها معارضو الحجاب أنّ النساء يشكلن نصف المجتمع، والحجاب يجعلهنّ في معزل عن المجتمع، و يكون ذلك سببا في تأخرهنّ الثقافي، وانعدام الاستفادة من هذه الطاقات العظيمه في ازدهار الإقتصاد. وإذا شغل مكانهنّ في المنشآت الثقافيه والاجتماعيه أصبحن موادّ استهلاكيه ليست بذات جدوى للمجتمع.

إلا- أنّ هؤلاء المتمسّكين بهذا المنطق غفلوا عن عدّه أمور، أو تغافلوا عنها، للأسباب التاليه:- أولاً: من الذي قال: إنّ الحجاب الإسلامي يعزل المرأة عن المجتمع؟ لئن صعب علينا الجواب عن هذا السؤال في السابق، فما نظن أننا بعد قيام الجمهوريه الإسلاميه المباركه بحاجه إلى دليل على نهضة المرأة نهضة كريمه و مشاركتها في تشييد المجتمع الإسلامي المنشود مشاركه تحقق النفع للمرأة والأسره والحكومه والأمه، فهى مسئوله في الدوائر والمصانع والمتاجر، وفي النشاط السياسى في المسيرات والمظاهرات، في الإذاعه والتلفزيون، وفي المراكز الصحيّه-خاصّه في معالجه جرحى الحرب-و في المدارس والجامعات، حتّى في ساحه الحرب ومجاهده العدو.

و باختصار: إنّ الواقع الاجتماعى في بلدنا خير جواب عن هذا السؤال: و إذ كنّا نتحدث في السابق عن إمكانيه حدوث ذلك، فإنّنا اليوم نراه ماثلا بين أعيننا.

و كما يقول الفلاسفه: خير دليل على إمكان وجود الشىء حدوثه، و لا حاجه للبرهنه على وجود الواقع.

ثانيا: إضافه إلى ذلك، ألا تعتبر إداره المنزل و تربيّه الأبناء الأصحاء رجال المستقبل-الذين يديرون عجله الإقتصاد و السياسه في البلاد- عملا؟ إن الذين لا يعدّون هذه المسؤوليه للمرأة أمرا ايجابيا جاهلون بحقيقه دور

المرأه فى الأسره و فى التربيه، و فى بناء مجتمع سليم فَعَال، بل لا يعترفون إلا بمغادره الرجال و النساء المنازل صباحا-كالغريبين- ليلتحقوا بالدوائر و المصانع. و يجعلون أبناءهم تحت رعايه الآخرين، فى دور الحضانه، أو يغلِقوا عليهم المنازل ليعيشوا فى معتقل دون رعايه، حتى يعود الوالدان من العمل و قد أرهقهما التعب! هؤلاء غافلون عن أنّ افتقاد الأطفال للرعايه و العطف، يؤدى إلى تحطّم شخصيتهم و يعرض المجتمع إلى الخطر.

٢- كما يتذرع معارضو الحجاب بادعائهم بأنّه يعوق المرأه عن نشاطها الاجتماعى و لا ينسجم مع العصر الحديث، و يقولون: كيف تحفظ المرأه حجابها و طفلها و عملها فى آن واحد؟! إنهم غافلون عن أنّ الحجاب ليس العباءه و نحوها، بل هو غطاء الجسم، فإنّ تسنى للمرأه الاحتجاب بالعباءه فذلك حسن، و إلاّ- كفاها غطاء الرأس و اللباس المحتشم حجابا. و قد لُبّت نساؤنا الريفيات و خاصّه العاملات- فى مزارع الرز المملوكه لعوائلهن- هذا اللباس، حيث يمارسن الحرّاه و البذار و الاهتمام بالزرع ثمّ حصاده، و برهنّ عمليًا على إمكانيه محافظه المرأه على حجابها دون أن يمنع ذلك ممارستها لاشقّ الأعمال.

٣- يعترض المخالفون للحجاب قائلين: إنّ الحجاب يفصل بين الرجال و النساء، و يزيد فى حرص الرجال بدلا من إخماد هذا الحرص، لأنّ (المرء حريص على ما منع).

و هذه سفسطه واضحه، فلو قارن المرء بين مجتمعنا على عهد الطاغوت و اليوم لتجلى له الحقّ صريحا، فبالأمس كان نزع الحجاب إجباريا، و اليوم يسود الحجاب الإسلامى مجتمعنا كله، و الفساد كان ينتشر بالأمس فى كل أنحاء البلاد، و يسيطر التسبب على معظم الأسر، و يزداد الطلاق بنسبه عاليه، و ترتفع نسبه



الموالييد غير الشرعيه، و آالف المصائب الأخرى. و نحن لا نجزم بأن كل الفساد قد زال فى بلادنا و اقتلعت جذوره، إلا أنه ممّا لا شك فيه أنه قد انخفض بدرجة كبيره، و استعاد مجتمعنا سلامته بدرجة كبيره.

و إذا استمر الوضع على هذا المنوال بعون من الله، فإننا ستمكّن من حلّ جميع المشاكل. و يبلغ مجتمعنا مرتبه الطهاره الكامله، و يحفظ للمرأه مكانتها الرفيعه.

## ٢- استثناء الوجه و الكفين

هناك اختلاف فى الرأى بين الفقهاء حول شمول حكم حجاب الوجه و الكفين من الرسغ إلى أطراف الأصابع، أم لا؟ الكثير من الفقهاء يرى أنّ تغطيه الوجه و الكفين مستثنى من حكم الحجاب، فى الوقت الذى أفتى آخرون بوجوب تغطيتها، أو فى الأقل احتاطوا فى وجوب تغطيتها، و طبيعى أنّ القول باستثناء وجوب الحجاب على الوجه و الكفين هو فى حاله عدم نشوب فساد، و إلاّ فيجب تغطيتها.

و هناك قرائن فى الآيه الشريفه تؤيد هذا الاستثناء و يؤيد الرأى الأول:

أ- استثناء الزينه الظاهر فى الآيه السابقه، سواء دلت على أنّها تقصد موضع الزينه أو الزينه ذاتها، تكشف عن عدم وجوب تغطيه الوجه و الكفين.

ب- إن حكم الآيه السابقه بوجوب رمى أطراف خمار المرأه على طرفى الياقه يفهم منه تغطيه جميع أجزاء الرأس و الرقبه و الصدر. و لم يتحدث هذا الحكم عن تغطيه الوجه، و هذا دليل آخر على هذا الرأى.

و لإيضاح ذلك نقول: كانت بعض نساء العرب يلبسن الخمار و يرمين طرفيه على الكتفين بشكل تبقى الرقبه و جزء من الصدر مكشوفين، و قد أصلح الإسلام هذه الحاله، فأمر بتغطيه الرقبه و الصدر برمى طرفى الخمار على جانبى ياقه

الثوب، لتبقى دائره الوجه وحدها مكشوفه.

ج- كما جاءت أحاديث إسلاميه عديده في هذا المجال تؤكد ما ذهبنا إليه (1) مع وجود أحاديث معارضه لها، ولكنها ليست بتلك الدرجه من الصراحه، و الجمع بينهما بالقول باستحباب تغطيه الوجه و الكفين-عند خشيه الفساد و الانحراف- أمر ممكن. كما تدل شواهد تاريخيه على أنّ تغطيه الوجه بقناع لم تكن عامّه في صدر الإسلام (ذكر شرح مفصل فقهي و روائى عن هذه القضيه في البحوث الفقيهيه عن النكاح).

إلا أننا نؤكد ثانيه أنّ هذا الحكم في وقت لا يؤدي إلى استغلال أو انحراف.

كما يجب القول: إنّ استثناء الوجه و الكفين من حكم الحجاب لا يعنى جواز النظر بشكل عمومى من قبل الرجال، و إنّما هو نوع من التسهيلات التي منحت للمرأة في الحياه.

### ٣- ما المقصود من نسائهنّ؟

ذكرنا في تفسير الآيه السابقه أنّ تاسع مجموعه مستثناه بالاطلاع على زينه النساء هنّ النساء الأخريات، و بملاحظه عبارته «نسائهنّ» ندرك أنّها تقصد النساء المسلمات، و لا يكشفن عن زينتهنّ لغير المسلمات، و فلسفه ذلك، أنّه من المحتمل أن يصفن غير المسلمات-لأزواجهنّ ما شاهدنه من زينه النساء المسلمات.

و هذا ليس عملا صائبًا من قبل المسلمات.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب (من لا يحضره الفقيه): «لا ينبغي للمرأة أن تكشف بين يدي اليهوديه و النصرانيه فإنهنّ يصفن ذلك لأزواجهنّ» (٢).

ص: ٨٧

١-١) - كتاب وسائل الشيعه، المجلد ١٤، صفحه ١٤٥، الباب ١٠٩، من أبواب مقدمات النكاح.

٢-٢) - من لا يحضره الفقيه، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، المجلد ٣، صفحه ٥٩٣.

لظاهر هذه العبارة مفهوم واسع، ويدل على أنه بإمكان المرأة الظهور دون حجاب بحضور عبدها، إلا أن بعض الأحاديث صرحت بأن ذلك يعنى فقط الظهور بين الجوارى حتى لو كنَّ غير مسلمات، ولا يشمل هذا الحكم العبيد.

ففى حديث للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام: «لا ينظر العبد إلى شعر سيده» (١).

و يستفاد من أحاديث أخرى تعميم هذا الحكم على الجوارى و العبيد، إلا أن ذلك خلافا للاحتياط.

#### ٥- تفسير أولى الإربه من الرجال

«الإربه» فى الأصل مشتقه من «أرب» على وزن «عرب» و كما يقول الراغب الأصفهاني فى مفرداته، شدّه الحاجه التى تدفع بالإنسان إلى إيجاد حلّ لها.

كما استعملت بمعنى الحاجه بشكل عام. و القصد هما من «أولى الإربه من الرجال» الذين لهم رغبه جنسيه و هم بحاجه إلى زوجه، و على هذا، فإن «غير أولى الإربه» هم الرجال الذين لا رغبه جنسيه لديهم أصلا.

و لكن من المقصود بذلك؟ هنالك اختلاف بين المفسرين.

قال البعض منهم: إنهم كبار السنّ الذين خمد لديهم دافع الشهوه الجنسيه، (كالقواعد من النساء و النسوه اللاتى تجاوزت أعمارهن حدّ الزواج و هنّ كالمتقاعدات فى هذا المجال).

و قال آخرون: إن المقصود هو الخصى من الرجال.

و قال بعض المفسرين: إنّه الرجل الخنثى، أى: الذى لا يمتلك آله الرجوله.

إلا أن التفسير الذى يمكن الاعتماد عليه هو الذى جاء فى أحاديث مؤكده

عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام: «هو الأحمق الذى لا يأتى النساء» من أن القصد هنا هو الأبلة من الرجال الذى لا يحسّ برغبه جنسيه أبدا، و يستفاد منهم فى الأعمال البسيطة و خدمه الأفراد، و عبارته «التابعين» تؤكد هذا المعنى (1).

و بما أن هذا الوصف - أى عدم الشعور بالرغبه الجنسيه - فنه خاصّه من المسنين يصدق على. فلا نستبعد إمكانية توسعه مفهوم الآيه ليشمل هذه الفئة، و قد روى حديث عن الإمام الكاظم عليه السّلام يؤكّد ذلك، بيد أن ذلك لا يعنى أنّهم يصبحون من المحارم، غاية الأمر هو عدم وجوب تغطيه الرأس أو جزء من اليدين بحضور هذه المجموعه.

## ٦- أى طفل مستثنى من هذا الحكم؟

ذكرنا أن المجموعه الثانيه عشره - أى الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم - مستثنون من حكم الحجاب.

و عبارته «لم يظهروا» تعنى أحيانا «لم يطلعوا» و أحيانا أخرى «لم يعتدوا» لأنها جاءت بهذين المعنيين، حيث استعملها القرآن مرّه بهذا المعنى، و أخرى بالمعنى الثّانى، و مثال ذلك ما جاء فى الآيه (٢٠) من سوره الكهف: **إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ**.

و نقرأ فى الآيه الثانيه من سوره التوبه كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَا ذِمَّةَ .

إلا أن هذا الفرق ليس له أثر كبير بالنسبه للآيه موضع البحث. حيث المقصود فيها الأطفال الذين ليس لهم ميول جنسيه، بسبب عدم قدرتهم و عدم اطلاعهم

ص: ٨٩

---

١ - ١) - لتوضح أكثر يراجع جواهر الكلام، المجلد ٢٩، صفحہ ٩٤، و كذلك الوسائل الباب ١١١، من مقدمات النكاح (المجلد ١٤، ص ١٤٨) و كذلك التهذيب المجلد السابع، صفحہ ٤٦٨.

و على هذا يجب على النساء المسلمات أن يتحجبن بحضور الأطفال الذين بلغوا مرحلة برزت فيها رغبتهم الجنسيه و قدرتهم على ذلك.

## ٧- لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم؟

يطرح هذا السؤال بعد دراسته الآيات السابقه: لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم -قط- و هم من المحارم؟ ربّما كان القرآن قد استهدف البلاغه فى تعابيره بعدم ذكر أئنه كلمه إضافيه، فقد دلّ استثناء ابن الأخ و ابن الأخت على أنّ العمّه و الخاله تعتبران من محارم الرجل، و يتّضح بذلك أن العم و الخال لإحدى النساء هما من محارمها.

و بعبارة أخرى: إنّ الحرمة ذات جانبين، فمن جهة بنات الأخت و بنات الأخ من محارم الرجال، و إنّّه من الطبيعى سيكون من الجهه الثانيه العمّ و الخال من المحارم «فتدبر».

## ٨- تحريم سبل الإثارة!

آخر كلام فى هذا المجال هو أنّ الآيه السابقه نصّت على حرمة المشى بقوّه من قبل النساء ليسمعن صوت الخللخال.

و هذا يدل على دقّه الأحكام الإسلاميه و مبلغ اهتمامها بالقضايا الخاصه بعفّه الناس و شرفهم، بحيث لا يسمح معها بالقيام بمثل هذه الأعمال.

و من البداهه أن لا يسمح الإسلام بإثارة شهوات الشباب، عن طريق نشر الصور الخلاعيه، و الأفلام المثيره للشهوات، و القصص و الروايات الجنسيه، و لا-ريب فى أنّ البيئه الإسلاميه يجب أن تكون طاهره سليمه من هذه الأمور التى تجرّ أفرادها إلى مهاوى الفساد و ظلماته، و تدفع بالشباب و الشابات نحو الانحطاط الخلقى و الرذيله.

اشاره

وَ أَنْكِرُوا الْأَيْمَانَ بِكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لَيْسَ تَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَ لَا تَكْرَهُوا وَ قِيلَ اتُّبِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَحْصِنُوا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

التفسير

اشاره

الترغيب في زواج يسير التكليف:

طرحت هذه الآيه-منذ بدايتها حتى الآن-سبلا آمينه متعدده للحيلولة دون الانحطاط الخلقى و الفساد، فكل واحد من هذه السبل يرتقى بالأمه فردا و جماعه

إلى عالم أرحب من الطهر و الاستقامة، و يحول دون تقهقرها أو انحدارها فى مهاوى الرذيله، و قد أشارت الآيات-موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحه الفحشاء، ألا و هو الزواج اليسير الذى يتم بعيدا عن أجواء الرياء و البذخ، لأن إشباع الغرائز بشكل سليم و شرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب، أو بعبارة أخرى: كل مكافحه سلبية لا بد أن ترافقها مكافحه إيجابيه.

لهذا تقول بدايه الآيه موضع البحث: **وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ .**

و«الأيامى» جمع «أيم» على وزن «قيم» و تعنى فى الأصل المرأه التى لا-زوج لها، و كذلك تطلق هذه الكلمه على الرجل الذى لا زوجه له، فيدخل فى هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكرا أم ثيبا.

و عبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا»-و بما أنّ الزواج يتم بالتراضى و حريه الإختيار الطرفين، فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج، عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجه، أو العثور على زوجه مناسبه، أو التشجيع على الزواج و الاستفادة من وساطه الأشخاص لحلّ المشاكل المستجده.

و باختصار: إنّ مفهوم الآيه واسع، حتى أنه ليضم كل خطوه و حديث فى هذا المجال. و لا اختلاف فى أنّ أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

و جاء ذلك هنا بصراحه ليؤكد أهميّه الزواج الخاصّه. و هى أهميّه بالغه المدى، إذ

ورد حديث بصدها عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قوله: «أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع الله بينهما». (1)

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام موسى الكاظم عليه السّلام قوله: «ثلاثه يستظلون

ص: ٩٢

---

١-١) - وسائل الشيعه، المجلد ١٤، صفحه ٢٧ (الباب ١٢ من أبواب مقدمات النكاح).

بظلّ عرش الله يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلا ظله، رجل زوّج أخاه المسلم، أو خدمه، أو كتم له سرّاً» (١).

كما

جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله في الذى يسعى لزواج أخيه المسلم «كان له بكلّ خطوه خطأها، أو بكلّ كلمه تكلم بها فى ذلك عمل سنه قيام ليلها و صيام نهارها» (٢).

و بما أنّ بعض الإعدار كالفقر أو عدم وجود و توفرّ الإمكانيات اللّازمه قد تقف حائلا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج و تشكيل الأسره. يقول القرآن بهذا الصدد: **إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .**

إنّ قدره الله واسع و سعه تشمل عالم الوجود كلّه، و علمه واسع يحيط بما خفى و بما ظهر من المقاصد و الأفعال، خاصّه الذين يقدمون على الزواج ابتغاء المحافظه على عفتهم و طهارتهم، و بهذا يشمل الله الجميع بفضله و كرمه.

و لنا فى هذا المجال دراسه و تحليل، و سنذكر أحاديث عديده فى نهايه هذا البحث.

و لكن أحيانا بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئه مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون فى ذلك، ممّا يضطره إلى مضى فتره من الزمن محروما من الزواج، و لكى لا يظنّ أن إقدامه على الفساد أمر مباحا تقتضيه الضروره أسرعت الآيه التاليه لتأمره بالطهاره و العفه فقالت: **وَ لَيْسَتَعْفِى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .**

فيجب عليه تجنّب التلوث و الفساد فى هذه المرحله المتأزّمه و مواجهه الامتحان الإلهى، حيث لا يقبل أى عذر منه، فلا بدّ أن يمتحن قوّه إيمانه و شخصيته و تقواه فى هذه المرحله.

ص: ٩٣

١-١) - وسائل الشيعه، المجلد ١٤، صفحه ٢٧ (الباب ١٢ من أبواب مقدمات النكاح).

٢-٢) - المصدر السابق.



و يهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعيا من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسأله المكاتبه (و هى تعهد الغلام بتوقيعه اتفاقا ينص على القيام بعمل معين أو دفع مبلغ مقابل عتقه)، فتقول الآيه وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .

و تقصد عباره عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا أى قد بلغوا من النمو الجسمى و وجدتم فيهم صلاحيه لإبرام العقد، و قدرتهم على إنجاز ما تعهدوا به.

أمّا إذا لم يتمكنوا من الوفاء بما عاهدوا عليه، فلا ينبغى مكاتبتهم و عتقهم، لأنّ فى ذلك ضررا عليهم و على المجتمع، فيجب تأجيل ذلك إلى وقت آخر يؤهلهم من حيث القدره و الصلاحيه، و لأجل الأ- يقع العبيد فى مشاكل لا- يتمكنون من حلّها و يعجزون عن تسديد ما بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ .

هناك اختلاف حول هذا المال بين المفسّرين: فقال عدد كبير منهم: -إنه حصه من الزكاه، مثلما نصت عليه الآيه (٦٠) من سوره التوبه. ليتمكن العبيد من الوفاء بدينهم و انعتاقهم.

و قال آخرون: على مالك الغلام أن يتبرع بقسم من أقساط الدين، أو يساعده بإعادته إليه، ليتمكن من الحياه الحرّه.

كما يحتمل أن المقصود هنا منح العبيد فى البدايه مبلغا للإنفاق، أو جعله رأسمال لهم ليتمكنهم من التجاره و العمل و إداره شؤونهم الخاصّه، و دفع الأقساط التى بذمتهم، و طبيعى أنّ التفاسير الثلاثه هذه غير متناقضه. و يمكن للآيه السابقه أن تستوعبها جميعا.

و الهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفه بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه: «تضع عنه من نجومه

التي لم تكن تريد أن تنقصه، ولا تزيد فوق ما في نفسك» (١).

إشاره إلى مجموعه من الناس كانوا يكتبون عبيدهم بمبالغ أكبر مما يعطونهم، ويتظاهرون بمساعدتهم. وقد نهى الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك مبينا أنه يجب أن يكون التخفيض حقيقيا.

و عَقَّبَتْ هَذِهِ الْآيَةَ بِإِشَارِهِ إِلَى أَحَدِ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي كَانَ يَمَارِسُهَا عِبَادُ الدُّنْيَا إِزَاءَ جَوَارِيهِمْ: **وَلَا تُكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ** **إِنْ أَرَدَنْ تَحْصُنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**.

قال بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية: كان عبد الله بن أبي يملك ست جوار يجبرهن على البغاء، وعند ما نزلت آيات قرآنيه تنهى عن الفحشاء جئن إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و عرضن شكواهن على سيدهن عنده، فنزلت الآية أعلاه و نهت عن ارتكاب هذا الإثم (٢).

و هذه الآية تكشف عن مدى الرذيله و الانحطاط الخلقى الذى كان سائدا فى عهد الجاهليه. و قد واصل البعض أعماله القبيحه هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقه، و أنهت هذه الأعمال.

و مع بالغ الأسف نجد عصرنا الذى سمي بجاهليه القرن العشرين، تمارس البشريه هذا العمل بقوه و على قدم و ساق فى بلدان تدعى المدنيه و الحضاره و الدفاع عن حقوق الإنسان. و كذلك كان الوضع فى بلادنا على عهد الطاغوت، إذ كان هذا العمل القبيح يمارس ببشاعه و مراره، و كان البعض يخدع البنات البريئات و النساء الجاهلات، و يدفع بهن إلى مراكز الفساد، و يجبرهن على القيام بأعمال الرذيله و الفساد، و يغلق أبواب النجاه بوجههن ليجنى ثروات طائله و تفصيل الكلام فى ذلك مؤلم و خارج عن عهدہ هذا الكتاب.

ص: ٩٥

(١-١) - تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحہ ٦٠١.

(٢-٢) - مجمع البيان فى تفسير آخر الآيه موضع البحث، و تفسير القرطبي (مع بعض الاختلاف).

و بالرغم من أن العالم المعاصر يدعى التحضر و إزاله معالم العبوديه القديمه، إلا أن الجرائم و المفساد الخلقيه تشيع بشكل أكثر توحشا من كل ما حدث في غابر الأيام، و نسال الله أن يحفظ الإنسانيه من شر هؤلاء الذين يدعون التمدن.

كما نحمده و نشكره على زوال هذه المعالم من إيران بعيد انتصار الثوره الإسلاميه.

و جدير بالذكر أن عبارته إن أردن تحضناً لا- تعنى فى مفهومها أنهم إن رغبنا فى الفساد فلا مانع من إجبارهن، بل تعنى نفى الموضوع بشكل تام من قبيل السالبه بانتفاء الموضوع، لأن مسأله الإكراه تصدق فى حاله عدم الرغبه فيه. و إلا فيبيع الجسد و إشاعه هذا الفعل بأيه صورته كانت هو من كبائر الذنوب.

و جاءت هذه العبارة لتشير غيره مالكي الجوارى إن كان لهم أدنى غيره، و مفهومها أن الجوارى مع أنهم من الطبقة الدانيه و لكن لا- يرغبنا فى ارتكاب الفاحشه. فلما ذا ترتكبون هذه الأعمال المنحطه على الرغم من تصوركم أنكم طبقه راقيه؟ و فى الختام- على حسب الأسلوب الذى يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبه للمذنبين، و يشجعهم على إصلاح أنفسهم: **وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

و يمكن أن تكون هذه الجملة- كما قلنا- إشاره إلى الوضع السائد بين ملاك الجوارى الذين غلب عليهم الندم، و استعدوا للتوبه و إصلاح أنفسهم.

أو تكون هذه الجملة إشاره إلى النسوه اللواتى يرتكبن هذا العمل القبيح بإكراه من قبل أسيادهن.

و على نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج و تلخص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقه: **وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ كَذَلِكَ دَرَسَ و عبر من الأقبام الماضيه تنفعكم فى يومكم هذا: وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .**

## ١- الزواج سنّه إلهيه

على الرغم من أن الزواج في الوقت الحاضر قد تعقد بما أحاطته الأعراف الاجتماعيّة من عادات خاطئه و خرافيه أحيانا، فأصبح طريقا صعبا لا يتمكن الشاب من سلوكه، فإنّه لو اجترنا هذه العراقل لأدر كنا أنّ الزواج تعبير فطري منسجم مع قانون الخليقه و ضروري لبقاء نسل الإنسان، و سكن لروحه، و راحه لجسمه، و حل للمشاكل النفسيه و الاجتماعيّه. فالإسلام يخطو بانسجام مع الخلق، و له تعابير جميله مؤثره، و من جملتها

حديث مشهور عن الرسول الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم «تناكحوا و تناسلوا تكثروا. فإنّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط» (١).

و نقرأ

حديثا آخر له صلّى الله عليه و آله و سلّم «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتنق الله في النصف الباقي» (٢).

و السبب في كلّ هذا الاهتمام هو أنّ الغريزه الجنسيه من أقوى و أشرس الغرائز في الإنسان، و تنافس الغرائز الأخرى بأجمعها، و انحرافها يعرض دين المرء إلى الخطر، و لذا يعلو صوت

حديث نبوي آخر: «شراركم عزّابكم» (٣) لهذا شجعت الآيات-موضع البحث- و أحاديث عديده المسلمين على التعاون في تزويج العزّاب، و تقديم ما بوسعهم من مساعدات في هذا السبيل.

و قد حمل الدّين الإسلامي الآباء مسئوليّه كبيره عن أبنائهم، و الآباء الذين يتصرّفون دون مبالاه إزاء هذه القضيه، فإنّهم يشاركون في انحراف أبنائهم. كما نقرأ

في حديث للرسول الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم «من أدرك له ولد و عنده ما يزوجه فلم

ص: ٩٧

١- (١) -سفينه البحار، المجلد الأول، صفحه ٥٦١ (ماده الزوج).

٢- (٢) -المصدر السابق.

٣- (٣) -مجمع البيان، في تفسير الآيه موضع البحث.

يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما! (١).

وقد أكدت تعاليم الإسلام-لهذا السبب أيضا-بالتيسير في نفقات الزواج و المهر، لإزالة الحواجز من طريق العزّاب. خاصّه إذا علمنا أنّ المهر الغالى يقف حجر عثره في وجه زواج العزّاب.

ففي حديث للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم يقول: «من شؤم المرأة غلاء مهرها» (٢).

و

جاء في حديث آخر أعقب الحديث السابق: «من شؤمها شدّه مؤونتها» (٣).

وقد صرّحت الآيه السابقه بأنّ الفقر لا يمكن أن يكون مانعا للزواج، وقد يغنى الله المرء بالزواج.

وبهذا حكمت الآيه و أدانت الذين يفرون من الزواج بحجّه أنّهم فقراء، ولا يتحملون هذه المسؤوليه الإلهيه و الإنسانيه، بأعذار واهيه.

و السبب في التأكيد على الزواج، هو أنّ المرء يشعر بعد زواجه بمسؤوليته في الحياه، فيزج قواه للكسب الحلال. بينما نجد العزّاب في معظم الحالات مشردين! لعدم شعورهم بالمسؤوليه. و المتزوج يكتسب شخصيه اجتماعيه، حيث يجد نفسه مسئولا عن المحافظه على زوجته، و ماء وجه أسرته، و تأمين حياه سعيده و مستقبل زاهر لها. و يستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد في نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، لهذا

ذكر الإمام الصادق عليه السلام «الرزق مع النساء و العيال» (٤).

جاء في حديث للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم حين شكّا رجل إليه فقره فأجابه صلّى الله عليه وآله وسلم:

«تزوّج». فتزوّج فوسع له (٥).

ص: ٩٨

١-١) -مجمع البيان في تفسير الآيه موضوع البحث.

٢-٢) -وسائل الشيعه، المجلد الخامس عشر، الباب الخامس من أبواب المهور صفحه ١٠.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٥٩٥.

٥-٥) -وسائل الشيعه، المجلد الرابع عشر، صفحه ٢٥، الباب ١١ «من أبواب مقدمات النكاح».

و لا جدال في أن الإمدادات الإلهية و القوى الروحية الخفيه تساعد هذا الشخص الذى تزوج ليحفظ نفسه و يطهرها. و على كل مؤمن أن يطمئن لما وعده الله، فقد

ذكر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «من ترك التزويج مخافه العيله فقد ساء ظنه بالله، إن الله عز و جل يقول: إِنَّ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِلُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (١)» .

و هناك أحاديث عديده في هذا المجال، لو تناولناها جميعا بالبحث لخرجنا عن بحثنا التفسيري هذا.

## ٢-المراد من عبارته وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ .

مما يلفت النظر في الآيات موضع البحث أنها حين التحدث عن زواج الرجال و النساء الأيامي تأمر بالتعجيل في الزواج، و عدم وضع العراقيل في وجهه، أما بالنسبة للعبيد و الجوارى، فتطلب توفر شرط الصلاح فيهم للزواج.

و ذهب عدد من المفسرين (كالكتاب العظيم صاحب تفسير الميزان، و كذلك صاحب تفسير الصافي) إلى صلاحيتهم للزواج في حين أن هذا الشرط يجب أن يتوفر في النساء و الرجال الأحرار أيضا.

و قال البعض الآخر: إنه يقصد الصلاح من ناحيه الأخلاق و العقيدة، لأن الصالحين يتمتعون بمكانه خاصه من هذه الجبهه، و لكن السؤال يبقى على حاله:

لماذا لم يرد هذا الشرط في الأحرار؟ و يحتمل أن يكون المراد غير هذا: -إذ أن أكثر العبيد في تلك الفتره في مستوى ثقافى و أخلاقى واطى، فلا يشعرون بأية مسئوليته، و لا يقدرّون المشاعر المشتركه في الحياه. فلو تزوجوا لتركوا زوجاتهم بسهولة، و من هنا استوجبت الآيه التأكيد من صلاحيتهم للزواج.

ص: ٩٩

و مفهوم هذه الآيه أن يعدّوا العبيد للزواج أولاً بتهذيب أخلاقهم و زياده صلاحهم، ليكونوا بمستوى المسؤوليه التي تقع على عاتقهم بعد الزواج.

### ٣- ما هو عقد المكاتبه؟

قلنا: إنّ الإسلام وضع برنامج التحرر التدريجي للعبيد، و استفاد من كل فرصه لعتقهم، فكانت قضيه «المكاتبه» حكما يجب اتباعه، كما نصّت عليه الآيات موضع البحث.

و تشتق «المكاتبه» من الكتابه، و الكتابه في الأصل مشتقّه من «كتب» بمعنى «الجمع» أى: جمع الحروف و الكلمات. و بما أنّ العقد بين المولى و العبد يتمّ بكتابه موادّ يتفق عليها، فلذلك سمّيت «مكاتبه». فعقد المكاتبه نوع من الاتفاقات يتمّ بين المولى و عبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطا لسيّده، فإذا دفع آخر قسط ينال حريته.

و أمر الإسلام ألا تتجاوز هذه الأقساط ثمن العبد نفسه.

و إذا عجز العبد لسبب ما عن دفع الأقساط المترتبه بذمّته، و يجب أن تسدّد هذه الأقساط من بيت المال أو من الزكاه ليعتق، حتّى أنّ بعض الفقهاء قال بصراحه: إذا تعلقت زكاه بذمّ السّيد، و يجب عليه احتساب هذه الأقساط منها، و هذا العقد لازم التنفيذ، و لا يمكن فسخه من أى طرف من طرفى العقد.

و يتّضح بذلك كيف يجعل هذا المشروع عتق العبيد يسيرا، ليعيشوا أحرارا مستقلين حتى فى فتره إعداد الأقساط، كما أن أسيادهم لا يتضررون بذلك، فلا يدفعهم هذا إلى إلحاق الأذى بعبيدهم.

و لعقد المكاتبه أحكام و فروع عديده مذكوره فى الكتب الفقهيّه فى باب المكاتبه.

اشاره

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

التفسير

اشاره

آيه النور!

تحدث الفلاسفة و المفسرون و العرفاء الإسلاميون كثيرا عن مقاصد الآيات



أعلاه، وهي مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التي عرضت لقضيه العفه و مكافحه الفحشاء بمختلف السبل.

و بما أنّ ضمانه تنفيذ الأحكام الإلهيه، و خاصه السيطره على الغرائز النائره، و لا سيما الغريزه الجنسيه التي هي أقوى الغرائز، لا تتم دون الاستناد إلى الإيمان، و من هنا امتد البحث إلى الإيمان و أثره القوي، فقالت الآية أولاً: **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .**

ما أحلى هذه الجملة! ما أثنمها من كلمات! أجل إنّ الله نور السموات و الأرض...النور الذي يغمر كل شيء و يضيئه.

و يرى بعض المفسرين أنّ كلمه «النور» تعنى هنا «الهادي»، و ذهب البعض الآخر أنّ المراد هو «المنير». و فسرها آخرون ب«زينه السماوات و الأرض».

و كلّ هذه المعاني صحيحه، سوى أنّ مفهوم هذه الآية أوسع بكثير ممّا ذكر، فالقرآن المجيد و الأحاديث الإسلاميه فسرت النور بأشياء عدّه منها:

١- «القرآن المجيد»: ذكرت الآية (١٥) من سوره المائده: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ وَ جَاءَ فِي الْآيَةِ (١٥٧) من سوره الأعراف وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .**

٢- «الإيمان» ذكرت الآية (٢٥٧) من سوره البقره. **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .**

٣- «الهدايه الإلهيه» مثلما جاء في الآية (١٢٢) من سوره الأنعام أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟! ٤- «الدين الإسلامى» كما نقرأ في الآية (٣٢) من سوره التوبه: **وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .**

٥- «النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم» نقرأ عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم في الآية (٤٦) من سوره

الأحزاب: وَ دَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا .

٦- الأئمة الأطهار: كما جاء في الزيارة الجامعة لهم: «خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدّقين». وكذلك في نفس هذه الزيارة «و أنتم نور الأخيار و هداه الأبرار».

٧- «العلم و المعرفة» حيث عزّف بالنور كما جاء في الحديث المشهور «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

كلّ هذه من جهه، و من الجهه الأخرى علينا التدقيق في خصائص النور و ميزانه، ليتّضح أنّه يمتاز بما يلي:

١- النور أجمل و ألطف ما في العالم، و هو مصدر لكلّ جمال و لطف! ٢- النور أسرع الأشياء، كما ثبت لمشهورى العلماء الكبار في العالم، إذ تبلغ سرعته ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانيه. و بإمكانه الدوران حول الكره الأرضيه سبع مرات في طرفه عين (أقلّ من ثانيه واحده).

و لهذا السبب تقاس المسافات الهائله بين النجوم فقط بسرعه الضوء، و الوحده المستعمله في هذا المجال هي السنه الضوئيه، أي: المسافه التي يقطعها الضوء و هو بتلك السرعه الهائله في سنه واحده.

٣- بالنور يمكن مشاهدته الأشياء في العالم، و من دونه يستحيل رؤيه أيّ شىء، فالنور ظاهر بنفسه و مظهر لغيره.

٤- إنّ ضوء الشمس يعدّ من أهم أنواع النور في عالمنا، فهو ينمي الأزهار و النباتات و به تستمرّ الحياه، بل هو رمز بقاء المخلوقات الحيه، و لا يمكن لموجود حيّ أن يستمرّ في الحياه دون أن يستفيد من نور الشمس بصوره مباشره أو غير مباشره.

٥- ثبت اليوم أن جميع الألوان يمكن مشاهدتها بنور الشمس أو الأنوار الأخرى، و لولاها لعاشت المخلوقات في عتمه قاتمته.

٦- إن جميع أنواع الطاقة الموجوده في محيطنا(باستثناء الطاقه النوويه) مصدرها الشمس من قبيل حركه الرياح،سقوط المطر،و حركه الأنهر و الوسائط فيها و الشلالات و لو دققنا في حركه جميع المخلوقات الحيه لوجدناها ترتبط بنور الشمس.

مصدر الحراره و تدفئه الأحياء كلها هو الشمس،حتى أن حراره النار المتولده من الخشب أو الفحم أو الفحم الحجري أو النفط و مشتقاته مصدرها حراره الشمس.لأن هذه الأشياء بحسب الدراسات العلميه تعود إلى النباتات أو الحيوانات،و هذه بدورها قد استفادت من نور الشمس و حرارتها،فخزنت الفائض منها في جسمها،لهذا فإن حركه المحركات و المكائن أيضا من بركات الشمس.

٧-نور الشمس قاتل الميكروبات و المخلوقات المضره،و بفقدان هذا النور تتبدل الأرض إلى مستشفى كبير قد ابتلى سكانها بأنواع الأمراض و يصارعون الموت بين لحظه و أخرى! و كلما دققنا في عالم النور الذى يشكل ظاهره فريده،يتضح لنا أثره البالغ الأهميه و بركاته العظيمه.

و بملاحظه هاتين المقدمتين إذا أردنا تشبيه الذات المقدسه لرب العالمين (رغم منزلته العظيمه التى لا نظير لها و لا شبيهه)فلا نجد خيرا من النور؟!الله الذى خلق كل شىء فى عالم الوجود و نوره،فأحيا المخلوقات الحيه ببركته،و رزقها من فضل،و لو انقطعت رحمته عنها لحظه،لأصبح الجميع فى ظلمات الفناء و العدم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنه كلام الله.

و الدين الإسلامى نور لأنه دينه.

ص: ١٠٤

الأنبياء أنوار لأنهم رسله.

و الأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهيه، لأنهم حفظه دينه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و الإيمان نور، لأنه رمز الالتحام به سبحانه و تعالى.

و العلم نور، لأنه السبيل إلى معرفته -عزّ و جلّ-.

و لهذا: الله نور السموات و الأرض.

و إذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته و المظهر لغيره فى هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات الله المقدسه حقيقه و لا تشبيه فيها، لأنه لا يوجد أظهر من الله تعالى فى العالم، و كلّ الأشياء تظهر من بركات وجوده.

و

جاء فى كتاب التوحيد، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن معنى قوله تعالى: <sup>□</sup>اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قال «هاد لأهل السموات، و هاد لأهل الأرض».

و هذه فى الواقع واحده من خصائص النور الإلهي، و لا يمكن حصره بهذه الخصيصه، و لهذا يمكن جمع كلّ ما قيل فى تفسير هذه الآيه، و كلّ تفسير هو إشاره إلى أحد أبعاد هذا النور الذى لا مثيل له.

و الجدير بالذكر ما جاء فى الفقره السابعه و الأربعين من دعاء الجوشن الكبير الذى يحتوى على صفات الله تعالى:

«يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدر النور، يا نور كلّ نور، يا نوراً قبل كلّ نور، يا نوراً بعد كلّ نور، يا نوراً فوق كلّ نور، يا نوراً ليس كمثل نور» و بهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره و تنتهى بنوره الطاهر.

و قد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفه ذلك، إذ ذكر مثالا دقيقا لكيفيه النور الإلهي: <sup>□</sup>مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ

و لشرح هذا المثل يجب الإمام بعده أمور:

«المشكاه» فى الأصل تعنى الكؤه التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتيه فيها لحفظها من الرياح، و أحيانا تبني فى الجدار فتحه صغيره، يغطى جانبها المشرف على ساحه الدار بالزجاج، لإضاءة داخل و خارج الغرفه كما تحفظ المصباح من الرياح. كما تطلق هذه الكلمه على وعاء (الفانوس القديم) يصنع من زجاج على شكل متوازى المستطيلات له باب و فتحه فى أعلاه لخروج الهواء الساخن. و كانوا يضعون المصباح فيه.

و باختصار نقول: إنَّ المشكاه محفظه للمصباح من الرياح الشديده، و غالبا ما يثبت فى الجدار لتركيز الضوء و سهوله انعكاسه.

«الزجاجه» تطلق فى الأساس على الأحجار الشفّافه، و سمّيت الصفائح الشفّافه بالزجاج لأنّها تصنع من مواد معدنيه، و الزجاجه هنا تعنى الزجاجه التى توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، و تنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعله.

«المصباح» يتألف من وعاء للزيت و فتيل.

عبارة يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مُبَارَكِهِ زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّهِ وَلَا غَرْبِيَّهِ تشير إلى الطاقه التى تجهّز هذا المصباح بوقود لا ينضب معينه. و زيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم أن هذا الزيت يحصل عليه من زيتون شجر يتعرّض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون الشجره فى الجانب الشرقى من البستان و بجانب حائط يمنع وصول أشعه الشمس إليها، كما لا تكون فى جهه الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعه الشمس، فلا تنضج ثمرتها بصوره جيده و لا يكون زيتها نقيا و صافيا.

و بعد هذا الإيضاح يتبين أننا للاستفاده من نور المصباح بإشعاع قوى نحتاج إلى توفر أربعة أشياء.

«محفظه للمصباح» لا- تقلل من نوره، بل تركز هذا النور و تعكسه و«زجاجه» تنظم جريان الهواء حول الشعلة، و يجب أن تكون شفّافه بدرجه لا تمنع تشعشع النور، و«مصباح» هو مصدر النور، و هو عباره عن إناء فيه زيت و فى أعلاه الفتيل.

و أخيرا «ماده الاحتراق» صافيه خالصه شفّافه مستعده للاشتعال بدرجه يتصوّر فيها الإنسان إنَّها سوف تشعل لوحدها دون أن يمسّها قبس من النار.

كلّ هذه العبارات تكشف فى الحقيقه عن ظاهر القضية.

و من جهه أخرى أورد كبار المفسرين تفاسير عديده بشأن هذا التشبيه و أنّه ما هو «المشبّه» و من أىّ نور إلهى يكون:

قال البعض: المقصود هنا نور الهدايه التى يجعله الله فى قلوب المؤمنين، و بعباره أخرى: المقصود الإيمان الذى استقرّ فى قلوب المؤمنين.

و قال آخرون: إنّ المشبّه يعنى هنا القرآن الذى ينير قلوب الناس.

و آخرون: إنّّه إشاره إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم.

و آخرون: إنّّه إشاره إلى أدله التوحيد و العدل الإلهى.

و آخرون: إنّّه روح الطاعه و التقوى التى هى أساس كلّ خير و سعاده.

و فى الحقيقه فإنّ هذه التفاسير قد أوردت كلّ ما جاء فى القرآن و الأحاديث الإسلاميه بعنوان مصاديق للنور، و جوهرها واحد، و هو نور الهدايه بذاته، و مصدره القرآن و الوحي و وجود الأنبياء، و ينهل من أدله التوحيد، و تتيجه التسليم بحكم الله و التمسك بالتقوى.

و توضيح ذلك: إنّ نور الإيمان الموجود فى قلوب المؤمنين يحتوى على العناصر الأربعة المتوفّره فى المصباح المضىء، هى:

«المصباح» و هو شعله الإيمان فى قلب المؤمن يضىء طريق الهدايه.

و«الزجاجه» هى قلب المؤمن ينظم الإيمان فى ذاته و يحفظه من كل سوء.

و«المشكاه» صدر المؤمن، أو بعباره أخرى: شخصيته بما فيها وعيه و علمه

و فكره الذى يصون إيمانه من الأعاصير و الأخطار.

«شجره مباركه زيتونه»هى الوحي الإلهى الذى يكون بمنتهى الصفاء و الطهاره و توقد شعله إيمان المؤمنين-فى الحقيقه-من نور الله الذى ينير السموات و الأرض و قد.شرق من قلوب المؤمنين،فأضاء وجودهم و نور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدله العقلائيه بنور الوحي،فيكون مصداق«نور على نور».

و لهذا ترى القلوب المستعده لاستقبال النور الإلهى تهتدى،وهى المقصوده بعبارته يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ و على هذا فإن المحافظه على النور الإلهى (نور الهدايه و الإيمان)يستوجب توفر مجموعه من المعارف و العلوم و الوعى و الأخلاق و بناء الذات،من أجل أن تكون كالمشكاه تحفظ هذا المصباح.

كما تحتاج إلى قلب مستعد لينظم هذا النور الإلهى كما تنظم الزجاجه شعله المصباح.

و تحتاج إلى مدد من الوحي،ليمنحها طاقه مثلما تمنحها الشجره التى سماها القرآن بعبارته شَجَرَهُ مُبَارَكِهِ زَيْتُونِهِ .

و تجب المحافظه على نور الوحي من التلوث و الميول الماديه و الانحراف إلى الشرق أو الغرب الذى يؤدى إلى التفسخ و الاندثار.

و لتعبى قوى الإنسان بشكل سليم بعيدا عن كل فكر مستورد و انحراف، لتكون مصداقا ل يَكَادُ زَيْتُونُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .

و كل تفسير يتضمّن حكما مسبقا و يتضمّن ذوق المفسّر و عقيدته الخاصه به، أو رغبه يساريه أو يمينيه،أو خرافه يؤدى إلى تلويث سمعه هذه الشجره المباركه، و يقلل من تشعشع مصباحها.و أحيانا يطفئه.

هذا هو المثال الذى ذكره الله لنوره فى هذه الآيه،وهو الذى أحاط بكلّ شىء

و ممّا سلف يتّضح لنا أن ما ذكرته الزوايات عن الأئمة المعصومين عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآية أنّ المشكاه هي قلب نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله و سلّم و المصباح نور العلم، و الزجاجه وصيه على عليه السّلام، و الشجره المباركه إبراهيم الخليل عليه السّلام الذي يرجع نسب بيت النبوه إليه، و عباره لا شَرْقِيَّهٍ وَ لا غَرْبِيَّهٍ تعنى نفى أى ميل إلى اليهوديه و النصرانيه فهو وجه آخر لنور الهدايه و الإيمان، و مصداق واضح لها، و لا يعنى أنّ هذه الآية مختصه بهذا المصداق.

كما أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ النور الإلهي هو القرآن، أو الأدله العقلانيه، أو النبيّ صلّى الله عليه وآله و سلّم بذاته، له جذور مشتركه بالتفسير أعلاه.

و قد شاهدنا حتى الآن خصائص هذا النور الإلهي، نور الهدايه و الإيمان من خلال تشبيهه بمصباح قوى الإضاءه.

و يجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، و شكل موضعه؟ ليتّضح لنا ما كان ضروريا إيضاحه في هذا المجال. لهذا نقول الآية التاليه: إنّ هذه المشكاه تقع في بيوتِ أذنَ اللهُ أن ترفعَ لكي تكون في مأمن من الشياطين و الأعداء و الانتهازيين وَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ و يتلى فيها القرآن و الحقائق الإلهيه.

و قد اعتبر العديد من المفسّرين هذه الآية مرتبطه كما قلنا بالآيه التي سبقتها (1). غير أن البعض من المفسّرين يرى أنّ هذه الجملة ترتبط بالجملة التي تليها، إلا أنّ ذلك بعيد عن الصواب.

أمّا ما أورده البعض و تساءل عن مدى تأثير هذا النور الباهر في البيوت

ص: ١٠٩

١ - ١) - هكذا يكون تقدير الآية «هذه المشكاه في بيوت... أو هذا المصباح في بيوت... هذه الشجره في بيوت... نور الله في بيوت» في الوقت الذي يرى أصحاب التفسير الثّاني أنّ عباره «في بيوت» تعود إلى كلمه «يسبح» ليكون معنى الآية في بيوتِ أذنَ اللهُ أن ترفعَ وَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَ الْأَصْدِقَالِ أى في الصباح و المساء. إلا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع وجود كلمه «فيها» لأنّه يعد تكرارا لا داعي له، إضافة إلى عدم انسجامها مع الأحاديث الوارده بهذا الصدد (فتأملوا جيدا).



المذكوره بتلك الخصوصيات، فجوابه واضح، لأن البيوت التي ورد ذكرها في هذه الآيه و التي يحرسها رجال أشداء يفظون، هم الذين يفظون هذه المصايح المنيره، إضافه إلى أن هؤلاء الرجال يبحثون عن مصدر نور، فيهرعون إليه بعد أن يتعرّفون على موضع هذا النور.

و لكن ما المقصود من هذه البيوت؟ الجواب يتّضح بما ذكرته آخر الآيه من خصائص حيث تقول: أنه في هذه البيوت يسبح أهلها صباحا و مساء: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١).

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ

إن هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هي المراكز التي حصّنت بأمر من الله، و أنّها مركز لذكر الله و لبيان حقيقه الإسلام و تعاليم الله، و يضم هذا المعنى الواسع المساجد و بيوت الأنبياء و الأولياء خاصّه بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بيت عليّ عليه السلام. و لا دليل يؤيد حصرها من قبل بعض المفسرين-بالمساجد أو بيوت الأنبياء و أمثالها.

و

في الحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السلام «هي بيوت الأنبياء و بيت عليّ منها» (٢).

و

في حديث آخر حيث سئل النبي صلى الله عليه و آله و سلم لمّا قرأ الآيه، أي بيوت هذه؟ فقال:

«بيوت الأنبياء» فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها، يعني بيت عليّ و فاطمه. قال: «نعم، من أفاضلها» (٣).

ص: ١١٠

١ - ١) - «الغدو» على وزن «علو» بمعنى الصبح، و يقول الراغب الأصفهاني: الغدوه و الغداه من أوّل النهار، و قوبل في القرآن بالآصال، نحو قوله بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ و قوبل الغداه بالعشيّ. و «الآصال» جمع «الأصل» على وزن «رسل» و هو بدوره جمع للأصيل بمعنى العصر، و السبب في ذكر الغدو مفردة و الآصال جمعا؟ يقول فخر الرازي، لأنّ الغدو ذات بعد مصدرى و لا يجمع المصدر.

٢ - ٢) - تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٦٠٧.

٣ - ٣) - تفسير مجمع البيان للآيه موضع البحث.

و كل ذلك إشاره إلى مصاديق واضحة تذكرها الأحاديث كعادتها حين تفسير القرآن.

أجل، إنَّ كلَّ مركز يقام بأمر من الله، ويذكر فيه اسمه و يسبح له فيها بالغدو و الأصال، وفيه رجال لا تلهيهم تجاره عن ذكر الله، فهي مواضع لمشكاة الأنوار الإلهيه و الإيمان و الهدايه.

و لهذه البيوت عدّه خصائص.

أولها: أنّها شيدت بأمر من الله.

و الأخرى: إن جدرانها رفعت و أحكم بناؤها لتمنع تسلل الشياطين.

و ثالثها: أنّها مركز لذكر الله.

و أخيرا: فإنَّ فيها رجالا يحرسونها ليل نهار، و هم يسبحون الله، و لا تلهيهم الجواذب الدنيويه عن ذكر الله.

هذه البيوت بهذه الخصائص، مصادر للهدايه و الإيمان.

و لا بدّ من التنبيه إلى ورود كلمتين في هذه الآيه هما «التجاره» و «البيع» و هما كلمتان تبدوان و كأنّ لهما معنى واحدا، إلا أنّ الفرق بينهما هو أنّ التجاره عمل مستمر، و البيع ينجز مره واحده، و قد تكون عابره.

و يجب الالتفات إلى أنّ الآيه لم تقل: أنّ هؤلاء لا يمارسون أبدا التجاره و البيع بل قالت: إنّهم لا تلهيهم تجاره و لا بيع عن ذكر الله.

إنّهم يخافون يوم القيامة و العدل الإلهي الذي تتقلّب فيه القلوب و الأبصار من الخوف و الوحشه (و يجب الانتباه إلى أنّ الفعل المضارع، «يخافون» يدلّ على الاستمرار في الخوف، و هذا الخوف هو الذي دفعهم إلى تحمل مسؤولياتهم، و لبلوغ رسالتهم في الحياه).

و أشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافي لحراس نور الهدايه و عشاق الحقّ و الحقيقه، فقالت: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ،

و لا عجب فى ذلك، لأنّ الفضل الإلهى لمن كان جديرا به غير محدود: وَ اللّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

وقال بعض المفسرين عما تعنيه عبارته أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا فى هذه الآية، أنّها إشارته إلى جميع الأعمال الطيبة، سواء كانت واجبه أم مستحبه، صغيره أم كبيره.

و يرى آخرون أنّها إشارته إلى أنّ الله يكافئ الحسنه بعشر أمثالها، و أحيانا بسبعمائه مثلها، حيث نقرأ فى الآية (١٦٠) من سوره الأنعام: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . كما جاء فى الآية (٢٦١) من سوره البقره حول جزاء المنفقين فى سبيل الله أنّ المكافأه تعادل سبعمائه مره أو ضعفها.

كما يمكن أن تفسر العبارة السابقه بأنّ المقصود هو أنّ الله يكافئ جميع أعمالهم بموجب أفضلها، و يشمل ذلك أبسط أعمالهم و أوسطها، حيث يجعلها الله بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأه.

و ليس هذا بعيدا عن رحمه الله و فضله، و العدالة تقضى بمساواه المكافأه مع العمل فى سبيل الله، إلا أنّ رحمه الله وسعت كلّ شىء، فهو يهب دون حساب و لا حدود، فذاته المقدسه غير محدوده، و أنعمه لا تنتهى، و كرمه عظيم لا حدود له.

## ملاحظات

بيننا كثيرا من مسائل هذه الآيات خلال تفسيرنا لها، و بقيت عدّه أحاديث يقتضى الأمر ذكرها بغية إتمام هذا البحث.

١-نقرأ

فى كتاب روضه الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير آيه النور: «إن المشكاه قلب محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و المصباح النور الذى فيه العلم،

ص: ١١٢

و الزجاجة قلب علي عليه السلام أو نفسه» (١).

٢-و

جاء حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام في توحيد الصدوق «إن المشكاة نور العلم في صدر النبي صلى الله عليه وآله و سلم و الزجاجه صدر علي... و نور علي نور إمام مؤيد بنور العلم و الحكمة في أثر الإمام من آل محمد صلى الله عليه وآله و سلم، و ذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عزّ و جلّ خلفاء في أرضه و حجج علي خلقه، لا تخلو الأرض في كلّ عصر من واحد منهم» (٢).

٣-و فسر

حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام المشكاة بفاطمه عليها السلام و المصباح بالحسن عليه السلام و الزجاجه بالحسين عليه السلام. (٣)

و كما أشرنا سابقاً فإنّ للآيات مفهومًا واسعاً، و كلّ حديث من هذه الأحاديث يبيّن لمصادق بارز من مصاديقها دون الإخلال بعموميتها.

و بهذا لا نجد تناقضاً في الأحاديث السابقة.

٤-نقرأ

في حديث عن أبي جعفر الثمالي قال: قال أبو جعفر عليه السلام الباقر لقتاده:

من أنت؟ قال: أنا قتاده ابن دعامة البصرى فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصره؟ قال: نعم، فقال له الامام الباقر عليه السلام: ويحك يا قتاده إن الله خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه قوام بأمره نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظله عن يمين عرشه قال: فسكت قتاده طويلاً ثم قال:

أصلحك الله و الله لقد جلست بين يدي الفقهاء و قدامهم، فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك.

فقال له الإمام الباقر عليه السلام: أتدرى أين أنت؟ بين يدي: بُيوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

ص: ١١٣

١- ١) -نور الثقلين في تفسير الآيات موضع البحث (مع بعض التلخيص المجلد الثالث، صفحته ٦٠٢ و ٦٠٣).

٢- ٢) -المصدر السابق.



فأنت ثمّ و نحن أولئك.

فقال له قتاده: «صدقت و الله جعلنى الله فداك و الله ما هى بيوت حجاره و لا طين...» (١).

٥- ذكر

حديث آخر حول رجال الله حماه الوحي و الهدايه: «هم التجار الذين لا تلهيهم تجاره و لا بيع عن ذكر الله، إذا دخل مواقيت الصلاه أدوا إلى الله حقّه فيها» (٢) إشاره إلى أنّ هؤلاء الرجال همّهم ذكر الله و لا يقدمون عليه شيئاً، رغم أنّهم يمارسون نشاطا اقتصاديا فى الحياه.

٦- وصفت شجره الزيتون فى الآيات السابقه بأنّها شجره مباركه.

و كان لهذه الشجره أهميه بالغه حين نزول القرآن، و قد اتّضح ذلك اليوم، لأنّ كبار العلماء أخبرونا بخلاصه تجاربهم و دراساتهم عن خواصّ أنواع النباتات، و حول شجره الزيتون يقولون: إنّها مباركه حقاً، و ثمرها مفيد جدّاً، و يمنحنا أجود الزيوت، و لها دور حيوى فى سلامه الجسم.

يقول ابن عباس: إنّ أجزاء هذه الشجره مفيده و مريحه، و حتى رماد خشبها فيه منفعه، و هى أول شجره نبتت بعد طوفان نوح عليه السلام، و قد دعا لها الأنبياء و باركوا.

٧- ذكر المفسّرون الكبار عدّه تفاسير لعباره «نور على نور» فقال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: إنّها إشاره إلى أنبياء من نسل واحد يتعاقبون على النبوه و يواصلون طريق الهدايه.

و يقول الفخر الرازى فى تفسيره: إنّها إشاره إلى تجمع شعاع النور و تراكمه، حيث ذكر حول المؤمن: «يقف المؤمن بين أربعه مواقف، فإذا وهبه الله شكره،

ص: ١١٤

١-١) -المصدر السابق، ٦٠٩.

٢-٢) -المصدر السابق.

و إذا أصابته مصيبيه صبر و صمد، و إذا تكلم صدق، و إذا حكّم بين اثنين عدل، و هو إنسان واع بين جهله و مثله كحى بين أموات. إنه يسير بين خمسه أنوار: كلامه نور، عمله نور، إقامته نور، رحله نور، هدفه نور الله يوم القيامة».

و يمكن أن يكون النور الأوّل الذى ذكرته الآيه إشاره إلى نور الهدايه الإلهيه عن طريق الوحي، و النور الثّانى نور الهدايه عن طريق العقل.

أو أنّ النور الأوّل هو نور الهدايه التشريعه، و النور الثّانى نور الهدايه التكوينيّه فهو نور على نور.

و بهذا فسّرت هذه العبارة بمختلف مصادر النور، مرّه فسّرت بالأنبياء و أخرى بأنواع النور، و مره ثالثه بمراحل النور المختلفه، و هى ممكنه جميعا فى آن واحد، لأنّ مفهوم الآيه واسع جدا (فتأملوا جيدا).

ص: ١١٥

اشاره

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسِيرَابٍ بَقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ  
الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ  
يَكُنْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

التفسير

اشاره

أعمال سرايه

تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الإيمان و الهدايه. و لإتمام هذا البحث و لتوضيح المقارنه بين الذين نور الله قلوبهم و بين  
الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر و الجهل و الإلحاد المظلم، و تحدثت عن الكفار و المنافقين الذين وجودهم ظلمات  
بعضها فوق بعض خلافا للمؤمنين الذين أصبحت حياتهم و أفكارهم نوراً على نور .



الكلام فى الآيه الأولى عن الذين يبحثون عن الماء فى صحراء جافه حارقه، و لا يجدون غير السراب فيموتون عطشا، فى الوقت الذى عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، و منبع الهدايه الرائعه، فاستراحوا بجنبها، فتقول أولا:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

و لكن يجد الله عند أعماله وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ .

«السراب» مشتق من السرب على وزن «حرب» بمعنى الطريق المنحدر، و تطلق كلمه السراب على لمعان يشاهد فى الصحارى و المنحدرات من بعيد و كأنه ماء، و ما هو إلا انعكاس لأشعه الشمس (١).

و يرى البعض أنّ «القيعه» جمع «قاعه»، بمعنى الأرض الواسعه التى لا ماء و لا نبات فيها، و يطلق ذلك على الصحارى التى يظهر فيها السراب فى معظم الأحيان، إلا أنّ بعض المفسرين و اللغويين يرون أنّ هذه الكلمه مفرده، و جمعها «قيعان» أو «قيعات» (٢).

و رغم عدم وجود الفرق من حيث المعنى، فإنّ الآيه توجب أن تكون هذه الكلمه مفرده، لأنّها ذكرت السراب مفردا و السراب الواحد يكون فى أرض واحده طبعاً.

ثم تناولت الآيه الثانيه مثالا آخر لأعمال الكفار و قالت: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ وَ بهذا المنوال تكون ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها .

أجل، إنّ النور الحقيقى فى حياه البشر هو نور الإيمان فقط، و من دونه تسود

ص: ١١٧

١-١) -يقول علماء الفيزياء المعاصرون: عند ارتفاع درجات الحراره فالهواء المجاور للأرض يتمدد و يزداد تخلخله فيختلف مع الطبقة المجاوره له، و بذلك تنعكس موجه الضوء و يحدث السراب.

٢-٢) -تراجع التفاسير التاليه: مجمع البيان، روح المعانى، تفسير القرطبي، تفسير الفخر الرازى، و مفردات الراغب.

الحياء الظلمات، و نور الإيمان هذا إنما هو لطف من عند الله وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ .

و لفهم عمق هذا المثال لا- بدّ من الاهتمام بمعنى كلمه «اللججى» و هو البحر الواسع و العميق. و بالأصل مشتقّه من «اللجاج» بمعنى متابعه عمل ما(التي تطلق عادة على الأعمال غير الصحيحه) ثمّ أطلقت على تتابع أمواج البحر و استقرارها الواحده بعد الأخرى، و لقد استخدمت هذه الكلمه بهذا المعنى لأنّ البحر كلّما كان عميقا و واسعا تزداد أمواجه.

و لو تصوّرتم بحرا هائجا عميقا، و مع علمنا أنّ نور الشمس أقوى أنواع النور، لكنّه لا- ينفذ إلّا- بمقدار معيّن فى البحر، و آخر حدود نفوذه فى العمق لا يتجاوز سبعمائه متر، حيث يسود الظلام الدائم أعماق البحار و المحيطات.

كما نعلم أنّ الماء إذا كان هادئا يعكس النور بشكل أفضل، بينما تكسر أمواج البحر أشعه الشمس، و لا تسمح لها بالنفوذ إلى العمق إلّا- بمقدار أقل. و إذا أضفنا إلى ذلك مسأله مرور سحب داكن اللون فوق هذا البحر الهائج، فإنّ الظلام يزداد عتمه و سوادا بشكل كبير (١).

إن الظلام فى عمق البحر من جهه، و ظلمه الأمواج الهائجه من جهه أخرى، و ظلمه الغيوم السوداء من جهه ثالثه، ظلمات متراكمه بعضها فوق بعض.

و فى مثل هذا الظلام لا يمكن رؤيه أى شىء، مهما اقترب منا، حتّى لو وضع الإنسان الشىء نصب عينيه لما استطاع مشاهدته.

و هكذا حال الكفار الذين حرموا من نور الإيمان فابتلوا بهذه الظلمات، خلافا للمؤمنين الذين نور الله قلوبهم و طريقتهم و هم مصداق نُورٌ عَلَى نُورٍ .

و قال بعض المفسرين: إنّ هذه الظلمات ثلاثه أقسام، قد ابتلى غير المؤمنين

ص: ١١٨

١ - ١) - يجب الانتباه إلى أن «السحاب» يعنى كما جاء من «لسان العرب» الغيوم الممطره، و عادة تكون السحب المتراكمه أكثر عتمه.

بها، و هي: ظلمه العقيدة الباطله، و ظلمه القول الخاطيء، و ظلمه السلوك السيء، و بعبارة أخرى: إنّ أعمال غير المؤمنين أساسها الفكرى ظلمات. و كذلك أقوالهم التى هى انعكاس لعقائدهم، ثمّ انسجامها مع أفعالهم الظلمانية.

و قال آخرون: إنّ هذه الظلمات الثلاث عبارة عن مراحل جهل غير المؤمنين، و أولها أنّهم لا يعلمون، و ثانيها أنّهم لا يعلمون، بأنّهم لا يعلمون، و ثالثها أنّهم مع كل هذا يتصوّرون أنّهم يعلمون، و بهذا يعيشون فى جهل مركّب دامس.

و قال البعض الآخر: إنّ أساس المعرفة- كما يقول القرآن المجيد- فى ثلاثه أشياء: القلب و العين و الأذن (و بالطبع يعنى بالقلب العقل). كما جاء فى الآية (٧٨) من سورة النحل: **وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ (١)**. و لكن الكفار فقدوا بكفرهم نور العقل و السمع و البصر، فصاروا فى ظلمات متراكمه.

و لا تناقض بين هذه التفاسير الثلاثة، كما هو واضح، إذ يمكن أن تشملهم هذه الآيه جميعا.

و على كلّ حال، فيمكننا أن نصل إلى استنتاج عام من الآيتين السابقتين. فقد شَبَّهت الآيه أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن فى صحراء جافه، لا يروى هذا السراب العطاشى أبدا، و إنّما يزيد فى سعيهم للحصول على الماء فيرهقهم دون نتيجة تذكر.

ثمّ ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذى هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم و المخيف و الموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، و تظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه، فكيف يمكنه رؤيه الآخرين.

ص: ١١٩

و طبيعي أنّ المرء في هذه الظلمات في وحده مطلقه و جهل دائم، لا يجد طريقه، و لا رفيق سفره، و لا موقف له، و لا يملك وسيله للنجاه، لأنه لم يكتسب شيئاً من مصدر النور، أى الله سبحانه و تعالى، و قد ختم الله على قلبه بالجهل و الضلال.

و لعلكم تتذكرون أنّنا قلنا: أنّ النور مصدر أنواع الجمال و الحياه و الحركه، عكس الظلام الذى يعتبر مصدر القبائح و الموت و العدم و السكون و السكوت.

الظلام مصدر الخوف و الكراهيه، و هو توأم الهمّ و الغم، هكذا وضع الذين افتقدوا نور الإيمان، و غرقوا في ظلمات الكفر.

ص: ١٢٠

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

التفسير

اشاره

الجميع يسبح لله:

تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الهدايه و الإيمان، و عن الظلمات المضاعفه للكفر و الضلال.

أمّا الآيات موضع البحث، فإنّها تتحدّث عن دلائل الأنوار الإلهيه و أسباب الهدايه، و تخاطب الآيه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فتقول: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ كَذَلِكَ الطير يسبحن لله في حال أنها باسقاط أجنحتهن في السماء وَ الطيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

و بما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، و خالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، و كذلك دليل على أنّ كل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآيه وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

كما يحتمل وجود رابطة بين هذه الآيه و سابقتها، حيث تحدّثت الآيه الأولى في آخر جملة لها، عن علم الله بأعمال البشر جميعا و علمه بالمسيحين له.

أمّا هذه الآيه فقد أشارت إلى محكمه العدل الإلهي في الآخرة، و أنّ لله ما في السموات و الأرض، و هو الحاكم و القدير العادل في مصير الناس و ما في الوجود.

## مسائل مهمه:

### إشاره

#### ١- ماذا تعنى عباره أَلَمْ تَرَ .

حسبما يراها الكثير من المفسّرين، تعنى: ألم تعلم، حيث التسييح العام من قبل جميع المخلوقات في العالم لا- يمكن إدراكه بالعين، بل بالقلب و العقل.

و لكون هذه القضية واضحه جدا و كأنّها ترى بالعين المجرّده، استخدمت الآيه عباره أَلَمْ تَرَ .

كما يجب الانتباه إلى أنّه على الرغم من كون المخاطب في هذه الآيه النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بالذات، فإنّ عددا من المفسّرين يرى أنّها تشمل الناس جميعا، لأنّ ذلك من أساليب القرآن المجيد اتبعها في كثير من آياته.

و قال البعض: إنّ هذا الخطاب خاصّ بالنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في مرحله الرؤيا و المشاهده، حيث منحه الله القدره على مشاهده تسييح جميع المخلوقات، و كذلك منح سبحانه و تعالى هذه القدره لجميع عباده المخلصين له المتمسّكين بهداه.

أمّا بالنسبه لعامة الناس، فالمسأله تخصّ إدراكهم لتسييح الموجودات عن طريق العقل، و ليس بالمشاهده البصريّه (١).

ص: ١٢٢

تحدّث الآيات المختلفه فى القرآن المجيد عن أربع عبادات تمارسها مخلوقات هذا الكون العظيم، هى: التسيح، و الحمد، و السجود، و الصلاه، أما الآيه موضع البحث، فقد تناولت الصلاه و التسيح.

و تحدّث الآيه الخامسه عشره من سوره الرعد عن السجود العام: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**.

أما الآيه الزابعه و الأربعون من سوره الإسراء، فقد تحدّث عن التسيح و الحمد من قبل جميع المخلوقات فى الوجود كله و إنّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و قد تناولنا حقيقه الحمد و التسيح العامين من قبل المخلوقات و التفاسير المختلفه الوارده بهذا الصدد، فى تفسيرنا الآيه الزابعه و الأربعين من سوره الإسراء، و نذكر هنا ملخصه:

هناك تفسيران جديران بالاهتمام، و هما: - ١- إنّ ذرات هذا العالم كلها-عاقله أو غير عاقله-لها نوع من الإدراك و الشعور، و هى تسبح فى عالمها لله و تحمده على الرغم من عدم إدراكنا لها. و لهذا التفسير أدلّه قرآنيه.

٢- إنّ القصد من التسيح و الحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله» أى نظام الوجود و أسرارهِ المدهشه الكامنه فى كلّ مخلوق تتحدّث بصراحه عن عظمه الخالق و علمه و حكمته التى لا حدود لها، إذ كلّ مخلوق جميل، و كلّ أثر فنّى بديع يثير الدهشه و الإعجاب، حتّى أنّ لوحه فنيه و قطعه شعريه جميله، تحمد و تسبح لمبدعها. فمن جهه تكشف عن صفاته (بحمدها له) و من جهه أخرى تنفى عنه أى عيب أو نقص (فتسبحه). فكيف و هذا الكون العظيم بما فيه من عجائب و غرائب لا- تنتهى! (للاطلاع أكثر على ذلك يراجع تفسير الآيه ٤٤ من سوره الإسراء فى تفسيرنا هذا).

و إذا قلنا: إِنَّ عِبَارَةَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ تُعْنَى تَسْبِيحُ كُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ نَحْدُدُ كَلِمَةَ «مَنْ» بِذَوَى الْعُقُولِ، فَإِنَّ التَّسْبِيحَ يَخْصُّ هُنَا الْمَعْنَى الْأَوَّلَ، فَهُوَ تَسْبِيحٌ بَعْوَى وَ إِرَادَهُ وَ لَا يَزِمُ هَذَا الْقَوْلُ أَنَّ الطَّيُورَ أَيْضًا لَهَا شُعُورٌ، لِأَنَّ كَلِمَةَ الطَّيُورِ جَاءَتْ بَعْدَ حَرْفِ «مَنْ». وَ لَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ آيَاتِ قُرْآنِيهِ أُخْرَى قَالَتْ بِوُجُودِ مِثْلِ هَذَا الشُّعُورِ لِدَى بَعْضِ الطَّيُورِ (يُرَاجَعُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ ٣٨ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ).

### ٣- التسييح الخاص بالطيور:

ما السبب في ذكر تسييح الطيور من بين جميع المخلوقات، و خاصه في حاله بسط جناحيها في السماء؟ المسأله تكمن في أن الطيور إضافه إلى تنوعها الكبير، تمتاز بصفات خاصه تجلب نظر كل عاقل إليها، حيث تحلق هذه الأجسام - و بعضها ثقيل - في السماء خلافا لقانون الجاذبيه، و تطير بسرعه من نقطه إلى أخرى في الجو، و تتركب أمواج الرياح و هي بأسطه جناحيها دون أى تعب أو جهد. بشكل يثير الإعجاب.

و المثير فيها هو إدراكها لقضايا الأنواء الجويه، و معلوماتها الدقيقه لوضع الأرض الجغرافى - خلال سفرها و هجرتها من قاره إلى أخرى، حتى أن بعضها يهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى.

فهى تمتلك جهاز توجيه خفى عجيب يرشدها إلى الهدف إيان سفرها الطويل، حتى لو تلبدت السماء بالغيوم. و هذه من أكثر الأمور إثارة للدهشه و العجب، و من أوضح أدله التوحيد.

طيور الليل بدورها تملك رادارا مدهشا يخبرها حين الطيران في ظلمه الليل عن كل حاجز أمامها، حتى أن بعضها يرى سمكه تحت الماء، فيخطفها بسرعه البرق، و هذه ميزه مدهشه في هذه الطيور!!



و على كل حال فإن هناك أموراً عجيبة في الطيور جعلت القرآن المجيد يخصّها بالذكر.

#### ٤- عبارته كُلُّ فَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَ تَسْبِيحُهُ :

نسب عدد من المفسّرين ضمير «علم» إلى كلمه «كلّ»، و بهذا يصبح معنى العبارة السابقة: كلٌّ من في الأرض و السماء، و كذلك الطيور علم صلواته و تسبيحه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ ضمير (علم) يعود إلى الله تعالى، أى أنّ الله علم صلاه و تسبيح كلّ منهم.

و التفسير الأوّل يلائم الآيه بشكل أفضل.

و بهذا الترتيب يعلم كلّ مسيحيّ لله أسلوب تسبيحه و طريقته و شروطه و خصائص صلواته.

فإذا كان التسبيح بوعى من هذه الكائنات يتّضح جيداً مفهوم هذا الكلام، أمّا إذا كان بلسان حالها فيكون مفهومه أنّ كلّ واحد منها له نظام خاصّ يعبر بشكل من الأشكال عن عظمه الله، و كلّ واحد منها يعكس قدره الله و حكمته.

#### ٥- ما المقصود بالصلاه؟

قال بعض المفسّرين كالمرحوم «الطبرسى» في مجمع البيان، و «الآلوسى» في روح البيان: إنّ الصلاه هى الدعاء.

و هذا هو مفهومها اللغوى، و بهذا تمارس جميع المخلوقات في الأرض و السماء الدعاء إلى الله بلسان حالها أو مقالها و تسأله الرحمة، لأنّه أرحم الراحمين، و أنّه سبحانه و تعالى يمنّ عليها برحمته كلا بحسب قابليته.

غايه الأمر إنّهم جميعاً يعلمون حاجتهم و مطلبهم و ما ينبغي أن يدعون،

وإضافه إلى ذلك-وفق الآيات التي أشرنا إليها سابقا-فهم خاضعون لعظمه الله، وقد سلّموا بقوانين الخلق، ويردّدون من الأعماق الشناء على صفاته الكامله سبحانه و تعالى، ونفى كلّ نقص عنه جلّ اسمه المقدّس.

و بهذا الشكل تتمّ العبادات الأربع «الحمد» و«التسبيح» و«الدعاء» و«السّجود».

ص: ١٢٦

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

التفسير

اشاره

جانب آخر من الخلق العجيب:

نواجه ثانيه-في هذه الآيات-جانبا آخر من مسأله الخلق المدهشه،و ما احتوته من آيات العلم والحكمه والعظمه،و كل ذلك من أدله توحيد ذات الله الطاهره.

يخاطب القرآن المجيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثانيه ويقول أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا

ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا

و بعد أن تتراكم السحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب و تهبط على الجبال و السهول و الصحارى فَتَرَى الْوَدْقَ  
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .

و كلمه «يزجى» مشتقّه من «الإزجاء»، أى سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثره هنا و هناك بقصد جمعها.

و هذا التعبير يصدق بالنسبه للسحب، حيث ترتفع كلّ قطعه منه من جانب من البحر. ثم تسوقها يد القدره الإلهيه. و تجمعها، فتراكم بعضها على بعض.

و كلمه «ركام» على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمه بعضها فوق بعض.

و أمّا «الودق» على وزن «شرق»، فيرى الكثيرون أنّها حبّات المطر، إلا أنّ الراغب الأصفهاني يرى فى مفرداته أنّها ذرات دقيقه من الماء، أى: الرذاذ الذى يتناثر فى الفضاء حين هطول المطر.

و المعنى الأوّل أكثر ملاءمه هنا، فما يدلّ بشكل أكبر على عظمه الله هو ذرات المطر نفسها و ليس رذاذه، إضافة إلى أنّ القرآن كلّما ذكر السحاب و نزول بركات الله من السماء، أشار فيها إلى المطر. فهو الذى يحيى الأرض بعد موتها و يبعث الحياه فى الأشجار و النباتات، و يروى عطش البشر و الحيوان.

و أشار القرآن إلى ظاهره أخرى من ظواهر السماء المدهشه، و هى السحاب، حيث قال: وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ  
أى من جبال السحب فى السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج و برد، فتكون بلاء لمن يريد الله عذابه فتصيب هذه الثلوج  
المزارع و الثمار و تلتفها و قد تصيب الناس و الحيوانات فتؤذيهم فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ و من لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء وَ  
يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ .

أجل، إنّه هو الذى ينزل الغيث المخصب من سحابه تاره... و هو الذى يصيرّه بردا بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، و  
ربما يكون مهلكا أحيانا.

و هذا يدلّ على منتهى قدرته و عظّمته - إذ جعل نفع الإنسان و ضرره و موته و حياته متقارنه، بل مزج بعضها ببعض! و فى نهايه الآيه يشير إلى ظاهره أخرى من الظواهر السماويه التى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ** .

فالسحب المؤلفه فى الحقيقه من ذرات الماء تحمل فى طياتها الشحنات «الكهربائيه»، و تومض إيماضا يذهل برقتها (العيون) و الأبصار و يصكّ رعداها السمع من صوته، و ربّما اهترت له جميع الأجواء.

إن هذه الطاقه الهائله بين هذا البخار اللطيف لمثيره للدهشه حقّا!...

### ردّ على استفسار:

السؤال الذى بقى هنا هو: ما هذا الجبل الذى فى السماء ينزل منه البرد؟ أجاب المفسرون عن هذا الاستفسار بأجوبه مختلفه، هى:

١- قال البعض: إنّ كلمه الجبال هنا كناية، مثلما نقول جبل من غذاء أو جبل من علم. و على هذا فإنّ مفهوم الآيه السابقه، هو أنّ هناك بردا متراكما كالجبل فى قلب السماء أو جد السحاب، و ينزل قسم منه فى المدن، و قسم آخر فى الصحراء، و يصيب به من يشاء.

٢- و قال آخرون: المقصود من الجبال السحب المتراكمه بحيث تشبه الجبل.

٣- و ذكر صاحب تفسير «فى ظلال القرآن»، بيانا آخر هو الأوفق حسب الظاهر، و هو: «إن يد الله تزجى السحاب و تدفعه من مكان إلى مكان، ثمّ تؤلف بينه و تجمععه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء و الويل الهائل، و هو فى هيئه الجبال الضخمه الكثيفه، فيها قطع البرد الثلجيه الصغيره، و مشهد السحاب كالجبال لا يبدو لنا كما يبدو لراكب الطائر و هى تعلو فوق السحب أو

تسير بينها، فإذا المشهد مشهد جبال حقا، بضخامتها و مساقطها و ارتفاعها و انخفاضها، و إنه لتعبير مصور للحقيقه التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات» (١).

و يمكن أن يضاف إلى ذلك أنّ العلماء يرون في كيفية تكون البرد في السماء أنّ قطرات المطر تنفصل من السحاب، و إذا مرت بطبقه بارده من الهواء أصبحت ثلجا، ثمّ تدفعها أحيانا العواصف الموجوده هناك إلى الأعلى، فتدخل قطع الثلج هذه إلى داخل السحب، و يكتسب بعضها مياها جديده ثمّ تهبط، فتجمد ثانيه عند مرورها بطبقه من الهواء البارد جدّا.

و كلما تكرر وقوع هذا العمل نمت هذه القطع من الثلج و ازداد وزنها، إلى أن تقع على الأرض بعد أن تعجز الأعاصير عن دفعها إلى الأعلى مرّه أخرى. أو أنّ الإعصار يهدأ فيسقط البرد على الأرض.

و بهذا الشرح العلمي يتّضح لنا المراد من كلمه «الجبال» التي وردت في هذه الآيه، لأنّ تكوّن البرد بقطع كبيره و ثقيله ممكن في حال تراكم السحب، حتى يقذف الإعصار حبات البرد وسطها، لتكسب هذه الحبات قدرا أكبر من مياها السحب.

و ذلك ممكن في حاله وجود جبال مرتفعه من السحب، لتكون مصدرا جيدا لتكون البرد. (٢)

و نقرأ هنا تحليلا آخر ذكره بعض الكتاب، و خلاصته كالآتي: «أشارت

ص: ١٣٠

١- ١) - تفسير من ظلال القرآن المجلد (١٩-٢٠) صفحہ ١٠٩-١١٠- دار إحياء الكتب العربيه- الطبعة الأولى.

٢- ٢) - تكرر حرف (من) ثلاث مرات في عبارته وَ يُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ أُولَاهَا ابتدائية، و ثانيها لها نسبه مع ابتدائية، و أمّا الثالثه فقد اختلف في تفسيرها كما ذكرنا أعلاه، فهي بحسب التفسير الأول بيانيه، و يكون مفهوم الجمله هو ينزل من السماء من جبال من برد. و قد حذف مفعول الفعل (ينزل) و هو البرد، و يفهم ذلك من قرينه في الكلام، و على حسب التفسيرين الثاني و الثالث اللذين اخترناهما تكون «من» إمّا زائده (حسبما نقله تفسير روح المعاني عن الأخفش) أو هي للتبعيض.

الآيات موضع البحث بصراحه إلى الجبال الثلج، أى الجبال التى فيها نوع من الثلوج.

و هذا يثير الانتباه كثيرا، لأنّ اختراع الطائرات و التمكن من التحليق بها فى مستوى مرتفع زاد من آفاق علم البشر، فقد تمكّن العلماء من الوصول إلى سحب مستوره و متكونه من تراكمات ثلجيه، و حقًا ممكن أن تسمى بجبال الثلج.

و ممّا يثير الدهشه أنّ أحد علماء السوفيت استخدم-لعدّه مرات-اسم «جبال السحب» و«جبال الثلج» خلال شرحه موضوع سحب العواصف الثلجيه، و بهذا يتّضح لنا وجود جبال من الثلج فى السماء.

و أشارت الآيه التاليه إلى إحدى معاجز الخلق و دلائل عظمه الله، و هو خلق الليل و النهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ .

و ذكرت لمعنى «يقلب» عدّه تفاسير، فقال البعض: إنّ تقلب الليل و النهار هو أنّه إذا حلّ أحدهما محا الآخر.

و قال البعض: إنّ قصر أحدهما و طول الآخر، و يحدث ذلك بصوره تدريجيه و له ارتباط بالفصول الأربعة.

و اعتبر آخرون تقلبات الحرّ و البرد، و حوادث أخرى تقع فى الليل و النهار (1).

و ليس بين هذا التفاسير أى تناقض، بل يمكن جمعها فى مفهوم عبارته «يقلب»، و لا ريب-وقد برهن العلم على ذلك- أنّ لتعاقب الليل و النهار و التغييرات التدريجيه الحاصله منه أثر فعّال فى استدامه الحياه و بقاء الإنسان، و فى ذلك عبره لأولى الأبصار.

ص: ١٣١

(١-١) -التفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير مجمع البيان، و تفسير روح المعانى.

و إذا كانت حراره الشمس على نسق واحد، فإنها ترفع درجه حراره الهواء، و تقتل الأحياء و تتعب الأعصاب، لكنّ وقوع الليل بين نهارين يعدل من أثر الشمس القوى و يلائمه.

كما إنّ التغييرات التدريجيه فى ساعات الليل و النهار هى السبب فى ظهور الفصول الأربعة، و عامل مؤثر جدّا فى نمو النباتات و حياه جميع الأحياء و هطول المطر و تكوين المياه الجوفيه التى هى من كنوز الأرض (1).

و أشارت آخر الآيات-موضع البحث- إلى أبرز صورته و أوضح دليل على التوحيد، و هى مسأله الحياه بصورها المختلفه، فقالت: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ أَي أَنَّ أَصْلَهَا جَمِيعًا مِنْ مَاءٍ، وَ مَعَ هَذَا فَلَهَا صُورٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ كَالزَّوَاحِفِ. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ كَالإِنْسَانِ وَ الطَّيُورِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ كَالدَّوَابِّ.

و ليس الخلق محددًا بهذه المخلوقات، فالحياء لها صور أخرى متعدده بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحريه أو حشرات بأنواعها المتعدده التى تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية فى الختام يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

## بحوث

## إشارة

### ١- ماذا يعنى الماء هنا؟

و إلى أى نوع من الماء أشارت الآية موضع البحث؟ للمفسرين بهذا الصدد ثلاثة آراء:

١- يقصد بالماء النطفه، و قد اختار الكثير من المفسرين هذا المعنى، و قد

ص: ١٣٢

١- ١) - بحثنا فى هذا المجال فى التفسير الأمثل عند تفسير الآية (٦) من سوره يونس.



أشارت إليه بعض الأحاديث.

و هناك مشكله تواجه هذا التفسير، إذ أنّ الاحياء جميعا لم تخلق من ماء النطفه، فمنها أحياء مجهرية ذات خلية واحده، و أخرى تخلق من انقسام الخلايا و ليس من النطفه إلا أن يقال بالنسبه للحكم أعلاه: إنّ المراد هو الجانب النوعي و ليس عاما.

٢- و التفسير الثاني يقول: إنّ المقصود هنا ظهور أول مخلوق، فقد ذكرت بعض الأحاديث أنّ أول ما خلق الله الماء، ثم خلق الإنسان من الماء.

و ينسجم هذا مع النظريات الجديده القائله: إنّ أول عنصر حي ظهر في البحار. و هذه ظاهره سادت أعماق البحار و سواحلها. (و طبيعي فإنّ قدره التي خلقت هذا الموجود الحيّ بجميع تعقيداته و رعته في المراحل البعديه، هي قدره أسمى من الطبيعه، أي إرادته الله تعالى).

٣- آخر تفسير لخلق الأحياء من الماء، هو أنّ الماء يشكّل حاليا أساس تكوينها، و أكبر نسبه من بنائها، و لا يمكن للأحياء أن تواصل حياتها دون الماء.

و طبيعي أن لا نجد تناقضا بين هذه التفاسير، لكنّ التفسيرين الأوّل و الثاني أقرب إلى الصواب على ما يبدو (١).

## ٢- جواب على استفسار

يطرح هنا سؤال يقول: إنّ الحيوانات لا تحدد بهذه الأنواع الثلاثة (الزواحف و ثنائيه الأرجل و رباعيتها) إذ أنّ هناك دوابا لها أكثر من أربع أرجل؟ و الجواب عنه يكمن في الآيه ذاتها، أي في قوله تعالى يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

ص: ١٣٣

١ - ١) - استند البعض عن دعاه نظريه التطور إلى هذه الآيه لإثبات نظريتهم، إلا أننا ذكرنا عدم ثبوت هذه النظرية في تفسيرنا للآيه (٢٦) من سوره الحجر. و الجدير بالاهتمام هو أنّه يجب أن لا- نطبق الآيات مع النظريات. فالآيات القرآنيه تحكى عن حقائق لا تتغير، أمّا النظريات العلميه فتتغير.

فهى تتناول الحيوانات كافه، مضافا إلى أن أهم الحيوانات التى يستخدمها الإنسان، هى هذه الأنواع الثلاثة.

و يرى البعض أنّ الأحياء التى لها أكثر من أربع أرجل، تعتمد على أربع منها، و الباقى منها سواعد مساعده لها (١) (٢).

### ٣- صورته الحياه المختلفه:

لا- شك أنّ الحياه تعتبر أعجب ظاهره فى العالم، ذلك السرّ الذى لم يقدر العلماء على فكّ رموزه حتّى الآن، فالجميع يقول: إنّ الأحياء خلقت من مادّه لا حياه فيها، إلاّ أنّه لا أحد يعلم كيف حدثت هذه الطفره و فى أىّ ظرف، إذ لم يشهد أىّ مختبر تبدّل موجود عديم الحياه إلى آخر حى، على الرغم من انشغال الآلاف من العلماء طوال سنين عديده فى التفكير بذلك، و إجراء تجارب مختبريه يخطئها الحصر.

و هناك خيال من بعيد يترأى للعلماء فى هذا المجال، و لكنّه مجرّد خيال و شبح، فإنّ العلم البشرى عاجز عن كشف أسرار الحياه مع تقدّمه الهائل، و ذلك لتعقد هذه الأسرار بدرجة كبيره.

و فى الظروف السائده تولّد الأحياء من أحياء أخرى، و لا- يولد أىّ حى من غير حى. و لكن المؤكّد أن هذا الحال لم يكن كذلك فى الماضى البعيد. أو بعبارة أخرى: أنّ الحياه تملك تاريخا لظهورها.

و لكن كيف و تحت أى شروط؟ إنّ ذلك لغز لم تتضح حقيقته بعد، و الأعجب من ذلك تنوع الحياه فى هذه

ص: ١٣٤

١-١) - تفسير القرطبي، و تفسير الفخر الرازى للآيه موضع البحث.

٢-٢) - لا- بدّ من الاهتمام بهذه المسأله لغويا، و هى أنّ الضمير «هم» فى «منهم» رغم أنّه للجمع العاقل، فقد استخدمتها الآيه لغير العاقل أيضا. و كذلك حرف «من» و ذلك بسبب استخدام هذه الكلمات أحيانا لغير العاقل أيضا.

الصور الكامله، تبدأ من الأحياء المجهرية وحيد الخلية حتى تصل إلى الحيتان العظيمه التي يتجاوز طول الواحد منها الثلاثين متراً، وتبدو إحداها كأنها جبل من لحم طائف في المحيط.

و من مئات الآلاف من الحشرات المختلفه إلى آلاف من الطيور الجميله، كل له عالمه الخاص به و أسرارہ الذاتيه.

و تشغل كتب علم الحيوان اليوم حيزاً كبيراً من مكتبات العالم، و يستعرض مؤلفوها جوانب من أسرار هذه الأحياء، خاصه الأحياء البحريه.

و البحر دوماً تكمن فيه الأسرار التي ما تزال معلوماً قاصره عن استكناها، على الرغم من سعه تطوّرنا العلمى و عمقه، حقاً الله أكبر، خلق كل هذه الأحياء، و منحها ما تحتاج إليه، فما أعظم قدرته و علمه! سبحانه! كيف وضع كل واحد منها في ظروف مناسبه له، و وفرّ غذاءه و ما يحتاج إليه، و الأعجب من ذلك خلقه سبحانه و تعالى جميع هذه الكائنات، من ماء و قليل من تراب.

ص: ١٣٥

إشاره

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

سبب النزول

ذكر المفسرون سببين لنزول بعض هذه الآيات:

قيل نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود خصومه، فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف (اليهودي) (حتى أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ المنافق قال صراحة: يحتمل أنّ لا يعدل محمدا فينا):

حكى أنه كان بين علي عليه السلام و عثمان (و حسب روايه بين علي عليه السلام و المغيره بن وائل) منازعه في أرض اشتراها من علي عليه السلام فخرجت فيها أحجار، و أراد ردها بالعب، فلم يأخذها فقال: بينى و بينك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فقال الحكم بن أبي العاص (و هو من المنافقين): إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له، فلا- تحاكمه إليه، فنزلت الآيات و استنكرت عليه ذلك بشده، و هو المروى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أو قريب منه (1).

## التفسير

### إشاره

### الإيمان و قبول حكم الله:

تحدثت الآيات السابقه عن الإيمان بالله و عن دلائل توحيده و علائمه في عالم التكوين، بينما تناولت الآيات-موضع البحث- أثر الإيمان و انعكاس التوحيد في حياه الإنسان، و إذعانه للحق و الحقيقه.

تقول أولاً: لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ آيات تنور القلوب بنور الإيمان و التوحيد، و تزيد في فكر الإنسان نورا و بهجه، و تبدل ظلمات حياته إلى نور على نور. و طبعى أنّ هذه الآيات المبينات تمهد للإيمان، إلا أنّ الهدايه الإلهيه هى صاحبه الدور الأساسى و الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

و كما نعلم فإن إرادة الله و مشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه و تعالى يدخل نور الهدايه إلى القلوب المستعده لتقبله، أى التى أبدت المجاهده فى سبيل الله و قطعت خطوات للتقرب إليه، فأعانها على قدر سعيها فى الوصول إلى لطفه سبحانه.

ثم استنكرت الآيه الثانيه و ذمّت مجموعه من المنافقين الذين يدعون

ص: ١٣٧

١ - ١) - «مجمع البيان» و تفسير «روح المعانى» و تفسير «التبيان» و تفسير «القرطبي» و تفسير «الفخر الرازى» و تفسير «الصافى» و تفسير «نور الثقلين» (مع بعض التصرف).

الإيمان في الوقت الذي خلت فيه قلوبهم من نور الله، فتقول الآيه عن هذه المجموعه وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

ما هذا الإيمان الذي لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له في أعمالهم؟ ثم تذكر الآيه التي بعدها دليلا واضحا على عدم إيمانهم وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ .

و لتأكيد عباده هذه المجموعه للدنيا و فضح شركهم، تضيف الآيه وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ وَ بكامل التسليم و الخضوع.

و الجدير بالذكر أن العبارة الأولى تحدثت عن الدعوه إلى الله و رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و أمّا العبارة التالية أى كلمه «ليحكم» فإنها جاءت مفرده، و هى تشير إلى تحكيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لوحده، و ذلك لأنّ تحكيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليس منفصلا عن تحكيم الله تعالى، حيث أنّ كلا الحكيمين فى الحقيقة واحد.

كما يجب الانتباه إلى أنّ ضمير الهاء المتصلة فى «إليه» يعود إلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نفسه، أو إلى تحكيمه. و كذلك لا بدّ من الالتفات إلى أن الآيه نسبت التخلف عن هذا الحكم و الإعراض عن تحكيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى مجموعه من المنافقين فقط.

و لعل ذلك لأنّ الفئات الأخرى لم تكن بهذه الدرجه من الجراه و عدم الحياء، لأنّ للنفاق مراتب أيضا كمراتب الإيمان المختلفه.

و بيّنت الآيه الأخيره فى ثلاث جمل، الجذور الأساسيه و دوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقالت أَوْلا أفى قلوبهم مَرَضٌ .

هذه صفه من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، و لكنهم لا يسلمون بحكم الله و رسوله، و لا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبيا عن التوحيد أو الشك و التردد أم ارتابوا و طبعى أنّ الذى يتردد فى عقيدته، لن يستسلم لها أبدا.

و ثالثها فيما لو لم يلحدوا و لم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: أَمْ يَخَافُونَ أَنْ

في الوقت الذي يعتبر هذا تناقضا صريحا، إذ كيف للذي يؤمن برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يعتبر حكمه حكم الله تعالى أن ينسب الظلم إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟! وهل يمكن أن يظلم الله أحدا؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟ إنَّ الله تعالى مقدّس عن كلّ هذه الصفات بلْ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إنَّهم لا يقتنعون بحقّهم، وهم يعلمون أنّ النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

و يرى مفسّر «في ظلال القرآن»: في الآيه: أ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمْ ارْتَابُوا؟ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟ أنّ السؤال الأوّل للإثبات، أى لإثبات وجود مرض النفاق فى قلوبهم فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر.

و السؤال الثانى للتعجب، فهل هم يشكّون فى حكم الله و هم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكّون فى مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكّون فى صلاحيته لإقامه العدل؟ و السؤال الثالث لاستنكار أمرهم الغريب، و التناقض الفاضح بين ادعائهم و عملهم.

و إنّه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف فى نفس إنسان، فالله خالق الجميع و ربّ العالمين، فكيف يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب مخلوق آخر (1).

و ما يورده هذا المفسّر هو أنّ عبارته «أم ارتابوا» تعنى الشكّ فى عداله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و فى صحه تحكيمه فى الوقت الذى يرى كثير من المفسّرين أنّه الشكّ فى أصل التّبوه كما هو الظاهر.

## ١- مرض النفاق

ليست هذه المره الأولى التي يستخدم فيها القرآن عبارة «المرض» للنفاق، فقد استخدمها في مطلع سورة البقره عند بيانه لصفات المنافقين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا و كما قلنا في المجلد الأول في أثناء تفسير الآيه المذكوره، فإنّ النفاق في حقيقته مرض و انحراف عن الطريق السوي، فالإنسان السليم له صورته واحده هي انسجام روجه مع بدنه.

فإذا كان مؤمنا فكلّ أجزاء بدنه تعبر عن إيمانها، وإذا كان عديم الإيمان فإنّ ظاهره و باطنه يكشفان عن كفره و انحرافه.

أمّا إذا كان متظاهرا بالإيمان و مبطنا للكفر، فإنّ ذلك يعتبر نوعا من المرض.

و بما أن هؤلاء الأشخاص (المنافقين) لا يستحقون لطف الله و رحمته، بسبب عنادهم و إصرارهم على المضى بمناهجهم المنحرفه، فقد تركهم الله على حالهم، ليزدادوا مرضا.

و المنافقون في الواقع أخطر مجموعه في المجتمع، لأنّه لا يتّضح للمؤمن بأيّ أسلوب يجب أن يعاملهم، فهم ليسوا أصدقاء و لا يبدون أنّهم أعداء، فيستفيدون من إمكانيات المؤمنين و يصونون أنفسهم عن العقاب المفروض على الكفار بالتظاهر و إخفاء حقائقهم المشؤومه، فأعمالهم أتعس من أعمال الكفار.

و لكن هؤلاء لا يمكنهم أن يواصلوا هذا المنهج لمدّه طويله، فلا بدّ أن يفتضح أمرهم و ينكشف باطنهم. و كما ذكرت الآيات- موضع البحث- و سبب نزولها.

افتضحهم في عمليه تحكيم واحده و انكشاف باطنهم الخبيث (١).

ص: ١٤٠

(١-١) - لإيضاح أكثر حول صفات المنافقين يراجع التفسير الأمثل من بدايه سورة البقره آخر الآيه العاشره و ما يليها.



## ٢- الحكومه العادله هي الحكومه الإلهيه فقط:

لا شك في أن الإنسان مهما سعى في تهذيب نفسه من الصفات الرذيله، خاصه الكبر و البغضاء و حب الذات و الأنانيه، فإنه قد يتلى ببعضها دون وعى منه، إلا المعصوم من البشر، إذ يعصمه الله من الخطأ و الزلل.

و لهذا السبب نقول: الله وحده هو المشرع الحقيقى، لأنه إضافه إلى علمه المطلق بحاجات الإنسان، فإنه يعلم سبل سد هذه الحاجات، و هو الذى لا يزلّ و لا ينحرف بسبب احتياجه و ميول الحب و البغض فيه سبحانه.

و قضاء الله و النبى و الإمام المعصوم أفضل قضاء، و يليهم التابعون السائرون على نهجهم المتوكلون على الله، إلا أن البشر الذى يصاب بالكبر و حبّ الذات لا يرضخ لهذا القضاء، فهو يبحث عن قضاء يشبع طمعه و شهواته. ما أجمل العبارة التى استخدمتها الآيه الكريمة بحق هؤلاء أولئك هم الظالمون .

كما أن المرور فى مثل هذا الامتحان، خير دليل على إيمان الإنسان أو عدم إيمانه.

و يستوقفنا قول القرآن فى موضع آخر فلا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (١).

أجل، المؤمنون الحقيقون لا يرتضون قضاءك فحسب، و إنما قد سلّموا أنفسهم لك حتى إن لحقهم ضرر.

أمّا المنافقون، فلا يقنعون بحكم من الله و رسوله صلى الله عليه و آله و سلّم إلا ما يحقق مصالحهم، فهم عبيد لها، و على الرغم من ادعائهم الإيمان، فهم مشركون حقًا!

ص: ١٤١

اشاره

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُحْرَجَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تُقْسِمُوا طَاعَهُ مَعْرُوفَهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ حُمُّهُمْ وَعَلَيْكُمْ مِمَّا حُمَلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

التفسير

اشاره

الإيمان والتسليم التام إزاء الحق:

لاحظنا في الآيات السابقة رد فعل المنافقين، الذين اسودت قلوبهم، وأصبحت ظلمات في ظلمات. وكيف لم يرضخوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانهم يخافون أن يحيف الله ورسوله عليهم، فيضيع حقهم!

أما الآيات-موضع البحث-فإنها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم الله ورسوله، فتقول: **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**.

ما أجمل هذا التعبير المختصر والمفيد **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**! وقد وردت كلمه «إنما» في الآية السابقة لتحصر كلام المؤمنين في عباره **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** والواقع أن حقيقه الايمان يكمن في هاتين الكلمتين فقط.

كيف يمكن أن يرجح شخص حكم شخص آخر على حكم الله، وهو يعتقد بأن الله عالم بكل شىء، ولا حاجه له بأحد، وهو الرحمن الرحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم الله إلا-السمع والطاعة؟ فما أحسن هذه الوسيله لامتحان المؤمنين الحقيقيين ونجاحهم فى الامتحان؟! لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ولا شك فى أن الفلاح نصيب الذى يسلم أمره إلى الله، ويعتقد بعدله و حكمه فى حياته الماديه والمعنويه.

و تابعت الآية الثانيه هذه الحقيقه بشكل أكثر عموميه، فتقول: **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**. (١).

وقد وصفت هذه الآية المطيعين المتقين بالفائزين، كما وصفت الآية السابقه الذين يرضخون لحكم الله ورسوله بالمفلحين.

وتفيد مصادر اللغه أن «الفوز» و«الفلاح» بمعنى واحد تقريبا، قال الراغب الأصفهاني فى مفرداته: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامه» و«الفلاح: الظفر و ادراك البغيه» (و فى الأصل بمعنى الشق، و بما أن الأشخاص المفلحين يشقون طريقهم إلى مقصدهم و يزيلون العقبات منه أطلق الفلاح على الفوز أيضا) و بما أن

ص: ١٤٣

١-١) - أصل «يتقه» بسكون القاف و كسر الهاء «يتقه» وقد حذف الياء منها لأنها فى حاله جزم و قد حذف إحدى الكسرتين المتاليتين لأنها ثقيله للفظ.

الكلام في الآيه السابقه كان عن الطاعه بشكل مطلق، و في الآيه قبلها عن التسليم أمام حكم الله، و أحدهما عام و الآخر خاص، فنتيجته كليهما واحده.

و ما يستحق الملاحظه هو أن الآيه الأخيره ذكرت ثلاثه أوصاف للفائزين:

هي: طاعه الله و الرسول، و خشيه الله، و تقوى الله.

و قال بعض المفسرين: إنَّ الطاعه ذات معنى عام، و الخشيه فرعها الباطنى، و التقوى فرعها الظاهرى. و قد تحدثت أولاً عن الطاعه بشكل عام، ثم عن باطنها و ظاهرها.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** قال: «إِنَّ المعنى بالآيه أمير المؤمنين (على عليه السلام)» (١).

و لا خلاف فى أن عليا عليه السلام خير مصداق لهذه الآيه، و هذا هو المراد من هذا الحديث فلا يفقد الآيه عموميتها.

لحن الآيه التاليه - و كذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير - يعنى أن بعض المنافقين تأثروا جدا على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقه و التى وَّجَّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أقسموا يمينا مغلظه أننا نسلّم أمرنا إليك، و لهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم و أفسدوا بالله جهداً أيّمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم و بيوتهم فقل لهم: لا حاجه إلى القسم، و عليكم عملا اطاعه الله بصدق و إخلاص قل لا تُقسِمُوا طاعه مغرُوفه إنَّ اللهَ حَيِّرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

يرى كثير من المفسرين أن كلمه «ليخرجن» فى هذه الآيه يقصد منها الخروج للجهاد فى سبيل الله، غير أن المفسرين آخرين يرون أنها تقصد عدم التهالك على المال و الحياه، و أتباع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أينما رحل و حلّ و طاعته.

ص: ١٤٤

وقد وردت كلمه «الخروج» و مشتقاتها فى القرآن المجيد بمعنى الخروج إلى ميادين الجهاد تاره، و ترك المنزل و الأهل و الوطن فى سبيل الله تعالى تاره أخرى، إلا- أن الآيات السابقه التى تحدثت عن حكم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى القضايا المختلفه يجعلنا نتقبل التفسير الثانى. بمعنى أن المنافقين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليعربوا عن طاعتهم لحكمه صلى الله عليه و آله و سلم و التسليم له، فأقسموا على إخراج قسم من أموالهم، بل أن يتركوا الحياه الدنيا إن أمرهم بذلك.

و لا مانع من الجمع بين التفسيرين، أى إنهم كانوا على استعدادهم لترك أموالهم و أهليهم، و الخروج للجهاد و لتضحيه فى سبيل الله.

و لكن بما أن المنافقين يتقلبون فى مواقفهم بحسب الظروف السائده فى المجتمع، فتراهم يقسمون الأيمان المغلظه حتى تشعر بأنهم كاذبون، فقد ردّ القرآن- بصراحه- أنه لا حاجه إلى اليمين، و إنما لا بدّ من البرهنه على صدق الادعاء بالعمل، لأنّ الله خبير بما تعملون. يعلم هل تكذبون فى يمينكم، أم تبغون تعديل مواضعكم واقعا؟ لهذا أكدت الآيه التاليه- التى هى آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، و تقول للرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ .

ثمّ تضيف الآيه أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ففى صوره العصيان فقد ادى وظيفته و هو مسئول عنها كما أنكم مسئولون عن أعمالكم حين أن وظيفتكم الطاعه، و لكن و إن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا لِأَنَّهُ قَائِدٌ لَا يَدْعُو لَغَيْرِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْحَقُّ وَ الصَّوَابُ .

فى كل الأحوال وَ مَعَالَى الرَّسُولِ إِلَّا- الْبَلَاغُ الْمُبِينُ و إنّه صلى الله عليه و آله و سلم مكلف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، و إن لم يطيعوه خسروا. و ليس على النبى أن يجبر الناس على الهدايه و تقبل دعوته.

و ما يلفت النظر فى الآيه السابقه تعبيرها عن المسؤوليه ب«الحمل» الثقيل

و هذا هو الواقع، فرساله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تستوجب الإِبلَاغ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و على الناس طاعته. إنَّها لمسؤوليه لا يطبق حملها إلا المخلصون.

ولذا

روى الإمام الباقر عليه السَّلام حديثاً عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال فيه «يا معشر قراء القرآن، اتقوا الله عزَّ و جلَّ فيما حملكم من كتابه، فإنِّي مسئول، و أنتم مسئولون:

إنِّي مسئول عن تبليغ الرسالة، و أمَّا أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله و سنَّتِي» (١).

ص: ١٤٦

---

١ - ١) - المصدر السابق.

اشاره

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا إِسَّيَّرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)

سبب النزول

روى كثير من المفسرين. و منهم السيوطى فى «أسباب التنزيل» و الطبرسى فى «مجمع البيان» و سيد قطب فى «فى ظلال القرآن» و القرطبى فى تفسيره، مع بعض الاختلاف، سبب نزول هذه الآيه أنه: عند ما هاجر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمون إلى المدينه، استقبلهم الأنصار بترحاب، و لكن العرب تحالفوا ضدهم.

لهذا كان المسلمون يبيتون ليلتهم و السلاح إلى جانبهم لا- يفارقهم، إذ كانوا فى حاله تأهب تام. و قد شقَّ على المسلمين ذلك. حتى تساءل البعض: إلى متى يدوم هذا الوضع؟ و هل يأتى زمان نستريح و نطمئن أنفسنا و لا نخشى إلا الله؟ فنزلت الآيه السابقه تبشرهم بتحقق ما يصبون إليه.

## حكومة المستضعفين العالميه:

تحدثت الآيه السابقه عن طاعه الله و رسوله و التسليم له، و قد واصلت الآيه- موضع البحث- هذا الموضوع، و بينت نتيجه هذه الطاعه ألا و هى الحكومه العالميه التى: وعدھا الله المؤمنین به. فقالت الآيه مؤكده و وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

وَ لِيَمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

و يجعله متجذرا و ثابتا و قويا بين شعوب العالم.

وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

و بعد سياده حكم التوحيد فى العالم و إجراء الأحكام الإلهيه، و استقرار الأمن و اقتلاع جذور الشرك، و مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

و على كل حال يبدو من مجمل هذه الآيه أن الله يبشر مجموعه من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان و العمل الصالح بثلاث بشارات:

١- استخلافهم و حكومتهم فى الأرض.

٢- نشر تعاليم الحق بشكل جذرى و فى كل مكان (كما يستفاد من كلمه «تمكين»...).

٣- انعدام جميع عوامل الخوف و الاضطراب.

و ينتج من كل هذا أن يعبد الله بكل حريه، و تطبق تعاليمه و لا يشرك به، و يتم نشر عقيدته التوحيد فى كل مكان.

و يتضح مما يلى متى تم وعد الله هذا؟ أو متى سيتم؟



## ١- تفسير عبارة كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هناك اختلاف بين المفسرين حول الذين أشارت إليهم الآية الشريفة من الذين استخلفوا في الأرض من قبل المسلمين.

البعض من المفسرين يرى أنهم آدم و داود و سليمان عليهم السلام، حيث قالت الآية (٣٠) من سورة البقرة حول آدم عليه السلام  
إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَ فِي الْآيَةِ (٢٦) من سورة ص جاء بصدد داود عليه السلام يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .

و بما أن سليمان عليه السلام ورث حكم داود عليه السلام بمقتضى الآية (١٦) من سورة النمل فإنه قد استخلف في الأرض.

لكن بعض المفسرين - كالعلامة الطباطبائي في الميزان - استبعد هذا المعنى و رأى أن عبارة الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لا- تناسب مقام الأنبياء. إذ أن القرآن المجيد لم ترد فيه هذه العبارة بخصوص الأنبياء. وإنما هي إشارة إلى أمم خلت، و كانت على درجه من الإيمان و العمل الصالح بحيث استخلفها الله في الأرض.

و يرى مفسرون آخرون أن هذه الآية إشارة إلى بني إسرائيل، لأنهم استخلفوا في الحكم في الأرض بعد ظهور موسى عليه السلام و تدمير حكم فرعون و الفراعنة، حيث يقول القرآن المجيد في الآية (١٢٧) من سورة الأعراف وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ يَضِيفُ وَ نُمَكِّنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَي جَعَلْنَاهُمْ حُكَّامًا بَعْدَ أَنْ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ.

و لا شك في أنه كان في بني إسرائيل - حتى في زمن موسى عليه السلام - أشخاص عرفوا بفسقهم و كفرهم، لكن الحكم كان بيد المؤمنين الصالحين، (و بهذا يمكن دفع ما أشكل به البعض على هذا التفسير) و يظهر أن التفسير الثالث أقرب إلى الصواب.

## ٢- الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض:

لقد وعد الله المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة بالاستخلاف فى الأرض و تمكينهم من نشر دينهم و تمتعهم بالأمن الكامل، فما هى خصائص هؤلاء الموعودين بالاستخلاف؟ هناك اختلاف بهذا الصدد بين المفسرين: يرى البعض من المفسرين أنّ الوعد بالاستخلاف خاصّ بأصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلمّ الذين استخلفهم الله فى الأرض فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ. (و لا يقصد بالأرض جميعها، بل هو مفهوم يطلق على الجزء و الكل).

و يرى آخرون أنّه خاصّ بالخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلمّ.

و يرى البعض أنّ مفهومه واسع يشمل جميع المسلمين الذين اتصفوا بهذه الصفات.

و يرى آخرون أنّه إشارة إلى حكمه المهدي (عج) الذى يخضع له الشرق و الغرب فى العالم، و يجرى حكم الحقّ فى عهده فى جميع أرجاء العالم، و يزول الاضطراب و الخوف و الحرب و تتحقق للبشرية عبادة الله النقيه من كلّ أنواع الشرك.

و لا ريب فى أنّ هذه الآيه تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكمه المهدي (عج) مصداق لها، إذ يتفق المسلمون كافة من شيعة و سنه على أنّ المهدي (عج) يملأ الأرض عدلا و قسطا بعد أن ملئت جورا و ظلما.

و مع كل هذا لا مانع من تعميمها. و ينتج من ذلك تثبيت أسس الإيمان و العمل الصالح بين المسلمين فى كلّ عصر و زمان، و أنّ لهم الغلبه و الحكم ذا الأسس الثابته.

أمّا قول البعض: إنّ كلمه «الأرض» مطلقه و غير محددده، و تشمل كلّ الأرض، و بذلك تنحصر بحكمه المهدي (أرواحنا له الفداء)، فهو لا ينسجم مع

عبارة كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، لأن خلافه و حكمه السابقين بالتأكيد لم تشمل الأرض كلها.

و إضافه إلى ذلك فإن سبب نزول هذه الآية يبين لنا-على أقل تقدير-وقوع مثل هذا الحكم فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم (رغم حدوثه فى أواخر حياته صلى الله عليه و آله و سلم).

و نقولها ثانيه: إن نتيجة جهود جميع الأنبياء و المرسلين حصول حكم يسوده التوحيد و الأمن الكامل و العباده الخاليه من أى نوع من الشرك، و ذلك حين ظهور المهدي (عج)، و هو من سلاله الأنبياء عليهم السلام و حفيد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و هو المقصود فى هذا الحديث الذى تناقله جميع المسلمين

عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «لو لم يبق من الدنيا إلا- يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلى رجل من عترتى، اسمه اسمى، يملأ الأرض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا» (١).

و مما يجدر ذكره هنا قول العلامة الطبرسى فى تفسير هذه الآية: روى عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حول هذه الآية:

«إنها فى المهدي من آل محمد» (٢).

و ذكر تفسير «روح المعانى» و تفاسير عديده

لمؤلفين شيعه عن الإمام السجاد عليه السلام فى تفسير الآية موضع البحث أنه قال: «هم و الله شيعتنا-أهل البيت- يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل مئا، و هو مهدي هذه الأمه يملأ الأرض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا، و هو الذى قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم...».

و كما قلنا، لا- تعنى هذه التفاسير حصر معنى هذه الآية، بل بيان مصداقها التام، و مما يؤسف له عدم انتباه بعض المفسرين- كالألوسى فى روح البيان- إلى هذه المسأله، فرفضوا هذه الأحاديث.

ص: ١٥١

١ - ١) - احتوى كتاب «منتخب الأثر» على مائه و ثلاثه و عشرين حديثا بهذا الصدد، من مصادر إسلاميه مختلفه خاصه السنيه منها. للاستزاده يراجع هذا الكتاب فى صفحه ٢٤٧، و ما يليها.

٢ - ٢) - مجمع البيان فى تفسير الآية موضع البحث.

روى القرطبي المفسر المشهور من أهل السنه عن المقداد بن الأسود عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ حَجْرٌ وَلَا مَدْرٌ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ» (١).

و للحصول على إيضاح أكثر حول حكمه المهدى (عج) و شرح أدلتها في كتب علماء السنه و الشيعة، يراجع تفسير الآيه (٣٣) من سورة التوبه.

### ٣- الهدف النهائي عباده خالصه:

إن مفهوم عباده يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً من الناحيه الأديبه سواء كانت جمله حالیه أم مستقبلیه (٢)، هو أن الهدف النهائي إعداد حكمه عادله راسخه الأسس، ينتشر فيها الحقّ و الأمن و الاطمئنان، و تكون ذات تحصيلات أسسها العبوديه لله و توحيده على نحو ما ذكرته آيه قرآنيه أخرى تذكر الغايه من الخلق و مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي (٣).

عباده هدفها السامى تربيته البشر و تسامى أنفسهم. عباده لا- يحتاج الله إليها، و إنما يحتاج إليها البشر لطى مراحل تكاملهم الإنسانى.

و على هذا فإنّ الفكر الإسلامى ليس كالأفكار الماديه التى تتوخى مكاسب ماديه و رفاهيه فى الحياه، بل تكون للحياه الماديه قيمه فى الإسلام إن أصبحت و سيله لتحقيق هدف معنوى سام، فالاهتمام بكون العباده خاليه من شوائب الشرك نافيه للأهواء الزائفه، يعنى أنه لا يمكن تحقق هذه العباده الصافيه إلا بتشكيل حكمه عادله.

ص: ١٥٢

١-١) - تفسير القرطبي، المجلد السابع، صفحه ٤٢٩٢.

٢-٢) - فى الصوره الأولى الجملة حالیه للضمير «هم» الذى جاء فى الآيات السابقه. و فى الصوره الثانيه تقدر ب«ليعبدوننى» و احتمال آخرون أنها جمله استثنافيه و هو احتمال ضعيف.

٣-٣) - الذاريات، ٦٥.

هذا و يمكن كسب مجموعه من الناس إلى جانب الحقّ بالتربيه و التعليم و التبليغ المستمر، و لا- يمكن تعميم هذه الحاله فى المجتمع إلا- بتشكيل حكومه عادله يقودها المؤمنون الصالحون، و لهذا سعى الأنبياء إلى تشكيل مثل هذه الحكومه خاصيه الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلم، فبمجرد وصوله صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه المنوره، و فى أول فرصه، شكّل نموذجا لها.

و يمكن الاستنتاج من ذلك أنّ جميع الجهود- من حرب و سلام و برامج تثقيفيه و اقتصاديه و عسكريه- تنصّب فى ظلّ هذه الحكومه فى مسيره العبوديه لله الخاليه من كل شائبه من شوائب الشرك.

و لا- بدّ من القول: إنّه لا يعنى خلو الأرض من المذنبين و المنحرفين فى ظلّ حكومه الصالحين المؤمنين الذين يمكنهم الله من نشر الحقّ و العدل، و عبادته عباده خاليه من صور الشرك، بل مفهوم هذه الحكومه هو أنها تدار من قبل المؤمنين الصالحين، و الصفه السائده فى المجتمع هى خلوه من الشرك. و بما أن الإنسان خلق حرّاً، فإن مجال الانحراف موجود حتى فى أفضل المجتمعات الإنسانيه (فتأملوا جيدا).

اشاره

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

التفسير

اشاره

استحاله الفرار من حكومته تعالى:

وعدت الآيه السابقه المؤمنين الصالحين بالخلافه فى الأرض، و تعبى هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومه، و خلال نفيها وجود حواجز كبيره لهذا العمل، تضمن هي بذاتها نجاحه. و فى الحقيقه أن إحدى هاتين الآيتين بينت المقتضى، بينما نفت الثانيه المانع، فهى تقول أولا: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ .

و هي الوسيله التى توثق الصله بين الخالق و المخلوق، و تقرب الناس إلى بارئهم، و تمنع عنهم الفحشاء و المنكر.

وَ آتُوا الزَّكَاةَ

و هي الوسيله التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان، و تقلل الفواصل بينهما، و تقوى ارتباطهما العاطفى.

و بشكل عام يكون فى كل شىء تبعاً للرسول: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ طاعه

تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقياده الحكم فى الأرض لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و تكونون لائقين لحمل رأيه الحق و العدل.

و إذا احتملت أن الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم الله إياه، فذلك غير ممكن، لأن قادر على كل شىء، و لا- يحجب إرادته شىء، و لهذا لا- تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ فَهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب الله و عذابه فى الأرض، و لا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل أنهم فى الآخرة مأواهم النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

و كلمه «معجزين» جمع «معجز»، المشتقه من الإعجاز بمعنى نفاذ القدره، و أحيانا يتابع المرء شخصا يفر من يديه، و لا يمكنه القبض عليه و قد خرج من سلطته فهو يعجزه، لهذا استعملت كلمه «معجز» بهذا المعنى، و كذلك تشير الآيه السابقه إلى المعنى ذاته، و مفهومها أنكم لا يمكنكم الفرار من حكمه الله.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعِيدُهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسِّرُوا تَأْذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

التفسير

اشاره

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين:

إنَّ أهم مسأله تابعها هذه السوره- كما ذكرنا- هي مسأله العفاف العام



و مكافحه كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفه.

و قد تناولت الآيات-موضع البحث- إحدى المسائل التى ترتبط بهذه المسأله، و شرحت خصائصها، و هى استئذان الأطفال البالغين و غير البالغين للدخول إلى الغرفه المخصصه للزوجين.

فتقول أولاً: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسِيَ تَأْذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِيجِبُ عَلَى عِبِيدِكُمْ وَ أَطْفَالِكُمُ اسْتِئْذَانٌ فِي ثَلَاثِ أَوْقَاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ .

«الظهيره» تعنى كما يقول «الراغب الإصفهاني» فى مفرداته «و الفيروز آبادى» فى القاموس المحيط: منتصف النهار و قريب الظهر حيث ينزع الناس عاده الملابس الإضافيه، و قد يختلى الزوج بزوجه.

ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ

أى هذه ثلاث أوقات للخلوه خاصه بكم.

«العوره» مشتقه من «العار»، أى: العيب. و أطلق العرب على العضو التناسلى العوره، لأنّ الكشف عنه عار.

كما تعنى العوره الشقّ الذى فى الجدار أو الثوب، و أحيانا تعنى العيب بشكل عام.

و على كلّ فإنّ إطلاق كلمه (العوره) على هذه الأوقات الثلاثه بسبب كون الناس فى حاله خاصه خلال هذه الأوقات الثلاثه، حيث لا يرتدون الملابس التى يرتدونها فى الأوقات الأخرى.

و طبيعى أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعيه.

كما أنّ عموميه الآيه تعنى شمولها الأطفال البنين و البنات، و كلمه «الذين» التى هى لجمع المذكر السالم، لا تمنع أن يكون مفهوم الآيه عامًا، لأنّ هذه العبارة

استعملت في كثير من الموارد و قصد بها المجموع، كما في آيه وجوب الصوم، فلفظ «الذين» هناك يعم المسلمين كافة (سوره البقره الآيه ٨٣).

ولا بد من القول بأن هذه الآيه تتحدث عن أطفال مميزين يعرفون القضايا الجنسيه، و يعلمون ماذا تعنى العوره. لهذا أمرتهم بالاستئذان عند الدخول إلى غرفه الوالدين، و هم يدركون سبب هذا الاستئذان، و جاءت عبارته «ثلاث عورات» شاهداً آخراً على هذا المعنى و لكن هل أن الحكم المتعلق بمن ملكت أيديكم يختص بالعبيد الذكور منهم أو يشمل الإمام و الجوارى، هناك أحاديث مختلفه في هذا المجال، و يمكن ترجيح الأحاديث التي تؤيد ظاهر الآيه، أي شمولها الغلمان و الجوارى.

و تختتم الآيه بالقول: لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَلَا حَرَجٌ وَلَا إِثْمٌ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ إِذَا دَخَلُوا بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ، أَجَلٌ: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

كلمه طَوَافُونَ مشتقه من «الطواف» بمعنى الدوران حول شيء ما، و قد جاءت بصيغه مبالغه لتأكيد تعدد الطواف.

و بما أن عبارته بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ جاءت بعد كلمه طَوَافُونَ فَإِنَّ مَفْهُومَ الْجُمْلَةِ يَكُونُ: إِنَّهُ مَسْمُوحٌ لَكُمْ بِالطَّوَافِ حَوْلَ بَعْضِكُمْ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ، و لكم أن تتزاورا فيما بينكم و يخدم بعضكم بعضاً.

و كما قال «الفاضل المقداد» في كنز العرفان، فَإِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ بِمَنْزِلِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ ضَرُورَةِ الْاسْتِئْذَانِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ تَتَعَقَّدُ إِنْ رَغِبْتُمْ فِي الْاسْتِئْذَانِ كُلِّ مَرَّةٍ (١).

و بيئت الآيه التاليه الحكم بالنسبه للبالغين، حيث تقول:

ص: ١٥٨

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

و كلمه «الحلم» على وزن «كتب» بمعنى العقل و الكنايه عن البلوغ، الذى يعتبر توأما لظفره عقليه و فكريه، و مرحله جديده فى حياه الإنسان.

و قيل أن الحلم بمعنى الرؤيا، فهى كنايه عن احتلام الشباب حين البلوغ.

و على كل حال يستفاد من الآيه السابقه، أن الحكم بالنسبه للبالغين يختلف عنه بالنسبه للأطفال غير البالغين، لأن أولئك يجب عليهم استئذان الوالدين فى الأوقات الثلاثه فقط، لأن حياتهم قد امتزجت مع حياه والديهم بدرجة يستحيل بها الاستئذان كل مره، و كما أنهم لم يعرفوا المشاعر الجنسيه بعد. أما الشباب البالغ، فهم مكلفون فى جميع الأوقات بالاستئذان حين الدخول على الوالدين.

و يخص هذا الحكم المكان المخصّص لاستراحه الوالدين. أما إذا كان فى غرفه عامه يجلس فيها آخرون أيضا، فلا حاجه للاستئذان منهما بالدخول.

و الجدير بالذكر إن عبارته كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إشاره إلى الكبار الذين يستأذنون من الوالدين حين الدخول إلى غرفتهما. و قد أردفت الآيه الشباب الذين بلغوا الرشد بهؤلاء، الكبار.

و تقول الآيه فى الختام للتأكيد و الاهتمام الفائق: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

و هذا هو نفس التعبير الذى جاء فى آخر الآيه السابقه دون تغيير، باستثناء استعمال الآيه السابقه كلمه «الآيات» و هذه استعملت كلمه «آياته» و لا فرق فى معناهما.

و سنتناول بحث ميزات هذا الحكم، و كذلك فلسفته فى ذيل تفسير هذه الآيات.

و فى آخر الآيات -موضع البحث- استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز و المسنات من هذا الحكم، فقال: وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا

يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ لِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينِهِ

و لهذا الاستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه، أو بعبارة أخرى: أن يفقدن كل جاذبيه أنثويه.

و ثانيهما: ألا- يتزين بزينة بعد رفع حجابهنّ، و يتّضح بذلك أنّه لا ضير في رفع الحجاب بعد إجراء هذين الشرطين. و لهذا استثناءهنّ الإسلام من حكم الحجاب.

كما أنّ- من الواضح- أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب إباحه خلع الملابس كلها و التعرّي، بل خلع اللباس الفوقاني فقط. و كما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب و الخمار.

و

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام في شرح هذه الآية: «الخمار و الجلباب»، قلت: بين يدي من كان؟ قال: «بين يدي من كان غير متبرجه بزينه». (١)

كما وردت أحاديث أخرى عن أهل البيت عليهم السّلام بهذا المضمون أو ما يقاربه (٢).

و تضيف الآية في ختامها وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ .

فالإسلام يرغب في أن تكون المرأة أكثر عفّة و أنقى و أطهر. و لتحذير النساء اللواتي يستن الاستفاده من هذه الحريره، و يتحدثن أو يتصرفن بأسلوب لا- يليق بشرفهنّ، تقول الآية محذره إيّاهن: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كَلَّمَا تَقُولُونَهُ يَسْمَعُهُ اللَّهُ، و ما تكتمون في قلوبكم أو في أذهانكم يعلمه الله أيضا.

ص: ١٦٠

١-١) -وسائل الشيعة، المجلد ١٤ كتاب النكاح صفحه ١٤٧، الباب ١١٠.

٢-٢) -للاستزاده يراجع المصدر السابق.

### ١- فلسفه الاستئذان و المفاسد المترتبه على عدم الالتزام به

لا يكفى اللجوء إلى القوه لاقتلاع جذور المفاسد الاجتماعيه كالأعمال المخله بالشرف، و لا يرجى نتيجه مرضيه من العقاب فقط فى القضايا الاجتماعيه.

و إنما يستوجب اتباع عدّه أمور كالتتقيف الإسلامى، و تعليم آدابه الخلقيه، و اتباع السبل الصحيحه فى القضايا العاطفيه. و إلى جانب هذه الأمور يكون العقاب كعامل لردع المنحرفين عن الطريق السوى.

و لهذا السبب بدأت سوره النور- و هى فى الواقع سوره العفاف و الشرف- بالحديث عن جلد الرجال الزناه و النساء الزانيات، كما تحدثت فى نفس الوقت عن تسهيل الزواج و رعايه الحجاب الإسلامى، و النهى عن النظر بلذه و تحريم اتهام الآخرين بشرفهم و ناموسهم، و أخيرا استئذان الأبناء حين الدخول إلى غرفه الوالدين.

و هذا يدلّ على عدم إغفال الإسلام أى من هذه التفاصيل التى لها علاقه بمسأله العفاف و الشرف.

و على الخدم أن يستأذنوا حين الدخول إلى غرفه الزوجين الخاصّه اللذين يخدمانهما، كذلك يستوجب على الأطفال البالغين عدم الدخول إلى الغرفه المذكوره دون استئذان، و تعليم الأطفال غير البالغين الذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالوالدين، أن لا يدخلوا غرفه الوالدين دون استئذان و على الأقل فى الأوقات الثلاثه التى أشارت إليها الآيه «قبل صلوه الفجر و حين الظهر و من بعد صلوه العشاء».

و هذا نوع من الأدب الإسلامى، رغم قلّه الالتزام به مع كلّ الأسف. و رغم بيان القرآن ذلك بصراحه فى الآيات السابقه. فإنّه من النادر أن يتناوله الخطباء

و الكتياب، و لا- يعرف سبب إهمال هذا الحكم القرآني الحاسم؟! و رغم أنّ ظاهر الآيه يوجب هذا الحكم، و حتى لو اعتبرناه مستحبا فإنه ينبغي الحديث عنه، و بحث جزئياته و رغم تصور بعض السذج بأن الأطفال لا يدركون شيئا عن هذه الأمور، و أن خدم البيت لا يهتمون بها، فإنّ الثابت هو حساسيه الأطفال بالنسبه لهذه القضيّه (فكيف بالنسبه للكبار). و قد يؤدي إهمال الوالدين و رؤيه الأطفال لمشاهد ممنوعه إلى انحرافهم خلقيا و أحيانا إلى إصابتهم بأمراض نفسيه.

و قد واجهنا أشخاصا اعترفوا بأنهم أثروا جنسيا، أو أصيبوا بعقد نفسيه لمشاهد جنسيه من هذا القبيل و قد شئت في قلوب البعض منهم نار الحقد على الوالدين، إلى درجه الرغبه في قتلهم، أو الانتحار. كلّ ذلك بسبب الأثر الذي زرعه في نفوسهم إهمال الوالدين، و عدم حيظتهم حين الممارسه الجنسيه أو مقدماتها.

هنا تتضح لنا قيمه و أهميه هذا الحكم الإسلامى الذى بلغه العلماء المعاصرون، بينما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرنا. و هنا نجد لزاما علينا توصيه الآباء و الأمهات بالجديه فى الحياه الزوجيه، و تعليم أولادهم الاستئذان حين الدخول إلى غرفتهما، و اجتناب كلّ عمل قد يثير الأولاد و يحركهم. و من هذه الأعمال مييت الزوجين بغرفه فيها أولاد بالغون، فيجب اجتناب ذلك بالقدر الممكن. و أن يعلمنا بأنّ هذه الأمور تؤثّر بشكل كبير فى مستقبل أولادهما.

و ممّا يلفت النظر

حديث للرسول صلى الله عليه و آله و سلم يقول فيه «إياكم و أن يجامع الرجل امرأته و الصبي فى المهدي ينظر إليهما» (1).

ص: ١٦٢

## ٢- حكم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز:

لا خلاف في أصل هذا الاستثناء في حكم الحجاب بين علماء المسلمين، لأنّ القرآن صريح في هذا الأمر. إلا أنّ هناك أقوالاً في خصوصيات هذا الحكم.

فبالنسبة لعمر هؤلاء النسوة، والحد الذي يجب أن يبلغنه ليكنّ من القواعد، هناك أقوال. فبعض الأحاديث الإسلامية تنص على أنّ المراد هو

«المسنّة». (١)

بينما فسرتة أحاديث أخرى ب

«القيود عن النكاح» (٢).

و لكن عدد من المفسرين يرى أنّها تعني «النساء اللواتي لا يطمئن، فيصلن إلى مرحلة عدم الحمل. ولا يرغب أحد في الزواج بهنّ» (٣).

و يبدو أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى واقع محدد، هو بلوغهن سناً لا يتزوجن عادة. وقد يحدث نادراً أن يقدم بعضهن على الزواج في هذا العمر.

كما جاءت تعابير مختلفه في الأحاديث الإسلامية حول المقدار من الجسم المسموح بكشفه، لأنّ القرآن الكريم ذكر المسأله بشكل عام فليست عليهنّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ وَيَقْصِدْنَ بِهِنَّ الثِّيَابَ الْمَلَابِسَ الْفُوقَانِيَةَ.

و جاء في بعض الأحاديث جواباً على سؤال: أي الثياب يجوز وضعها؟ يجب الإمام الصادق عليه السلام

«الجلباب» (٤).

بينما ذكر حديث آخر أنه

«الجلباب والخمار» (٥).

و يبدو أنّ هذه الأحاديث غير متناقضة، وقصدها جواز الكشف عن رؤوسهن، وعدم تغطية الشعر والرقبة والوجه. كما قالت أحاديث أخرى -وقال فقهاء- بشمول الاستثناء إلى حدّ الرسغ. ولا سند لدينا يسمح بأكثر من ذلك.

ص: ١٦٣

- ٢-٢) - المصدر السابق، الحديث ٥.
- ٣-٣) - الجواهر، المجلد ٢٩، صفحته ٨٥ و كنز العرفان، المجلد ٢، ص ٢٢٦.
- ٤-٤) - وسائل الشيعه، كتاب النكاح، الباب ١١٠، الحديث ١.
- ٥-٥) - المصدر السابق، الحديث ٢ و ٤.



و على كل حال، فإن ذلك مسموح لهن بشرط أن يكنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ و أن يخفين الزينه التي تحت الحجاب، و التي من الواجب إخفاؤها من قبل جميع النساء، و أن لا يرتدين الملابس التي تنزين بها النساء، و التي تثير انتباه الآخرين.

و بتعبير آخر: إنه مسموح لهنَّ بعدم التحجب على أن يخرجن إلى الشارع بلباس محتشم و دون تزين بزينه.

و هذا كله ليس حكما إلزاميا. إذ أن الأفضل لهن أن يخرجن محجبات كالنساء الأخريات، كما جاء في آخر الآية المذكوره، إذ هنَّ معرضات إلى الزلل - و إن كان نادرا.

ص: ١٦٤

اشاره

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ  
أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ  
خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صِيْدِيْقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ  
تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٤١)

التفسير

اشاره

البيوت التي يسمح بالأكل فيها:

تحدثت الآيات السابقة عن الاستئذان في أوقات معينه، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاص بالأب و الأم.

أما الآيه موضع البحث فإنها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض

و بشروط معينه،الدخول إلى منازل الأقرباء و أمثالهم،و حتى أنه يجوز لهم الأكل فيها دون استئذان،حيث تقول هذه الآية أولا  
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ .

لأنّ أهل المدينة كانوا-كما ورد بصراحه فى بعض الأحاديث-و قبل قبولهم الإسلام،يمنعون الأعمى و الأعرج و المريض من  
المشاركه فى مائدتهم، و يتنفرون من هذا العمل.

و على عكس ذلك كانت مجموعه منهم بعد إسلامها،تفرد لمثل هؤلاء موائد خاصّه،ليس لاحتقارهم المشاركه معهم على مائده  
واحد،و إنّما لأسباب إنسانيه،فالأعمى قد لا يرى الغذاء الجيد فى المائده،و هم يرونه،و يأكلونه،و هذا خلاف الخلق السليم،و  
كذلك الأمر بالنسبه للأعرج و المريض،حيث يحتمل تأخرهما عن الغذاء،و تقدم السالمين عليهما.و لهذا كلّ لم يشاركوهم  
الغذاء على مائده واحد. و لهذا كان الأعمى و الأعرج و المريض يسحب نفسه حتى لا يزعج الآخرين بشىء.و يعتبر الواحد  
منهم نفسه مذنباً إن شارك السالمين غذاءهم فى مائده واحد.

و قد استفسر من الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم عن هذا الموضوع،فنزلت الآية السابقه التى نصّت على عدم وجود مانع من  
مشاركه الأعمى و الأعرج و المريض للصحيح غذاءه على مائده واحد. (1)

و قد فسر آخرون هذه العبارة باستثناء هذه الفئات الثلاث من حكم الجهاد، أو أنّ القصد أنّه مسموح لكم استصحاب العاجزين  
معكم إلى الأحاد عشر بيتا التى أشارت إليها الآية فى آخرها،ليشاركوكم فى غذائكم.

إلا أن هذين التفسيرين-كما يبدو-بعيدان عن قصد الآية،و لا ينسجمان مع

ص: ١٦٦

---

(١-١) -ذكرت هذا التفسير أيضا،التفاسير التالیه«الدر المنثور»و«نور الثقلين»و«مجمع البيان»و«الصابى»و«التفسير الكبير»و«التبيان».

ظاهاها. (فتأملوا جيدا).

ثم يضيف القرآن المجيد وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ .

و المقصود بعباره بيوتكم الأبناء أو الزوجات.

أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ أَعْلَامِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ

.

أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ

.

أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ

أَوْ صَدِيقِكُمْ

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتي ذكرها في آخر تفسير الآية.

ثمّ تضيف الآية لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً .

ذكر أنّ مجموعه من المسلمين كانوا يمتنعون عن الأكل منفردين، بل كانوا يبقون جوعاً لمدّة حتى يجدوا من يشاركهم غذاءهم، فعلمهم القرآن المجيد أن تناول الغذاء مسموح بصوره جماعيه أو فرديه. (١)

و يرى البعض: إنّ مجموعه من العرب كانت تقدم غذاء الضيف على حده احتراماً له، ولا يشاركونه الغذاء (حتى لا يخجل أثناء تناوله الطعام).

ص: ١٦٧

---

١-١) -تفسير التبيان، للآية موضع البحث.

لقد رفعت الآية المذكوره هذه التقاليد و اعتبروا غير محموده (١).

و قال آخرون: إنَّ البعض كان يرى عدم جواز تناول الأغنياء الغذاء مع الفقراء، و المحافظه على الفروق الطبقيه حتى على مائده الطعام. لهذا نفى القرآن المجيد هذا التقليد الخاطي و الظالم بذكره العبارة السابقه. (٢)

و لا مانع من احتواء الآية السابقه لكل هذه المعاني.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقيه فتقول: فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ و اختتمت بهذه العبارة كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

و قال بعض المفسرين: إنَّ المقصود من عبارة «بيوتاً» في هذه الآية، هي البيوت الأحد عشره المذكوره سابقا.

و قال آخرون: إنها المساجد.

و لكن يبدو أنها عامه، تشمل جميع البيوت، سواء الأحد عشر بيتا التي يجوز للمرء الأكل فيها، أو غيرها كبيوت الأصدقاء و الأقرباء. حيث لا يوجد دليل على تضيق المفهوم الواسع لهذه الآية.

و لكن ما هو المقصود من عبارة فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ ؟ نجد هنا عددا من التفاسير: حيث يرى البعض من المفسرين أنه سلام البعض على البعض، مثلما جاء في قصه بنى إسرائيل (سوره البقره الآية ٥٤) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .

و رأى آخرون أنه يعنى السلام على الزوجه و الأبناء و الأهل، حيث هم بمنزله النفس، لهذا استخدمت الآية تعبير «الأنفس»، كما جاء هذا التعبير أيضا في آيه المباهله (سوره آل عمران الآية ٦١). و هذا يبين لنا أن قرب الشخص من

ص: ١٦٨

١-١ - المصدر السابق.

٢-٢ - المصدر السابق.

الآخر قد يصل إلى درجه أنه يكون كنفسه، أى يكونان كنفس واحده، مثلما كان على عليه السّلام من الرّسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم.

و يرى بعض المفسّرين أنّ الآيه السابقه أشارت إلى بيوت لم يسكنها أحد، حيث يحيى المرء نفسه عند دخولها فيقول: السّلام عليكم من قبل ربّنا. أو: السّلام علينا و على عباد الله الصالحين. و نرى عدم وجود تناقض بين هذه التفسير. حيث يجب السّلام عند الدخول إلى أى منزل كان، و يجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، و يسلم أهل المنزل أحدهم على الآخر. و أمّا إذا لم يجد أحدا في المنزل فيحيى المرء نفسه، حيث تعود هذه التحيات بالسلامه على الإنسان ذاته.

لهذا نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام يجب فيه على سؤال يخصّ تفسير هذه الآيه فيقول: «هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثمّ يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم». (١)

و

فى حديث عن الباقر عليه السّلام أيضا، يقول فيه: «إذا دخل الرجل منكم بيته فإنّ كان فيه فليسلم عليه، و إن لم يكن فيه أحد فليقل: السّلام علينا من عند ربّنا، يقول الله عزّ و جلّ «تحية من عند الله مباركة طيبة» (٢).

**بحوث**

**اشاره**

### **١- هل أن تناول غذاء الآخرين غير منوط بإذنههم؟**

كما شاهدنا فى الآيه السابقه، أنّ الله تعالى سمح أن يأكل الإنسان فى بيوت أقربائه المقربين و بعض الأصدقاء و أمثالهم، و أصبح عدد هذه البيوت أحد عشر بيتا. و لم تشترط الآيه استئذانهم لتناول الطعام، و لا شك فى عدم وجوب

ص: ١٦٩

١- ١) -نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٦٢٧.

٢- ٢) -المصدر السابق.

الاستئذان. إذ أنّ بوجود الإذن بالأكل يمكن تناول الغذاء العائد لأي شخص، و بذلك لا تبقى ميزه لهذه المجموعه المؤلفه من أحد عشر بيتا.

فهل يشترط توفر الرضى القلبي يتناول الغذاء«و كما يقال من شاهد الحال».

بسبب الصله الوثيقه بين الطرفين إن ظاهر اطلاق الآيه ينفي هذا الشرط، إذ يكفي احتمال حصول رضاه فقط و عاده يحصل الرضى.

أمّا إذا كانت الحاله تؤكّد عدم رضى صاحب الطعام فى تناول غذاه، فبالرغم من اطلاق الآيه و شمولها لهذا المورد أيضا، إلاّ أنّه لا يبعد انصراف الآيه عن هذا المورد، و خاصّه أنّ مثل هذا المورد نادر الوقوع، و من المعلوم أنّ الإطلاقات لا تشمل الأفراد النادره.

و على هذا فإنّ الآيه المذكوره تخصص الآيات و الزوايات التى تشترط فى التصرف بأموال الآخرين إحراز رضاهم فى دائره محدوده. و تكرر القول بأن هذا التخصيص فى نطاق محدد، أى تناول الغذاء بمقدار الحاجه تناولاً بعيداً عن الإسراف.

و الذى ذكرناه متعارف عليه بين كبار فقهاءنا. و جاء بعضه بصراحه فى الأحاديث الإسلاميه، حيث ذكر روايه معتبره

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال عند الاستفسار منه عبارته «أو صديقكم» الوارد فى هذه الآيه

قال عليه السّلام: «هو و الله الرجل يدخل بيت صديقه فيأكل بغير إذنه» (١).

كما ذكرت أحاديث أخرى بهذا المضمون، أكّدت أنّه لا يشترط الاستئذان فى هذه الحالات. (و بالطبع لا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان، الذى نهت عنه الآيه بصراحه مع العلم بهذا النهى.

لهذا أهملت الآيه السابقه ذكره).

ص: ١٧٠

---

١-١) - وسائل الشيعه، المجلد ١٦، صفحه ٤٣٤، كتاب الأُطعمه و الأُشربه - أبواب آداب المائده - الباب ٢٤ الحديث ١.



و حول عبارتي «عدم الإفساد» و«عدم الإسراف» فقد صرحت بعض الأحاديث بذلك أيضا (١).

و لا بد من الإشارة إلى أنه ورد حديث في هذا الباب يقول بأنه يمكن الاستفادة فقط من غذاء خاص و ليس أىّ غذاء، إلا أنّ الفقهاء أعرضوا عن هذا الحديث لضعف سنده.

و استثنى بعض المفسرين الأَطعمه الممتازه التي يحفظها صاحب المنزل لنفسه، أو لضيوفه المقربين، أو لمناسبات خاصّه. و هذا الاستثناء غير بعيد، بسبب انصراف الآيه عنه (٢).

## ٢- فلسفه هذا الحكم الإسلامى:

يمكن أن يثير هذا الحكم تساؤلا- بالمقارنه مع الأحكام الشديده التي نصت عليها التعاليم في تحريم الغصب، هو: كيف سمح الإسلام بذلك، رغم تشديده في قضيه التصرف بأموال الآخريين؟! إننا نرى أنّ هذا السؤال ينسجم مع طبيعه البيئات الماديه تماما، كالمجتمع الغربى، حيث يطرد الأبناء من المنزل حين البلوغ! و لا يهتمون بالوالدين حين إصابتهم بالعجز أو الشيخوخه! حيث نشاهد الأبناء هناك، لا يثمنون أتعاب الوالدين و لا يشفقون عليهما، بسبب تسلط التفكير المادى على العلاقات الاجتماعيه فى الغرب! و لا- خبر هناك عن العاطفه الإنسانيه و الشفقه! إلا- أنّ التعاليم الإسلاميه و العواطف الإنسانيه التي تمتد جذورها فى المجتمع الإسلامى، خاصّه بين الأهل و الأقرباء و الأصدقاء، قد ميّزت المجتمع الإسلامى عن المجتمع الغربى.

ص: ١٧١

١-١) -المصدر السابق، الحديث ٤.

٢-٢) -لإيضاح أكثر يراجع جواهر الكلام المجلد ٣٦، صفحه ٤٠٦، (كتاب الأَطعمه و الأشربه).

و الواقع أنّ الإسلام جعل علاقات الأقرباء و الأصدقاء أسمى من الأمور الماديه، و هذا يعكسه الصفاء و الود اللذان يسودان المجتمع الإسلامى الحقيقى، حيث يتعد أفراد هذا المجتمع عن الصفات غير المحموده كالبلخ و حب الذات.

و لا-ريب أن أحكام الغصب تكون نافذه فى غير هذه الدائره. و لكن الإسلام فى داخل هذه الدائره يفضل القضايا العاطفيه و الروابط الإنسانيه، فهى التى ينبغى أن تسود العلاقات بين الأقرباء و الأصدقاء جميعا.

### ٣- من هو الصديق؟

لا شك أنّ للصدقه مفهومًا واسعًا، و هى تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقه، و هذه العلاقه توجب التزاور فيما بينهم و الأكل من طعام الآخر، و لا حاجه هنا- كما أسلفنا- إلى إحراز الرضا، بل يجوز الأكل بمجرد عدم العلم بعدم رضا صاحب الغذاء.

لهذا قال بعض المفسرين حول هذه الآيه: الصديق هو الذى يصدق فى علاقاته معك.

و قيل: الصديق هو الذى يصدق ظاهره باطنه و كما يبدو فإن الجميع يشيرون إلى حقيقه واحده.

و يتضح من هذه العبارة أنّ الذى لا يسمح بمشاركه صديقه لغذائه، لا يمكن اعتباره صديقًا! و من المناسب هنا أن نقرأ حديثًا عن الإمام الصادق عليه السلام ضمّ مفهوم الصدقه الواسع و شروطها الكامله:

«لا تكون الصدقه إلاّ بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شىء منها فأنسبه إلى الصدقه، و من لم يكن فيه شىء منها فلا تنسبه إلى شىء من الصدقه.

فأولاهها: أن تكون سريره و علانيته لك واحده.

و الثاني: أن يرى زينك زينه و شينك شينه.

و الثالث: أن لا تغيره عليك ولايه و لا مال.

و الرابع: أن لا تمنعك شيئا تناله مقدرته.

و الخامسة: و هي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات». (١)

#### ٤- تفسير عبارته مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ

جاء في بعض أسباب النزول أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا يسلمون أحيانا مفاتيح منازلهم إلى الذين لا- يشملهم الجهاد. حين توجههم إلى الجهاد في سبيل الله. و كانوا يسمحون له بتناول الطعام من هذه المنازل، إلا أن هؤلاء كانوا يمتنعون من الأكل في هذه المنازل خوفا من ارتكاب إثم في ذلك.

و حسب هذه الرواية فإن المراد من عبارته مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ هو ما ذكرنا. (٢)

و روى عن ابن عباس أيضا أن قصد الآية هو وكيل الشخص على ما يملكه من ماء و بستان و مواشى، حيث سمح له بتناول الفاكهة من بستان الموكل بقدر حاجته و الشرب من حليب ماشيته.

كما فسر آخرون ذلك بحارس المخزن الذي يسمح له بتناول قليل من المواد الغذائية الموجوده في هذا المخزن.

و مع ملاحظه سائر المجموعات التي ورد ذكرها في هذه الآية، يبدو أنها تقصد الذين يسلمون مفاتيح منازلهم لأشخاص مؤثمين و مقربين لهم، و هذا التقارب الوثيق بينهما يؤدي إلى أن يكونوا في صف الأقرباء و الأصدقاء المقربين، و سواء كان وكيلا رسميا أم لا.

ص: ١٧٣

١- ١) - أصول الكافي، المجلد الثاني، صفحہ ٤٦٧.

٢- ٢) - تفسير القرطبي، المجلد الثاني عشر، ص ٣١٥ (و جاء في وسائل الشيعة المجلد السادس عشر، صفحہ ٤٣٦، الباب ٢٤ من أبواب المائده حديث بهذا المضمون).

وإذا لاحظنا أن بعض الأحاديث تفسر عبارته <sup>□</sup> ما مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ بالوكيل الذى يتعهد بالإشراف على أموال شخص آخر، فإن ذلك مصداق للآيه و ليس لتحديد معناها و حصرها بهذا التفسير.

## ٥- السلام و التحية

«التحية» مشتقة من الحياه، بمعنى الدعاء لسلامه الآخريين، سواء كانت بشكل السّلام عليكم، أو السّلام علينا، أو قولاً - كحياك الله، فكل هذا إعراب عن المحبه التى يبديها الشخص عند لقائه بآخر، و تدعى بالتحية.

و يقصد بعبارته تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ <sup>□</sup>. ربط التحية بالله بشكل ما، أى «السّلام عليكم»، سلام الله عليكم، أو نسأل الله أن يسلمكم، إذ أن كل موحّد يرى ربط الدعاء بالله، و طبيعى أن الدعاء بهذا الشكل يكون مباركاً و طيباً. (تناولنا بحث السّلام و أهميته و وجوب الردّ على التحية، فى تفسير الآيه ٨٦ من سوره النساء).

اشاره

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ لِّجَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَاذَا إِسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

سبب النزول

ذكرت عدة أسباب لنزول الآيه الأولى من الآيات أعلاه، فقد جاء في بعض الأحاديث أن هذه الآيه نزلت في «حنظله بن أبى عياش» الذى صادف زواجه ليله معركة أحد، و كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يشاور أصحابه حول هذه المعركة، فجاهه

حنظله يستأذنه المبيت عند زوجته، فأجازه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم.

وقد بكر حنظله للالتحاق بصفوف المسلمين، وكان على عجل من أمره بحيث لم يتمكن من الاغتسال. ودخل المعركة على هذه الحال، وقاتل حتى قتل في سبيل الله.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فيه «رأيت الملائكة تغسل حنظله بماء المزن في صحائف فضه بين السماء والأرض». لهذا سمي حنظله بعدها ب«غسيل الملائكة» (١).

وذكر سبب آخر لنزول هذه الآية حيث «روى ابن إسحاق» في سبب نزول هذه الآيات أنه لما سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم بتجمع قريش والأحزاب على حربه - وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة. فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه فدأب ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين لا ينجزون إلا اليسير من العمل، أو يتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ولا إذنه، وجعل الرجل من المسلمين إذا نأبته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ويسأله في اللحوق بحاجته فيأذن له.

فإذا قضى حاجته، رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... الآية، ثم قال تعالى يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ... الآية (٢).

ص: ١٧٤

١- ١) - تفسير على بن إبراهيم، حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٦٢٨.

٢- ٢) - في ظلال القرآن - طبعه دار إحياء الكتب العربية - الجزء السابع عشر، ص ١٢٦.

## لا تتركوا النبي وحده!

قال بعض المفسرين حول علاقة هذه الآيات بسابقتها، وفيهم المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان «و سيد قطب» في تفسير في ظلال القرآن: بما أنّ الآيات السابقة طرحت للبحث جانبا من أسلوب التعامل مع الأصدقاء و الأقرباء.

فإنّ الآيات موضع البحث تناولت كيفية تعامل المسلمين مع قائدهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و قد أكدت التزام الوقار أمامه، و طاعته و عدم ترك الجماعة إلا بإذنه.

و يمكن أيضا أنّ الآيات السابقة تحدثت عن ضروره طاعه الله و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم، و من علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات-موضع البحث-حول هذا الموضوع. فتقول أولا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ .

و المراد من «أمر جامع» كلّ عمل يقتضى اجتماع الناس فيه و يتطلب تعاونهم، سواء كان عملا استشاريا، أو مسأله حول الجهاد و مقاتله العدو، أو صلاه جمعه في الظروف الاستثنائية و أمثالها.

و إذا وجدنا أنّ بعض المفسرين، قالوا بأنه يعنى الاستشاره أو الجهاد أو صلاه الجمعه أو العيد فنقول: إنهم عكسوا جانبا من معانى هذه الآيه. و أسباب النزول السابقة أيضا هي من مصاديق هذا الحكم العام.

و فى الحقيقة إنّ هذا من شروط النظم و التنظيم و لا- يمكن لأيه مجموعه منظمه منسجمه أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات و يلحق ضررا بالهدف النهائى، خاصه إذا كان قائد الجماعة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كلامه مطاع.

كما يجب الانتباه إلى أنّ الإذن لا- يعنى الاستئذان الشكلى لقضاء الشخص أعماله الخاصه و التفرغ لتجارته. و إنّما أن يكون صادقا فى الاستئذان. فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضررا، فمن حقه أن لا يأذن له، و عليه أن

يضحي بمصلحته من أجل هدف أسمى. لهذا تضيف الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ .

و من الواضح أنّ هؤلاء المؤمنين لا- يستأذن أحدهم لعمل بسيط في حين أنّهم اجتمعوا لأمر أهم، و المقصود من عبارته «شأنهم»، الأعمال الضرورية و المهمّة فقط.

و من جهة أخرى، لا- تعنى إذن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ للأشخاص دون دراسه جوانب المسأله و أثر حضور و غياب الأفراد، بل جاء هذا التعبير ليطلق يد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و أن لا يأذن لأحد حين إحساسه بضروره حضوره في الجماعه.

□  
و دليل هذا الكلام ما جاء في الآية (٤٣) من سوره التوبه حيث يلام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لإذنه بعض الأفراد: عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَا لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ .

و تبين هذه الآية كيف أوجبت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ التحقيق قبل الإذن، و أن يلاحظ أبعاد هذه المسؤوليه الإلهيه.

□ □  
و تقول الآية في الختام: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللهُ إِنَّ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و هنا يطرح سؤال: ما الغرض من هذا الاستغفار؟ فهل هم مذنبون رغم أخذهم الإذن من الرسول بالمغادره، كى يحتاجوا إلى استغفاره لهم؟ و للجواب على هذا السؤال هناك وجهان:

أحدهما: أن يستغفر لهم تنيبها على أنّ الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم و إن أذن لهم، لأن ذلك يعتبر تقديم الشخص لمصلحته الخاصّه على مصلحه المسلمين، و لا يخلو هذا الأمر من «الترك الأولى» و لذا يحتاج الى الاستغفار (كالاستغفار



كما تبين هذه العبارة ضروره عدم الاستئذان بالقدر الممكن. و اتباع التضحيه و الإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادره الجماعه لعمل بسيط.

و الوجه الثانى: يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابله لتمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان. (٢)

و لكن نرى عدم وجود تناقض بين هذين الوجهين، كما أنه من الطبيعى أن لا تخص هذه التعاليم التنظيميه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه فقط. و إنما هى واجبه الإلتباع إزاء كل قائد إلهى، سواء كان نبيا أم إماما أم عالما نائبا لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعه. كما يحتمه-إضافه إلى القرآن-العقل و المنطق، لأن الاستمرار التنظيم يتوقف على رعايه هذه المبادئ، و لا يمكن إداره المجتمع بدونها.

و المدهش تفسير كبار مفسرى أهل السنه لهذه الآيه بأنها دليل على جواز الاجتهاد و توقف الحكم على رأى المجتهد. و لا يخفى أن الاجتهاد المطروح فى مباحث الأصول و الفقه يخص الأحكام الشرعيه، و لا يتعلق بالاجتهاد فى الموضوعات حيث أن الاجتهاد فى الموضوع لا يقبل الإنكار، فكل قائد جيش أو مدير دائره أو مشرف على جماعه يجتهد فى القضايا الإجرائيه الخاصه بدائره عمله. و ليس هذا دليلا-على إمكان الاجتهاد فى الأحكام الشرعيه العامه بإيجاب حكم بدعوى المصلحه العامه، أو نفى حكم أو تشريع آخر.

ثم بينت الآيه التاليه حكما آخر له علاقته بتعاليم النبى صلى الله عليه و آله و سلم حيث

١-١) -التفسير الكبير للفخر الرازى، و روح المعانى، و تفسير القرطبي للآيات موضع البحث.

٢-٢) -التفسير الكبير للفخر الرازى- فى تفسيره للآيه موضع البحث صفحه ٣٩ من طبعه دار الكتب العلميه بطهران-الطبعه الثانيه.

تقول: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا .

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند ما يدعوكم للاجتماع، فإنه لا بد من أن يكون لمسأله إلهيه مهمه، لهذا يجب عليكم الاهتمام بدعوته، والالتزام بتعاليمه، والآ تهملوها، فأمره من الله ودعوته منه سبحانه وتعالى .

ثم تضيف الآية قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

«يتسللون» مشتق من «تسلل»، وتعني سحب الشيء من موضعه، كأن يقال:

سَلَّ السيف من غمده. كما يطلق على الذين يفرون سرًا من مكان تجمع محدد لهم، كلمه «متسللون».

«لواذا» مشتق من «ملاوذه» بمعنى الاختفاء، وتعني هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار، أو بتعبير آخر: استغفال الآخرين ثم الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الدعوه للجهاد أو لأمر مهم آخر، يقول لهم القرآن المجيد: «إِنَّ عَمَلِكُمُ النِّفَاقِي هَذَا إِنْ خَفَى عَلَى النَّاسِ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ، وَسَيُعَاقِبُكُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَمَخَالَفَتِكُمْ لِأَوَامِرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

ماذا يقصد به «فتنه» هنا؟ قال بعض المفسرين: إنها القتل، وآخرون قالوا: إنها تعني الضلال، كما قال بعضهم: إنها السلطان الظالم، وقيل: إنها بلاء النفاق الذي يتوغل في قلب الإنسان.

كما يحتمل أن تعني الفتنة الفتن الاجتماعيه ومشاكلها، وأن يسود الهرج والمرج في المجتمع، وابتلائه بالهزيمة، وسائر الفتن الأخرى التي يبتلى بها المجتمع في حاله عصيانه أوامر قائده.

و على كل حال فالفتنه ذات مفهوم واسع يضم جميع هذه الأمور وغيرها، مثلما يضم العذاب الأليم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة أو كليهما.

و مما يجب الانتباه إليه في تفسير الآيه محل البحث وجود احتمالين إضافه إلى ما ذكرناه هما:

الأول: أن القصد من قوله تعالى: **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا** أنكم عند ما تدعو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فينبغي أن تدعوه بأدب واحترام يليق بمنزلته، وليس كما تدعون بعضكم بعضاً، والسبب يكمن في أن جماعه من المسلمين لم يتعلموا-بعد-الآداب الإسلامية في التعامل مع الآخرين، فكانوا ينادون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعبارة: يا محمداً! وهذا لا يليق ببناء قائد إلهي كبير.

وتستهدف الآيه تعليم الناس أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعبارات رزينة وبأسلوب مؤدب، كأن يدعوه: يا رسول الله، أو: يا نبي الله.

وهذا التفسير ورد في بعض الروايات أيضاً إلا أنه لا ينسجم مع ظاهر الآيه التي تحدثت عن الاستجابة لدعوه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووجوب عدم الغياب عن الجماعه دون استئذان منه صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن نقول: إن كلا المعنيين مقصودان للآيه واحده، وأن مفهوم الآيه شامل للتفسيرين الأول والثاني.

والآخر: يبدو أنه ضعيف جداً، وهو ألا تجعلوا دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أحد الأشخاص ولعنه له كدعاء بعضكم على بعض (1)، لأن دعاء ولعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتم وفق حساب دقيق وخاضع للتعاليم الإلهيه، وهو نافذ حتماً.

ولكن ليس لهذا التفسير علاقه بأول الآيه ونهايتها، ولم يرد حديث إسلامي خاص به، ولهذا السبب لا يمكن قبوله.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء الأصول فسروا عبارة **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** بأن أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تدل على الوجوب، إلا أن هذا الاستدلال فيه نواقص أشير إليها في علم الأصول.

ص: ١٨١

١-١) -لقد جاء بعد كلمه الدعاء «لام» فإنها تعنى الابتهاال و الدعاء، أما إذا جاء الحرف «على» فإنها تعنى الدعاء على شخص لغير صالحه، وإذا افتقدت الجملة أى من هذين الحرفين فيحتمل أن تتضمن العبارة المعنيين.

و آخر آيه من الآيات موضع البحث،-و التي هي آخر سورة النور-إشاره بليغه إلى قضيه المبدأ و المعاد التي تعتبر دافعا لامثال التعاليم الإلهيه جميعا، و ضمان لتنفيذ جميع الأوامر و النواهي، و منها التي وردت في هذه السوره حيث تقول: **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .**

فإنَّ الله العالم بكلِّ شيء قدَّ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَى يعلم أسلوبكم فى التعامل و أعمالكم و اعتقادكم و مقاصدكم، فكلها واضحه له سبحانه و تعالى. و ثابتة فى لوحه علمه و يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا و يجازيهم بها وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

و ممّا يلفت النظر تأكيد الآيه ثلاث مرات على علم الله بأعمال البشر. ليشعر الإنسان أنه مراقب بشكل دائم، و لا يخفى على الله شيء من أعمال هذا الإنسان أبدا. و لهذا الاعتقاد أثره التربوى الكبير و يضمن سيطره الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات و الذنوب.

إلهى، نور قلوبنا بنور العلم و الإيمان، و قو مشكاه وجودنا للمحافظه على هذا الإيمان، لنجتاز صراطك المستقيم الذى سار عليه أنبيائك لكسب رضاك، و لتحفظنا بلطفك من كل انحراف.

ربّاه، نور أبصارنا بنور العفه، و قلوبنا بنور المعرفه، و أرواحنا بنور التقوى، و نور وجودنا كله بنور الهدايه، و احفظنا من السيه و الغفله، و أعذنا من وساوس الشيطان.

إلهى، و طّد أركان حكومه العدل الإسلامى من أجل تنفيذ حدودك، و احفظ مجتمعنا من الزلل و السقوط فى هاويه الرذيله، إنك على كل شيء قدير.

نهايه سوره النور

ص: ١٨٢

## سوره الفرقان

### اشاره

مکيه و عدد آياتها سبع و سبعون آيه

ص: ۱۸۳



## محتوى سوره الفرقان:

هذه السوره بحكم كونها من السور المكيه (1)، فإن أكثر ارتكازها على المسائل المتعلقة بالمبدأ و المعاد، و بيان نبوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المواجهه مع الشرك و المشركين، و الإنذار من العواقب الوخيمه للكفر و عباده الأصنام و الذنوب.

و تتألف هذه السوره فى مجملها من ثلاثه أقسام: - القسم الأول: الذى يشكل مطلع هذه السوره، يدحض منطق المشركين بشده، و يستعرض ذرائعهم، و يردّ عليها، و يخوفهم من عذاب الله، و حساب يوم القيامه، و عقوبات جهنم الأليمه، و يذكّرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضيه الذين افترستهم على أثر مخالفتهم لدعوه الأنبياء - الشدائد و البلايا و العقوبات، و ذلك على سبيل الدرس و العبره لهؤلاء المشركين المعاندين.

فى القسم الثانى: لأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد و مظاهر عظمه الله فى الأكوان، بدءاً من ضياء الشمس إلى ظلمه و عتمه الليل، و هبوب الرياح، و نزول الأمطار، و إحياء الأراضى الموات، و خلق السماوات و الأرضين فى سته أيام، و خلق الشمس و القمر، و سيرهما المنظم فى الأفلاك السماويه، و ما شابه ذلك.

ص: ١٨٥

---

١ - ١) - يصير بعض المفسرين على أن ثلاث آيات من هذه السوره (٦٨، ٦٩، ٧٠) نزلت فى المدينه، و لعل ذلك لأن أحكاماً مثل قتل النفس و الزنا، شرّعت فى هذه الآيات، فى حين أن التدقيق فى الآيات التى قبلها و التى بعدها، يكشف جيداً عن أنّ السياق واحد متصل و منسجم تماماً حول عِبَادِ الرَّحْمَنِ و بيان أوصافهم، لذا فالظاهر أن السوره نزلت كلها فى مكّه.

فالقسم الأول فى الحقيقة-يحدد مفهوم (لا إله)، و القسم الثانى يحدد مفهوم (إلا الله).

القسم الثالث: مختصر جذاب جداً، و جامع لصفات المؤمنين الحقيقيين (عباد الرحمن) و عباد الله المخلصين، فى مقايسه مع الكفار المتعصبين الذين ذكروا فى القسم الأول، فتحدد منزله كل من الفريقين تماماً. كما أننا سنرى أنّ هذه الصفات مجموعه من الاعتقادات و الأعمال الصالحة و مكافحه الشهوات، و امتلاك الوعى الكافى، و الإحساس و الالتزام بالمسؤوليه الاجتماعيه.

و اسم هذه السوره قد أخذ من آيتها الأولى، التى تعبر عن القرآن ب«الفرقان» (الفاصل بين الحق و الباطل).

### فضيله سوره الفرقان:

ورد فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن «من قرأ سوره الفرقان (و تدبر فى محتواها و عمل بما ورد فيها) بعث يوم القيامة و هو مؤمن أن الساعه آتية لا ريب فيها، و أن الله يبعث من فى القبور». (1) (أى مؤمن بأن الساعه... و

نقل فى حديث آخر عن إسحاق بن عمار عن الإمام أبى الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال له: «يا ابن عمار، لا تدع قراءة سوره ببارك الذى نزل الفرقان على عبده فإن من قرأها فى كل ليله لم يعذبه الله أبداً، و لم يحاسبه، و كان منزله فى الفردوس الأعلى». (2)

كما أننا سنرى فى تفسير هذه السوره- أن كل من تلا بحق صفات عباد الله المخلصين المبيته فى السوره كما هى، و امتزجت بقلبه و روحه، و بنى صفاته أعماله طبقاً لها فإن منزله الفردوس الأعلى.

ص: ١٨٦

١-١) -مجمع البيان آخر الآيه مورد البحث.

٢-٢) -ثواب الأعمال للصدوق، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٢.



اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

التفسير

اشاره

المقياس الأعلى للمعرفه:

تبدأ هذه السوره بجمله «تبارك» من ماده «بركه»، و نعلم أنّ الشىء ذو بركه، عباره عن أنّه ذو دوام و خير و نفع كامل. يقول تعالى:  
بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. (١)

الملفت للانتباه أنّ ثبوت البركه لذات الخالق عزّ و جلّ بواسطه نزول الفرقان، يعنى أنّه أنزل قرآنا فاصلا بين الحق و الباطل، و هذا يدل على أنّ أعظم الخير و البركه هي أنّ يمتلك الإنسان بيده وسيله المعرفه-معرفه الحق من الباطل.

و هنا وقفه مهمه أيضا، و هي أنّ كلمه «الفرقان» وردت بمعنى «القرآن» تاره، و تاره بمعنى معجزات مميزه للحق من الباطل، و وردت بمعنى «التوراه» تاره

ص: ١٨٧

أخرى.

عن القرآن و الفرقان، أهما شيان، أو شيء واحد؟ فقال: «القرآن: جملة الكتاب، و الفرقان: المحكم الواجب العمل به».

و لا منافاه بين هذا القول و بين أنّ الفرقان هو جميع آيات القرآن، و المراد هو أنّ آيات القرآن المحكمات تعتبر مصداقا أوضح و أبرز للفرقان و للتمييز بين الحق و الباطل.

و لموهبه «الفرقان و المعرفة» أهميه بالغه بحيث أنّ القرآن المجيد ذكرها كمكافأه عظيمه للمتقين: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ** **يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا.. (١)**.

نعم، فبدون التقوى لا يمكن تمييز الحق من الباطل، لأنّ الأهواء و الذنوب تلقى على وجه الحق حجابا كثيفا، و تعمى بصر ابن آدم و بصيرته.

و على أيه حال، فالقرآن المجيد هو الفرقان الأعلى.

القرآن و سيله لتشخيص الحق من الباطل فى نظام حياه البشر.

القرآن و سيله لتشخيص الحق من الباطل فى مسير الحياه الفرديه و الاجتماعيه، و هو الميزان و المحك على صعيد الأفكار و العقائد، و القوانين، و الأحكام، و الآداب، و الأخلاق.

و هذه الوقفه مهمه أيضا، حيث يقول تعالى **نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَيَّ عَيْدِهِ نَعَمَ**، فمقام العبوديه و الانقياد التامين هو الذى يحقق اللياقه لنزول الفرقان، و لتلقى موازين الحق و الباطل.

و النكته الأخيره التى طرحت فى هذه الآيه، تبين أنّ هدف الفرقان النهائى هو إنذار العالمين، الإنذار الذى نتيجته الإحساس بالمسئوليه تجاه التكليف الملقاه على عاتق الإنسان. و عبارته «للعالمين» كاشفه عن أنّ شريعه الإسلام

ص: ١٨٨

عالميه لا تختص بمنطقه معينه، ولا يقوم أو عنصر معينين. بل إن بعضهم قد استدل منها على خاتميه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، وذلك أن «العالمين» كما أنها غير محدوده من حيث المكان، فكذلك مطلقه من حيث الزمان أيضا، ف«العالمين» تشمل جميع الأجيال القادمه أيضا (فتأمل!).

الآيه الثانيه تصف الله الذى نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هى الأساس، و البقيه نتائج و فروع لها، فتقول أولا: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١).

نعم، إنه الحاكم على كل عالم الوجود، و كل السماوات و الأرض، فلا شىء خارج عن سلطه حكومته، و بالالتفات إلى تقدم «له» على «ملك السماوات» الذى هو دليل الحصر فى اللغه العربيه يستفاد أن الحكومه الواقعيه و الحاكميه المطلقه فى السماوات و الأرض منحصره به تبارك و تعالى، ذلك لأن حكومته عامه و خالده و واقعيه، بخلاف حاكميه غيره التى هى جزئيه و متزلزله. و فى نفس الوقت فهى مرتبطه به سبحانه.

ثم يتناول تنفيذ عقائد المشركين واحده بعد الأخرى، فيقول تعالى: وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا (٢).

و كما قلنا من قبل فإن الحاجه إلى الولد من حيث الأصل إما لأجل الاستفاده من طاقته البشريه فى الأعمال، أو لأجل الاستعانه به حال الضعف و العجز و الشيخوخه، أو لأجل الاستئناس به فى حال الوحده، و من المعلوم أن ذاته المقدسه عزّ و جلّ منزّه عن أى واحد من تلك الاحتياجات.

و بهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأن «المسيح» عليه السلام ابن الله، أو ما

ص: ١٨٩

- 
- ١ - ١) - كلمه (الملك) كما يقول «الراغب» فى «المفردات» بمعنى تملك الشىء و الحاكميه عليه، فى حين أن (الملك) ليس دليلا على الحاكميه و تصرف المالك دائما. و بهذا الترتيب: فكل ملك ملكا، فى حين أن ليس كل ملك ملكا.
- ٢ - ٢) - ورد إيضاح أكثر حول نفى الولد عن الله تعالى، و دلائل ذلك فى تفسير الآيه (١١٦) من سوره البقره.

يعتقده اليهود أنّ «العزير» ابن الله، و كذلك يدحض اعتقاد مشركى العرب، ثم يضيف جل ذكره: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ

فإذا كان لمشركى العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، و يتوهمونهم شركاء لله فى العباده، و يتوسلون بهم من أجل الشفاعة، و يسألونهم المعونه لفضاء حوائجهم، حتى آل بهم الأمر أنّهم كانوا يقولون بصراحه -حين التلبيه للحج - جملا قبيحه ملوثة بالشرك، مثل: «ليك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه و ما ملكك». فإنّ القرآن يدين و يدحض كل هذه الأوهام.

و يقول تعالى فى العبارة الأخيره: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأن قسما من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله»، و أن قسما منها مخلوقات «الشيطان».

و بهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق و الخلقه بين الله و الشيطان، ذلك لأنهم كانوا يتوهمون الدنيا مجموعه من «الخير» و «الشر»، و الحال ألا شىء فى عالم الوجود إلا الخير من وجهه نظر الموحد الحق. فإذا رأينا شرًا، فإمّا أن يكون ذا جنبه «نسبيه» أو «عدميه»، أو أن يكون نتيجة لأعمالنا (فتأمل)!.  
**بحث**

**اشاره**

### تقدير الموجودات بدقه:

ليس نظام العالم الدقيق و المتقن -وحده- من الدلائل المحكمه على معرفه الله و توحيدہ، فتقديراته الدقيقه أيضا دليل واضح آخر، أننا لا يمكن أن نعتبر مقادير موجودات هذا العالم المختلفه، و كميتها و كفاءتها المحسوبه، معلوله للصدفه التى لا تتوافق مع حساب الاحتمالات.

و قد تقصّى العلماء الأمر فى هذا الصدد، و أزاحوا الستار عن أسرارہ

المدهشه التي تذهل فكر الإنسان، و تترك لسانه يترنم بتمجيد عظمه و قدره الخالق بلا اختيار.

و نعرض لكم-ها هنا-جانبا من ذلك:

يقول العلماء: لو كانت قشره الأرض أسمك ممّا هي عليه الآن بمقدار بضعة أقدام، لما وجد غاز «الاو كسجين» الذي يعتبر الماده الاصلية للحياه، و لو كانت البحار أعمق من عمقها الفعلى عدّه أقدام لا تمتصت جميع ما فى الجو من الكاربون و الاوكسجين، و لما أمكن وجود حياه لحيوان و نبات على سطح الأرض، و يحتمل أن تقوم قشره الأرض و البحار بامتصاص كل الأوكسجين، و كان على الإنسان أن ينتظر نمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين.

و طبقا للحسابات الدقيقه فى هذا المجال يتّضح أنّ للأوكسجين مصادر مختلفه، و لكن مهما كان مصدره فإنّ كميته مطابقه لاحتياجاتنا بالضبط.

و لو كانت طبقه الغلاف الجوى أرق ممّا هي عليه الآن ممّا هو، فإنّ بعض الشهب التي تحترق كل يوم بالملايين فى الهواء الخارجى، كانت تضرب جميع أجزاء الكره الأرضيه، و هي تسير بسرعه تتراوح بين سته أميال و أربعين ميلا فى الثّانيه، و كان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق. و لو كانت تسير ببطء رصاصه البندقيه لارتطمت كلها بالأرض و لكانت العاقبه مروعه، و لو تعرض الإنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعه تفوق سرعه الرصاصه تسعين مره، لتحول الى رماد لمجرّد حرارته.

الغلاف الجوى سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعه ذات التأثير الكيموى التي يحتاج إليها الزرع و التي تقتل الجراثيم و تنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلاّ إذا عرّض نفسه لها مدّه أطول من اللازم. و على الرغم من الانبعاثات الغازيه من اعماق الأرض طول الدهور، و معظمها سام، فإنّ الهواء باق دون تلوث فى الواقع، و دون تغيير فى نسبته المتوازنه اللازمه لوجود الإنسان.

إنّ الجهاز الذى يقوم بهذه الموازنه العظيمه هي تلك الكتله الفسيحه من الماء،

أى البحار و المحيطات التى هى مصدر الحياه و الغذاء و المطر و المناخ المعتدل، و أخيرا استمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيويه منهما، فمدع من يدرك ذلك يقف فى روعه أمام عظمتة تعالى، و يقرّ بواجباته شاكرًا! إنّ التعادل العجيب بين الأوكسجين و ثانى أوكسيد الكربون فيما يتعلق بالحياه الحيوانيه، و عالم النبات كلّهُ، قد استرعت أنظار كل العالم المفكر، غير أن أهميه ثانى أوكسيد الكربون لم يدركها الجميع بعد، و ثانى أوكسيد الكربون هو الغاز المألوف فى تعبئه ماء الصودا، و هو غاز ثقيل، و لحسن الحظ يعلق بالأرض، و لا يتمّ فصله إلى أوكسجين و كاربون إلاّ بصعوبه كبيره، و إذا أشعلت نارا، فإنّ الخشب- الذى يتكون غالبا من الأوكسجين و الكاربون و الهيدروجين- يتحلل تحت تأثير الحراره و يتحد الكاربون مع الأوكسجين بشدّه، و ينتج من ذلك ثانى أوكسيد الكاربون. و الهيدروجين الذى يطلق يتحد بمثل تلك الشده مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء. و معظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره.

و حين يتنفس رجل فإنّهُ يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم، و يقوم بتوزيعه الى جميع أنحاء جسمه، و يقوم هذا الأوكسجين بحرق طعامه فى كل خليه ببطء شديد عند درجه حراره واطئه نسبيا، النتيجة هى ثانى أوكسيد الكاربون و بخار الماء.

و بذلك يتسلل ثانى أوكسيد الكاربون إلى رئتيه، و يعود الى الجو مرّه اخرى من خلال الزفير، و كلّ كائن حيوانى حى يمتص الاوكسجين و يلفظ ثانى اوكسيد الكاربون.

ما أعجب نظام الضوابط و الموازنات الذى منع أى حيوان- مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكره- من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسان وحده بامكانه قلب هذا التوازن الذى للطبيعه بنقله النباتات و الحيوانات من مكان إلى آخر، و سرعان ما يلقي جزاءه القاسى على ذلك ماثلا فى تطورات آفات الحيوان

و الواقعه الآتيه مثل بارز على أهميه تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سنوات عديده زرع نوع من الصبّار (الكاكثوس) في أستراليا كسياج وقائي. و لكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحه تقرب من مساحه إنجلترا، و زاحم أهالي المدن و القرى، و أتلّف مزارعهم، و حال دون الزراعه، و لم يجد الأهالي وسيله لصدّه عن الانتشار، و صارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت، يتقدم في سبيله دون عائق! و طاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيرا حشره لا تعيش إلا على ذلك الصبار و لا تتغذى بغيره، و هي سريعه الانتشار و ليس لها عدو يعوقها في أستراليا. و ما لبثت هذه الحشره حتى تغلبت على الصبّار، ثمّ تراجعت، و لم يبق منها سوى بقيه قليله للوقايه، تكفي لصد الصبّار عن الانتشار إلى الأبد.

و هكذا توافرت الضوابط و الموازين، و كانت دائما مجديه.

و لماذا لم تسيطر بعوضه المالريا على العالم و تقتل بذلك النوع البشرى مع أن البعوض متوفر في جميع أنحاء العالم حتى في القطبين؟ و مثل ذلك أيضا يمكن أن يقال عن بعوضه الحمى الصفراء التي تقدمت شمالا في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك.

و لماذا لم تتطور ذبابه «تسى تسى» «الذبابه المنومه» حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحاره، و تمحو الجنس البشرى من الوجود؟ يكفى أن يذكر الإنسان الطاعون و الأوبئه و الجراثيم الفتاكه التي لم يكن منها وقاء حتى الأمس القريب، و أن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقايه الصحيه، ليعلم أن بقاء الجنس البشرى معها يدعو حقا إلى الدهشه! (1).

ص: ١٩٣

---

١ - ١) - اقتباس من كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» تأليف كريسي موريسون، ترجمه محمود صالح الفلكى بعنوان (العلم يدعو للإيمان)، من الصفحات ١٦٠، ١٥٩، ٧١، ٧٠، ٦٦، ٦٥.

اشاره

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُوراً  
(٣) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلماً وَ زوراً (٤) وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا  
فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦)

التفسير

اشاره

الاتهامات المتعدده الألوان:

هذه الآيات-في الحقيقة-تمه للبحث الذى ورد فى الآيات السابقه، فى مسأله المواجهه مع الشرك و عباده الأوثان. ثم فى الادعاءات الواهيه لعبده الأوثان، و اتهاماتهم فيما يتعلق بالقرآن، و شخص النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

الآيه الأولى-فى الواقع-تجر المشركين إلى المحاكمه، و لتحريك وجدانهم



تقول بمنطق واضح و بسيط، و فى نفس الوقت قاطع و داحض: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ .

المعبود الحقيقى هو خالق عالم الوجود، و لا يدعى المشركون هذا الادعاء لأوثانهم، بل يعتقدون أنها مخلوقه لله.

و بعد، فما ذا يمكن أن تكون دوافعهم لعباده الأوثان التى لا تملك لنفسها نفعا و لا ضرا، و لا تملك موتا و لا حياه و لا نشورا، فما بالك بما تستطيعه للآخرين؟! وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا .

و الأصول المهمه عند الإنسان هى هذه الأمور الخمسه بالذات: النفع و الضر، و الموت، و الحياه، و النشور.

فمن يكن بحق مالكا أصيلا لهذه الأمور، يكن بالنسبه إلينا جديرا بالعباده.

لكن هذه الأصنام غير قادره أصلا على هذه الأمور لنفسها، فكيف تريد أن توفر هذه الأمور لمن يعبدها من المشركين؟! أى منطق مفتضح هذا؟! أن ينقاد الإنسان و يتذلل على أعتاب موجود لا اختيار له فى نفسه، فما بالك باختياره للآخرين؟! هذه الأوثان ليست عاجزه فى الدنيا عن حل مشكله ما لعبدتها فحسب، بل إنها لا يؤمل منها شىء فى الآخره أيضا.

هذا التعبير يدل على أن هذه الفئه من المشركين، المخاطبه فى هذه الآيات، كانت تقبل بالمعاد نوعا من القبول (المعاد الروحى لا الجسدى)، أو أن القرآن - حتى مع عدم اعتقادهم بمسأله المعاد - يتناول القضية كمسأله، فيخاطبهم بشكل قاطع على هذا الصعيد، و هذا مألوف، فالإنسان أحيانا يكون أمام شخص منكر للحقيقه، لكنه يدلى بكلامه طبقا لأفكاره هو، دون اعتناء بأفكار ذلك المنكر.

خاصه و أن دليلا ضمنيا على المعاد قد كمن فى نفس الآيه، لأن خالقا حينما يبتدع مخلوقا - و هو مالك موته و حياته و ضره و نفعه - لا بد أن يكون له هدف من خلقه،

و لا يمكن أن يتحقق هذا الهدف فيما يخص الناس بدون الإيمان بالنشور، ذلك لأنه إذا انتهى بموت الإنسان كل شيء، فسوف تكون الحياه فارغه بلا معنى، وهذا يدل على أن ذلك الخالق لم يكن حكيما.

إذا تأملنا جيدا وجدنا مسأله «الضرر» جاءت فى الآيه قبل «النفع» و ذلك لأن الإنسان ينفر من الضرر بالدرجه الأولى، و لهذا كانت جملة «دفع الضرر أولى من جلب المنفعه» أحد القوانين العقلانيه.

و إذا كان «الضرر» و «النفع» و «الموت» و «الحياه» و «المنشور» جاءت بصيغه النكره، أيضا، فلأجل بيان هذه الحقيقه، و هى أن هذه الأوثان لا- تملك نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا، حتى فى مورد واحد، فما بالك بالموارد كلها؟! و إذا ذكرت «لا يملكون» و «لا- يخلقون» بصيغه «جمع المذكر العاقل» (فى حال أن هذه الأوثان الحجرية و الخشبيه ليس لها أدنى عقل أو شعور) فذلك لأنّ هذا الخطاب لا يتعلق بالأوثان الحجرية و الخشبيه فحسب، بل بالجماعه التى كانت تعبد الملائكه أو المسيح، و لأن العاقل و غير العاقل مجتمعان فى معنى هذه الجملة، فذكر الجميع بصيغه العاقل من باب «التغليب» كما فى الاصطلاح الأدبى.

أو أن الخطاب فى هذه العبارة كان طبقا لاعتقاد المخاطبين به، حتى يثبت عجزهم و عدم استطاعتهم، يعنى: إذا كنتم تعتقدون أن هذه الأوثان ذات عقل و شعور، فلما ذا لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا، أو أن تجلب منفعه؟! الآيه التاليه- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- فى مقابل دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فتقول: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .**

فى الواقع، إنهم من أجل أن يلقوا عن عواتقهم مسئوليه تحمل الحق- شأن كل الذين أصروا على معارضه القاده الربانيين على طول التاريخ- اتهموا الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْلَا بِالْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذْبِ، خَاصَّةً وَ أَنْهَمُ قَدْ اسْتَعْدَمُوا لَفْظَهُ «هَذَا» لِيَحْقِرُوا الْقُرْآنَ.

ثُمَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَثْبُتُوا أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ -لِأَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ الْمَبِينِ مَهْمَا يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى قَدْرِهِ عِلْمِيهِ وَافِرِهِ، وَ مَا كَانُوا يَرِيدُونَ التَّسْلِيمَ بِهَذَا- وَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُولُوا أَيْضًا: إِنَّ هَذَا خَطُّهُ مَدْبَرُهُ وَ مُحْسَبُهُ، قَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ، بَلْ أَعَانَهُ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَ هَذِهِ مَوَامِرُهُ بِالتَّأَكِيدِ، وَ يَجِبُ الْوَقُوفُ بِوَجْهِهَا.

بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ قَالُوا: إِنَّ الْمَقْصُودَ بِ قَوْمٍ آخَرُونَ جَمَاعَهُ مِنَ الْيَهُودِ.

وَ قَالَ آخَرُونَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَ هُمْ:

«عَدَّاسٌ» وَ «يَسَارٌ» وَ «جَبْرِ» أَوْ «جَبْرِ».

عَلَى أَيِّهِ حَالٌ -بِمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجُودٌ فِي أَوْسَاطِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَ إِنَّ قِسْمًا مِنْهَا مِثْلَ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ كَانَ عِنْدَ الْيَهُودِ وَ أَهْلِ الْكِتَابِ - فَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مُضْطَرِّينَ إِلَى نَسْبِهِ هَذِهِ الْمَطَالِبِ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ كَيْ يَخْمَدُوا مَوْجِهَ إِعْجَابِ النَّاسِ مِنْ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

لَكِنَّ الْقُرْآنَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ فِي جَمَلِهِ وَاحِدَةً فَقَطْ، تِلْكَ هِيَ: فَقَدْ جَاءُ ظُلْمًا وَ زُورًا. (١)

«الظلم» هُنَا لِأَنَّ رَجُلًا أَمِينًا طَاهِرًا وَ صَادِقًا مِثْلَ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اتَّهَمُوهُ بِالْكَذْبِ وَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَ بِالِاشْتِرَاكِ مَعَ جَمَاعِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ النَّاسَ أَيْضًا.

وَ «الزور» هُنَا أَنْ قَوْلَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسَاسٌ مُطْلَقًا، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُمْ عَدَّةَ مَرَاتٍ إِلَى الْإِتْيَانِ بِسُورِهِ وَ آيَاتِهِ مِثْلَ الْقُرْآنِ، فَعَجَزُوا وَ ضَعُفُوا أَمَامَ هَذَا التَّحْدِي.

ص: ١٩٧

---

١ - ١) - «جاءوا» مِنْ مَادَّةِ «مَجَى» - يَرَادُ بِهَا عَادَهُ مَعْنَى «الْقُدُومِ»، لَكِنَّهَا وَرَدَتْ هُنَا بِمَعْنَى «الْإِتْيَانِ»، كَمَا نَقَرْنَا أَيْضًا فِي الْآيَةِ (٨١) سُورَةِ يُونُسَ أَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلْسَّحَرَةِ «مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ».

و هذا بالذات يدل على أن هذه الآيات ليست من صنع عقل البشر، لأنّ الأمر لو كان كذلك، لكانوا يستطيعون بمعونه جماعه اليهود و أهل الكتاب أن يأتوا بمثلهما. و من هنا فإنّ عجزهم دليل على كذبهم، و كذبهم دليل على ظلمهم.

لهذا فالجملة، القصيره فقد جاؤ ظلماً و زوراً رد بليغ و داحض في مواجهه ادعاءاتهم الواهيه.

كلمه «زور» في الأصل من «زور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شىء يتمايل عن حدّ الوسط، و بما أنّ «الكذب» انحرف عن الحق، و مال إلى الباطل، فقد، سمّوه «زورا».

تتناول الآيه التاليه لونا آخر من التحليلات المنحرفه و الحجج الواهيه للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: <sup>□</sup> وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ <sup>□</sup> اَكْتَبَهَا .

لا شىء عنده من قبل نفسه، لا علم و لا ابتكار، فكيف له بالنبؤه و الوحي! إنّه استعان بآخرين، فجمع عدّه من الأساطير القديمه، و أطلق عليها اسم الوحي و الكتاب السماوى. و هو يستلهمها من الآخرين طيله اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف فهى تُملئ <sup>□</sup> عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً .

إنّه يتلقى المعونه لأجل هدفه في الأوقات التى يقلّ فيها تواجد الناس، أى بكره و عشيا.

هذا الكلام- فى الحقيقه- تفسير و توضيح للاتهامات التى نقلت عنهم فى الآيه السابقه. إنهم فى هذه الجملة القصيره أرادوا أن يفرضوا على القرآن مجموعه من نقاط الضعف:

أولها: أن ليس فى القرآن موضوع جديد مطلقاً، بل مجموعه من الأساطير القديمه.

و الثانيه: أنّ نبي الإسلام لا يستطيع الاستمرار بدعوته- حتى يوما واحدا- بدون مساعده الآخرين، فلا بدّ أن يملوا الموضوعات عليه بكره و عشيا، و عليه أن

يكتبها.

و الأخرى: أنه يعرف القراءه و الكتابه. فإذا قال: إني أمي، فهي دعوى كاذبه.

إنهم- في الواقع- كانوا يريدون أن يفرقوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة هذه الأكاذيب و الاتهامات، في الوقت الذي يعلم كل العقلاء الذين عاشوا مدّه في ذلك المجتمع، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن قد درس عند أحد، مضافا إلى أنه لم تكن له أية رابطة مع جماعه اليهود و أهل الكتاب. و إذا كان يستلهم من الآخرين كل يوم بكره و عشيا، فكيف أمكن أن يخفى على أحد؟ فضلا عن هذا، فإن آيات القرآن كانت تنزل عليه في السفر و الحضر، بين الناس و منفردا، و في كل حال.

مضافا إلى كل هذا، كان القرآن مجموعه من التعليمات الاعتقاديّه، و الأحكام العمليّه، و القوانين، و مجموعه من قصص الأنبياء، و لم تكن قصص الأنبياء لتشكل كل القرآن، مضافا إلى أنّ ما ورد من قصص الأقبام الأولين في القرآن لم يكن له شبه لما جاء في العهدين (التوراه و الإنجيل) المحرفين، و أساطير العرب الخرافيه، لذلك لأنّ ما في العهدين ملئ بالخرافات، و القرآن منزّه عنها، و لو وضعنا القرآن و العهدين جنبا إلى جنب، و قايستا بينهما، فسوف تتجلى حقيقه الأمر جيدا. (1)

لذا فالآيه الأخيره تصرح بصيغه الرد على هذه الاتهامات الواهيه، فتقول:

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

إشاره إلى أن محتوى هذا الكتاب، و الأسرار، المتنوعه فيه من علوم و معارف و تاريخ الأقبام الأولين، و القوانين و الاحتياجات البشريه، و حتى أسرار عالم الطبيعه و الأخبار المستقبليه،

ص: ١٩٩

١ - ١) - يعتقد جماعه من المفسرين أنّ المراد من جمله (اكتبها): هو أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد من الآخرين أن يكتبوا له هذه الآيات، و كذلك، جمله (تملى عليه) مفهومها: هو أنّ أولئك كانوا يلقونها إليه، و كان هو يحفظها. لكنّه مع الالتفات إلى أنّنا لا دليل لدينا على حمل هاتين الجملتين على خلاف الظاهر، يكون التفسير الذي ورد في المتن هو الأصح، ففي الواقع إن أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الطريق، بأنّه يقرأ و يكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أميا عمدا.

تدل على أن ليس من صنع و متناول عقل البشر، و لم ينظم بمساعدته هذا أو ذاك.

بل بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء و الأرض، و المحيط بكل شىء علماً.

لكن مع كل هذا، فإن القرآن يترك طريق التوبه مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضين و المنحرفين، فيقول تبارك و تعالى فى ختام الآيه إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً .

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، و أنزل الكتب السماويه، و بمقتضى غفوريته سيعفو فى ظل الإيمان و التوبه عن ذنوبكم التى لا تحصى.

ص: ٢٠٠

إشاره

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) لَبَّارِكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)

سبب النزول

في روايه عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله و آله و سلم يناظر اليهود و المشركين إذا عاتبوه و يحاجهم؟ قال: مرارا كثيره و ذلك أن رسول الله كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبه، فابتدأ عبد الله بن أبي أميه المخزومي فقال: يا محمد لقد ادّعت دعوى عظيمه، و قلت مقالا هائلا، زعمت أنك رسول رب العالمين، و ما ينبغي لرب العالمين

و خالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشرا مثلنا، تأكل كما نأكل و تمشى فى الأسواق كما نمشى، فقال رسول الله: اللَّهُمَّ أنت السامع لكل صوت، و العالم بكلّ شىء، تعلم ما قاله عبادك فأنزل الله عليه: يا محمد: **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ... إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا . (١)**

## التفسير

## إشارة

### لم لا يملك هذا الرسول كنوزا و جنات؟!

عرض فى الآيات السابقة قسم من إشكالات الكفار فيما يخص القرآن المجيد، و أجيب عليها، و يعرض فى هذه الآيات قسم آخر يتعلق بشخص الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و يجاب عنها، فيقول تعالى: **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .**

ما هذا النبى الذى يحتاج إلى الغذاء كغيره من الأفراد العاديين؟ و يمشى فى الأسواق من أجل الكسب و التجاره و شراء احتياجاته؟ فليست هذه سيره الرسل و لا طريقه الملوك و السلاطين! و فى الوقت الذى يريد هذا الرسول التبليغ بالدعوه الإلهيه، و يريد أيضا السلطنه على الجميع! لقد كان المشركون يرون أنه لا يليق بذوى الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغى أن يرسلوا خدمهم و مأموريهم من أجل ذلك.

ثم أضافوا: **لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا**، فلم لم يرسل إليه - على الأقل - ملك من عند الله، شاهد على صدق دعوته، و ينذر معه الناس؟! حسن جدا، لنفرض أننا وافقنا على أن رسول الله يمكن أن يكون إنسانا، و لكن لماذا يكون فقيرا فاقدا للثروه و المال؟! **أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا .**

ص: ٢٠٢



وَلَمْ يَكْتَفُوا بِهَذَا أَيْضًا فَقَدْ أَتَهُمُوهُ آخِرَ الْأَمْرِ بِالْجَنُونِ بِمَا ابْتَنَوْهُ مِنْ اسْتِنْتِاجِ خَاطِئٍ، كَمَا نَقَرْنَا فِي خَتَامِ هَذِهِ الْآيَةِ نَفْسَهَا وَقَالَ  
الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ السِّحْرَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِي فِكْرٍ وَعُقُولِ الْأَفْرَادِ  
فَيَسْلُبُونَهُمْ قِوَامَ عُقُولِهِمْ! مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَاتِ أَعْلَاهُ، يَسْتَفَادُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانَتْ لَدَيْهِمْ عَدَّةُ إِشْكَالَاتٍ وَاهِيَةٍ حَوْلَ الرَّسُولِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا يَتَنَازَلُونَ عَنْ مَقَالَتِهِمْ مَرِحَلَةً بَعْدَ مَرِحَلَةٍ.

أَوَّلًا: إِنَّهُ أَسَاسًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا، وَهَذَا الَّذِي يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَيْسَ مَلَكًا بِالضَّرُورَةِ.

ثُمَّ قَالُوا: حَسَنٌ جَدًّا، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَلَكًا، فَيُرْسِلُ اللَّهُ -عَلَى الْأَقْلِ- مَلَكًا يَرِافِقُهُ وَيَعِينُهُ.

ثُمَّ تَنَازَلُوا عَنْ هَذَا أَيْضًا، فَقَالُوا: لِنَفَرِضَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بَشَرٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ مِنَ السَّمَاءِ، لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مَوْضِعُ اهْتِمَامِ  
اللَّهِ.

وَقَالُوا فِي نَهَائِهِ الْمَطَافِ: لِنَفَرِضَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَىُّ مِنْ تِلْكَ الْمِيزَاتِ، فَيَنْبَغِي عَلَى الْأَقْلِ أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا فَقِيرًا، فَلِيَكُنْ كَأَىِّ مَزَارِعِ  
مَرْفَعَةٍ، لَهُ بَسْتَانٌ يَضْمَنُ مِنْهُ مَعِيشَتَهُ. لَكِنَّهُ فَاقِدٌ لِكُلِّ هَذَا مَعَ الْأَسْفِ، وَيَقُولُ إِنَّنِي نَبِيٌّ!؟ وَاسْتِنْتَجُوا فِي الْخَتَامِ، أَنَّ ادْعَاءَهُ الْكَبِيرَ  
هَذَا، فِي مِثْلِ هَذِهِ الشَّرَائِطِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ.

الآيَةُ التَّالِيَةُ تَبَيَّنُ جَوَابَ جَمِيعِ هَذِهِ الْإِشْكَالَاتِ فِي عِبَارَةٍ مَوْجِزَةٍ: أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبْنَا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.

هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْمَوْجِزَةُ أَدَاءٌ بَلِيغٌ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَهَمُّ مِنْ خِلَالِ مَجْمُوعِهِ مِنَ الْأَقْوَالِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَا-أَسَاسَ لَهَا وَقَفُوا أَمَامَ دَعْوَةِ  
الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ-الَّذِي مَحْتَوَاهُ شَاهِدٌ نَاطِقٌ عَلَى ارْتِبَاطِهِ بِاللَّهِ-لِيَخْفُوا وَجْهَ الْحَقِيقَةِ.

حقًا، إن مثلهم كمثل من يريد أن يقف أمام استدلالنا المنطقيه من خلال حفته من الحجج، الواهيه: فنقول من دون الاجابه عليها بالتفصيل: انظر بأيه ادعاءات واهيه يريدون أن يقفوا معها أمام الدليل المنطقي.

و هكذا كانت أقوالهم فى جميع مواردنا، لأن:

أولاً: لماذا يجب أن يكون الرسول من جنس الملائكة؟ بل ينبغي أن يكون قائد البشر منهم، كما يحكم به العقل و العلم، حتى يدرك جميع آلام و رغبات و حاجات و مشكلات و مسائل حياه الإنسان تماما، ليكون قدوه عمليه له على كل المستويات، و حتى يستلهم الناس منه فى جميع المناهج، و من المسلم أن تأمين هذه الأهداف لم يكن ليتحقق لو كان من الملائكة، و لقال الناس إذا حدثهم عن الزهد و عدم الاهتمام بالدنيا: إنه ملك، و ليست له حاجات ماديه تجرّه إلى الدنيا و إذا دعا إلى الطهاره و العفه لقال الناس: إنه لا يدري ما عاصفه الغريزه الجنسيه، و عشرات (إذا) مثل تلك.

ثانياً: ما ضروره أن ينزل ملك ليرافق بشرا من أجل تصديقه؟ أ فليست المعجزات كافيه لإدراك هذه الحقيقه، و خاصه معجزه عظيمه كالقرآن! ثالثاً: أكل الطعام كسائر الناس، و المشى فى الأسواق يكون سببا للاندماج بالناس أكثر، و الغوص فى أعماق حياتهم، ليؤدى رسالته بشكل أفضل.

رابعاً: عظمه الرسول و شخصيته مردهما ليس إلى الكنز و النفائس و لا بساتين النخيل و الفواكه الطازجه، هذا نمط تفكير الكفار المنحرف الذى يعتبر أن المكانه - و حتى القرب من الله - فى الأثرياء خاصه، فى حال أن الأنبياء جاؤوا ليقولوا:

أيها الإنسان، إن قيمه وجودك ليست بهذه الأشياء، إنها بالعلم و التقوى و الإيمان.

خامساً: بأى مقياس كانوا يعتبرونه «مسحوراً» أو «مجنوناً»؟ الشخص الذى كان عقله معجزاً بشهادته تأريخ حياته و انقلابه العظيم و تأسيسه الحضاره الإسلاميه، كيف يمكن اتهامه بهذه التهمه المضحكه؟ أ يصح أن نقول إن تحطيم

الأصنام و رفض الإتياع الأعمى للأجداد دليل على الجنون؟! اتضح بناء على ما قلناه أن (الأمثال) هنا، خاصه مع القرائن الموجوده فى الآيه، بمعنى الأقوال الفارغه الواهيه، و لعل التعبير عنها ب(الأمثال) بسبب أنهم يلبسونها لباس الحق فكأنها مثله، و أقوالهم مثل الأدله المنطقيه، فى حال أنها ليست كذلك واقعا. (١)

و ينبغي أيضا الالتفات إلى هذه النكته، و هى أن أعداء النبي صلى الله عليه و آله و سلم كانوا يتهمونهم ب«الساحر» و أحيانا ب«المسحور» و إن كان بعض المفسرين قد احتمل أن «المسحور» بمعنى «الساحر» (لأن اسم المفعول يأتى بمعنى اسم الفاعل أحيانا) و لكن الظاهر أن بينهما فرقا.

عند ما يقال عنه بأنه ساحر، فلأن كلامه كان ذا نفوذ خارق فى القلوب، و لأنهم ما كانوا يريدون الإقرار بهذه الحقيقه، فقد لجأوا إلى اتهمه ب«الساحر».

أما «المسحور» فمعناه أن السحره تدخلوا فى عقله و تصرفوا به، و عملوا على اختلال حواسه، هذا الاتهام نشأ من أن الرسول كان محطما لسننهم، و مخالفا لعاداتهم و أعرافهم الخرافيه، و قد وقف فى وجه مصالحتهم الفرديه.

أما جواب جميع هذه الاتهامات فقد اتضح من الكلام أعلاه.

و هنا يأتى هذا السؤال، و هو أنه لماذا قال تعالى: فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

الجواب هو أن الإنسان يستطيع أن يكتشف الطريق إلى الحق بصوره ما، إذا كان يريد الحق باحثا عنه، أمّا من يتخذ موقفه- ابتداء- على أساس أحكام

ص: ٢٠٥

١ - ١) - كثير من المفسرين اعتبروا (الأمثال) هنا بمعنى (التشبهات) لكنهم لم يوضحوا هنا ما هى التشبهات التى قدمها المشركون، و بعض آخر اعتبر (الأمثال) هنا بمعنى (الصفات)، لأن أحد معانى (المثل) -طبقا لما قاله الراغب فى المفردات هو (الصفه)، فالمقصود هنا هى الصفه الواهيه التى لا- أساس لها، ذلك لأن ما فى صدر و ذيل الآيه القرآنيه أعلاه يدل على هذا المعنى، فمن جانب يقول بعنوان التعجب: انظر آيه أمثال ضربوا؟ و من جانب آخر يقول: الأوصاف التى تؤدى الى ضلالهم الذى لا هدايه بعده.

مستبقة خاطئه و مضلّه، نابعه من الجهل و التزمت و العناد، فمضافا إلى أنه لا يعثر على الحق، فإنه سيتخذ موقعه ضد الحق دائما.

الآية الأخيرة مورد البحث - كآية التي قبلها - توجه خطابها إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم على سبيل تحقير مقولات أولئك، و أنها لا تستحق الإجابة عليها، يقول تعالى:

بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا

و إلا فهل أحد غير الله أعطى الآخرين القصور و البساتين؟ من غير الله خلق جميع هذه النعم و الجمال في هذا العالم؟ ترى أ يستحيل على الله القادر المنان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور البساتين؟! لكنه لا يريد أبدا أن يعتقد الناس أن مكاتتك مردّها المال و الثروه و القصور، و يكونوا غافلين عن القيم الواقعيه. إنه يريد أن تكون حياتك كالأفراد العاديين و المستضعفين و المحرومين، حتى يمكنك أن تكون ملاذا لجميع هؤلاء و لعموم الناس.

أمّا لماذا يقول قصورا و بساتين أفضل ممّا أراه أولئك؟ فلأن «الكثر» وحده ليس حلال المشاكل، بل ينبغي بعد مزيد عناء أن يستبدل بالقصور و البساتين، مضافا الى أنهم كانوا يقولون: ليكن لك بستان يؤمن معيشتك، أمّا القرآن فيقول: إن الله قادر على أن يجعل لك قصورا و بساتين، لكن الهدف من بعثتك و رسالتك شيء آخر.

ورد في «الخطبة القاصعه» من «نهج البلاغه» بيان معبر و بليغ: هنالك حيث يقول الإمام عليه السلام:

«... و لقد دخل موسى بن عمران و معه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون و عليهما مدارع الصوف و بأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزّه فقال:

«ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العز و بقاء الملك و هما بما ترون من حال

الفقر و الذل، فهلاً ألقى عليهما أساوره من ذهب، إعظاماً للذهب و جمعه، و احتقاراً للصوف و لبسه. و لو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، و معادن العقيان، و مغارس الجنان، و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء، و اضمحلت الأنبياء، و لما وجب للقابلين أجور المبتلين، و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، و لا- لزمتم الأسماء معانيها، و لكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوه في عزائمهم، و ضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعه تملأ القلوب و العيون غنى، و خصاصه تملأ الأبصار و الأسماع أذى.

و لو كانت الأنبياء أهل قوه لا ترام و عزه لا تضام، و ملك تمتد نحوه أعناق الرجال، و تشد إليه عقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار و أبعد لهم في الاستكبار، و لآمنوا عن رهبه قاهره لهم أو رغبه مائله بهم، فكانت التيات مشتركة و الحسنات مقتسمه، و لكن الله سبحانه أراد أن يكون الإلتباع لرسله و التصديق بكتبه و الخشوع لوجهه و الاستكانه لأمره و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصه لا تشوبها من غيرها شائبه. و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبه و الجزاء أجزل».

(١)

و الجدير بالذكر أن البعض يرى بأن المراد بالجنه و القصور، جنه الآخره قصورها، لكن هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر الآيه بأى وجه. (٢)

ص: ٢٠٧

١- ١) - «الخطبه القاصعه»، الخطبه ١٩٢ نهج البلاغه.

٢- ٢) - و كذلك الذين قالوا: إن المقصود هو جنات الدنيا و قصور الآخره، فالفعلان الماضى و المضارع (جعل و يجعل) اللذان فى الآيه، ينبغى ألا- يكونا باعثا على هكذا و هم أيضا، لأننا نعلم طبقا لقواعد الأدب العربى، أن الأفعال فى الجمله الشرطيه تفقد مفهومها الزمانى.

اشاره

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَاعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا  
مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَدْرَأَكُم خَيْرًا أَمْ جِنَّهُ الْخُلْدِ  
الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَأَنَّ لَهُمْ جِزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

التفسير

اشاره

مقارنه بين الجنه و النار:

في هذه الآيات-على أثر البحث في الآيات السابقة حول انحراف الكفار في مسأله التوحيد و النبوه-يتناول القرآن الكريم قسما آخر من انحرافاتهم في مسأله المعاد، و يتضح مع بيان هذا القسم أنهم كانوا أسارى التزلزل و الانحراف في تمام أصول الدين، في التوحيد، و في النبوه، و في المعاد، حيث ورد القسمان

الأولان منه فى الآيات السابقه، و نقرأ الآن القسم الثالث:

يقول تعالى أولا: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ .

و بما أنّ كلمه «بل» تستعمل لأجل «الإضراب» فيكون المعنى: أن ما يقوله أولئك الكفار على صعيد نفى التوحيد و النبوه، إنما ينبع فى الحقيقه من إنكارهم المعاد، ذلك أنه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمه عظمى و بالجزاء الإلهى، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا الاستهزاء و اللامبالاه، و لن يتذرع بالحجج الواهيه ضد دعوه النبى و براهينه الظاهره، و لن يتدلل أمام الأصنام التى صنعها و زينها بيده.

لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالى، ذلك لأن هذه الفئه لم تكن من أهل الاستدلال و المنطق، بل واجههم بتهديد مخيف و جسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم و الأليم، فهذا الأسلوب قد يكون أقوى تأثيرا لمثل هؤلاء الأفراد يقول أولا: وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . (١)

ثم وصف هذه النار المحرقه و صفا عجيبا، فيقول تعالى: إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا .

فى هذه الآيه، تعبيرات بليغه متعدده، تخبر عن شدّه هذا العذاب الإلهى:

١- إنه لا- يقول: إنهم يرون نار جهنم من بعيد، بل يقول: إن النار هى التى تراهم- كأن لها عينا و أذنا- فسمرت عينها على الطريق بانتظار هؤلاء المجرمين.

٢- إنها لا تحتاج إلى أن يقترب أولئك المجرمون منها، حتى تهيج، بل إنها تفر من مسافه بعيده.. من مسافه مسيره عام، طبقا لبعض الروايات.

٣- و صفت هذه النار المحرقه ب«التغيظ» و ذلك عباره عن الحاله التى يعبر بها الإنسان عن غضبه بالصراخ و العويل.

٤- إن لجهنم «زفيرا» يعنى كما ينفث الإنسان النفس من الصدر بقوه، و هذا

ص: ٢٠٩

(١- ١) - «سعير» من «سعر» على وزن «قعر» بمعنى التهاب النار، و على هذا يقال للسعير: النار المشتعله و المحيطه و المحرقه.

عاده فى الحاله اللى يكون الإنسان مغضبا جدا.

مجموع هذه الحالات يدل على أن نار جهنم المحرقه تنتظر هذه الفئه من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أما حالهم فى نار جهنم فيصفها تعالى:

وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا

(١).

هذا ليس لأن جهنم صغيره، فإنه طبقا للآيه (٣٠) من سوره ق يَوْمَ نَقُودُ لِجَهَنَّمَ هَيْلًا امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَيْلٌ مِنْ مَزِيدٍ فهى مكان واسع، لكن أولئك يحصرون مكانا ضيقا فى هذا المكان الواسع، فهم «يستكروهون فى النار كما يستكره الوند فى الحائط». (٢)

كما أن كلمه «ثبور» فى الأصل بمعنى «الهلاك و الفساد»، فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شىء مخيف و مهلك، فإنه يصرخ عاليا «وا ثبور» التى مفهومها ليقع الموت على».

لكنهم يجابون عاجلا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا و ادعوا ثبورا كثيرا .

على أيه حال، فلن تنفعكم استغاثتكم فى شىء، و لن يكون ثمه موت أو هلاك، بل ينبغى أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

هذه الآيه فى الحقيقه تشبه الآيه (١٦) من سوره الطور حيث يقول تعالى اضيلوها فاضبروا أو لا تضبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون .

من هو المتكلم مع الكافرين ها هنا؟ القرائن تدل على أنهم ملائكه العذاب، ذلك لأن حسابهم مع هؤلاء.

ص: ٢١٠

١ - ١) - «مقرنين» من «قرن» بمعنى قرب و اجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، و يقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء «قرن»، و يقولون أيضا لمن تقيده يده و رجله مع بعضهما بالغل و السلاسل «مقرن» (من أجل توضيح أكثر فى المسأله راجع آخر الآيه (٤٩) من سوره إبراهيم).

٢ - ٢) - مجمع البيان، آخر الآيه مورد البحث.



و أمّا لماذا يقال لهم هنا: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ ادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا؟ ربّما كان ذلك لأنّ عذابهم الأليم ليس مؤقتا فينتهى بقول(وا ثبورا)واحدا،بل ينبغي أن يرددوا هذه الجملة طيله هذه المده،علاوه على أنّ العقوبات الإلهيه لهؤلاء الظالمين المجرمين متعدده الألوان،حيث يرون الموت أمام أعينهم إزاء كل مجازاه،فتعلوا أصواتهم ب(وا ثبورا)،فكأنّهم يموتون ثمّ يحيون و هكذا.

ثمّ يوجه الخطاب إلى الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم،و يأمره أن يدعو أولئك إلى المقايسه، فيقول تعالى: قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا .

تلك الجنّة التي لهم فيها ما يشاؤون .

تلك الجنّة التي سيقون فيها أبدا خالدين .

أجل،إنّه وعد الله الذي اخذه على نفسه: كَانَ عَلَيَّ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا .

هذا السؤال،و طلب هذه المقايسه،ليس لأن أحدا لديه شك في هذا الأمر، و ليس لأن تلك العذابات الأليمه المهوله تستحق الموازنه و المقايسه مع هذه النعم التي لا نظير لها،بل إن هذا النوع من الأسئلة و المطالبه بالمقارنه لأجل إيقاظ الضمائر الهامده،حيث تجعلها أمام أمر بديهي واحد،و على مفترق طريقين:

فإذا قالوا في الجواب:إنّ تلك النعم أفضل و أعظم(و هو ما سيقولونه حتما) فقد حكموا على أنفسهم بأنّ أعمالهم خلاف ذلك.و إذا قالوا:إنّ العذاب أفضل من هذه النعمه،فقد وقّعوا على وثيقه جنونهم،و هذا يشبه ما إذا حذرنا شابا ترك المدرسه و الجامعه بقولنا:اعلم أنّ السجن هو مكان الذين فروا من العلم و وقعوا في أحضان الفساد،ترى السجن أفضل أم الوصول إلى المقامات الرفيعه!؟

١- ينبغي الالتفات أولاً إلى هذه النكته، و هي الآيات الكريمة وصفت الجنه بالخلود تاره و صفه لأهل الجنه تاره أخرى، ليكون تأكيداً على هذه الحقيقه، و هي كما أن الجنه خالده، فكذلك ساكنوها.

٢- قوله تعالى لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ جاءت في مقابل حال الجهنميين في الآية (٥٤) من سوره سبأ وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ .

٣- التعبير ب«مصير» بعد كلمه «جزاء» بالنسبه إلى الجنه، كله تأكيد على ما يدخل في مفهوم الجزاء، و هو بجميعة نقطه مقابله إزاء مكان أهل النار، حيث ورد في الآيات السابقه أنهم يلقون في مكان ضيق محدود مقرنين بالأصفاد.

٤- قوله تعالى كَأَن عَالِي رَبِّكَ وَعِيداً مَسْئُلاً- إشاره إلى أن المؤمنين كانوا في أذعيتهم يطلبون من الله الجنه و جميع نعمها، فهم السائلون، و الله «المسؤول منه» كما نقرأ قول المؤمنين في الآية (١٩٤) من سوره آل عمران رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَالِي رُسُلِكَ... ، لسان حال جميع المؤمنين أيضاً، إنهم يطلبون هذا الطلب من الله، لأن لسان حال كل من يطبع أمره تبارك و تعالى أن يطلب ذلك.

و الملائكه كذلك يسألون الله الجنه و الخلود للمؤمنين، كما نقرأ في الآية (٨) من سوره المؤمن: رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ....

و يوجد هنا تفسير آخر، و هو أن كلمه (مسئولا) تأكيد على هذا الوعد الإلهي، الحتمي، يعني أن هذا الوعد على قدر عظيم من القطع بحيث أن المؤمنين يستطيعون أن يطالبوا الله به، و هذا يشبه ما إذا أعطينا وعداً لأحد، و أعطينا- في الضمن- الحق في أن يطالبنا به.

قطعا لا يوجد أى مانع من أن تجتمع كل هذه المعانى في المفهوم الواسع ل(مسئولا).

٥- بالالتفات إلى قوله تعالى لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ ينشأ لدى البعض هذه

السؤال: إذا أخذنا في الإعتبار المفهوم الواسع لهذه العبارة، فنتيجة هذا أن أهل الجنة إذا أرادوا مقام الأنبياء و الأولياء يعطى لهم، مثلا، أو إذا طلبوا نجاه أقربائهم و أصدقائهم المذنبين المستحقين لجهنم، يعطون سؤالهم، و ما سوى هذه الرغبات؟! و يتضح الجواب مع الالتفات إلى هذه النقطة، و هو أن الحجب تزول عن أعين أهل الجنة فيدركون الحقائق جيدا، و يتضح تناسبها في نظرهم كاملا، إنهم لا يخطر ببالهم أبدا أن يطلبوا من الله طلبات كهذه، و هذا يشبه تماما أن نطلب في الدنيا من طفل في الابتدائية أن يكون استاذا في الجامعه، أو أن يكون لص مجرم قاضى محكمه... ترى هل تخطر مثل هذه الأمور في فكر أى عاقل في الدنيا؟! و فى الجنة أيضا كذلك، فضلا عن هذا فإن كل إرادتهم فى طول إرادته الله، و إن ما يريدونه هو ما يريد الله.

اشاره

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَا مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

التفسير

اشاره

المحاكمه بين المعبودين و عبدتهم الضالين:

كان الكلام فى الآيات السابقه حول مصير كل من المؤمنين و المشركين فى القيامه و جزاء هذين الفريقين، و تواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبين السؤال الذى يسأل الله عنه معبودى المشركين فى القيامه و جوابهم، على سبيل التحذير، فيقول تعالى أولا: و اذكر يوم يحشر الله هؤلاء المشركين و ما يعبدون من دون الله: و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَا مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فيسأل المعبودين: فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ .

ففى الإجابة: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ .

فليس فقط أننا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إننا كنا نعتزف بولايتك و ربوبيتك، و لم نقبل غيرك معبودا لنا و لغيرنا.

و كان سبب انحراف أولئك هو: أن الله تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا و نعيمها فتمتعوا هم و آباءهم و بدلا من شكر الله تعالى غرقوا فى هذه الملذات و نسوا ذكر الله: وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ لِهَذَا هَلَكُوا وَ اندثروا وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا

هنا يوجه الله تبارك و تعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ .

لأن الأمر هكذا، و كنتم أنتم قد أضللتهم أنفسكم فليس لديكم القدره على دفع العذاب عنكم: فَمَا تَشِيطِعُونَ ضِرْفًا وَ لَا نَضْرًا، وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا .

لا شك أن «الظلم» له مفهوم واسع، و مع أن موضوع البحث فى الآيه هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجليه للظلم، إلا أنه لا يقدر بعموميه المفهوم.

و الملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغه الفعل المضارع، و هذا يدل على أن القسم الأول من البحث و أن كان مرتبطا بمناقشات البحث، لكن الجملة الأخيره خطاب لهم فى الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة للتقبل على أثر سماعها (محاورات العابدين و المعبودين فى القيامة)، فيحول الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا . (١)

ص: ٢١٥

١ - ١) - و يحتمل أن تكون الجملة الأخيره استمرارا لمحاوره الله مع المشركين فى القيامة، و لا يضر كون الفعل مضارعا، لأن جملة (من يظلم..) ذكرت بصوره قانون عام (جملة شرطيه)، و نعلم أن الأفعال فى الجملة الشرطيه تفقد مفهومها الزمانى، و تبقى وحده الارتباط بين الشرط و جوابه معتبره.

## ١- من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟

فى الإجابة على هذا السؤال، هناك تفسيران بين المفسرين المعروفين:

أولاً- أن يكون المقصود بالمعبودين إنسانا (مثل المسيح) أو شيطانا (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث أن كل واحد منها كان قد اتخذ فريق من المشركين معبودا لهم. ولأنهم أهل عقل و شعور و إدراك، فيمكنهم أن يكونوا موضع الاستنطاق و المحاسبه، و لإتمام الحججه، و لإثبات كذب المشركين الذين يقولون:

إن هؤلاء دعونا لعبادتهم! فهم يسألون عما إذا كان هذا الادعاء صحيحا؟ و لكنهم يكذبون ادعاء المشركين بصراحه! التفسير الثانى: الذى ذكره جمع من المفسرين هو أن الله يمنح الأصنام فى ذلك اليوم نوعا من الحياه و الإدراك و الشعور، بالشكل الذى تستطيع فيه أن تكون موضع المحاسبه، لينطقوا بالجواب اللازم: إلهنا، نحن ما أضلنا هؤلاء، بل هم أنفسهم ضلوا بسبب انغماسهم فى الشهوات و الغرور.

و هناك الاحتمال آخر، و هو أن المقصود يشمل جميع المعبودين، سواء كانوا ذوو عقل و شعور يخبرون بألسنتهم عن الوقائع، أم لم يكونوا من أهل العقل و الشعور، حيث يعكسون الحقيقه أيضا، بلسان حالهم.

و لكن القرائن الموجوده فى الآيه تتفق أكثر مع التفسير الأول، ذلك لأن الأفعال و الضمائر تدل جميعها على أن طرف المحاوره هم أصحاب عقل و شعور، و هذا يتناسب مع معبودين كالمسيح و الملائكه و أمثالهم.

إضافه إلى أن قوله تعالى فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ... يظهر أن المشركين قد ادّعوا من قبل أن هؤلاء المعبودين قد أضلونا و دعونا لعبادتهم، و بعيد أن يكون المشركون قد ادعوا هذا بالنسبه إلى الأصنام الحجرية و الخشبيه، لأنهم - كما ورد فى قصه إبراهيم - كانوا على يقين بأن الأصنام لا تتكلم لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُؤُلَاءِ

فِي حِينِ أَنْبَا نَقَرْنَا مِثْلًا بِالنَّسْبِ إِلَى الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآيَةِ (١١٦) مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّيَ الْهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! وَ مِنَ الْمَسْلَمِ أَنَّ ادْعَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ كَانَ وَاهِيًا وَ بِلَا أُسَاسٍ، فَأَوْلَيْتُكَ لَمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ.

الْمَلْفَتُ هُوَ أَنَّ الْمَعْبُودِينَ لَمْ يَقُولُوا فِي الْجَوَابِ: إِلَهِنَا، مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِنَا، بَلْ يَقُولُونَ: نَحْنُ مَا اتَّخَذْنَا لِأَنْفُسِنَا غَيْرَكَ مَعْبُودًا، يَعْنِي فِي الْوَقْتِ الَّذِي نَحْنُ نَعْبُدُكَ وَ حُدُوكَ، فَمِنَ الْأُولَى أَنْتَا لَمْ نَدْعُهُمْ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِكَ، خَاصَّةً وَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَقْتَرِنُ مَعَ سُبْحَانَكَ وَ مَعَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ غَايَةِ أَدْبِهِمْ، وَ تَأْكِيدُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ.

## ٢- دافع الانحراف عن أصل التوحيد

الْمَهْمُ هُوَ أَنَّ الْمَعْبُودِينَ يَعْدُونَ الْعَامِلَ الْأَصْلِيَّ لِانْحِرَافِ هَذَا الْفَرِيقِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ هُوَ (الْحَيَاةُ الْمَرْفُوهَةُ) لَهُمْ، وَ يَقُولُونَ، إِلَهِنَا، مَتَّعْتَ هَؤُلَاءَ وَ آبَاءَهُمْ مِنْ نَعْمِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ هَذَا هُوَ بِالذَّاتِ كَانَ سَبَبَ نَسْيَانِهِمْ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَعْرِفُوا وَاهِبَ هَذِهِ النِّعَمِ فَيَشْكُرُونَهُ وَ يَطِيعُونَهُ، تَوَغَّلُوا فِي دَوَامِهِ الْغَفْلَةَ وَ الْغُرُورَ.

فَالْحَيَاةُ الْمَرْفُوهَةُ لِجَمَاعِهِ ضَيْقُهُ الْأَفْقَ، ضَعِيفَةُ الْإِيمَانِ، تَبْعَثُ عَلَى الْغُرُورِ مِنْ جِهَةٍ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنَالُونَ النِّعَمَ الْكَثِيرَةَ، يَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ يَنْسُونَ اللَّهَ، حَتَّى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَطْبُلُ أحيانًا (أَنَا اللَّهُ).

وَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ هَؤُلَاءَ الْأَفْرَادَ يَمِيلُونَ إِلَى التَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ الْقَيْودِ الَّتِي تَعْقِبُهُمْ فِي مِلْدَاتِهِمْ مِنْ قَبِيلِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ، وَ الْمَشْرُوعِ وَ اللَّامِشْرُوعِ وَ تَمْنَعُهُمْ مِنْ

ص: ٢١٧

الوصول إلى أهدافهم، ولهذا فهم لا يريدون أن يخضعوا أمام القوانين و المقررات الدينيه، و لا أن يقبلوا بيوم الحساب و الجزاء. و هكذا نجد أنّ اتباع دين الله و تعليمات الأنبياء قليل في أوساط المرفهين دائما و لكن المستضعفين هم الأتباع الصامدون و المحبّون الأوفياء للدين و المذهب.

إنّ هذا الكلام له استثناءات في كلا الطرفين قطعاً، و لكن أكثره كلّ من الفريقين هم كما قلنا.

و ممّا تتضمنه الآيه أعلاه، أنّها لم تركز على رفاهيه حياتهم فقط، بل ركزت على رفاهيه حياه آبائهم أيضاً، ذلك لأنّ الإنسان حينما ينشأ على الدلال و النعمه فإنه سوف يرى فارقا و امتيازاً بينه و بين الآخرين، و لن يكون مستعداً لفقد المنافع الماديه و الحياه المرفهه بسهولة.

في حين أن التقيّد بأمر الله، و بتعاليم الدين تحتاج إلى الإيثار، و أحياناً إلى الهجره، و تحتاج حتى إلى الجهاد و الشهاده، و أحياناً إلى التعاطى مع أنواع المحرومات، و عدم التسليم للعدو، و هذه الأمور نادراً ما تتوافق مع مزاج المرفهين، إلا إذا كانت نفوسهم أرفع من حياتهم الماديه، فإذا توفرت يوماً ما شكروا الله، و إلاّ فلن يتزلزلوا و لن ينزعجوا، و بعبارة أخرى: إنّهم حاكمون على حياتهم الماديه غير محكومين لها، أمراء عليها لا أسارى عندها.

و يستفاد أيضاً من التوضيح أنّ المقصود من قوله تعالى نَسُوا الذِّكْرَ نسيان ذكر الله، حيث ورد مكان ذلك في الآيه (١٩) من سوره الحشر و لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أَوْ نسيان يوم القيامة و محكمه العدل الإلهي، كما جاء في الآيه (٢٦) سوره ص لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ أَوْ نسيان كل منهما، و جميع التعاليم الإلهيه.



«بور» من ماده «بوار» و هي في الأصل بمعنى شدّه كساد الشيء، ولأَنَّ شدّه الكساد تبعث على الفساد، كما جاء في المثل العربي «كسد حتى فسد»، فهذه الكلمه بمعنى الفساد، ثم أطلقت بعد هذا على الهلاك، و لهذا يقولون للأرض الخاليه من الشجر و الورد و النبات، و التي هي في الحقيقه فاسده و ميته كلمه «بائر».

و على هذا فإنّ قوله تعالى: <sup>□</sup> كَانُوا قَوْمًا بُورًا إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم في الحياه الماديه المرفهه، و نسيانهم الله و اليوم الآخر، صاروا إلى الفساد و الهلكه، و صارت أراضى قلوبهم كالصحراء جافه و بائره، و أخليت من أزاهير ملكات القيم الإنسانيه، و فواكه الفضيله و الحياه المعنويه.

مطالعه حال الأمم الغرقى في الدلال و النعمه اليوم، الغافله عن الله و عن الخلق، توضح عمق معنى هذه الآيه في كيفية غرق هذه الأمم في بحر الفساد الأخلاقي، و كيف اجتثت الفضائل الإنسانيه من أرض وجودهم البائره. (١)

ص: ٢١٩

---

١ - ١) - تعتبر بعض المصادر أنّ كلمه «بور» تأتي بمعنى اسم الفاعل، و تأتي واحده في المفرد و المثنى و الجمع و المذكر و المؤنث، و بعض يعدها جمع «بائر».

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

سبب النزول

أورد جماعه من المفسرين و أصحاب السير كابن إسحاق في سيرته في سبب نزول هذه الآيه «أن سادات قريش «عتبه بن ربيعه» و غيره اجتمعوا معه صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرياسه و ليناك علينا، و إن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا، فلما أبى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك، رجعوا في باب الإحتجاج معه فقالوا: ما بالك و أنت رسول الله تأكل الطعام، و تقف بالأسواق! فعبروه بأكل الطعام، لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكا، و عبروه بالمشى في الأسواق حين رأوا الأكاسره و القياصره و الملوک و الجباره يترفعون عن الأسواق، و كان عليه السلام يخالطهم في أسواقهم، و يأمرهم و ينهاهم، فقالوا: هذا يريد أن يتملك علينا، فما له يخالف سيره الملوک؟ فأجابهم الله بقوله، و أنزل على نبيه:

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ

فلا تتعم و لا تحزن،فإنها شكاه ظاهر عنك عارها». (١)

## التفسير

### إشارة

### هكذا كان جميع الأنبياء

فى عدّه آيات سابقه وردت واحده من ذرائع المشركين بهذه الصيغه: لماذا يأكل رسول الله الطعام، و يمشى فى الأسواق؟ و أجيب عليها بجواب إجمالى و مقتضب، أمّا الآيه مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطى جوابا أكثر تفصيلا و صراحة، فيقول تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ فقد كانوا من البشر و يعاشرون الناس، و فى ذات الوقت وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً وَامْتِحَانًا.

و هذا الامتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر و من أوساط الجماهير المحرومه هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصّه إذا كان فى مستوى واطئ من حيث الإمكانيات الماديه، و هم فى مستوى عال ماديا، أو أن أعمارهم أكبر، أو أنّهم أكثر شهره فى المجتمع.

و يرد احتمال آخر فى المراد بالفتنه، و هو أنّ الناس عموما بعضهم لبعض فتنه، ذلك أن المتقاعدين و العجزه و المرضى و الأيتام و المزمنين فتنه للأقوياء و الأصحاء السالمين، و بالعكس، فإنّ الأفراد الأصحاء الأقوياء فتنه للضعفاء و العجزه.

ترى هل أنّ الفريق الثانى راض برضا الله! أم لا؟

ص: ٢٢١

١- ١) - وإن كان قد جاء مضمون الروايه أعلاه فى كثير من التفاسير، و لكن ما ذكرناه أعلاه مطابق للروايه التى أوردها القرطبى فى تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ج ١٣، ص ٥ دار إحياء التراث العربى/بيروت.

و هل أن الفريق الأول يؤدي مسؤوليته و تعهده إزاء الفريق الثاني، أم لا؟! من هنا، لا تقاطع بين هذين التفسيرين فمن الممكن أن يجتمع كلاهما في المفهوم الواسع للآيه في أن الناس بعضهم لبعض فتنه.

و على أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى:

أَتَصْبِرُونَ

؟ ذلك لأن أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر و الاستقامه و الشجاعه...الصبر و الاستقامه أمام خيالات الغرور الذي يمنع من قبول الحق...

الصبر و الاستقامه أمام المشكلات الناشئه من المسؤوليات و أداء الرسالات، و كذلك الجلد أمام المصائب و الحوادث الأليمه التي لا تخلو منها حياه الإنسان على كل حال.

و الخلاصه: أن من الممكن اجتياز هذا الامتحان الإلهي العظيم بقوه الاستقامه و الصبر. (١)

و يقول تعالى في ختام الآيه بصيغه التحذير: <sup>□</sup>وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهيه يظل خافيا و مستورا عن عين الله و علمه الذي لا يخفى عليه شيء. إنه يراها بدقه و يعلمها جميعا.

**سؤال:**

يرد ها هنا استفسار، و هو أن ردّ القرآن على المشركين في الآيات أعلاه قائم على أن جميع الأنبياء، كانوا من البشر. و هذا لا يحلّ المشكله، بل يزيد من حدّتها، ذلك أن من الممكن أن يعمموا إشكالهم على جميع الأنبياء.

ص: ٢٢٢

---

١-١) - من أجل توضيح أكثر في مسأله الاختبارات الإلهيه، و الغايه من هذه الاختبارات و سائر أبعاد ذلك، بحثنا ذلك بشكل مفصل في ذيل الآيه (٥٥) من سوره البقره.

أَنَّ الآيات القرآنية المختلفة تدلّ على أن إشكالهم على شخص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و كانوا يعتقدون أنه اتخذ لنفسه وضعا خاصا به، و لهذا كانوا يقولون: ما لهذا الرسول...

يقول القرآن في جوابهم: ليس هذا منحصرًا بالرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأكل الطعام و يمشى في الأسواق، فجميع الأنبياء كانت لهم مثل هذه الأوصاف، و على فرض أنهم سيعممون هذا الأشكال على جميع الأنبياء، فقد أعطى القرآن جوابهم أيضا حيث يقول: **وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا** «كى يستطيع أن يكون أسوه و أنموذجا للناس فى كل مجالات». إشاره إلى أن الإنسان فقط يستطيع أن يكون مرشدا للإنسان، فهو الواقف على جميع حاجاته و رغباته و مشكلاته و مسائله.

اشاره

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)

التفسير

اشاره

الادعاءات الكبيره:

قلنا أنّ المشركين يصرون على الفرار من ثقل التعهدات و المسؤوليات التي يضعها على عواتقهم الإيمان بالله و اليوم الآخر، فكانوا يقولون تاره: لماذا يحتاج الرسول إلى الطعام و يمشى في الأسواق؟ حيث قرأنا الإجابة عليها في الآيات السابقه.

الآيات الحاليه، تطرح شكلين آخرين من ذرائعهم و تجيب عليها، فيقول

تعالى أولاً: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا .

فعلى فرض أننا سنقبل أنّ النبي يستطيع أن يعيش الحياه العاديه مثلنا. لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، و لا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به، ما المانع من أن يظهر الملك فيؤكّد صحه نبوه الرسول؟ أو أن يسمعنا بعضا من الوحي؟! أو أن نرى ربنا بأعيننا حتى لا يبقى عندنا مكان لأى شك أو شبهه؟! هذه هى الأسئلة التى تمنعنا من قبول دعوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

المهم هو أن القرآن يصنف هؤلاء المتعللين بالذرائع تحت عنوان لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، حيث يدل على أنّ منبع هذه الأقوال الواهيه هو عدم الإيمان بالآخره، و عدم القبول بالمسؤوليه أمام الله.

فى الآيه (٧) من سوره الحجر نقرأ أيضا شبيها لهذا القول، حيث قالوا لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ و قرأنا أيضا فى مطلع سوره الفرقان هذه أن المشركين كانوا يقولون: لَوْ لَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .

فى حين أن من حق أى إنسان لإثبات قضيه ما، أن يطالب بالدليل فقط.

أمّا نوع الدليل، فمن المسلم أنه لا فرق فيه، فى الوقت الذى أثبت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم -بإظهار المعجزات و من جملتها القرآن نفسه- حقانيه دعوته بوضوح، إذن فما معنى هذه الذرائع؟ و أفضل دليل على أنهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوه النبي، هو أنهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، و أنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذى طلبه مجرمو بنى إسرائيل أيضا، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه فى سوره الأعراف الآيه ١٤٣.

لذا يقول القرآن فى الإجابة على هذه الطلبات فى آخر الآيه مورد البحث:

لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا

«العتو» على وزن «غلو»، بمعنى الامتناع عن الطاعه، و التمرد على الأمر،

و تعبير «فى أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور و التكبر فى أنفسهم. و من الممكن أن يكون أيضا بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم و غرورهم فى قلوبهم و أظهروا هذه المعاذير.

فى عصرنا و زماننا أيضا، يوجد أشخاص يكررون منطق المشركين الغابرين، فيقولون: ما دمنا لا نرى الله فى مختبراتنا، و لا نشاهد الروح تحت مبضع الجراحه، فلن نصدق! بوجودهما و منبع الإثنين واحد و هو الاستكبار و العتو.

و من حيث الأصل، فإنّ جميع الأشخاص الذين يحصرون وسائل المعرفه فى الحس و التجربه فقط، يكررون نفس هذا القول بشكل ضمنى، فكلّ الماديين داخلون فى هذا الصنف، فى حين أنّ الحواس لا تدرك إلا جزء ضئلا لا يذكر من ماده هذا العالم.

ثمّ يقول تعالى بصيغه التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكه، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن يومَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ . (١)

بلى سوف لن يَسْرُوا برؤيه الملائكه فى ذلك اليوم، لأنهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكه، و سوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الإستغاثه التى كانوا يطلقونها فى الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان.. الأمان، اعفوا عنا: وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

و لكن لا هذه الجملة - و لا غيرها - لها أثر على مصيرهم المحتوم، ذلك لأنّ النار التى هم أوقدوها ستلتهم أطرافهم شاءوا أم أبوا، و ستتجسد أمامهم الأعمال السيئه التى ارتكبوها، فلا يملكون شيئا لأنفسهم.

كلمه «حجر» (على وزن قشر) تقال فى الأصل للمنطقه التى حجروها

---

١- ١) - كلمه (لا)ها هنا، قد تكون للنفى، كما قال كثير من المفسرين، و يحتمل أيضا أن تكون لانشاء الدعاء السلبي، حيث يصبح معنى الجملة فى هذه الصوره، هكذا: «فى ذلك اليوم لا كانت بشرى للمجرمين».



و جعلوها ممنوعه الورد، و عند ما يقال «حجر إسماعيل» فلأن حائطا أنشئ حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضا «حجرا» لأنه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفه. لذا نقرأ في الآية (٥) من سورة الفجر هل في ذلك قسَمٌ لِدِي حَجْرٍ ، و أيضا «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم في القرآن (الآيه ٨٠ من سورة الحجر) و هم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتا حجريه محكمه في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

هذا في ما يخص كلمه «حجر».

أما جملة «حجرا محجورا» فقد كانت اصطلاحا بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

كان هذا عرف العرب، خاصه في الأشهر الحرم، حيث كانت الحرب ممنوعه، فحينما يواجه شخص آخر، و يحتمل خرق هذا العرف و التعرض للأذى، فإنه يكرر هذه الجملة، و الطرف المقابل -أيضا- مع سماعه لها كان يعطيه الأمان، فيخرجه من القلق و الاضطراب و الخوف.

على هذا فإن معنى الجملة المذكوره هو: «أريد الأمان، الأمان الذي لا رجعه فيه و لا تغيير». (١)

اتضح ميا قلناه أعلاه، أن المجرمين هنا هم أصحاب هذا القول، و تناسب الأفعال الموجوده في الآية، و السير التاريخي، و سابقه هذه الجملة في أوساط العرب -أيضا- يستدعي هذا، و لكن البعض احتمل أن الملائكه هم أصحاب هذا القول، و هدفهم منع المشركين من رحمه الله.

و قال آخرون: إن أصحاب هذا القول هم المجرمون، يقولونه بعضهم لبعض، و لكن الظاهر هو المعنى الأول، حيث اختاره كثير من المفسرين، أو ذكروه كأول

ص: ٢٢٧

---

١ - ١) - و من الناحيه الأدبيه فإن «حجرا» مفعول لفعل مقدر و «محجورا» جاءت للتوكيد، فهى فى الأصل (أطلب منك منعا لا سبيل إلى رفعه و دفعه).

أمّا أى يوم ذلك اليوم الذى يلتقى فيه المجرمون بالملائكة؟ فقد ذكر المفسّرون احتمالين: أحدهما: هو يوم الموت حيث يرى الإنسان ملك الموت، كما نقرأ فى الآية (٩٣) من سورة الأنعام: **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ**. والثانى: أنّ المقصود هو يوم القيامة و النشور، حيث يكون المجرمون أمام ملائكة العذاب فيشاهدونهم.

و مع الانتباه إلى الآيات الآتية التى تتكلم عن النشور، خصوصاً جملة **يَوْمَئِذٍ** التى تشير إليه، يتبين أنّ التفسير الثانى هو الأقرب.

الآية التى بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين فى الآخرة، فتقول:

**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**

كلمة «العمل» على ما قاله «الراغب» فى المفردات بمعنى: كل فعل يكون بقصد، و لكن الفعل أعم منه، فهو يطلق على الأفعال التى تكون بقصد أو بغير قصد. (٢)

جملة «قدمنا» من «القدوم» بمعنى «المجىء» أو «الذهاب على أثر شىء» و هى هنا دليل على تأكيد و جدّيه المسأله، يعنى مسلماً و بشكل قاطع أن جميع أعمال أولئك التى قاموا بها عن قصد و إرادته- وإن كانت أعمال خير ظاهراً- ستمحوها كما تمحى ذرات الغبار فى الهواء، لشركهم و كفرهم.

ص: ٢٢٨

١-١) -تفسير الميزان، تفسير الفخر الرازى، فى ظلال القرآن، تفسير أبو الفتوح الرازى، ذيل آيه البحث.

٢-٢) -يذهب (الراغب) الى هذا الفرق فى ماده «عمل»، و لو أنّ له بيانا خلاف ذلك فى ماده «فعل». لكن مع الالتفات إلى موارد استعمال هاتين الكلمتين يكون هذا الفرق صحيحاً، طبعاً يمكن أن يكون له استثناءات كما يقولون للثيران التى تعمل «عوامل».

كلمه «هباء» بمعنى ذرات الغبار الصغيره جدّا التي لا ترى بالعين المجرّده و في الحال العاديه أبدا إلا في الوقت الذي يدخل نور الشمس إلى الغرفه المظلمه من ثقب أو كوّه، فيكشف عن هذه الذرات و يمكن مشاهدتها.

هذا التعبير يدل على أن أعمال أولئك لا قيمه لها و لا اثر إلى حدّ كأنهم لم يعملوا شيئاً، و إن كانوا قد سعوا و اجتهدوا سنين طويله.

هذه الآيه نظيره الآيه (١٨) من سوره إبراهيم التي تقول: **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .**

الدليل المنطقي لذلك واضح أيضاً، لأنّ الشىء الذي يعطى عمل الإنسان الشكل و المحتوى، هو التيه و الدافع و غايه العمل النهائيه، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهي و على أساس أهداف مقدسه طاهره، و خطط سليمه صحيحه، في حين أن من لا إيمان لهم، فغالبا يقعون أسارى التظاهر و الرياء و الغرور و العجب، فيكون سببا في انعدام أيه قيمه لأعمالهم.

على سبيل المثال، نحن نعرف مساجد من مئات السنين، لم تترك عليها القرون الماضيه أدنى تأثير، و بعكسها نرى بيوتا تظهر فيها الشروخ و علامات الضعف مع مضي شهر واحد أو سنه واحده، فالأولى بنيت من كل النواحي بناء محكما بأفضل المواد مع توقع الحوادث المستقبليه، أمّا الثانيه فلأن الهدف من بنائها هو تهيئه المال و الثروه عن طريق المظاهر و الحيله، فالعنايه فيها كانت بالزخرفه فقط. (١)

من وجهه نظر المنطق الإسلامى، فإن للأعمال الصالحه آفات، ينبغى مراقبتها بدقه، فقد يكون العمل أحيانا خرابا و فاسدا منذ البدايه، كمثال العمل الذي يتخذ

ص: ٢٢٩

(رياء).

و أحيانا أخرى يلحقه الفساد أثناء العمل كما لو أصاب الإنسان الغرور و العجب حينه فتزول قيمه عمله بسبب ذلك.

و قد يمحي أثر العمل الصالح بعد الانتهاء منه بسبب القيام بأعمال مخالفه و منافيه، كمثّل الإنفاق الذي تتبعه «منه»، أو كالأعمال الصالحة التي يعقبها كفر و ارتداد.

حتى ارتكاب الذنوب أحيانا يترك أثره على العمل الصالح بعدها-طبقا لبعض الروايات الإسلاميه- كما نقرأ في مسأله شارب الخمر حيث لا تقبل أعماله عند الله أربعين يوما. (١)

على أيه حال، فللإسلام منهج فذ، دقيق و حساس في مسأله خصوصيات العمل الصالح. نقرأ

في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

يبعث الله عزّ و جلّ يوم القيامة قوما بين أيديهم نور كالقباطى، ثم يقول له:

هَبَاءٌ مُنْثُورًا

ثم قال: أما و الله-يا أبا حمزه- إنهم كانوا يصومون و يصلون، و لكن كانوا إذا عرض لهم شىء من الحرام أخذوه، و إذا ذكر لهم شىء من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه، قال: و الهباء المنثور هو الذى تراه يدخل البيت فى الكوه مثل شعاع الشمس».

(٢)

و بما أن القرآن-عاده- يضع الحسن و السىء متقابلين حتى يتضح وضع كل منهما بالمقاييسه فإن الآيه التى بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا .

ليس معنى هذا الكلام أنّ وضع أهل جهنم حسن، و وضع أهل الجنة أحسن، لأن صيغته «أفعل التفضيل» تأتي أحيانا حيث يكون أحد الأطراف واجدا

ص: ٢٣٠

(١-١) -سفينه البحار، ج ١، ص ٤٢٧، ماده «خمر».

(٢-٢) -تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٩.

للمفهوم، و الآخر فاقد له كليا. مثلا نقرأ فى الآيه (٤٠) من سوره فصّلت: أ فَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

«مستقر» بمعنى محل الاستقرار.

و«مقيل» بمعنى محل الاستراحه فى منتصف النهار، من ماده «قيلوله»، و قد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

ص: ٢٣١

اشاره

وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاوَاتِ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)

التفسير

اشاره

تشقق السماء بالغمام:

مره أخرى يواصل القرآن في هذه الآيات البحث حول القيامة، و مصير المجرمين في ذلك اليوم، فيقول أولًا: إن يوم محنه و حزن المجرمين هو ذلك اليوم الذى تشقق فيه السماء بواسطة الغيوم: وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاوَاتِ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا. (١)

«الغمام» من «الغم» بمعنى ستر الشئ، لذلك فالغيم الذى يغطى الشمس يقال له «الغمام»، و كذلك الحزن الذى يغطى القلب يسمونه «الغم».

ص: ٢٣٢

١- ١) - جمله «يوم تشقق السماء» فى الواقع عطف على جمله «يوم يرون الملائكة» التى مرّت سابقا، و على هذا فأن «يوم» هنا متعلق بذلك الشئ الذى كان فى الآيه السابقه، يعنى جمله «لا- بشرى». و يعتقد جماعه أنه متعلق بفعل مقدر، مثل (أذكر) و «الباء» فى «الغمام» يمكن أن تكون بمعنى الملابس، أو بمعنى «عن»، أو للسببيه كما تقدم فى تفسير الآيات أعلاه.

هذه الآيه-فى الحقيقه-ردّ على طلبات المشركين، و على إحدى ذرائعهم، لأنهم كانوا يتوقعون أن يأتى الله و الملائكه-طبقا لأساطيرهم و خرافاتهم من خلال الغيم،فيدعونهم إلى الحق،و فى أساطير اليهود جاء-أيضا-أنّ الله أحيانا يظهر ما بين الغيوم. (1)

يقول القرآن فى الردّ عليهم:نعم الملائكه(و ليس الله)يأتون إليهم يوما ما، لكن أى يوم؟اليوم الذى تتحقق فيه مجازاه و عقوبه هؤلاء المجرمين،و ينهى ادعاءاتهم الباطله.

و لكن ما هو المقصود من تشقق السماء بالغمام،مع أنّنا نعلم أن لا وجود حولنا لشيء يسمى السماء،يكون قابلا للتشقق؟ قال بعض المفسرين مثل«العلامه الطباطبائى»فى تفسير«الميزان»:

المقصود هو تشقق سماء عالم الشهود،و زوال حجاب الجهل و الغباء و ظهور عالم الغيب،فيكون للإنسان إدراك و رؤيه تختلف كثيرا عما هى عليه اليوم،فحينئذ تزول الحجب،فيرون الملائكه و هى تنزل من العالم الأعلى.

ثمّه تفسير آخر،هو أنّ المقصود من السماء هو الأجرام السماويه التى تتلاشى على أثر انفجارات متواليه،فيملاً الغيم الحاصل من هذه الانفجارات و من تلاشى الجبال صفحه السماوات،و بناء على هذا فالأفلاك السماويه تتشقق مع الغيوم الحاصله من ذلك. (2)

آيات كثيره من القرآن المجيد،خصوصا التى وردت فى السور القصصار آخر القرآن،تبين هذه الحقيقه،حيث تملأ جميع عوالم الوجود تغيرات عظيمه، و انقلاب و تحول عجيب،تتلاشى الجبال و تتناثر فى الفضاء كذرات الغبار، الشمس تفقد نورها و كذلك النجوم.و يلتقى الشمس و القمر،و تملأ نواحي الأرض

ص: ٢٣٣

١- ١) -فى ظلال القرآن،ج ٦،ص ١٥٤(ذيل الآيه مورد البحث).

٢- ٢) -«الباء»من الناحيه الأدبيه فى هذه الحاله للملابسه.

زلزله و هزّه عجيبه.

نعم، فى مثل ذلك اليوم، زوال السماء، بمعنى الأجرام السماويه، و تلبس السماء بغيوم كثيفه، سيكون أمرا طبيعيا.

من الممكن توضيح نفس هذا التفسير بنحو آخر:

شدّه التغيرات، و انفجارات الكواكب و السيارات يصير سببا فى تغطيه السماء بغيوم كثيف، و لكن توجد انشاقات بين هذا الغيم، و على هذا فالسمااء التى ترى بالعين فى الأحوال العاديه، تتشقق بواسطه هذه الغيوم الانفجاريه العظيمة. (1)

تفسيرات أخرى قيلت لهذه الآيه أيضا لا- تتوافق مع الأصول العلميه و المنطقيه، و فى نفس الوقت فالتفسيرات الثلاثه الآنفه لا تتنافى مع بعضها، فمن الممكن أن ترتفع حجب العالم المادى عن عين الإنسان من جهه، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعه، و من جهه أخرى ستلاشى الأجرام السماويه، و تظهر الغيوم الانفجاريه، فتبرز التشققات ما بينها فى ذلك اليوم، يوم نهايه هذا العالم و بدايه النشور، يوم أليم جدا للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ .

حتى أولئك الذين كان لهم فى هذا العالم نوع من الملك المجازى و المحدود و الفانى و السريع الزوال، يخرجون أيضا من دائره الملك، فتكون الحاكميه من كلّ النواحي و جميع الجهات لذاته المقدسه خاصه، و بهذا وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا .

نعم، فى ذلك اليوم تزول القوى الكاذبه تماما، و تكون الحاكميه لله خاصه، فتتداعى قلاع الكافرين، و تزول قوى الجبابره و الطواغيت، و إن كانوا جميعا فى

ص: ٢٣٤

١- ١) - فى هذه الحاله «الباء» فى «بالغمام» للسببيه.



هذا العالم-أيضا-لا شيء أمام إرادته تبارك و تعالی.و إذا كان لهم في هذه الدنيا بهرجه،فبأى ملاذ يلودون من الجزاء الإلهی فی يوم القيامة،يوم انكشاف الحقائق و زوال المجازات و الخيالات و الأوهام،و لهذا سيكون ذلك اليوم يوما بالغ الصعوبه عليهم،فی الوقت الذى يكون على المؤمنین سهلا يسيرا و هينا جدًا.

فی حدیث عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ

□ فی یومٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ فَقُلْتُ: ما أطول هذا اليوم؟! فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ «و الذى نفسى بيده إنَّه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاه المكتوبه يصلِّيها فى الدنيا». (١)

و التأمل الدقيق فى سائر آيات القرآن يكشف عن دلائل صعوبه ذلك اليوم على الكافرين، ذلك أننا نقرأ من جهه وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . (٢)

و من جهه أخرى مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ . (٣)

و من جهه ثالثه يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا . (٤)

□ حتى الشفاعة التى هى وحدها طريق النجاه، تكون للمذنبين الذين كانت لهم صلته بالله و بأولياء الله مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ . (٥)

و ايضا وَ لَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فَيْعَتِدِرُونَ ، (٦) فلا يسمح لهم بالاعتذار،فما بالك بقبول الاعتذار الواهيه!!

ص: ٢٣٥

١-١) -تفسير القرطبي«الجامع لأحكام القرآن»، ج ١٣، ص ٢٣، ج ٧، ص ٤٧٣٩.

٢-٢) -سوره البقره، الآيه ١٦٦.

٣-٣) -سوره تبت، الآيه ٢.

٤-٤) -سوره الدخان، الآيه ٤١.

٥-٥) -سوره البقره، الآيه ٢٥٥.

٦-٦) -سوره المرسلات، الآيه ٣٦.

إشاره

وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا (٢٩)

سبب النزول

»

قال ابن عباس: نزل قوله تعالى: وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ فِي عَقْبِهِ بن أبي معيط، وأبي بن خلف، وكانا متخالين، وذلك أن عقبه كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسه الرسول، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاما ودعا الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فقال عقبه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. وبلغ ذلك أبي بن خلف فقال: صببت يا عقبه؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال أبي: ما كنت براص عنك أبدا حتى تأتي فتبزق في وجهه،

ففعّل ذلك عقبه وارتدّ، وأخذ رحم دابه فألقاها بين كتفيه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتَ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ، فَضْرَبَ عُنُقَهُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَأَمَّا أَبِي بِنِ خَلْفٍ فَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أَحَدٍ بِيَدِهِ فِي الْمُبَارَزَةِ».

وقال الضحاك: لما بزق عقبه في وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عاد بزاقه في وجهه، فأحرق خديه، وكان أثر ذلك فيه حتى مات.

وقيل نزلت في كل كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم و ترك متابعه أمر الله تعالى. (١)

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورته مصير الرجل الذي يتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

وقلنا مرارا أنّ سبب النزول وإن يكن خاصًا، إلا أنه لا يقيد مفهوم الآيات أبدأ، وعموميه المفهوم تشمل جميع المصاديق.

## التفسير

## إشاره

## أضنى صديق السوء

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها في الآيات السابقة، وفي هذه الآيات اشاره الى قسم آخر منها، وهي مسأله حسره الظالمين البالغه على ماضيهم، يقول تعالى أولًا: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢).

«يعضّ» من ماده «عضّ» (على وزن سدّ) بمعنى الأزم بالأسنان، ويستخدم

ص: ٢٣٧

١-١) - مجمع البيان، ج ٧، ص ١٦٦.

٢-٢) - جملة يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ... عطف على «يوم يرون» التي مضت قبل عدّه آيات، بعض يعتبرها أيضا متعلقه بجملة مقدره «اذكر».

هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهوسين من شدّة الحسره و الأسف، كما في المثل العربي، لأن الإنسان في مثل هذه الحالات لا- يعرض الإصبع دائما، بل يعرض ظاهر اليد أحيانا، وكثيرا ما يقال- كما في الآية الآيه مورد البحث- «يديه» يعنى كلتا اليدين حيث تبين شدّة الأسف و الحسره بنحو أبلغ.

و هذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، و يعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الانتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئه سوره الغضب في نفوسهم و الشعور بالراحه.

و ينبغي حقًا، أن يسمى ذلك اليوم يَوْمَ الْحَشِيرَةِ كما ورد هذا الوصف بالذات في القرآن ليوم القيامة أيضا (سوره مريم الآية ٣٩)، ذلك لأن المجرمين يرون أنفسهم في أتعس حال بين يدي الحياه الخالده، في الوقت الذي كانوا يستطيعون خلال أيام من الصبر و الاستقامه و مجاهده النفس و الإيثار أن يستبدلوا ذلك بحياه مشرفه و سعيده، و هو يوم أسف أيضا حتى بالنسبه إلى المحسنين، فهم يأسفون على أنهم: لماذا لم يحسنوا أكثر.

ثم يضيف القرآن الكريم أن هذا الظالم المعتدى الغارق في عالم الأسف، يقول: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . (١)

واضح أن المقصود ب«فلان» هو ذلك الذى أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال، و فرد مثل «أبى» ل«عقبه» الذى ورد في سبب النزول.

هذه الآية- و الآية التى قبلها- تعرضان حالتى نفى و إثبات متقابلتين فى مكان واحد، يقول تعالى: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا، و هنا يقول:

...لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا

حيث كانت التعاسه كلها فى ترك الارتباط بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم، و قبول الارتباط بهذا الخليل الضال.

ص: ٢٣٨

١- ١) -«خليل» تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاورا لنفسه. و للخليل معان أخرى أيضا قد أوردناها فى ذيل الآية (١٢٥) من سوره النساء.

ثم يستمر و يقول: لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي .

لو كانت الفاصله كبيره بينى و بين الإيمان و السعاده الخالده فى الدنيا لم أكن آسف الى هذا الحد، و لكنى كنت قاب قوسين أو أدنى من السعاده الدائمه فصَدَّنِي رفيق السوء هذا عن عين ماء الحياه ظامئا و أغرقنى فى دوامه التعاسه.

«الذكر» فى الجمله أعلامه، له معنى واسع، و يشمل كل الآيات الإلهيه التى نزلت فى الكتب السماويه، بل يدخل فى إطاره كل ما يوجب يقظه و وعى الإنسان.

و فى ختام الآيه يقول تعالى: وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْرِى الْإِنْسَانَ إِلَى مَوَاقِعِ الْخَطَرِ وَ الطَّرِيقِ الْمُنْحَرَفِ، ثم يتركه حيران و يذهب لسبيله.

و ينبغى الانتباه إلى أنّ «خذولا» صيغه مبالغه، بمعنى كثير الخذلان.

و حقيقه الخذلان هى أى يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، و لكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته و إعانتته تماما فى اللحظات الحساسه.

فى هذه الجمله الأخيره وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا قد تكون من مقوله الله تعالى على سبيل الإنذار لجميع الظالمين و الظالمين، أو تتمه لمقوله هؤلاء الأفراد المتحسرين فى القيامة، ذكر المفسرون تفسيرين، و كل منهما منسجم مع معنى الآيه، غير أن كونها مقوله الله تعالى أكثر انسجاما.

**بحث**

**اشاره**

**أثر الصديق فى مصير الإنسان:**

لا شك فى أن عوامل بناء شخصيه الإنسان -بعد عزمه و إرادته و تصميمه- أمور مختلفه، من أهمها الجليس و الصديق و المعاشر، ذلك لأن الإنسان قابل للتأثر

ص: ٢٣٩

شاء أم أبى، فيأخذ قسطاً مهماً من أفكاره و صفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، و لقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية و عن طريق التجربة و المشاهدات الحسية أيضاً.

قابلية التأثير هذه نالت اهتماماً خاصاً لدى الإسلام إلى حدّ أنه نقل في الروايات الإسلامية،

عن نبيّ الله سليمان عليه السلام أنّه قال: «لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنّما يعرف الرجل بأشكاله و أقرانه، و ينسب إلى أصحابه و أخذانه». (١)

يقول الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام في خطبه له: «و من اشتبه عليكم أمره و لم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، و إن كانوا على غير دين الله، فلا حظّ له من دين الله». (٢)

حقاً، إنّ أثر الصديق في سعادته و شقاوته إنسان ما قد يكون من أهم العوامل أحياناً، فقد يؤدي به إلى دركات الشقاء الأبدى، و قد يرقى به أحياناً إلى غايه المجد.

الآيات الحالية و سبب نزولها، تبين -بوضوح- كيف أنّ الإنسان قد يقترب من السعادة، لكنّ وسوسه شيطانية واحده من صديق سىء تقلبه رأساً على عقب و تقلب مصيره، حيث سيعضّ على يديه من الحسرة يوم القيامة، و ستعالى منه صرخه «يا ويلتى».

في كتاب «العشره» ووردت روايات كثيره في نفس هذا الموضوع، تبين أن الإسلام شديد و دقيق و ثاقب النظره في مسأله اختيار الصديق.

نهى هذا البحث القصير بنقل حديثين في هذا الموضوع، و من أراد الاطلاع أكثر في هذا الموضوع فليراجع كتاب «العشره» من بحار الأنوار، الجزء ٧٤.

ص: ٢٤٠

١-١) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٢٧ ماده (صدق).

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٩٧.

فى حءىء عن ءاسع من أءمه الإسلام العظام، الإمام محمد ءقى الجواء علىه السّلام «إىاك و مصابجه الشرىر، فإنه كالسلف المسلول، فحسّن منظره و فبج أءره». (١)

و

قال الرّسول الأكرم صلّى الله علىه و آله و سلّم: «أربع فمءن القلب: الذنب على الذنب...

و مجالسه الموتى» قىل له: فا رسول الله، و ما الموتى؟ قال: «كل غنى مءرف». (٢)

ص: ٢٤١

---

١-١ - بحار الأنوار ج ٧٤ ص ١٩٨.

٢-٢ - الخصال، للصدوق، طبقا لنقل بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٩٥.

إشاره

وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا (٣١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَمْ نُنزَلْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَيَّ وَجُوهَهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

التفسير

إشاره

إلهي، إن الناس قد هجروا القرآن:

كما تناولت الآيات السابقه أنواعا من ذرائع المشركين و الكافرين المعاندين، تتناول الآيه الأولى فى مورد البحث هنا حزن و شكايه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم بين يدي الله عزّ و جلّ من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول:



وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا

(١).

قول الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئه عظيمه من المسلمين، يشكو بين يدي الله أنهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذي هو رمز الحياه ووسيله النجاه، القرآن الذي هو سبب الانتصار والحركه والترقى، القرآن الممتلى ببرامج الحياه، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الاستجداء إلى الآخرين، حتى فى القوانين المدنيه والجزائيه.

إلى الآن، لو تأملنا فى وضع كثير من البلدان الإسلاميه، خصوصاً أولئك الذين يعيشون تحت هيمنه الشرق والغرب الثقافيه، لوجدنا أن القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبه عبر محطات البث، و يستخدمونه فى زخرفه المساجد بعنوان الفن المعماري، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، و على الأكثر للتلاوه من أجل الثواب.

و يستدلون بالقرآن، أحياناً و غايتهم إثبات أحكامهم المسبّقه الخاطئه من خلال الاستعانه بالآيات، وبالاستفاده من المنهج المنحرف فى التفسير بالرأى.

فى بعض البلدان الإسلاميه، هناك مدارس فى طول البلاد و عرضها بعنوان:

مدارس «تحفيظ القرآن» و فريق عظيم من الأولاد والبنات مشغولون بحفظ القرآن، فى الوقت الذى تؤخذ أفكارهم عن الغرب حيناً، و عن الشرق حيناً آخر، و تؤخذ قوانينهم و قراراتهم من الأجانب، أما القرآن فغطاء لمخالفاتهم فقط.

نعم، اليوم أيضاً يصرخ النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم: يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا. مهجوراً من ناحيه لئبه و محتواه، متروكاً من ناحيه الفكر و التأمل،

ص: ٢٤٣

١ - ١) - الظاهر أن جمله «قال» فعل ماض، تدل على أن النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان قد ذكر هذا القول على سبيل الشكوى فى هذه الدنيا، و أكثر المفسرين أيضاً على هذا الاعتقاد، لكن بعضاً آخر مثل «العلامه الطباطبائى» فى «الميزان» يعتقدون أن هذا القول مرتبط بيوم القيامه، و الفعل الماضى هنا بمعنى المضارع. و ذكر العلامه الطبرسى فى مجمع البيان أيضاً هذا على سبيل الاحتمال، لكن الآيه التى بعدها، و التى فيها جنبه مواساه للنبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم دليل على أن التفسير المشهور هو الأصح.

و مهملا من ناحيه برامجه البناء.

تقول الآيه التي بعدها فى مواساة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .

لست وحدك قد واجهت هذه العداوه الشديده لهذه الفئه، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصرونهم العدا.

و لكن اعلم أنك لست وحيدا، و بلا معين وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا .

فلا وساوسهم تستطيع أن تضلللك، لأنّ الله هاديك، و لا مؤامراتهم تستطيع، أن تحطمك، لأن الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، و قدرته أقوى من كل القدرات.

الآيه التى بعدها، تشير أيضا إلى ذريعه أخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .

أليس القرآن جميعه من قبل الله؟! أليس من الأفضل أن ينزل جميع محتوى هذا الكتاب دفعه واحده حتى يقف الناس على عظمته أكثر؟ و لماذا تنزل هذه الآيات تدريجيا و على فواصل زمنييه مختلفه؟ و قد يأخذ هذا الإشكال فى كيفية نزول القرآن مأخذه من الأفراد السطحيين، خاصّه إذا كانوا من المتمحلين للأعدار بأن هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس و مصدر كل حياه المسلمين، و محور كل قوانينهم السياسيه و الاجتماعيه و الحقوقيه و العباديه، لماذا لم ينزل كاملا و دفعه واحده على نبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يقرأه أتباعه من البدايه إلى النهايه فيطلعون على محتواه. و أساسا فقد كان الأفضل للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أيضا أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعه واحده، كيما يجب الناس فورا على كل ما يسألونه و يريدون

و لكن القرآن فى تتمه نفس هذه الآيه يجيبهم: كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً. و قد غفل أولئك السطحيون عن هذه الحقيقه، فلا شك أن نزول القرآن التدريجى له ارتباط وثيق بتثبيت قلب النبى صلى الله عليه وآله و سلم و المؤمنين، و سيأتى بحث مفصل عن ذلك فى نهايه هذه الآيات.

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ نَفْسِيرًا. أى أنهم لا يأتون بمثل أو مقوله أو بحث لضعاف دعوتك و مقابلتها، إلا آتيناك بكلام حق يجمع كلماتهم الجوفاء و أدلتهم الخاويه بأحسن بيان و أفضل تفسير.

و بما أن هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا-بعد مجموعه من إشكالاتهم-أن محمدا و أصحابه مع صفاتهم هذه و كتابهم هذا و برامجهم هذه شر خلق الله (العياذ بالله)، و لأن ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحه و بلاغه القرآن، فإن الله سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآيه الأخيره مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول:

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَ اضْلُّ سَبِيلًا

نعم، تتضح هناك نتيجه منهاج حياه الناس، فريق لهم قامات منتصبه كشجر السرور، و وجوه منيره كالقمر، و خطوات واسعه، يتوجهون بسرعه إلى الجنّه، فى مقابل فريق مطأطئ رؤوسهم إلى الأرض، تسحبهم ملائكه العذاب إلى جهنّم، هذا المصير المختلف يكشف عنم كان ضالا و شقيا! و من كان مهتديا و سعيدا!؟

## بحوث

## إشارة

### ١- تفسير جعلنا لكل نبيّ عدواً .

يفهم من هذه الجملة-أحيانا-أن الله من أجل مواساه النبى صلى الله عليه وآله و سلم يقول: لست

وحدك لك عدو، بل لقد جعلنا لكل نبي عدوًا، ولازم هذا القول إسناد وجود أعداء الأنبياء إلى الله تعالى، الأمر الذي لا يتفق مع حكمته ولا مع أصل حريه وإرادته الإنسان. ذكر المفسرون أجوبه متعدده على هذا السؤال...

قلنا مرارا أن جميع أعمال الإنسان منسوبة إلى الله، لأن جميع متعلقاتنا، قدرتنا، قوانا، عقلنا و فكرنا، وحتى حريتنا و اختيارنا أيضا من عنده، و على هذا فمن الممكن من هذه الناحيه نسبه وجود الأعداء للأنبياء إلى الله، دون أن يستلزم ذلك الجبر و سلب الإختيار، و لا- يرد خدش في مسئوليتهم إزاء أعمالهم (فتأمل)! مضافا إلى أن وجود هؤلاء الأعداء الأشداء و مخالفتهم للأنبياء، يكون سببا في أن يصبح المؤمنون أقوى في عملهم، و أثبت قدما، فيتحقق الامتحان الإلهي بالنسبه إلى الجميع.

هذه الآيه في الحقيقه مثل الآيه (١١٢) من سوره الأنعام حيث تقول:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .

أمام الأراهير تنمو الأشواك، و في قبال المحسنين يوجد المسيئون، دون أن تنتفى مسئوليه أى واحد من هاتين المجموعتين.

و قال البعض: إن المقصود من «جعلنا» هى أوامر و نواهى و مناهج الأنبياء البناءه التى تجر بعض الضالين إلى العداوه، شاؤوا أم أبوا.

و إذا أسند ذلك إلى الله فلا أن الأوامر و النواهى من جهته عزّ و جلّ.

التفسير الآخر: أن هنالك فئه يطبع الله على قلوبهم و يعمي أبصارهم و يصم أسماعهم بسبب الإصرار على الذنب و الإفراط فى التعصب و اللجاجه، هذه الفئه يصبحون أعداء الأنبياء فى نهايه المطاف، أما أسباب ذلك فهى بما قدموا لأنفسهم.

و لا منافاه بين هذه التفاسير الثلاثه، فمن الممكن أن تجتمع كلها فى مفهوم الآيه.

## ٢- الآثار العميقة لنزول القرآن التدريجي

صحيح أنه كان للقرآن نزولان، طبقاً للزوايات (بل لظاهر بعض الآيات):

أحدهما: «نزل دفعي» مره واحده في ليله القدر على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والآخر:

«نزل تدريجي» في ثلاث و عشرين سنه، لكن بلا شك أن النزول المعترف به الذي كان النبي والناس يتفاعلون معه دائماً هو النزول التدريجي للقرآن.

و هذا النزول التدريجي بالذات صار سبباً لاستفهامات الأعداء: لماذا لم ينزل القرآن مره واحده و يجعل دفعه واحده بين أيدي الناس، حتى يكونوا أكثر اطلاعاً و تفهماً، فلا يبقى مكان للشك و الريبه؟ و لكن - كما رأينا - فإن القرآن أجابهم جواباً قصيراً و جامعاً و بليغاً من خلال جمله كَذَلِكَ لِنُبِّئَ بِهِ قَوْمًا كَكَ، فكلما تأملنا فيها أكثر تتجلى آثار النزول التدريجي للقرآن أوّضح.

١- لا شك أن التشريعات إذا كانت تنزل بشكل تدريجي تبعاً للحاجات، و يكون لكل مسأله شاهد و مصداق عيني، فستكون مؤثره جداً من ناحيه «تلقى الوحي» و كذلك «إبلاغ الناس».

مبادئ التربيه تؤكد أن الشخص أو الأشخاص المراد تربيتهم ينبغي أن يؤخذ بأيديهم خطوه خطوه، فينظم لهم لكل يوم برنامج، و يسلكوا من المرحله الأدنى التي شرعوا منها إلى المراحل الأعلى و البرامج التي تتدرج بهذه الكيفيه تكون أكثر مقبوليه و أعمق أثراً.

٢- إن هؤلاء المعترضين غافلون أساساً عن أن القرآن ليس كتاباً عادياً يبحث في موضوع أو علم معين، بل هو منهج حياتي للأمة التي تغيرت به، و استلهمت منه في جميع أبعاد الحياه و لا تزال.

كثير من آيات القرآن نزلت في مناسبات تاريخيه مثل معركة (بدر) و (أحد) و (الأحزاب) و (حنين)، و بذلك سنّت التشريعات و الاستنتاجات من هذه

الحوادث، ترى هل يصح أن تكتب هذه مرّة واحده و تعرض على الناس؟! بعبارة أخرى: القرآن مجموعه من أوامر و نواه، أحكام و قوانين، تاريخ و موعظه، و مجموعه من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير في مواجهه الأحداث التي كانت تبرز أمام مسير الأمة الإسلامية، كتاب- كهذا- يبين و ينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور في ميادين حياه الأمة، لا يمكن أن ينظم و يدون دفعه واحده.

و هذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه و نشر جميع بياناته و إعلاناته و أوامره و نواهيه- التي يصدرها في المناسبات المختلفه- دفعه واحده من أجل تسيير الثوره، ترى هل يعتبر هذا العمل عقلايا؟! ٣- النزول التدريجي للقرآن كان سبب ارتباط النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ الدائم و المستمر بمبدأ الوحي ممّا يجعل قلبه الشريف أقوى و إرادته أشدّ. و من غير الممكن إنكار تأثيره في المناهج التربويه.

٤- من جهه أخرى فإنّ استمرار الوحي دليل على استمرار رساله و سفاره النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ، و سوف لن يترك مجالاً لوسوسه الأعداء لكي يقولوا: لقد بعث هذا النبي ليوم واحد! ثم تركه ربه، كما نقرأ في التأريخ الإسلامي أن هذه المهمه ظهرت أثناء تأخر الوحي في بدايه الدعوه، فأنزلت سوره وَ الصُّحُفِ لِنَفِي ذَلِكَ.

٥- لا شك أنّه إذا كان مقرراً لمناهج الإسلام أن تنزل جميعها دفعه واحده، فقد كان من اللازم أن تطبق دفعه واحده أيضاً، لأنّ النزول بدون تطبيق يفقد النزول قيمته، و من المعلوم أن تطبيق جميع المناهج أعم من العبادات كالزكاه و الجهاد، و رعايه جميع الواجبات و الامتناع عن كل المحرمات دفعه واحده..

عمل ثقيل جدّاً قد يؤدي إلى فراره فئه كبيره من الإسلام.

و بهذا يتبين أن النزول التدريجي و بالتالي التطبيق التدريجي أفضل من جهات كثيره.

و بعبارة أخرى: إنَّ أَى واحد من هذه التشريعات فى صورة التّزول التدرىجى سىتم هضمه و استيعابه بصورة جیده، و فى حالة تعرضه لبعض الاستفهامات یمکن طرحها و الاجابه علیها.

٦- و فائده أخرى من فوائد التّزول التدرىجى هو اتضاح عظمه و إعجاز القرآن، ذلك لأن فى كل واقعه تنزل عدّه آیات کریمه تكون لوحدها دلیل العظمه و الاعجاز، و كلما یتكرر تتجلى أكثر هذه العظمه و هذا الإعجاز، فینفذ فى أعماق قلوب الناس.

### ٣- معنى الترتیل فى القرآن:

كلمه «ترتیل» من ماده «رتل» (على وزن قمر) بمعنی انتظم و اتسق، لذا فالعرب یقولون «رتل الإنسان» لمن تكون أسنانه جیده و منتظمه و متسقه. و على هذا الأساس یطلق الترتیل بمعنی القراءه المتسقه للكلام أو الآیات بموجب نظام و حساب.

و على هذا فجمله وَ رَتَّلْنَا تَزْتِيلًا إشاره إلى هذه الحقیقه، و هى أن آیات القرآن و إن نزلت تدریجا و فى مده ٢٣ سنه، لكنّ هذا التّزول كان على أساس نظام و حساب و منهج بحيث ادى الى رسوخه فى الأفكار و غرسه فى القلوب.

فى تفسیر كلمه «ترتیل» نقلت روايات جذابه، نشیر إلى بعضها كما یأتى:

فى تفسیر «مجمع البیان» «نقل عن النّبی صلّى الله علیه و آله و سلّم أنه أمر ابن عباس: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتیلا» فسألته: و ما الترتیل؟ قال: «بینه تبینا و لا تنثره نثر الدقل و لا تهزه هزّ الشعر، قفوا عند عجائبه و حركوا به القلوب، و لا یكونن همّ أحدكم آخر

و هناك روايه بهذه المضمون رواه الشيخ الكليني في «أصول الكافي» عن أمير المؤمنين علي عليه السلام. (٢)

و

نقل أيضا عن الإمام الصادق عليه السلام «الترتيل أن تتمكث به و تحسن به صوتك، و إذا مررت بآيه فيها ذكر النار فتعوذ بالله من النار، و إذا مررت بآيه فيها ذكر الجنة فاسأل الله الجنة». (٣)

#### ٤- تفسير يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ

أقوال كثيره بين المفسرين في ما هو المقصود بحشر هذه الفئة من المجرمين على وجوههم؟! بعضهم فسروا ذلك بنفس معناه الحقيقي، و قالوا: إن ملائكه العذاب يسحبونهم إلى جهنم و هم ملقون على وجوههم إلى الأرض، و هذا علامه على مهانتهم و ذلتهم، لأنهم كانوا في الدنيا في غايه الكبر و الغرور و الاستهانه بخلق الله، هذا من جهه.

و من جهه أخرى تجسيد لضلالتهم في هذا العالم، ذلك أن من يسحبونه بهذه الصوره لا يرى ما أمامه بأي شكل، و غافل عما حوله.

و البعض الآخر أخذوا بمعناه الكنائى، فقالوا تاره هذه الجملة كناية عن تعلق قلوب أولئك بالدنيا، فهم يسحبون إلى جهنم لأن وجوه قلوبهم لا زالت مرتبطه بالدنيا. (٤)

ص: ٢٥٠

١-١) - مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٠ ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢) - أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٩ (باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن).

٣-٣) - مجمع البحرين ماده رتل.

٤-٤) - طبقا لهذا التفسير، فإن عبارته «على وجوههم» أخذت محل العله. فيكون مفهوم الجملة هكذا (يحشرون إلى جهنم لتعلق وجوه قلوبهم إلى الدنيا).



وقالوا تاره اخرى:انها كناية مستعمله فى الأءب العربى حيث يقولون:فلان مرّ على وجهه، يعنى أنه لم يكن يءرى أين يذهب.

لكن الواضح أننا مع عدم الءليل على المعنى الكنائى، لا بءء من حملها على المعنى الأوّل، وهو المعنى الحقيقى.

ص: ٢٥١

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَ كَلًّا- ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كَلًّا تَبَرْنَا تَشْبِيرًا (٣٩) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُوءْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ لِنُشُورًا (٤٠)

التفسير

اشاره

مع كل هذه الدروس و العبر، و لكن...

أشار القرآن المجيد في هذه الآيات إلى تاريخ الأمم الماضيه و مصيرهم المشؤوم مؤكدا على ست أمم بخاصه (الفراعنه، و قوم نوح، و قوم عاد، و ثمود، و أصحاب الرس، و قوم لوط) و ذلك لمواساه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من جهه، و لتهديد

المشركين المعاندين الذين مرّ أنموذج من أقوالهم فى الآيات السابقة، من جهة أخرى و يجسد دروس العبره من مصير هذه الأقسام بشكل مختصر و بليغ تماما.

يقول أولا: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا .**

فقد ألقيت على عاتقهما لمسؤوليه الثقيله فى جهاد الفراعنه، و يجب عليهما مواصله هذا العمل الثورى بمساعدته أحدهما الآخر حتى يثمر فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فإنهم قد كذبوا دلائل الله و آياته التى فى الآفاق و فى الأنفس و فى كل عالم الوجود، و أصروا على طريق الشرك و عباده الأصنام من جهة.. و من جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الأنبياء السابقين و كذبوهم.

و لكن بالرغم من جميع الجهود و المساعى التى بذلها موسى و هارون، بالرغم من رؤيه كل تلك المعجزات العظيمة و البيئات المتنوعه، أصروا أيضا على طريق الكفر و الإنكار، لذا فدَمَرْنَاهم تدميرا .

كلمه «تدمير» من ماده «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب، حيث كان هلاك قوم فرعون فى أمواج النيل المتلاطمه بتلك الكيفيه المعروفه من عجائب التاريخ حقا.

و كذلك: **وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً، وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .**

الملفت للانتباه أنه تعالى يقول: إن أولئك كذبوا الرسل (لا رسولا واحدا فقط) ذلك أنه لا فرق بين أنبياء الله و رسله فى أصل الدعوه، و تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، فضلا عن أنهم كانوا مخالفين لدعوه جميع أنبياء الله و منكرين لجميع الأديان.

و كذلك: **وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا . (١)**

ص: ٢٥٣

١-١) - «و عادا و ثمودا» عطف على ضمير «هم» فى جملة «دمرناهم». و احتمال بعضهم أيضا أن العطف على «هم» فى «جعلناهم»، أو يكون عطفًا على محل «الظالمين» لكن الاحتمال الأول مناسب أكثر.

«قوم عاد» هم قوم النّبي «هود» العظيم، الذي بعث في منطقته (الأحقاف) أو (اليمن).

و«قوم ثمود» قوم نبي الله «صالح» الذي بعث في منطقته وادي القرى (بين المدينة و الشام)، أمّا ما يتعلق بمسأله «أصحاب الرس» فسنبحثها في نهايه هذا البحث.

«قرون» جمع «قرن» و هي في الأصل بمعنى الجماعه الذين يعيشون معا في زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائه سنه).

لكننا لم نجاز أولئك على غفله أبدا، بل وَ كُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ .

أجنبنا على إشكالاتهم، مثل الإجاباه على الإشكالات التي يوردونها عليك، و بيننا لهم الأحكام الإلهيه و حقائق الدين. أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر و قصص الماضين، لكن حين لم ينفع أئى من ذلك أهلكتناهم و دمرناهم تدميرا: وَ كُلاًّ تَبَرَّأْنَا تَبِيرًا . (١)

و في نهايه المطاف- في الآيه الأخيره مورد البحث- يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التي تقع على بدايه طريق الحجازيين إلى الشام، و إلى الأثر الحى الناطق عن المصير الأليم لأولئك الملوئين و المشركين، فيقول تعالى: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنهم لم يأخذوا منها العبره، ذلك لأنهم بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

إنهم يعدون الموت نهايه هذه الحياه، و إذا كان لهم اعتقاد بحياه ما بعد الموت فهو اعتقاد ضعيف و بلا أساس، لا يطبع أثرا في أرواحهم و لا ينعكس في مناهج

ص: ٢٥٤

١- ١) - «تتبير» من ماده «تبر» (على وزن ضرر، و على وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

حياتهم، و لهذا فهم يأخذون جميع الأشياء مأخذ اللعب، و لا يفكرون إلا بأهوائهم السريعه الزوال.

## بحثان

### اشاره

#### ١- من هم «أصحاب الرس»

كلمه «رس» فى الأصل بمعنى الأثر القليل، فيقال مثلا «رسّ الحديد فى نفسى» (قليل من حديثه فى ذاكرتى) أو يقال: وجد رسّا من حمى» (يعنى: وجد قليلا من الحمى فى نفسه). (١)

و جماعه من المفسرين اعتقدوا بأن «الرس» بمعنى البئر.

على أيه حال فتسميه هؤلاء القوم بهذا الاسم، إمّا لأنّ أثرا قليلا جدا بقى منهم، أو لأنّهم كانت لهم آبار كثيره، أو لأنّهم هلكوا و زالوا بسبب جفاف آبارهم.

أمّا من هم هؤلاء القوم؟ هناك أقوال كثيره بين المؤرخين و المفسرين:

١- يرى كثيرون أن «أصحاب الرس» كانوا طائفه تعيش فى «اليمامه» و بعث لهم نبى اسمه «حنظله» كذبوه و ألقوه فى بئر، و ذكروا أيضا: إنهم ملأوا هذا البئر بالرماح، و أغلقوا فم البئر بعد إلقاء النّبى فيها بالحجاره حتى استشهد ذلك النبى. (٢)

٢- البعض الآخر يرى أن «أصحاب الرس» إشاره إلى قوم «شعيب» الذين كانوا يعبدون الأصنام، و كانوا ذوى أغنام كثيره و آبار ماء، و «الرس» كان اسما لبئر عظيم، حيث أغاضه الله، فأهلك أهل ذلك المكان.

٣- بعض آخر يعتقد أن «الرس» كانت قريه فى أرض «اليمامه» حيث كان يعيش فيها جماعه من بقايا قوم ثمود، فهلكوا نتيجة طغيانهم و غرورهم.

ص: ٢٥٥

١-١) - مفردات الراغب.

٢-٢) - أعلام القرآن ص ١٤٩.

٤- و ذهب آخرون أنهم كانوا جماعة من العرب الماضين، يعيشون (١) بين الشام و الحجاز.

٥- بعض التفاسير يعرف «أصحاب الرس» من بقايا عاد و ثمود، و يعتبر و بئر مَعَطْلَه و قَصِير مَشِيد . (٢) متعلقه بهم أيضا، و ذكر أن موطنهم في «حضر موت» و اعتقد «الثعلبي» في «عرائس البيان» أن هذا القول هو الأكثر اعتبارا.

البعض الآخر من المفسيّرين طبقوا «الرس» على «أرس» (في شمال آذربيجان)! ٦- العلامة الطبرسي في مجمع البيان، و الفخر الرازي في التفسير الكبير، و الألوسي في روح المعاني نقلوا من جملة الاحتمالات، أنهم قوم يعيشون في أنطاكية الشام، و كان نبيهم «حبيب النجار».

٧- في عيون أخبار الرضا، نقل حديث طويل حول «أصحاب الرس» خلاصته: «إنهم كانوا قوما يعبدون شجره صنوبر يقال لها (شاه درخت) كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها (روشن آب) و كان لهم اثنتا عشرة قرية معموره على شاطئ نهر يقال له «الرس»، يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن أسفندار، فروردين، أردى بهشت، خرداد، مرداد، تير، مهر، شهر يور، و منها اشتق العجم أسماء شهورهم.

و قد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبره حبه. أجروا عليها نهرا من العين التي عند الصنوبره، و حرّموا شرب مائها على أنفسهم و أنعامهم، و من شرب منه قتلوه، و يقولون: إنّه حياه الآلهه فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها. و قد جعلوا في كل شهر من السنه يوما- في كل قرية، عيدا، يخرجون فيه إلى الصنوبره التي خارج القرية يقربون إليها القرابين و يذبحون الذبائح ثم يحرقونها في النار

ص: ٢٥٦

١- ١) - شرح نهج البلاغه، لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٩٤.

٢- ٢) - سورة الحج، الآية ٤٥.

فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها و سطوعه فى السماء و يبكون و يتضرعون، و الشيطان يكلمهم من الشجرة. و كان هذا دأبهم فى القرى حتى إذا كان يوم عيد قرىتهم العظمى التى كان يسكنها ملكهم و اسمها(أسفندار)اجتمع إليها أهل القرى جميعا و عتدوا اثنى عشر يوما، و جاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين و العبادات للشجرة، و كلمهم إبليس و هو يعدهم و يمنيهم أكثر مما كان من الشياطين فى سائر الأعياد من سائر الشجر.

و لما طال منهم الكفر بالله و عباده الشجرة، بعث الله إليهم رسولا من بنى إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهه إلى عباده الله و ترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فبست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فقال بعضهم: إن هذا الرجل سحر آلهتنا، و قال آخرون: إن آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه و شأنه من غير أن نغضب لآلهتنا. فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا و ألقوه فيها، و سدوا فوهتها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكتهم عن آخرهم». (١)

قرائن متعددة تؤيد مضمون هذا الحديث، لأن مع وجود ذكر «أصحاب الرس» فى مقابل عاد و ثمود يكون احتمال أنهم جماعه من هاتين الأمتين بعيدا جدا.

كذلك، فإن وجود هؤلاء القوم فى الجزيره العربيه و الشامات و تلك الحدود- و هو الذى احتمله الكثيرون- بعيد أيضا، ذلك لأنه يجب أن يكون له انعكاس فى تاريخ العرب بحسب العاده، فى الوقت الذى لم نر حتى انعكاسا ضئيلا لأصحاب الرس لديهم.

مضافا الى ذلك توافقه مع كثير من التفاسير الأخرى، من جملتها: أن «الرس»

ص: ٢٥٧

١- ١) - عيون أخبار الرضا عليه السلام، طبقا لنقل و تلخيص تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢١٩ و الحديث فى العيون بإسناده عن أبى الصلت الهروى عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام.

كان اسما لبئر(البئر التى ألقوا فيها نبيهم)أو أنهم كانوا أصحاب زراعه و مواشى و أمثال ذلك.

و ما

ورد فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام: أنّ نساءهم كن منحرفات جنسيا و يمارسن «المساحقه» لا منافاه له مع هذا الحديث أيضا (١).

و من عبارته(نهج البلاغه،الخطبه ١٨٠)يستفاد أنه كان لهم أكثر من نبى واحد فقط،لأنه عليه السّلام

يقول: «أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين،و أطفأوا سنن المرسلين،و أحيوا سنن الجبارين!؟».

و كلام أمير المؤمنين عليه السّلام هذا لا يتنافى مع الروايه أعلاه،لأنّ من الممكن أن الروايه تشير إلى مقطع من تاريخهم و كان قد بعث نبى فيهم.

## ٢-مجموعه من الدروس المؤثره:

ست فئات فى الآيات أعلاه،ذكرت أسماؤهم:قوم فرعون قوم نوح المتعصبون،قوم عاد المتجبرون،ثمود،أصحاب الرس،و قوم لوط،حيث كان كل منهم أسير نوع من الانحراف الفكرى و الأخلاقى أدى بهم إلى الهلاك و الشقاء.

الفراعنه كانوا ظالمين جائرين و مستعمرين و استثماريين و أنانيين.

قوم نوح كما هو معلوم كانوا معاندين و متكبرين و مغرورين.

قوم عاد و قوم ثمود كانوا يتكلمون على قدراتهم الذاتيه.

و كان أصحاب الرس فى دوامه الفساد و الشذوذ الجنسى و خاصّه نسائهم، و كان قوم لوط غارقين فى وحل من الفحشاء،و شذوذ الرجال بخاصّه،و الجميع منحرفون عن جاده التوحيد.حيرى فى الضلالات.

و هنا يريد القرآن أن يندر مشركى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و جميع الناس على مدى

ص: ٢٥٨



التاريخ: ليكن لكم من القدرات و الاستطاعه و الإمكانيات كل شىء و مهما كان لكم من اموال و ثروات و حياه مرفّهه، فإن التلوث بالشرك و الظلم و الفساد سيستأصل أعماركم، و إنّ نفس أسباب تفوقكم تلك ستكون أسباب هلاككم! قوم فرعون: و قوم نوح، أهلكوا بالماء الذى هو أساس الحياه، قوم عاد بالعاصفه و الرياح التى هى أيضا فى ظروف خاصّه أساس الحياه، قوم ثمود بالسحاب الحامل للصواعق، و قوم لوط بمطر من الحجاره نزل بعد الصاعقه، أو انفجار بركان على قول بعضهم، و أصحاب الرس طبقا لذيل تلك الروايه أعلاه، أبيدوا بنار تطلع من الأرض، و بشعله مهلكه انتشرت من السحاب، ليؤوب هذا الإنسان المغرور إلى نفسه، فيتمسك بطريق الله و العداله و التقوى.

إشاره

وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَيْوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسِبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

التفسير

إشاره

أضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ:

الملفت للانتباه أنّ القرآن المجيد لا يورد أقوال المشركين دفعه واحده في آيات هذه السوره، بل أورد بعضها منها، فكان يتناولها بالردّ و الموعظه و الإنذار، ثمّ بعد ذلك يواصل تناول بعض آخر بهذا الترتيب.

الآيات الحاليه، تتناول لونا آخر من منطق المشركين و كيفية تعاملهم مع رسول الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و دعوته الحقه.

يقول تعالى أولاً: وَإِذَا رَأَوْكَ إِذًا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَلَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (١).

وهكذا نجد هؤلاء الكفار يتعجبون! أي ادعاء عظيم يدعى؟ أي كلام عجيب يقول؟! إنها مهزله حقاً! لكن يجب ألا ننسى أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، كان هو ذلك الشخص الذي عاش بينهم أربعين عاماً قبل الرساله، وكان معروفاً بالأمانه والصدق والذكاء والدرايه، لكن رؤوس الكفر تناسوا صفاته هذه حينما تعرضت منافعهم الى الخطر، و تلقوا مسأله دعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بالرغم من جميع تلك الشواهد والدلائل الناطقه - بالسخرية والاستهزاء حتى لقد اتهموه بالجنون.

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا (٢).

لكن القرآن يجيبهم من عدّه طرق، ففي البدايه من خلال جمله واحده حاسمه يرد على مقولات هذه الفئه التي ما كانت أهلاً للمنطق: وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

يمكن أن يكون هذا العذاب إشاره إلى عذاب القيامة، كما قال بعض المفسرين مثل «الطبرسي» في مجمع البيان، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكره يوم «بدر» و أمثالها، كما قال «القرطبي» في تفسيره المعروف، ويمكن أن تكون الإشاره إليهما معا.

الملفت للنظر أنّ هذه الفئه الضاله في مقولتها هذه، وقعت في تناقض فاضح، فمن جهه تلقت النبي و دعوته بالسخرية، إشاره إلى أن ادعاءه بلا أساس ولا

ص: ٢٦١

١- ١) - «هزوا» مصدر، وجاء هنا بمعنى المفعول، وهذا الاحتمال وارد أيضاً و هو أن يكون مضافاً مقداراً (محل هزو)، أيضاً فالتعبير

ب «هذا» للتحقير و لتصغير النبي.

٢- ٢) - كلمه (إن) في إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا مخففة، للتوكيد، و في تقدير «إنه كاد» و ضميرها ضمير الشأن.

يستحق أن يؤخذ مأخذ الجد، و من جهة أخرى أنه لو لا تمسكهم بمذهب أجدادهم، فمن الممكن أن-يؤثر عليهم كلام النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و يضلّهم عن ذلك المذهب، و هذا يدل على أنّهم كانوا يعتبرون كلامه قويا و جديا و مؤثرا و محسوبا، و هذا المنطق المضطرب ليس غريبا عن هؤلاء الأفراد الحيارى اللجوجين.

و كثيرا ما يرى أنّ منكرى الحق حينما يقفون قبالة الأمواج المتلاطمه لمنطق القاده الإلهيين، فإنّهم يختارون أسلوب الاستهزاء تكتيكا من أجل توهينه و دفعه، في حين أنّهم يخالفون سلوكهم هذا في الباطن، بل قد يأخذوه بجديده أحيانا و يقفون ضده بجميع امكانياتهم.

الجواب القرآني الثاني على مقولاتهم ورد في الآية التي بعدها، موجهها الخطاب إلى النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم على سبيل المواساة و تسليه خاطر، و أيضا على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوه النبي من قبل أولئك، فيقول: أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فَهَلْ أَنْتَ قَادِرٌ مَعَ هَذَا الْحَالِ عَلَى هِدَايَتِهِ وَ الدِّفَاعِ عَنْهُ أَمْ أَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَ كَيْلًا .

يعنى إذا وقف أولئك أمام دعوتك بالاستهزاء و الإنكار و أنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأن منطقك ضعيف و دلائلك غير مقنعه، و في دينك شك أو ريبه، بل لأنهم ليسوا أتباع العقل و المنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، ترى أنت تنظر أن يطيعك هكذا أشخاص، أو تستطيع أن تؤثر فيهم؟! أقوال مختلفه للمفسرين الكبار في معنى جمله: أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ :

قال جماعة- كما قلنا آنفا-: إنّ المقصود أنّ لهم صنما، ذلك هو هواهم النفسى، و كل أعمالهم تصدر من ذلك المنبع.

في حين أنّ جماعة أخرى ترى أنّ المراد هو أنّهم لا يراعون المنطق بأى شكل فى اختيارهم الأصنام، بل إنّهم متى ما كانت تقع أعينهم على قطعه حجر، أو شجره جذابه، أو شىء آخر يثير هواهم، فإنّهم يتوهمونه «معبودا»، فكانوا يجثون

على ركبهم أمامه، و يقدمون القربان، و يسألونه حل مشكلاتهم.

و ذكر في سبب نزول هذه الآيه روايه مؤيده لهذا المعنى، و هى أن إحدى السنين العجاف مرّت على قريش، فضاق عليهم العيش، فخرجوا من مكّه و تفرقوا فكان الرجل إذا رأى شجره حسنه أو حجرا حسنا هو به فعبده، و كانوا ينحرون النعم و يلطخونها بالدم و يسمونها «سعد الصخره»، و كان إذا أصابهم داء فى إبلهم أغنامهم جاؤوا إلى الصخره فيمسحون بها الغنم و الإبل، فجاء رجل من العرب بإبل يريد أن يمسح بالصخره إبله و يتبرك بها، فنفرت إبله فتفرقت، فقال الرجل شعرا:

أتيت إلى سعد ليجمع شملنا

فشتتنا سعد فما نحن من سعد

و ما سعد إلا صخره مستويه

من الأرض لا تهدي لغيّ و لا رشد

و مرّ به رجل من العرب و الثعلب يبول عليه فقال شعرا:

و ربّ يبول الثعلبان برأسه

لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب (١)

التفسيران أعلاه لا منافاه بينهما، فأصل عباده الأصنام-التي هى وليده الخرافات -هو اتباع الهوى، كما أنّ اختيار الأصنام المختلفه بلا أى منطق، فرع آخر عن اتباع الهوى أيضا.

و سيأتى بحث مفصل فى الملاحظات الآتية، بصدد «اتباع الهوى و الشهوات» إن شاء الله.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثالث لهذه الفئه الضاله، هو قوله: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

يعنى لا- يؤذنيك استهزاؤهم و مقولا-تهم السيئه و غير المنطقيه أبدا، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، و يستخدم عقله، فيكون مصداقا لـ «يعقلون».

ص: ٢٦٣

أو أنه فاقد للعلم و لكنّه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً لـ «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من أولئك و لا من هؤلاء، و على هذا فلا فرق بينهم و بين الانعام.

و واضح أنه لا يتوقع من الأنعام غير الصياح و الرفس و الأفعال اللامنطقيه. بل هم أتعس من الأنعام و أعجز، إذ أن الأنعام لا تعقل و لا فكر لها، و هؤلاء لهم عقل و فكر، و تسافلوا إلى حال كهذه.

المهم هو أنّ القرآن يعتبر بـ «أكثرهم» هنا أيضاً، فلا يعمم هذا الحكم على الجميع، لأنه قد يكون بينهم أفراد مخدوعون واقعا، و حينما يواجهون الحق تنكشف عن أعينهم الحجب تدريجياً، فيتقبلوا الحق، و هذا نفسه دليل على أن القرآن يراعى الإنصاف في المباحث القرآنيه.

## بحثان

### اشاره

#### ١- اتباع الهوى و عواقبه الأليمه

لا- شك أنّ في كيان الإنسان غرائز و ميولا مختلفه، و جميعها ضرورى لإدامه حياته، الغيظ و الغضب، حب النفس، حب المال و الحياه الماديه، و أمثالها، و لا شك أنّ مبدع الوجود خلقها جميعا لذلك الهدف التكاملى.

لكن المهم هو أنّها تتجاوز حدها أحيانا، و تخرج عن مجالها، و تتمرد على كونها أداه طيعه بيد العقل، و تصرّ على العصيان و الطغيان، فتسجن العقل، و تتحكم بكل وجود الإنسان، و تأخذ زمام اختياره بيدها.

هذا هو ما يعبرون عنه بـ «اتباع الهوى» الذى هو أخطر أنواع عباده الأصنام، بل إن عباده الأصنام تنشأ عنه أيضاً، فليس عبثاً أن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم اعتبر صنم «الهوى» أعظم و أسوأ الأصنام، لذا

قال: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد

من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع». (١)

و نقرأ

في حديث آخر عن بعض أئمة الإسلام «أبغض إله عبد على وجه الأرض الهوى».

و إذا تأملنا جيدا في أعماق هذا القول، نعلم جيدا لماذا كان اتباع الهوى مصدر الغفلة، كما يقول القرآن: **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . (٢)**

و من جهة أخرى فإن اتباع الهوى منبع الكفر و عدم الإيمان، كما يقول القرآن **فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . (٣)**

و من جهة ثالثة فإن اتباع الهوى أسوأ الضلال، يقول القرآن الكريم: **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ . (٤)**

و من جهة رابعة فإن اتباع الهوى نقطه مقابله لطلب الحق، و يخرج الإنسان عن طريق الله، كما نقرأ في القرآن: **فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . (٥)**

و من جهة خامسة فإن اتباع الهوى مانع من العدل و الإنصاف كما نقرأ في القرآن: **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا . (٦)**

و أخيرا، فإن نظام السماء و الأرض إذا دار حول محور أهواء و شهوات الناس، فإن الفساد سوف يعم كل ساحه الوجود: **وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ . (٧)**

ص: ٢٦٥

١-١ - تفسير الدر المنثور، في ذيل الآيه مورد البحث، نقلا عن تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٥٧.

٢-٢ - سورة الكهف، الآيه ٢٨.

٣-٣ - سورة طه، الآيه ١٦.

٤-٤ - سورة القصص، الآيه ٥٠.

٥-٥ - سورة ص، الآيه ٢٦.

٦-٦ - سورة النساء، الآيه ١٣٥.

٧-٧ - سورة المؤمنون، الآيه ٧١.

و فى الروايات الإسلاميه أيضا، نلاحظ تعبيرات مؤثره فى هذا الصدد:

نقرأ

فى روايه عن على عليه السلام: «الشقى من انخدع لهواه و غروره». (١)

و

فى حديث آخر عنه عليه السلام، نقرأ أن: «الهوى عدو العقل». (٢)

نقرأ أيضا:

«الهوى أسّ المحن». (٣)

و

عنه عليه السلام: «لا دين مع هوى» (٤) و

«لا عقل مع هوى».

(٥)

و الخلاصه أن اتباع الهوى ليس من الدين و ليس من العقل، و ليس عاقبه اتباع الهوى إلا التعاسه و المحن و البلاء، و لا يثمر إلا المسكنه و الشقاء و الفساد.

أحداث حياتنا و التجارب المرّه التى رأيناها فى أيام العمر بالنسبه إلينا و إلى الآخرين، شاهد حى على جميع النكات التى وردت فى الآيات و الروايات أعلاه بصدد اتباع الهوى.

نرى أفرادا يتجرعون المراره إلى آخر أعمارهم، جزاء ساعه واحده من أتباع الهوى.

و نعرف شبابا صاروا أسارى مصيده الإدمان الخطير، و الانحرافات الجنسيه و الأخلاقية، على أثر انقيادهم للهوى، بحيث تحولوا إلى موجودات ذليله لا قيمه لها، و فقدوا كل قواهم و طاقاتهم الذاتيه.

فى التاريخ المعاصر و الماضى، نلتقى بأسماء الذين قتلوا آلافا و أحيانا ملايين من الناس الأبرياء، من أجل أهوائهم، بحيث أن الأجيال تذكر أسماءهم المخزيه بالسوء إلى الأبد.

هذا الأصل لا يقبل الاستثناء، فحتى العلماء و العبادون أهل السابقه مثل



- ١-١ - نهج البلاغه، الخطبه ٨٦.
- ٢-٢ - غرر الحكم، الجمله ٢٦٥.
- ٣-٣ - غرر الحكم، الجمله ١٠٤٨.
- ٤-٤ - غرر الحكم، الجمله ١٠٥٣١.
- ٥-٥ - غرر الحكم، الجمله ١٠٥٤١.

(بلعم بن باعورا) سقطوا من قمه العظمه الإنسانيه إلى الهاويه،نتيجة انقيادهم لهوى النفس،حيث يمثلهم القرآن بالكلب النجس الذى لا ينفك عن النباح(الآيه ١٧٦ سوره الأعراف).

لهذا فلا عجب أن

يقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم و أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان،اتباع الهوى و طول الأمل،أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق،و أما طول الأمل فينسى الآخره». (١)

وردت أيضا فى النقطة المقابله-يعنى ترك أتباع الهوى-آيات و روايات توضح عمق هذه المسأله من وجهه نظر الإسلام،إلى حد أن يعدّ مفتاح الجنه الخوف من الله،و مجاهده النفس: **وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**. (٢)

يقول على عليه السلام: «أشجع الناس من غلب هواه». (٣)

و قد نقلت قصص كثيره فى حالات محبى الحق و أولياء الله،و العلماء و العظماء،حيث نالوا المقامات العاليه نتيجة ترك أتباع الهوى،هذه المقامات لم تكن ممكنه بالطرق العاديه.

## ٢- لماذا أضلّ من الأنعام!؟

لتجسيد أهميه الموضوع فى الآيات أعلاه،يبين القرآن أولا:أن الذين اتّخذوا أهواءهم آلهه يعبدونها هم كالأنعام،و بعد ذلك يضيف مشددا:بل هم أضل! نظير هذا التعبير ورد أيضا فى الآيه(١٧٢)من سوره الأعراف فى أهل النار الذين يؤولون إلى هذا المصير نتيجة عدم الاستفاده من السمع و البصر و العقل،

ص: ٢٦٧

١-١) -سفينه البحار،ج ٢،ص ٧٢٨(ذيل ماده هوى)و نهج البلاغه،الخطبه ٢٨ و ٤٢.

٢-٢) -سوره النازعات،الآيه ٤٠.

٣-٣) -سفينه البحار،ج ١،ص ٦٨٩(ماده شجع).

يقول تعالى: أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .

(أضل) وإن كانت واضحة إجمالاً، لكن المفسرين قدموا بحوثاً جيدة في هذه المسألة، وهي -مع تحليل و إضافات:

١- إذا لم تفهم الأنعام شيئاً، وليس لها أذن سامعه و عين باصره، فذلك لعدم استعدادها الذاتى، لكن الأعجز منها الإنسان الذى تكمن فى وجوده خميره جميع السعادات، و الذى أفاض الله عليه قدراً عظيماً من الاستعدادات ليستطيع أن يكون خليفه الله فى الأرض، و لكن أفعاله الذميمة بلغت به حدّاً أسقطته عن مستوى الأنعام، و أذهبت كل لياقته هدرًا، و هوى من رتبه مسجود الملائكه إلى حضيض الشياطين الدليله. و هذا هو الأضل و المؤلم حقًا.

٢- الأنعام غير مسئوله تقريباً، و ليست مشموله بالجزاء الإلهي، فى حين أنّ البشر الضالين يجب عليهم أن يحملوا عبء كل أعمالهم على عواتقهم، ليروا جزاء أعمالهم بلا نقص أو زياده.

٣- تؤدى الأنعام للإنسان خدمات كثيره، و تنجز له أعمالاً مختلفه، أمّا طغاه البشر العصاه فلا تتأتى منهم أيه منفعه، بل يسببون آلافاً من البلاءات و المصائب.

٤- الأنعام لا- خطر منها على أحد، فإذا كان ثمة خطر منها، فخطر محدود، لكن الويل من الإنسان غير المؤمن، و المستكبر، عابد الهوى، الذى يؤجج أحياناً نار حرب يذهب ضحيتها الملايين من الناس.

٥- إذا لم يكن للأنعام قانون و منهج، فإنها تتبع مسارا عينه الله لها على شكل غرائز، فهى تتحرك على ذلك الخط. أمّا الإنسان المتمرد، فلا يعترف بقوانين تكوينيه و لا قوانين تشريعيه، و يعتبر هواه و شهواته حاكماً على كل شىء.

٦- الأنعام لا تبرير لديها لأعمالها أصلاً، فإذا خالفت فهى المخالفه، و إذا أرادت أن تمضى فى طريقها حين تمضى فذلك هو الواقع، أمّا الإنسان المتكبر

السفاك، عابد الهوى فكثيرا ما يبرر جميع جرائمه بالشكل الذى يدعى فيه أنه يؤدى مسئولياته الإلهيه و الإنسانيه.

و لهذا، فلا موجود أكبر خطرا و أشد ضررا من إنسان متبع للهوى، عديم الايمان و متمرد.

و لهذا و صمته الآيه (٢٢) من سوره الأنفال بلقب شرّ الدّوّابّ و كم هو مناسب هذا اللقب؟!!!

ص: ٢٦٩

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسًا وَالنُّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

التفسير

اشاره

حركة الظلال:

في هذه الآيات كلام في أقسام مهمه من النعم الإلهيه، على سبيل بيان أسرار التوحيد و معرفه الله، الأمور التي يزيدنا التفكر فيها معرفه بخالقنا و قربا منه، و مع الالتفات إلى أنّ المحاورات الكثيره في الآيات الماضيه كانت مع المشركين، تتضح صله و ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقه.

فى هذه الآيات، كلام فى نعمه «الضلال» ثم فى آثار و بركات «الليل» و «النوم و الاستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضى الموات» و «سقاياه» الأنعام و الناس.

يقول تعالى أولاً: أَلَمْ تَرِ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .

لا شك أنّ هذا الجزء من الآية إشارة إلى أهميه نعمه الظلال الممتده و المتحركه.

الظلال التى لا تثبت على حال، بل هى فى حركه و انتقال.

و لكن أى ظل هو المقصود بالآيه؟ ثمه أقوال فى أوساط المفسرين:

بعضهم يقول: هذا الظل الممتد و المنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر و قبل طلوع الشمس، و أنها الظلال و الساعات هى تلك، هذا النور الشفاف، و الظل المنبسط، يبدأ عند طلوع الفجر، يتلاشى عند طلوع الشمس حيث يأخذ مكانه الضياء.

و يرى البعض الآخر أن المقصود هو ظل الليل بأجمعه، الذى يبدأ من لحظه الغروب و ينتهى عند لحظه طلوع الشمس، لأننا نعلم أنّ الليل فى الحقيقه هو ظل نصف الكره الأرضيه المواجه للشمس، و هو ظل مخروطى يكون فى الطرف الآخر و منتشر فى الفضاء الواسع. و هذا الظل المخروطى فى حركه دائمه و مع طلوع الشمس على منطقه يزول عنها ليتشكل فى أخرى.

و قال آخرون: المقصود هو الظل الذى يظهر للأجسام بعد الظهر فينبسط شيئاً فشيئاً بالتدريج.

طبيعى، أنه لو لم تكن الجمل الآتيه، لكننا نفهم من هذه الجمله معنى واسعاً يشمل جميع الظلال الشاسعه، لكن سائر القرائن التى وردت على أثرها تدل على أن التفسير الأول أكثر تناسبا، لأنه تعالى يقول على أثر ذلك: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .

إشاره إلى أن مفهوم الظل لم يكن ليتضح لو لم تكن الشمس، فالظل من حيث الأصل يخلق بسبب ضياء الشمس، لأن «الظل» يطلق عادة على الظلمه الخفيفه اللون التي تظهر الأشياء فيها، و هذا فى حاله ما إذا أضاء النور جسما مانعا لنفوذ النور، فإن الظل يبدو فى الجبهه المقابله. بناء على هذا فليس تشخيص الظل يتم بواسطة النور طبقا لقاعده «تعرف الأشياء بأضدادها» فقط، بل إن وجوده أيضا من بركه النور.

بعد ذلك يبين تعالى: ثُمَّ إِنَّا نَجْمَعُهُ جَمْعًا وَيُودَا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا .

من المعلوم أن الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجيا، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماما فى بعض المناطق، لأنّ الشمس آنثذ تستقر تماما فوق رأس كل موجود، و فى مناطق أخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، و لهذا فالظل لا- يظهر و لا- يختفى دفعه واحده، و هذا نفسه حكمه الخالق، ذلك لأنّ الانتقال من النور إلى الظلمه بشكل فجائى يكون ضارا بجميع المخلوقات. لكن هذا النظام المتدرج فى هذه الحاله الانتقاليه له أكبر المنفعه بالنسبه إلى الموجودات، دون أن يكون له أى ضرر.

التعبير ب«يسيرا» إشاره إلى انقباض الظل التدريجى، أو إشاره إلى أن نظام النور و الظلمه الخاص، شىء يسير هين بالنسبه إلى قدره الخالق. و كلمه (إلينا) تأكيد على هذه القدره أيضا.

على أية حال، لا شك أن الإنسان كما يحتاج إلى أشعه «النور» فى حياته، فهو كذلك يحتاج إلى «الظل» لتعديل و منع «النور» أوقات اشتداده، فكما أنّ أشعه النور المستديمه تربك الحياه، كذلك فإنّ الظل الدائم الساكن مهلك أيضا.

فى الحاله الأولى تحترق جميع الموجودات، و فى الحاله الثانيه تنجمد جميعا، و لكن هذا النظام المتناوب من «النور» و «الظل» هو الذى يجعل الحياه ممكنه و سائغه للإنسان.

لذا فإن آيات قرآنيه أخرى تعدّ وجود الليل و النهار، الواحد تلو الآخر، من النعم الإلهيه العظيمة، ففي موضع يقول تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ، أَمْ فَلَا تَسْمَعُونَ . و يضيف مباشرة قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ فَلَا تُبْصِرُونَ . (١)

و يستنتج من هذا القول أنّ هذا النظام من رحمه الله الذي جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا و تستريحوا فيهما، و لتستفيدوا في تحصيل المعاش من فضله، و لعلكم تشكرون و مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (٢)

و لهذا يعد القرآن «الظل الممدود» إحدى نعم الجنّه، حيث لا نور معش مرهق، و لا ظلمه موحشه.

بعد ذكر نعمه الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الداله على وجود الله، يقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .

كم هو تعبير جميل و رائع جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا... هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض و يحفظها كاللباس، و يلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثمّ يشير تعالى إلى نعمه النوم وَ النَّوْمَ سُبَاتًا .

«السبات» في اللغة من «سبت» (على وزن وقت) بمعنى القطع، ثمّ جاء بمعنى تعطيل العمل للاستراحه، و لذا فإنّ أوّل أيام الأسبوع يسمونه في لغه العرب «يوم السبت» و هي تسميه أخذت من طريقه اليهود، لأنّه يوم تعطيلهم.

ص: ٢٧٣

١ - ١) - القصص، ٧١ و ٧٢.

٢ - ٢) - القصص، ٧٣.



هذا التعبير- فى الحقيقه- إشاره إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانيه أثناء النوم، لأننا نعلم أن قسما مهما من الأفعال البدنيه يتوقف كليا فى حال النوم، و قسما آخر مثل عمل القلب و جهاز التنفس يؤدي عمله بصورة وئيده جدّا، و يستمر بصورة أكثر هدوء كيما يرتفع التعب و تتجدد القوى.

النوم فى وقته و بحسب الحاجه إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، و باعث للنشاط و القوّه، و أفضل وسيله لهدوء الأعصاب، بعكس الأرق خصوصا لفته طويله-فهو ضار جدّا و قد يؤدي الى الموت أيضا. و لهذا فإنّ قطع برنامج النوم واحد من أهم أساليب التعذيب حيث يحطم كل مقاومه الإنسان بسرعه.

و فى ختام الآيه، أشار تعالى إلى نعمه «النهار» فقال تعالى: **وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا**.

كلمه «النشور» فى الأصل من النشر بمعنى البسط، فى مقابل الطي و ربّما كان هذا التعبير إشاره إلى انتشار الروح فى أنحاء البدن، حين اليقظه التى تشبه الحياه بعد الموت، أو إشاره إلى انتشار الناس فى ساحه المجتمع، و الحركه للمعاش على وجه الأرض. نقرأ

فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه كان يقول كل صباح:

«الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور». (١)

فضياء النهار من حيث روح و جسم الإنسان باعث على الحركه حقّا، كما أن الظلام باعث على النوم و الهدوء.

فى عالم الطبيعه أيضا، فإنّ الحركه و النشاط تشمل جميع الموجودات الحيه و يستجد انبعاث فيها بمجرّد سطوع أوّل اشعه للشمس، فينطلق كل واحد منها إلى سبيله، و حتى النباتات تتنفس و تتغذى و تنمو و تنضج أمام النور، أمّا عند مغيب الشمس، فكأن الطبيعه تنفخ فى صور انتهاء العمل و السكون، الطيور تؤوب إلى

ص: ٢٧٤

أو كارها، الموجودات الحيه تفيء إلى الاستراحه و النوم، حتى النباتات تغطّ في نوع من النوم.

بعد بيان هذه المواهب العظيمه-التي هي أهم ركائز الحياه الإنسانيه-يتناول القرآن الكريم موهبه أخرى مهمه جدًا فيقول: وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا.

لا يخفى أن دور الرياح هو أنها الطلائع المتقدمه لنزول الرحمه الإلهيه، وإلا فلن تنزل قطره مطر على الأرض العطشى أبدا.

صحيح أن ضياء الشمس يبخر ماء البحار فيتصاعد في الفضاء، و تراكم هذه الأبخره في طبقه عليا بارده يشكل الغيوم الممطره، و لكن إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم الثقله من أعالي المحيطات باتجاه الأراضي اليابسه، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر و ستهطل على نفس ذلك البحر.

و الخلاصه أن وجود بشائر الرحمه هذه، التي تتحرك بشكل دائم في كل ارجاء الأرض، سبب رواء الجفاف على الأرض، و نزول المطر الباعث على الحياه و تشكيل الأنهار و العيون و الآبار، و نمو أنواع النباتات.

إنّ قسما من هذه الرياح المتقدمه لقطعاعات الغيوم، في حركتها و امتزاجها برطوبه ملائمته، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحه المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي ينبئ عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير ب«الرياح» بصيغه الجمع لعله إشاره إلى أنواع مختلفه منها، فبعض شمالي، و بعض جنوبي، و بعض يهب من الشرق إلى الغرب، و منها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سببا في انتشار الغيوم في كل الآفاق. (1)

المهم هنا هو أن «الماء» قد وصف ب«الطهور» التي هي صيغه مبالغه من

ص: ٢٧٥

---

١ - ١) - يجب الانتباه إلى أنّ «بشرا» - بسكون الشين مخفف - «بشرا» - بضم الشين - الذي هو جمع «بشور» (على وزن قبول) بمعنى مبشر و بشير.

الطهاره و النقاء و لهذا فمفهوم الطهاره و التطهير يعنى أن الماء طاهر بذاته، و يطهر الأشياء الملوثة... ثمه أشياء كثيره غير الماء طاهره، و لكنّها لا تستطيع أن تكون مطهره لغيرها! و على أيه حال، فمضافا إلى خاصيه الإحياء، فإنّ للماء خاصيه كبيره الأهميه هي التطهير، فلو لا الماء فإنّ أجسامنا و نفوسنا و حياتنا تتسخ و تتلوث فى ظرف يوم واحد و الماء و إن لم يكن قاتلا للميكروب عادة، و لكنّه يستطيع إزالتها و طردها بسبب خاصيته الفذه (الإذابه). و من هذه الناحيه فإنّه يقدم مساعده مؤثره جدّا فى مسأله سلامه الإنسان و مكافحه أنواع الأمراض.

مضافا إلى أن تنقيه الروح من التلوث بواسطه الغسل و الوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح و الجسم معا.

لكن خاصيه التطهير هذه مع ما لها من الأهميه، اعتبرت فى الدرجه الثّانيه، لذا يضيف القرآن الكريم فى الآيه التى بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا (١).

و أيضا وَ نُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْعَامًا كَثِيرًا .

## ملاحظات

### إشارة

### و هنا ملاحظات مهمه:

١- فى هذه الآيه ورد الكلام عن الأنعام و الأناسى الكثيره مع أن جميع الناس و الحيوانات تستفيد من ماء المطر!! هذه إشارة إلى البدو الرحل و ساكنى الخيام الذين ليس لديهم ماء مطلقا

ص: ٢٧٤

١ - ١) - ينبغى الالتفات إلى أن «بلده» هنا بمعنى الصحراء، و مع أنّ هذا اللفظ مؤنث، فصفته التى هي «ميتا» ووردت بصيغه المذكر، ذلك لأن المراد بالمعنى «المكان» و هو مذكر.

سوى ماء المطر حيث يستفيدون منه مباشرة، هذه النعمة الكبيره محسوسه لديهم أكثر فحينما تظهر السحب فى السماء و يمتل عليهم المطر، و تمتلئ الأراضى المنخفضه من ماء المطر الزلال، فيرتوون منه و يسقون أنعامهم، و يشعرون بنشاط الحياه يدب فى وجودهم و وجود أنعامهم.

٢- جمله «نسيه» من ماده «إسقاء» و فرقتها عن «سقى» كما قال الراغب فى المفردات و آخرون من المفسرين، هو أنّ الإسقاء بمعنى تهيئه الماء و جعله للسقايه، ليشرب منه الإنسان متى أراد، فى حين أن ماده «سقى» بمعنى أن يعطى من يريد الماء حتى يشرب، و بعبارة أخرى فإن الإسقاء له معنى أوسع و أعم.

٣- فى هذه الآيه، ورد الكلام أولاً عن الأراضى الميتة، ثم الأنعام ثم الأناسى، و هذا التعبير ربّما كان لأن الأراضى إذا لم تحى بالمطر، فلن يكون للأنعام طعام، و إذا لم تعش الأنعام، فلن يستطيع الإنسان إن يتعدى منها.

٤- طرح مسأله الإحياء بالماء بعد مسأله التطهير، قد يكون إشاره إلى الارتباط الوثيق بين هاتين المسألتين (حول آثار الإحياء بالماء، ثم بحث مفصل فى ذيل الآيه ٣٠ سورة الأنبياء).

فى الآيه الأخيره- مورد البحث- يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفه و مؤثره ليتذكروا و ليتعرفوا من خلاله على قدره الخالق، لكن كثيرا من الناس لم يتخذوا موقفا إزاء ذلك إلا الإنكار و الكفران:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

و إن أرجع كثير من المفسرين مثل العلامة الطبرسى فى تفسيره، و الشيخ الطوسى فى تفسير التبيان، و العلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان و آخرين، الضمير فى جمله «صرفناه» إلى المطر، حيث يكون مفهومها هكذا: أنزلنا المطر فى جهات و مناطق مختلفه من الأرض، و وزعناه بين الناس ليتذكروا هذه النعمة العظمى.

لكن الحق أن هذا الضمير يرجع إلى القرآن و آياته، لأن هذا التعبير (بصيغه الفعل الماضى و المضارع)ورد فى عشره مواضع من القرآن المجيد، حيث أرجع فى تسعه مواضع إلى آيات القرآن و بياناته صراحه، و أتبع بجمله «ليذكروا» أو ما يشابهها فى موارد متعدده. على هذا فمن البعيد جدا أن يأخذ هذا التعبير مفهوما آخر فى هذا المورد الواحد.

و من حيث الأصل فإن «تصريف» التى هى بمعنى التحويل من حال إلى حال، ليس لها تناسب كثير مع نزول المطر، فى وقت هى أكثر تناسبا مع آيات القرآن التى تأتى فى أنحاء مختلفه، أحيانا بصوره وعد، و أحيانا بصوره أمر، و أخرى بصوره نهى، و أحيانا بصوره قصص الماضين.

اشاره

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطْعُمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

التفسير

اشاره

بحران متجاوران:عذب فرات و ملح أجاج:

الآيه الأولى-مورد البحث-أشارت إلى عظمه مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقول تعالى:

لو أردنا لبعثنا نبيا في كل مدينه و بلد، لكننا لم نفعل هذا و ألقينا مسئوليته هدايه العالمين على عاتقك: وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا .

كما أنّ الله عزّ و جلّ-طبقا للآيات السابقه-قادر على إرسال قطرات المطر الباعث على الحياه إلى كل الأراضى الميته،فله القدره أيضا على إنزال الوحي

و النبوه على قلب نبى في كل قريه،و أن يبعث لكل أمه نذيرا،لكن الله يختار لعباده ما هو أصلح،لأن تمرکز النبوه في وجود فرد واحد يكون باعثا على وحده و انسجام الناس،و مانعا من كل فرقه و تشتت.

و يحتمل أن بعض المشركين أوردوا هذا الاشكال و هو: ألم يكن من الأفضل أن يبعث الله نبيا في كل مدينه و قريه؟! لكن القرآن يقول في ردّهم: لو أراد الله ذلك لفعل،لكن هذا التشتت ليس في صالح الأمم و الشعوب قطعا.

و على أيه حال،فكما أن هذه الآيه دليل على عظمه مقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم،فهى دليل كذلك على وجوب وحده القائد،و على ثقل عبء مسؤوليته.

و بنفس هذا الدليل،يبين الله تبارك و تعالى في الآيه التاليه،أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أولا إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم و يقول: **فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ** .

لا- تخط أيه خطوه على طريق التوافق مع انحرافاتهم،فإنّ التوافق مع المنحرفين آفه الدعوه إلى الله،قف أمامهم بقوه،واسع إلى إصلاحهم،لكن كن حذرا و لا تتسلم لأهوائهم و خرافاتهم.

أما القانون الثانی فهو:جاهد أولئك بالقرآن: **وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** .

جهادا كبيرا بعظمه رسالتك،و بعظمه جهاد كل الأنبياء الماضين،الجهاد الذى يشمل جميع الأبعاد الروحيه و الفكرية للناس،و يشمل كل الأصعدة الماديه و المعنويه.

لا شك أن المقصود من الجهاد فى هذا الموضع هو الجهاد الفكرى و الثقافى و التبليغى و ليس الجهاد المسلح،ذلك لأن هذه السوره مكيه،و الأمر بالجهاد المسلح لم يكن قد نزل فى مكه.و على قول العلامة«الطبرسى»فى مجمع البيان، أن هذه الآيه دليل واضح على أنّ الجهاد الفكرى و التبليغى فى مواجهه وساوس

روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

و ربّما كان هذا الحديث إشارة إلى نفس هذا الجهاد و إلى عظمه ما يؤديه العلماء فى التبليغ بالدين، هذا التعبير يجسد أيضا عظمه مقام القرآن، ذلك لأنه وسيله هذا الجهاد الكبير و سلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانيه و استدلاله و تأثيره العميق و جاذبيته فوق تصور و قدره البشر.

الوسيله المؤثره و الواضحه كوضوح الشمس و ضياء النهار، و المطمئنه كطمأنينه ستائر الليل، و المحركه كحركه الرياح الخلاقه، و العظيمه بعظمه الغيوم و فيما تبته قطرات المطر من حياه، حيث أشارت إلى ذلك الآيات السابقه.

و بعد فاصله و جيزه، يتناول القرآن الكريم مجددا الاستدلال على عظمه الخالق عن طريق بيان نعمه فى النظام الكونى، فيشير بعد ذكر المطر فى الآيات السابقه إلى عدم الاختلاط بين المياه العذبه و المالحه: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَحْجُورًا.

«مرج» من ماده «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، و هنا بمعنى المجاوره بين الماء العذب و المالح.

«عذب» بمعنى سائغ و طيب و بارد، و «فرات» بمعنى لذيذ و هنيء.

«ملح» بمعنى مالح، و «أجاج» بمعنى مرّ و حار. (بناء على هذا فملح و أجاج نقطتان مقابلتان لعذب و فرات).

«برزخ» بمعنى حجاب و حائل بين شيئين.

و جمله حِجْرًا مَحْجُورًا كما أشرنا سابقا (ذيل الآيه ٢٢ من هذه السوره) كانت جمله لاخذ الأمان بين العرب يقولونها عند ما يفاجؤون بشخص يخافونه و يرهبونه، يعنى (أعف عنا، و آمنا، و ابتعد عنا).

على أيه حال، فهذه الآيه تصور واحدا من المظاهر المدهشه لقدرة الخالق



فى عالم مخلوقاته، و كيف يستقر حجاب غير مرئى، و حائل خفى بين البحر المالح و البحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

و قد اتضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئى، هو ذلك «التفاوت بين كثافه المالح و العذب» و فى الاصطلاح «تفاوت الوزن النوعى» لهما، حيث يكون سببا فى عدم امتزاجهما إلى مده طويله.

و رغم أنّ جماعه من المفسيّرين وقعوا فى تعب من أجل اكتشاف مثل هذين البحرين فى الكره الأرضيه و أين يوجد بحر عذب الماء فى جوار بحر مالح الماء و لا يمتزجان؟! لكن هذه المشكله انحلت لنا، لأننا نعلم أن جميع أنهار الماء، العذب العظيمه التى تصب فى البحار عند الساحل، تشكل بحرا من الماء العذب، فتدفع المياه المالحه إلى الخلف، و يستمر هذا الوضع إلى مده طويله، و بسبب التفاوت فى كثافتهما يمتنعان عن الامتزاج مع بعضهما، فكل واحد منهما يقول للآخر: حجراً مَحْجُوراً .

الملفت هو أنّ سطح البحر يرتفع و ينخفض بمقدار كبير بسبب المد و الجزر اللذين يحصلان مرّتين فى اليوم بتأثير جاذبيه القمر و بذلك تغمر المياه العذبه التى شكلت بحرا اليابسه فى مصبات تلك الأنهار و أطرافها، و قد استفاد الناس من هذه الحاله منذ قديم الزمان، فحفروا جداول كثيره فى أطراف ملتقى الأنهار مع البحر، و زرعوا أراض شاسعه بالأشجار، حيث تتم سقايتها بنفس ذلك الماء العذب الذى ينتشر فى مناطق واسعه بواسطه المد و الجزر.

توجد حتى الآن فى جنوب العراق و إيران ملايين من أشجار النخيل، و قد شاهدنا عن قرب أنّ قسما منها يسقى فقط بهذه الوسيله، و يقع على بعد كبير من ساحل البحر، و أحيانا يتغلب الماء المالح حيث تقل المياه التى تصبها الأنهار الكبيره فى البحر فى السنين المجديه، فيقلق المزارعون من أهل هذه المنطقه، لأنّ ذلك يضرب بزراعتهم ضررا بالغا.

لكن العاده ليست كذلك، فهذا الماء «العذب الفرات» المستقر إلى جوار الماء «المالح و الأجاج» يعدّ ذخيره عظيمه لهم.

معلوم أن وجود العلل الطبيعیه فی مثل هذه المسائل لا يقلل من قيمتها أبدا، و إلا فما هي الطبيعیه؟ ليست هي إلا فعل الله و إرادته و مشيئته، و هو تعالى الذي منح هذه الخواص لهذه الموجودات.

و الملفت للنظر أنّ الإنسان حينما يجتاز هذه المناطق بالطائر، يرى جيدا هذان الماءان المختلفان في اللون، غير الممتزجين، فيذكر هذا المشهد الإنسان بهذه النكته القرآنيه.

إنّ جعل هذه الآيه وسط آيات تتعلق ب «الكفر» و «الإيمان» ربّما تكون أيضا إشاره و تمثيلا لهذا الأمر، ففي المجتمع الواحد أحيانا، و في المدينة الواحد، بل حتى في البيت الواحد أحيانا، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب و الفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج... مع طرازين من الفكر، و نوعين من العقيدته، و نمطين من العمل، طاهر و غير طاهر، دون أن يمتزجا.

في الآيه التاليه -بمناسبه البحث في نزول المطر، و في البحرين العذب و الأجاج المتجاورين يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .

حقا إن النحت في الماء، و خلق صورته بديعه كهذه على الماء، دليل على عظمه قدره الخالق، و كان الكلام في الآيات السابقه حول إحياء النباتات بواسطه المطر، و الكلام -هنا عن مرحله أعلى، يعني خلق الإنسان من الماء.

و بين المفسرين أقوال في المراد من الماء هنا:

ذهب جماعه أنّ المقصود من «بشر» هو الإنسان الأول، يعني آدم عليه السّلام، ذلك لأنّ خلقه كان من «طين» يعني عجينا من ماء و تراب، إضافة إلى أن الماء كان أول موجود خلقه الله تعالى طبقا للروايات الإسلاميه، و خلق الإنسان من ذلك الماء،

و تنكير «بشر» شاهد على هذا المعنى.

و ذهب جماعه آخرون أن المقصود من «الماء» هو ماء النطفه، حيث يتكون جميع الناس منه بقدره الخالق، و مع امتزاج نطفه الرجل «الحيمن» الذى يسبح فى الماء مع «البويضه» نطفه المرأه، تتكون أول نواه لحياه الإنسان، يعنى الخليه الإنسانيه الحيه الأولى.

لو تدبّر الإنسان و تأمل فى مراحل انعقاد النطفه من بدايتها إلى نهايتها، فسيشاهد الكثير من آيات عظمه الحق و قدره الخالق فيها، حيث تكفى وحدها لمعرفة ذاته المقدسه تبارك و تعالى.

الشاهد على هذا التفسير، جملة وردت فى آخر الآيه، و سنشرحها فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا .

فضلا عن هذا، فلا شك أنّ الماء يشكل القسم الأكبر من وجود الإنسان، بالصوره التى يمكن القول أنّ ماده الأساس لوجود أى إنسان هى الماء، لهذا فإن مقاومه الإنسان إزاء العطش قليله جدّا، فى حين يستطيع الإنسان أن يقاوم أيّاما و أسابيع حيال قلّه المواد الغذائيه.

و يحتمل قويا أيضا، أنّ جميع هذه المعانى تجتمع فى مفهوم الآيه، أى أن الإنسان الأوّل خلق من ماء، و أن تكوّن جميع أفراد البشر من ماء النطفه أيضا، و أن الماء يشكل أهم ماده فى بناء جسم الإنسان أيضا... الماء الذى يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل!؟ و هذا دليل بيّن على قدرته تبارك و تعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الإنسان، فيقول:

فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا

المقصود من «النسب» هو القرابه التى تكون بين الناس عن طريق الذريه و الولد، مثل ارتباط الأب و الابن، أو الإخوه بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من

«صهر» التي هي في الأصل بمعنى «الختن» هو الارتباط الذي يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل ارتباط الإنسان بأقرباء زوجته، و هذان الاثنان هما ما يعبر عنه الفقهاء في مباحث النكاح بـ «النسب» و «السب».

في القرآن المجيد في سورة النساء، أشير إلى المحارم النسبية النسب في سبعة موارد (الأم، البنت، الأخت، العمه، الخاله، بنت الأخ، بنت الأخت) و إلى المحارم السببية في أربعة موارد (بنت الزوجه، أم الزوجه، زوجة الابن، زوجة الأب).

من المؤكد أن هناك وجهات نظر أخرى لدى المفسرين في تفسير هذه الجملة، لكن ما قلناه أوضح و أقوى من جميعها.

فمن جملتها أن جماعه منهم اعتبروا «النسب» بمعنى أولاد الابن، و «الصهر» بمعنى أولاد البنت، ذلك لأن الارتباط النسبي يحسب على أساس الآباء لا على أساس الأمهات.

و كما قلنا بشكل مفصل في ذيل الآية (٦١) من سورة آل عمران - فإن هذا اشتباه كبير، استمد من سنن أيام ما قبل الإسلام، حيث اعتبروا النسب عن طريق الأب فقط، و ليس للأم أي أثر، في حين أن من المسلمات في الفقه الإسلامي و بين جميع علماء الإسلام أن الحرمة النسبية من ناحية الأب و من ناحية الام أيضا (و لزياده الاطلاع، راجع التفسير ذيل الآية (٦١) من سورة آل عمران).

و الجدير بالذكر، أن لدينا حديثا معروفا، نقل في كتب الشيعة و السنه، و طبقا لهذا الحديث فإن الآية أعلاه نزلت في النبي صلى الله عليه و آله و سلم و على عليه السلام، و ذلك أن النبي زوج ابنته فاطمه من على عليهما السلام، و لهذا فقد كان على عليه السلام ابن عم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و زوج ابنته أيضا، و هذا معنى «نسبا و صهرا». (١)

ص: ٢٨٥

و لكن هذه الروايات تعتبر بيان للمصاديق الواضحه، و لا تقدرح بعموميه مفهوم الآيه، فالآيه تشمل كل ارتباط يكون عن طريق النسب و المصاهره، و أحد مصاديقها الواضحه كان ارتباط على عليه السلام من جهتين مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

في ختام الآيه يقول تبارك و تعالى بصيغه التأكيد على المسائل الماضيه:

وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا

و يبين القرآن الكريم في نهايه المطاف في الآيه الأخيره-مورد البحث- انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسه بين قدره الأصنام و قدره الخالق، حيث مرّت نماذج منها في الآيات السابقه، يقول: وَ يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ .

من المسلم أنّ وجود المنفعه و الضرر لا يكون وحده معيار العباده، لكن القرآن يبين من خلال هذا التعبير هذه النكته، و هي أنّهم يفتقدون آيه حجه في هذه العباده، لأنّ الأصنام موجودات عديمه الخاصيه تماما، و فاقدده لأيه قيمه، و لأى تأثير سلبي أو إيجابي.

و يضيف القرآن الكريم في ختام الآيه أن الكفره يعين بعضهم بعضا في مواجهه خالقهم «في طريق الكفر» وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَاهِرًا .

إن هؤلاء ليسوا وحدهم في طريق الضلال، إنهم يقوى بعضهم بعضا بشكل قاطع، و يعبثون القوى و يقيمون العراقيل ضد دين الله و نبئه و المؤمنين الحقيقيين.

و إذا رأينا أن بعض المفسرين يحصر «الكافر» الوارد في هذه الآيه في «أبي جهل» فمن باب ذكر المصداق البارز، و إلا فإنّ الكافر في كل مورد له معنى واسع يشمل جميع الكفار.

## ١- وحدة القيادة

فى الآيه الأولى-مورد البحث-قرأنا قوله تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا** ولكننا لم نفعّل مثل هذا...و من المسلم أن عله ذلك لأن الأنبياء قادة الأمم،و نعلم أن التعدد فى مسأله القيادة يؤدى إلى إضعاف كل أمه و شعب،خاصه و أن الكلام هنا عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله و سلم،و يجب أن تستمر هذه القيادة حتى نهايه العالم.لذا تتضح-أكثر-أهميه التمرکز و الوحده فى القيادة.

القائد الواحد يستطيع أن يوحد جميع القوى،و يمنحها الانسجام و الوحده.

و فى الحقيقه فإن مسأله وحده القيادة انعكاس لحقيقه التوحيد فى المجتمع الإنسانى،و يكون فى النقطه المقابله ظواهر الشرك و التفرقه و النفاق.

و ما ورد فى الآيه(٢٤) من سوره فاطر: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا - خَلَا - فِيهَا نَذِيرٌ** فليس ثمه منافاه مع البحث أعلاه،لأن الكلام فيها عن الأمم،لا أهل كل مدينه و كل بلد.

فلو أغمضنا النظر عن مقام الأنبياء،فإن هذا الأصل صحيح أيضا حتى فى أدنى مستويات القيادة، و الشعوب التى صارت أسيره التعدد فى القيادة،انتهت إلى التجزئه فى سائر شؤونها،فضلا عن الضعف و العجز.

## ٢- القرآن وسيله الجهاد الكبير

«الجهاد الكبير»تعبير بليغ عن أهميه منهج الكفاح الرّبانى البّناء.

الملفت للانتباه فى الآيات أعلاه،هو أنّ هذا العنوان قد أعطى للقرآن،أو بعبارة أخرى:للأشخاص الذين يجاهدون بالقرآن مظاهر الضلال و الانحرافات و التلوثات.

هذا التعبير يبيّن المواجهات المنطقيه و العقائديه من جهه،و يكشف عن

عظمه مقام القرآن من جهه أخرى.

ورد فى بعض الزوايات: أنّ أبا سفيان بن حرب و أبا جهل بن هشام، و الأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفى حليف بنى زهره...خرجوا ليلاه ليستمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يصلى من الليل فى بيته. فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، و كل لا- يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، و قال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا! ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليله الثانيه عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مره! ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليله الثالثه أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود! فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: أخبرنى -يا أبا حنظله- عن رأيك فيما سمعت من محمّد. فقال: يا أبا ثعلبه، و الله لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء ما عرفت معناها، و لا ما يراد بها.

قال الأخنس: و أنا و الذى حلفت به.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، و حملوا فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، و كنا كفرسى رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ و الله لا تؤمن به أبدا و لا نصدقها!!

ص: ٢٨٨

قال: فقام عنه الأخنس و تركه. (١)

نعم، جاذبيه القرآن ردت هؤلاء إلى أنفسهم ليالى متواليه، و كانوا حتى بياض الصبح غرقى هذه الجاذبيه الإلهيه، لكن التكبر و التعصب و الحرص على المصالح الماديه كان مسلطا عليهم بحيث منعهم من قبول الحق.

و لا شك أنّ هذا النور الإلهي له هذه القدره على أن يجذب إليه كل قلب مستعد أينما كان، و لهذا كان القرآن و سيله «الجهاد الكبير» فى الآيات مورد البحث.

ص: ٢٨٩

---

١-١) - سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧، و فى ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٧٢.



إشاره

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِعْدُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلْ بِهِ خَيْرًا (٥٩)

التفسير

إشاره

أجرى هو هدايتكم:

كان الكلام فى الآيات السابقه حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تضرّ و لا تنفع، و فى الآيه الحاليه الأولى يشير القرآن إلى مهمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم قباله هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. (١)

ص: ٢٩٠

١- ١) -«نذير» فى اعتقاد البعض صيغه مبالغه، فى حين أنّ «مبشر» اسم فاعل فقط، هذا التفاوت التعبيرى يمكن أن يكون بسبب أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان فى مواجهه فئه بلا إيمان و كان لها إصرار بالغ على انحرافها، فلا بد أن يبالغ فى إنذارها. (روح المعانى ذيل الآيه مورد البحث).

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أدت مهمتك في البشارة والإنذار، ودعوت القلوب المستعدة إلى الله.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمته النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كذلك يسليته، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاه بهم.

ثم يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم أننى لا أريد منكم فى مقابل هذا القرآن و ابلاغكم رساله السماء أى أجر و عوض: قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ثُمَّ يَضِيف: إن الأجر الوحيد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق الله إلا من شاء أن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

يعنى أجرى و جزائى هو هدايتكم فقط، و بكامل الإراده و الإختيار أيضا، فلا إكراه و لا إجبار فيه، و كم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غايه لطف و محبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأتباعه، ذلك لأنه عدّ (١) أجره و جزاءه سعادتهم.

بديهي أن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أجرا معنويا عظيما على هدايه الأمم، ذلك لأن «الذال على الخير كفاعله».

و ذكر المفسرون احتمالات أخرى أيضا فى تفسير هذه الآيه من جملتها:

يرى جماعه من المفسرين أن معنى هذه الآيه هكذا «أنا لا أريد منكم أى جزاء إلا ما أردتم من إنفاق الأموال على المحتاجين فى سبيل الله، و ذلك مرتبط برغبتكم». (٢)

لكنّ التفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآيه.

اتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الضمير فى «عليه» يرجع إلى القرآن و تبليغ دين الإسلام، لأنّ الكلام كان فى عدم المطالبه بالأجر و الجزاء فى مقابل هذه الدعوه.

هذه الجملة بالإضافه إلى أنّها تقطع حجج المشركين، فهى توضح أن قبول

ص: ٢٩١

١- ١) -بناء على هذا فالاستثناء فى الآيه أعلاه «استثناء متصل» و إن بدا منقطا لأول وهله.

٢- ٢) -الاستثناء فى هذه الحاله «استثناء منقطع».

هذه الدعوه الإلهيه سهل و يسير جدًا لكل أحد، بلا مشقّه و لا خساره.

و هذا بنفسه شاهد على صدق دعوه النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و نقاء فكره و منهجه، و ذلك لأنَّ الأدعياء الكاذبين لا بدَّ أن يدخلوا فى هذا العمل رغبتهم فى الأجر و الجزاء بصوره مباشره أو غير مباشره.

و تبين الآيه التى بعدها المعتمد الأساس للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .

فمع هذا المعتمد و الملجأ و المولى الذى ما زال و لن يزال حيا دائما، فلا حاجه لك بأجر و جزاء هؤلاء، و لا خوف عليك من ضررهم و مؤامراتهم.

و الآن حيث الأمر على هذه الصوره فسبح الله تنزيها له من كل نقص، و أحمده إزاء كل هذه الكمالات وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ .

من الممكن اعتبار هذه الجملة بمنزله التعليل للجملة السابقه، لأنَّ تعالى هو المنزّه من كل عيب و نقص، و أهل لكل كمال و جمال، و حقيق بالتوكل عليه.

ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان و مؤامرات الأعداء، لأنَّ الله مطلع على ذنوب عباده و سيحاسبهم: وَ كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا .

الآيه التاليه بيان لقدرة الخالق فى ساحه عالم الوجود، و وصف آخر لهذا الملاذ الأمين، يقول تعالى: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ فَأَخَذَ بِتَدْبِيرِ الْعَالَمِ .

إنَّ من له هذه القدره الواسعه يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر و حادثه، فكما أنَّ خلق العالم كان بواسطه قدرته، كذلك فإنَّ إداره و قياده و تدبير ذلك العالم بأمر ذاته المقدسه.

ضمنا، فإنَّ خلق العالم بشكل تدريجى إشاره إلى أنَّ الله لا يعجل فى أى عمل، فإذا لم يجاز أعداءك سريعا، فلاجل أن يمنحهم الفسحه و الفرصه حتى يأخذوا بإصلاح أنفسهم، فضلا عن أن من يعجل هو من يخاف الفوت، و هذا غير

متصور بالنسبة إلى الله القادر المتعال.

في مسأله خلق عالم الوجود في ستة أيام، فإنَّ «اليوم» في مثل هذه الموارد بمعنى «المرحلة»، أو الفتره الزمنيه و هذه الفتره من الممكن أن تستغرق ملايين أو مليارات من السنين، و شواهد هذا المعنى في الأدب العربى و غيره كثيره، بحثناه بشكل مفصل في تفسير الآيه (٥٤) من سوره الأعراف، و شرحنا هناك هذه المراحل الست.

و أيضا فإنَّ معنى «العرش» و جملة إِسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وردت هناك أيضا.

و في ختام الآيه يضيف تعالى: الرَّحْمَنُ: من شملت رحمته العامه جميع الموجودات، فالمطيع و العاصى و المؤمن و الكافر يغترفون من خوان نعمته التى لا انقطاع فيها.

و الآن، حيث ربك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئا فاطلب منه فإنه المطلع على احتياجات جميع عباده: فَسْئَلُ بِهِ خَيْرًا .

هذه الجملة- فى الحقيقة- نتيجة لمجموع البحوث السابقه. يأمر الله النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: أعلن لهم أنني لا أريد منكم أجرا، و توكل على الله الجامع لكل الصفات، القادر، و الرحمن، و الخبير، و المطلع، و أطلب منه أى شىء تريده.

للمفسرين أقوال أخرى فى تفسير هذه الجملة، فقد جعلوا السؤال هنا بمعنى الاستفهام (لا الطلب)، و قالوا: إن مفهوم الجملة هو: إذا أردت أن تسأل فى موضوع خلق الوجود و قدره الخالق، فاسأله هو، فهو العالم بكل شىء.

بعض آخر، بالإضافة إلى أنهم فسروا «السؤال» ب«الاستفهام» قالوا: إن المقصود ب«الخبير» جبرئيل، أو النبى، يعنى: أسألها عن صفات الله.

التفسير الأخير بعيد جدًا بالتأكيد، و ما قبله أيضا غير متناسب كثيرا مع الآيات السابقه، و الأقرب هو ما قلناه فى معنى الآيه من أن المقصود من السؤال

## مسألان

### إشاره

#### ١- أجر الرساله

نقرأ فى كثير من آيات القرآن أنّ أنبياء الله كانوا يبينون هذه الحقيقه بصراحه:

إننا لا نسأل أى أجر من أى أحد، بل إنّ أجرنا على الله العظيم فقط.

الآيات ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سوره الشعراء، و كذلك الآيات ٢٩ و ٥١ سوره هود، و الآيه ٧٢ سوره يونس و ٤٧ سوره سبأ، تدل على هذا المعنى.

لا شك أن عدم المطالبه بالأجر هذه، تدفع كل اتهام عن الأنبياء، فضلاً عن أنهم يستطيعون أن يواصلوا عملهم بحريه تامه، و ترتفع الموانع و الحواجز التى قد تحدد من حريه ألسنتهم بسبب العلاقه الماديه.

أمّا الملفت للانتباه فإنه تلاحظ ثلاثه تعابير مختلفه فيما يخص الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم.

١- التعبير الذى ورد فى الآيات أعلاه قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا هذا التعبير الفذ البليغ الرائع.

٢- التعبير الوارد فى الآيه (٢٣) من سوره الشورى قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .

٣- التعبير الوارد فى الآيه (٤٧) من سوره سبأ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ .

من انضمام هذه التعابير الثلاثه إلى بعضها، تتحصل النتيجة التاليه: فيما يخص

ص: ٢٩٤

الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، إذا عدّت الموده فى القربى أجر رسالته، فهذه الموده-من جانب-فى نفع المؤمنين أنفسهم لا بنفع النّبي. و من جانب آخر فإن هذه الموده وسيله حصول الهدايه على طريق الله تبارك و تعالى.

بناء على هذا، فإنّ مجموع هذه الآيات يشير إلى أن الموده فى قربى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هى استمرار منهج رساله و قياده ذلك النّبي، و بعبارة أخرى: لمواصله طريق النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و هدايته و قيادته يجب الارتباط بذوى قرباه، و الاعتماد على قيادتهم، هذا هو الأمر الذى يدافع عنه اتباع أهل البيت فى مسأله الإمامه، فإنّهم يعتقدون أن امتداد القياده بعد النّبي سيستمر إلى الأبد، لا فى شكل النبوه، بل فى شكل الإمامه.

و من اللازم الالتفات إلى هذه النكته أيضا، و هى أن المحبه عامل مؤثر فى الأتباع، كما نقرأ فى الآيه (٣١) من سوره آل عمران: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي... ذلك لأننى المبلغ بأمره.**

و رباطه الحب من حيث الأصل، تأخذ الإنسان باتجاه المحبوب و إراداته، و كلما كانت رباطه الحب أكثر قوه، كانت هذه الجاذبيه قويه أكثر. خصوصا المحبه التى يكون دافعها كمال «المحبوب»، و يكون الإحساس بهذا الكمال سببا فى أن يسعى الإنسان ليتقرب إلى مبدأ الكمال و إلى تنفيذ إراداته. (١)

## ٢- على من يجب التوكّل؟

فى الآيات أعلاه، يأمر الله تبارك و تعالى النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بالتوكّل، و أن يصرف النظر عن جميع المخلوقات، و ينظر إلى الله عزّ و جلّ فقط.

و لذلك يعدد صفات لهذه الذات المقدسه، هى فى الحقيقه شرائط أساسيه

ص: ٢٩٥

---

١-١) - من أجل توضيح أكثر فى هذا الصدد، راجع التفسير الأمثل (ذيل الآيه ٣١ سوره آل عمران).

فيمن يستطيع أن يكون ملاذا واقعيا و آمنا للناس.

الأولى:هي أن يكون حيا،و ذلك أنّ موجودا ميتا فاقدا لخصائص الحياه -مثل الأصنام-لا يمكنه أبدا أن يكون معتمدا.

الثانية:هي أن تكون حياته خالده،بالشكل الذي لا يحدث احتمال موته تزلزلا في فكر المتوكلين.

الثالثة:هي أن يحيط بكل شيء علما،فيكون مطلعاً على احتياجات المتوكلين،و على خطط و مؤامرات الأعداء أيضا.

الرابعة:هي أن يكون على كل شيء قديرا،حيث لا-وجود فيه لأى شكل من العجز و عدم الاستطاعه الموجبين لضعف هذا الملجأ.

الخامسه:هي أن تكون الحاكميه له على جميع الأمور،و إدارتها بيده المقترده.

و نحن نعلم أن هذه الصفات ليست إلا لله تبارك و تعالى،و لهذا فهو وحده الملجأ الباعث على الاطمئنان الذي لا يتزلزل أمام كل الحوادث.

ص: ٢٩٦

اشاره

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

التفسير

اشاره

البروج السماويه:

كان الكلام فى الآيات الماضيه عن عظمه و قدره الله، و عن رحمته أيضا، و يضيف الله تعالى فى الآيه الأولى هنا: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ .

نحن لا نعرف «الرحمن» أصلا، و هذه الكلمه ليس لها مفهوم واضح عندنا، أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا نحن لا نخضع لأى أحد، و سوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك وَ زَادَهُمْ نُفُورًا اى أَنَّهُمْ يتكلمون بهذا الكلام و يزدادون ابتعادا و نفورا عن الحق.

لا شك أَنَّ أنسب اسم من أسماء الله للدعوه إلى الخضوع و السجود بين يديه،



هو ذلك الاسم الممتلئ جاذبيه «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامه الواسعه، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم و لجاجتهم، لم يظهرها تأثراً حياً هذه الدعوه، بل تلقوها بالسخرية و الاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: وَمَا الرَّحْمَنُ كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ حِيَالَ دَعْوِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . (١) فهؤلاء لم يكونوا على استعداد حتى ليقولوا: «و من الرحمن» أو «من رب العالمين».

و رغم أن بعض المفسرين يرى أن اسم «الرحمن» لم يكن مأنوساً بين عرب الجاهليه، و حينما سمعوا هذا الوصف من النبي صلى الله عليه و آله و سلم طرحوا هذا السؤال على سبيل التعجب واقعا، حتى كان يقول البعض منهم: «ما نعرف الرحمن إلا رجلاً بالمامه» (يعنون به مسيلمه الكذاب الذي ادعى النبوه كذبا، و عرفه و قومه بهذا الاسم «الرحمن»).

لكن هذا القول بعيد جداً، لأن ما دمه هذا الاسم و صيغته كلاهما عربيان، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يتلو دائماً- في بدايه السور القرآنيه، الآيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و على هذا فلم يكن هدف أولئك إلا التحجج و السخرية، و العبارة التاليه شاهد على هذه الحقيقه أيضاً لأنهم يقولون: أَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا .

و بما أن تعاليم القاده الإلهيين تؤثر في القلوب المؤهله فقط، فإن عمى القلوب من المعاندين مضافاً الى عدم انتفاعهم بها، فإنها تزيدهم نفوراً لأن آيات القرآن كقطرات المطر الباعثه على الحياه تنمى الورد و الخضره في البستان، و الشوك في الأرض السبخه، و لذا لا مجال للتعجب حيث يقول: وَ زَادَهُمْ نُفُورًا . (٢)

ص: ٢٩٨

١- ١) -سوره الشعراء، الآيه ٢٣.

٢- ٢) -على هذا فإن فاعل (زاد) هو ذلك الأمر بالسجود الذي ترك أثراً معكوساً في أولئك المرضى قلوبهم، و إن نقل بعض المفسرين أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم سجد بعد هذا الكلام و سجد المؤمنون أيضاً، فسبب هذا ابتعاد أولئك أكثر، بناء على هذا ففاعل (زاد) السجده، لكن المعنى الأول أكثر صحه.

الآية التالية إجابته على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «و ما الرحمن»، وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابته جاده، يقول تعالى:

بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

«البروج» جمع «برج» في الأصل بمعنى «الظهور» و لذا يسمون ذلك القسم الأعلى و الأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج»، و لهذا أيضا يقال حينما تظهر المرأة زينتها «تبرجت المرأة»، و هذه الكلمة تطلق أيضا على القصور العاليه.

على أية حال، فالبروج السماويه، إشاره إلى الصور الفلكيه الخاصه حيث تستقر الشمس و القمر في كل فصل و كل موضع من السنه إزاء واحد منها، يقولون مثلا: استقرت الشمس في برج «الحمل» يعني أنها تكون بمحاذاه «الصوره الفلكيه»، «الحمل»، أو القمر في «العقرب» يعني وقفت كره القمر أمام الصوره الفلكيه «العقرب» (تطلق الصوره الفلكيه على مجموعه من النجوم لها شكل خاص في نظر المشاهد).

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس و القمر السماويه، و تضيف على أثر ذلك: وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (١).

تبيّن هذه الآية النظم الدقيق لسير الشمس و القمر في السماء (و بديهي أن هذه التغييرات في الحقيقه ترتبط بدوران الأرض حول الشمس دائما). و النظام الفذ الدقيق الذي يحكمهما ملايين السنين بلا زياده أو نقصان، بالشكل الذي يستطيع الفلكيون-أحيانا- أن يتنبؤوا. قبل مئات السنين بوضع حركه الشمس و القمر في يوم معين و ساعه معينه بالنسبه إلى مئات السنين الآتية، هذا النظام الحاكم على هذه الأفلاك السماويه العظيمه شاهد ناطق على وجود الخالق المدبر

ص: ٢٩٩

١ - ١) - طبقا للتفسير أعلاه، فإنّ ضمير «فيها» يرجع إلى البروج، و ينبغى أن يكون هكذا، ذلك لأنّ الموضوع المهم هو دوران الشمس و القمر ضمن نظام خاص في البروج: و ليس وجود البروج في السماء فقط.

مع هذه الدلائل الواضحه، و مع هذه المنازل البديعه و الدقيقه للشمس و القمر، فهل ما زلتم تجهلون و تقولون: «و ما الرحمن؟! أما لماذا سميت الشمس، «سراجا»، و قرن القمر بصفه «منير»؟ فمن الممكن أن يكون دليله أن «السراج» بمعنى المنبع الضوئى الذى نوره مستمد من ذاته و هذا ينطبق على حال الشمس، حيث أنّ من المسلمات العلميه طبقا للتحقيقات أن نورها من نفسها. بخلاف القمر الذى نوره من ضياء الشمس، و لذا وصفه ب «المنير» الذى يستمد نوره من غيره دائما، (فى التفسير الأمثل، أوردنا القول مفصلا فى هذا الصدد، ذيل الآيه ٥ و ٦ سورة يونس).

فى الآيه الأخيره، يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، و يتحدث مرّه أخرى فى قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

هذا النظام البديع الحاكم على الليل و النهار، حيث يعقب أحدهما الآخر متناوبين متواصلين على هذا النظم ملايين السنين... النظم الذى لولاه لانعدمت حياه الإنسان نتيجة لشده النور و الحراره أو الظلمه و العتمه، و هذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا الله عزّ و جلّ.

و من المعلوم أن نشوء نظام «الليل» و «النهار» نتيجة لدوران الأرض حول الشمس، و أن تغيراتهما التدريجيه و المنظمه، حيث ينقص من أحدهما و يزداد فى الآخر دائما بسبب ميل محور الأرض عن مدارها ممّا يؤدى لوجود الفصول الأربعة.

فإذا دارت كرتنا الأرضيه فى حركتها الدورانيه أسرع أو أبطأ من دورانها الفعلى ففى احدى الصور تطول الليالى الى درجه أنّها تجمد كل شىء، و يطول النهار الى درجه أنّ الشمس تحرق كل شىء... و فى صوره اخرى فإنّ الفاصله

القصيره بين الليل و النهار كانت سبتطل تأثيرهما و فائدتهما. فضلا عن أنّ القوه المركزيه الطارده كانت سترتفع بحيث ستقذف جميع الموجودات الأرضيه بعيدا عن الكره الأرضيه.

و الخلاصه أنّ التأمل في هذا النظام يوقظ فطره معرفه الله في الإنسان من جهه (و لعل التعبير بالتذكر و التذكير إشاره إلى هذه الحقيقه)، و من جهه أخرى يحي روح الشكر فيه، و قد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: **أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**.

الجدير بالذكر أننا نقرأ في بعض الروايات التي نقلت عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو الأئمه المعصومين في تفسير الآيه، أن تعاقب الليل و النهار من أجل أن الإنسان إذا أهمل أداء واجب من واجباته تجاه الله سبحانه و تعالى فإنه بإمكانه جبرانه أو قضاءه في الوقت الآخر منهما. هذا المعنى من الممكن أن يكون تفسيراً ثانياً للآيه، و ممّا سبق من كون الآيات القرآنيه ذات بطون، فلا منافاه بين هذا المعنى و المعنى الأول أيضاً.

و في ذلك

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كلّ ما فاتك بالليل فاقضه بالنهار، قال الله تبارك و تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** يعني أن يقضى الرجل ما فاته بالليل بالنهار، و ما فاته بالنهار بالليل».

(١)

نفس هذا المعنى نقله «الفخر الرازي» عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٣٠١

(١ - ١) - من لا يحضره الفقيه، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤ ذيل الآيه.

إشاره

وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

التفسير

إشاره

الصفات الخاصه لعباد الرحمن:

هذه الآيات-فما بعد-تستعرض بحثا جامعا فذا حول الصفات الخاصه لعباد الرحمن، إكمالا للآيات الماضيه حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم الله «الرحمن» يقولون و ملء رؤوسهم استهزاء و غرور «و ما الرحمن؟! و رأينا أن القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، و جاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

تبيّن هذه الآيات اثنتي عشره صفه من صفاتهم الخاصه، حيث يرتبط بعضها بالجوانب الاعتقاديّه، و بعض منها أخلاقي، و منها ما هو اجتماعي، بعض منها

يتعلق بالفرد، و بعض آخر بالجماعه، و هى أُولَا و آخرا مجموعه من أعلى القيم الإنسانيه.

يقول تعالى: وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا. (١)

إن أول صفه ل: «عباد الرحمن» هو نفى الكبر و الغرور و التعالى، الذى يبدو فى جميع أعمال الإنسان حتى فى طريقه المشى، لأن الملكات الأخلاقيه تظهر نفسها فى حنايا أعمال و أقوال و حركات الإنسان بحيث أن من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه -بدقه- من أسلوب مشيته.

نعم، إنهم متواضعون، و التواضع مفتاح الإيمان، فى حين يعتبر الغرور و الكبر مفتاح الكفر.

لقد رأينا بأمر أعيننا فى الحياه اليوميه، و قرأنا مرارا فى آيات القرآن أيضا، أن المتكبرين المغرورين لم يكونوا مستعدين حتى ليصغوا إلى كلام القاده الإلهيين، كانوا يتلقون الحقائق بالسخرية، و لم تكن رؤيتهم أبعد من أطراف أنوفهم، ترى أ يمكن أن يجتمع الإيمان فى هذه الحال مع الكبر؟! نعم، هؤلاء المؤمنون، عباد ربهم الرحمن، و العلامه الأولى لعبوديتهم هو التواضع... التواضع الذى نفذ فى جميع ذرات وجودهم، فهو ظاهر حتى فى مشيتهم.

فإذا رأينا أن إحدى أهم القواعد التى يأمر الله بها نبيه هى وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٢) فلنفس هذا السبب أيضا، و هو أن التواضع روح الإيمان.

حقًا إذا كان للإنسان أدنى معرفه بنفسه و بعالم الوجود، فسيعلم كم هو ضئيل

ص: ٣٠٣

١ - ١) - «هون» مصدر، و هو بمعنى الناعم و الهادى المتواضع، و استعمال المصدر فى معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد، يعنى أنهم فى ما هم عليه كأنهم عين الهدوء و التواضع.

٢ - ٢) - سورة الإسراء، الآية ٣٧.

حيال هذا العالم الكبير، حتى وإن كانت رقبته كالجبال، فإن أعلى جبال الأرض أمام عظمه الأرض أقل من تعرجات قشر (النارنج) بالنسبة إليها، تلکم الأرض التي هي نفسها لا شيء بالنسبة إلى الأفلاك العظيمة.

ترى أليست هذه الحاله من الكبر و الغرور، دليلا- على الجهل المطلق؟! نقرأ في حديث رائع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ يَعْبرُ أَحَدَ الْأَزْقَةِ يَوْمًا مَا، فَرَأَى جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ مُجْتَمِعِينَ، فَسَأَلَهُمْ عَنِ سَبَبِ ذَلِكَ فَقَالُوا: مُجْنُونَ شَغَلَ النَّاسَ بِأَعْمَالِ جَنُونِهِ مَضْحَكُهُ،

فقال: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: أ تَرِيدُونَ أَنْ أُخْبِرَكُمْ مِنْ هُوَ الْمُجْنُونُ حَقًا، فَسَكْتُوا وَ أَنْصَتُوا بِكُلِّ وَجُودِهِمْ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: «الْمُتَبَخَّرُ فِي مَشِيئِهِ، النَّاضِرُ فِي عَطْفِيهِ، الْمُحَرَّكُ جَنِينُهُ بِمَنْكِبِيهِ، الَّذِي لَا يَرْجِي خَيْرَهُ وَ لَا يُؤْمِنُ شَرَّهُ، فَذَلِكَ الْمُجْنُونُ، وَ هَذَا مُبْتَلَى!».

الصفه الثانيه ل«عباد الرحمن» الحلم و الصبر، كما يقول القرآن في مواصلته هذه الآية وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

السّلام الذي هو علامه اللامبالاه المقترنه بالعظمه، و ليس الناشئ عن الضعف.

السّلام دليل عدم المقابله بالمثل حيال الجهله الحمقى، سلام الوداع لأقوالهم غير المترويه، ليس سلام التحيه الذي هو علامه المحبه و رابطه الصداقه.

و الخلاصه، أَنَّهُ السّلام الذي هو علامه الحلم و الصبر و العظمه.

نعم، المظهر الآخر من مظاهر عظمتهم الروحيه، هو التحمل و سعه الصدر اللذين بدونهما سوف لا يطوى أى إنسان طريق «العبوديه لله» الصعب الممتلى بالعقبات، خصوصا في المجتمعات التي يكثر فيها الفاسدون و «مفسدون» و جهله.

و تتناول الآية الثانيه، خاصيتهم الثالثه التي هي العباده الخالصه لله، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ يَبْتَئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَ قِيَامًا .

في عتمه الليل حيث أعين الغافلين نائمه، و حيث لا مجال للتظاهر و الرياء،

حرّموا على أنفسهم لهذه النوم، ونهضوا إلى ما هو ألدّ من ذلك، حيث ذكر الله و القيام و السجود بين يدي عظمته عزّ و جلّ، فيقضون شطرا من الليل في مناجاه المحبوب، فينورون قلوبهم و أرواحهم بذكره و باسمه.

و رغم أن جملة «بيتون» دليل على أنهم يقضون الليل بالسجود و القيام إلى الصباح، لكن المعلوم أنّ المقصود هو شطر كبير من الليل، و إن كان المقصود هو كل الليل فإنّ ذلك يكون في بعض الموارد.

كما أن تقديم «السجود» على «القيام» بسبب أهميته، و إن كان القيام مقدّم على السجود عمليا في حال الصلاة. (١)

الصفه الزابعه لهم هي الخوف من العذاب الإلهي و الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. أى شديدا و مستديما. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا و مُقَامًا.

و مع أنّهم مشتغلون بذكر الله و عبادته في الليالي، و يقضون النهار في إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضا مملوءه بالخوف من المسؤوليات، ذلك الخوف الباعث على القوّه في الحركة أكثر و أفضل باتجاه أداء التكاليف، ذلك الخوف الذي يوجه الإنسان من داخله كشرطي قوى، فينجز تكاليفه على النحو الأحسن دون أن يكون له أمر و رقيب، في ذات الوقت الذي يرى نفسه مقصرا أمام الله.

كلمه «غرام» في الأصل بمعنى المصيبه، و الألم الشديد الذي لا يفارق الإنسان. و يطلق «الغريم» (٢) على الشخص الدائن، لأنّه يلازم الإنسان دائما من أجل أخذ حقه.

و يطلق «الغرام» أيضا على العشق و العلاقه المتوقده التي تدفع الإنسان بإصرار باتجاه عمل أو شيء آخر، و تطلق هذه الكلمه على «جهنم» لأنّ عذابها

ص: ٣٠٥

١-١) - ينبغي الانتباه إلى أنّ «سجدا» جمع «ساجد»، و «قيامًا» جمع «قائم».

٢-٢) - تطلق «الغريم» على «الدائن» و «المدين» أيضا. (لسان العرب مادة غرم).



شديد و دائم لا يزول.

و لعل الفرق بين «مستقرا» و «مقاما» أن جهنم مكان دائم للكافرين فهي لهم «مقام»، و مكان مؤقت للمؤمنين، أي «مستقرا»، و بهذا الترتيب يكون قد أشير إلى كلا الفريقين الذين يردان جهنم.

و من الواضح أن جهنم محل إقامة و مستقر سىء، و شتان بين الراحة و النعيم و بين النيران الحارقه.

و من المحتمل أيضا أن تكون «مستقرا» و «مقاما» كلاهما لمعنى واحد، و تأكيد على دوام عقوبات جهنم، و هو صحيح فى مقابل الجنّه، حيث نقرأ عنها فى آخر هذه الآيات نفسها خالدين فيها حسنت مستقرا و مقاما . (١)

فى الآيه الأخيره يشير جل ذكره إلى الصفه الممتازه الخامسه ل«عباد الرحمن» التى هى الاعتدال و الابتعاد عن أى نوع من الإفراط و التفريط فى الأفعال، خصوصا فى مسأله الإنفاق، فيقول تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

الملفت للانتباه أنه يعتبر أصل الإنفاق أمرا مسلما لا يحتاج إلى ذكر، ذلك لأن الإنفاق أحد الأعمال الضرورية لكل إنسان، لذا يورد الكلام فى كيفية إنفاقهم فيقول: إن إنفاقهم عادل (معتدل) بعيد عن أى إسراف و بخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم و أولادهم جياعا، و لا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم و عطاياهم.

فى تفسير «الإسراف» و «الإقتار» كقطبتين متقابلتين، للمفسرين أقوال مختلفه يرجع جميعها إلى أمر واحد، و هو أن «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، و فى غير حق، و بلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

ص: ٣٠٦

فى إحدى الروايات الإسلاميه، ورد تشبيه رائع للإسراف و الإقتار وحد الاعتدال، تقول الروايه:

تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآيه: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. قال: فأخذ قبضه من حصى و قبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذى ذكره الله عزّ وجلّ فى كتابه، ثم قبض قبضه أخرى فأرخى كفّه كلّها، ثم قال: هذا الإسراف، ثم أخذ قبضه أخرى فأرخى بعضها و أمسك بعضها و قال: هذا القوام». (١)

كلمه «قوام» (على وزن عوام) لغه بمعنى العدل و الاستقامه و الحد و الوسط بين شيئين، و «قوام» (على وزن كتاب): الشىء الذى يكون أساس القيام و الاستقرار.

## مسألان

### إشاره

#### ١- طريقه مشى المؤمنین

قرأنا فى الآيات أعلامه أنّ التواضع أحد علائم «عباد الرحمن»، التواضع الذى يهيمن على أرواحهم بحيث يظهر حتى فى مشيتهم، التواضع الذى يدفعهم إلى التسليم أمام الحق. لكن من الممكن أحيانا أن يتوهم البعض فى التواضع ضعفا و عجزا و خورا و كسلا، و هذا النمط من التفكير خطير جدّا.

التواضع فى المشى ليس هو الضعف و الخطوه الخائره، بل إنّ الخطوات المحكمه التى تحكى عن الجديه و القدره هى من صميم التواضع.

نقرأ

فى سيره النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أن أحد أصحابه يقول: «ما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، كأنّما الأرض تطوى له، و إنّنا لنجهد أنفسنا و إنّّه لغير

ص: ٣٠٧

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير الآيه الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ أَنَّهُ قَالَ: «و الرجل يمشى بسجيته التى جبل عليها لا يتكلف و لا يتبختر». (٢)

و

ورد فى حديث آخر، فى حالات النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «قد كان يتكفأ فى مشيه كأنما يمشى فى صلب». (٣)

يعنى حينما كان الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يمشى فإنه يخطو خطوات سريعة دونما استعجال، كأنما يمشى فى منحدر.

على أيه حال فإن طريقه المشى ليست مقصوده بذاتها، بل هى نافذه إلى معرفه الحاله الروحيه للإنسان، و الآيه فى الحقيقه تشير إلى نفوذ روح التواضع و الخشوع فى أرواح و قلوب «عباد الرحمن».

## ٢- البخل و الإسراف

لا شك أن «الإسراف» واحد من الأعمال الذميمة بنظر القرآن و الإسلام، و ورد ذم كثير له فى الآيات و الروايات، فالإسراف كان نهجا فرعونيا: وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ . (٤)

و المسرفون هم أصحاب جهنم و الجحيم وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . (٥)

و مع الالتفات إلى أنه أصبح ثابتا اليوم أن منابع الثروات الأرضيه ليست

ص: ٣٠٨

---

١- ١) - فى ظلال القرآن، ذيل الآيه مورد البحث، و فى تفسير القرطبي ينقل روايه أخرى فى هذا الصدد أيضا لها شبه كبير بما قلناه أعلاه.

٢- ٢) - مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

٣- ٣) - تفسير روح المعاني، ذيل الآيه مورد البحث.

٤- ٤) - سورة يونس، الآيه ٨٣.

٥- ٥) - سورة غافر، الآيه ٤٣.

كثيره جدا نسبه إلى زياده الكثافه السكانيه للبشرية حتى يمكن للإنسان أن يسرف، و كل إسراف سيكون سببا في حرمان أناس لا ذنب لهم، فضلا عن أن الإسراف عادة قرين التكبر و الغرور و البعد عن خلق الله.

في نفس الوقت فإنّ التقتير و البخل أيضا، ذميم و قبيح و غير مقبول بنفس الدرجه، فالأصل على أساس النظرة التوحيديه، أن الله تبارك و تعالى هو المالك الأصلي، و نحن جميعا مستخلفون من قبله، و كلّ نوع من التصرف دون إجازته و رضاه فهو قبيح و غير مقبول، و نحن نعلم أن الله لم يأذن بالإسراف و لم يأذن بالبخل.

ص: ٣٠٩

اشاره

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)  
يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ  
وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)

التفسير

اشاره

بحث آخر في صفات عباد الرحمن:

ميزه «عباد الرحمن» السادسة التي وردت في هذه الآيات هي التوحيد الخالص الذي يبعدهم عن كل أنواع الشرك و الثنويه و التعدديه في العباده، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .

فقد أثار التوحيد آفاق قلوبهم و حياتهم الفرديه و الاجتماعيه، و انقشعت عن سماء أفكارهم و أرواحهم ظلمات الشرك.

الصفة السابعة طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . (١)

و يستفاد جيدا من الآيه أعلاه أن جميع الأنفس الإنسانية محترمه فى الأصل، و محرم إراقه دمائها إلا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتى فتبيح إراقه الدم.

صفتهم الثامنة هى أن عفافهم لا يتلوث أبدا: وَ لَا يَزْنُونَ .

إنهم على مفترق طريقين: الكفر و الإيمان، فينتخبون الإيمان، و على مفترق طريقين الأمان و اللأمان فى الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، و على مفترق طريقين: الطهر و التلوث: فهم يتخيرون النقاء و الطهر. إنهم يهيئون المحيط الخالى من كل انواع الشرك و التعدى و الفساد و التلوث، بجدهم و اجتهادهم.

و فى ختام هذه الآيه يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

«الإثم» و «آثام» فى الأصل بمعنى الأعمال التى تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبه، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنّها هنا بمعنى جزاء الذنب.

قال بعضهم أيضا: إن «إثم» بمعنى الذنب و «آثام» بمعنى عقوبه الذنب (٢) فإذا رأينا أن بعض المفسرين ذكروها بمعنى صحراء أو جبل أو بئر فى جهنم فهو فى الواقع من قبيل بيان المصداق.

و حول فلسفه تحريم الزنا، قدمنا بحثا مفصلا فى ذيل الآيه (٣٣) سورة الإسراء.

و من الملفت للنظر فى الآيه أعلاه، أنها بحثت أولا فى مسأله الشرك، ثم قتل

ص: ٣١١

---

١ - ١) - الاستثناء فى الجملة أعلاه «استثناء مفرغ» اصطلاحا، و كان فى التقدير هكذا «لا يقتلون النفس التى حرم الله بسبب من الأسباب إلا بالحق».

٢ - ٢) - تفسير الفخر الرازى.

النفس، ثم الزنا، ويستفاد من بعض الروايات أن هذه الذنوب الثلاثة تكون من حيث الأهمية بحسب الترتيب الذى أوردته الآيه.

ينقل ابن مسعود عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافه أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليله جارك» فأنزل الله تصديقها. (١)

و بالرغم من أن الكلام فى هذا الحديث، ورد عن نوع خاص من القتل و الزنا، لكن مع الانتباه إلى إطلاق مفهوم الآيه يتجلى أن هذا الحكم يشمل جميع أنواع القتل و الزنا، و ما فى الروايه مصداق أوضح لهما.

تتكئ الآيه التاليه أيضا على ما سبق، من أن لهذه الذنوب الثلاثة أهميه قصوى، فيقول تعالى: يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا .

و يتجسد هنا سؤالان:

الأول: لماذا يتضاعف عذاب هذا النوع من الأشخاص؟ و لماذا لا يجازون على قدر ذنوبهم؟ و هل ينسجم هذا مع أصول العدالة؟!  
الثانى: إنَّ الكلام هنا عن الخلود فى العذاب، فى حين أنَّ الخلود هنا مرتبط بالكفار فقط. و الذنب الأول من هذه الذنوب الثلاثة التى ذكرت فى الآيه يكون كفرا، فقط، و أمَّا قتل النفس و الزنا فليسا سببا للخلود فى العذاب.

بحث المفسِّرون كثيرا فى الإجابة على السؤال الأول، و أصح ما أوردوه هو أن المقصود من مضاعفه العذاب أن كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكوره فى هذه الآيه سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذابا مضاعفا.

ص: ٣١٢

فضلا عن أنّ ذنبا ما يكون أحيانا مصدر الذنوب الأخرى، مثل الكفر الذى يسبب ترك الواجبات و ارتكاب المحرمات، و هذا نفسه موجب لمضاعفه العذاب الإلهى.

لهذا اتّخذ بعض المفسّرين هذه الآيه دليلا على هذا الأصل المعروف أن:

«الكفار مكلفون بالفروع كما أنّهم مكلفون بالأصول».

و أمّا فى الإجابة على السؤال الثّانى: فيمكن القول أن بعض الذنوب عظيم إلى درجة يكون عندها سببا فى الخروج من هذه الدنيا بلا إيمان، كما قلنا فى مسألة قتل النفس فى ذيل الآيه (٩٣)سوره النساء. (١)

و من الممكن أن يكون الأمر كذلك فى مورد الزنا أيضا، خاصّه إذا كان الزنا بمحصنه.

و من المحتمل أيضا أن «الخلود» فى الآيه أعلام يقصد به من يرتكب هذه الذنوب الثلاثة معا، الشرك و قتل النفس و الزنا، و الشاهد على هذا المعنى: الآيه التالیه حيث تقول: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**.

و اعتبر بعض المفسّرين- أيضا- أن «الخلود» هنا بمعنى المده الطويله لا الخالده، لكن التفسير الأوّل و الثّانى أصح.

و من الملفت للنظر هنا- فضلا عن مسأله العقوبات العاديه- عقوبه أخرى ذكرت أيضا هى التحقير و المهانه، أى البعد النفسى من العذاب، و قد تكون بذاتها تفسيرا لمسأله مضاعفه العذاب، ذلك لأنّهم يعذبون عذابا جسديا و عذابا روحيا.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقا، لم يغلق طريق العوده أمام المجرمين فى أى وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبه و يرغبهم فيها، ففى، الآيه التالیه يقول تعالى هكذا:

ص: ٣١٣



إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

كما مرّ بنا فى الآيه الماضيه، فى الوقت الذى ذكرت ثلاثه ذنوب هى من أعظم الذنوب، تركت الآيه باب التوبه مفتوحا أمام هؤلاء الأشخاص، وهذا دليل على أن كل مذنّب نادم يمكنه العوده إلى الله، بشرط أن تكون توبته حقيقيه، وعلامتها ذلك العمل الصالح (المعوّض) الذى ورد فى الآيه، وإلا فإن مجرّد الاستغفار باللسان أو الندم غير المستقر فى القلب لا يكون دليلا على التوبه أبدا.

المسأله المهمه فيما يتعلق بالآيه أعلاه هى: كيف يبدل الله «سيئات» أولئك «حسنات»؟

### تبديل السيئات حسنات:

#### هنا عدّه تفاسير، يمكن القبول بها جميعا:

١- حينما يتوب الإنسان و يؤمن بالله، تتحقّق تحولات عميقه فى جميع وجوده، وبسبب هذا التحول و الانقلاب الداخلى تتبدل سيئات أعماله فى المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلا للنفس المحترمه فى الماضى، فإنه يتبنى مكانها فى المستقبل الدفاع عن المظلومين و مواجهه الظالمين. و إذا كان زانيا، فإنه يكون بعدها عفيفا و طاهرا، وهذا التوفيق الإلهى يناله العبد فى ظل الإيمان و التوبه.

٢- أن الله تبارك و تعالى بلطفه و كرمه و فضله و إنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبه، و يضع مكانها حسنات، نقرأ

فى روايه عن أبى ذر: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «يؤتى بالرجل يوم القيامه فيقال اعرضوا صغار ذنوبه، و تخبأ كبارها، فيقال: عملت يوم كذا و كذا، و هو يقرّ ليس بمنكر، و هو مشفق من الكبائر أن تجيء، فإذا أراد الله خيرا قال: أعطوه مكان كل سيئه حسنه، فيقول: يا ربّ لى ذنوب ما رأيتها ها هنا؟» قال: و رأيت رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ضحكك حتى بدت نواجذه،

ثم تلا: فَأَوْلِيكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . (١)

٣- التفسير الثالث هو أن المقصود من السيئات ليس نفس الأعمال التي يقوم بها الإنسان، بل آثارها السيئة التي تنطبع بها روح و نفس الإنسان، فحينما يتوب و يؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه و نفسه، و تبدل بآثار الخير، و هذا هو معنى تبديل السيئات حسنات.

و لا منافاه بين هذه التفاسير الثلاثة قطعاً، و من الممكن أن تجتمع كل هذه التفاسير الثلاثة في مفهوم الآية.

الآية التالية تشرح كيفية التوبه الصحيحه، فيقول تعالى: وَمَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً . (٢)

يعنى أن التوبه و ترك الذنب ينبغى ألا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغى - إضافة إلى ذلك- أن يكون الدافع إليها خلوص النيه، و العوده إلى الله تبارك و تعالى.

لهذا فإن ترك شرب الخمر أو الكذب بسبب إضرارهما مثلاً، و إن كان حسناً، لكن القيمة الأسس لهذا الفعل لا تتحقق إلا إذا استمد من الدافع الرباني.

بعض المفسرين ذكروا تفسيراً آخر لهذه الآية، و هو أن هذه الجملة جواب على التعجب الذي قد تسببه الآية السابقه أحياناً في بعض الأذهان، و هو: كيف يمكن أن يبدل الله السيئات حسنات؟!، فتجيب هذه الآية: حينما يؤوب الإنسان إلى ربه العظيم، فلا عجب في هذا الأمر.

تفسير ثالث ذكر لهذه الآية، و هو أن كل من تاب من ذنبه فإنه يعود إلى الله، و مثوبته بلا حساب.

ص: ٣١٥

١- (١) -عوالي اللئالي، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٣.

٢- (٢) -«متاب» مصدر ميمي بمعنى التوبه، و لأنه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

و بالرغم من عدم وجود منافاه بين هذه التفاسير الثلاثة، لكن التفسير الأول أقرب، خاصه و أنه يتفق مع الروايه المنقوله فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى ذيل هذه الآيه.

ص: ٣١٤

اشاره

وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَ عُمِيَانًا (٧٣) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا (٧٦)

التفسير

اشاره

جزاء «عباد الرحمن»:

في متابعه للآيات الماضيه التي كررت القول في خصائص «عباد الرحمن»، تشرح هذه الآيات بقيه هذه الصفات:

الصفه الرفيعه التاسعه لهم، هي احترام و حفظ حقوق الآخرين: إن هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقا: وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .

المفسرون الكبار فسروا هذه الآيه على نحوين:

اعتبر بعضهم «الزور» بمعنى «الشهادة بالباطل» كما قلنا أعلاه، لأن «الزور» لغه بمعنى التمايل و الانحراف، و حيث أن الكذب و الباطل و الظلم من الانحرافات، فإن «الزور» يطلق عليها.

هذه العبارة (شهادة الزور) في كتاب الشهادات في فقهننا، موجوده بنفس هذا العنوان، و قد نهى عنها في روايات متعدده، و إن لم نرفى تلك الروايات استدلالا بالآيه أعلاه.

التفسير الآخر: هو أن المقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعنى أن عباد الرحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل.

و في بعض الروايات التي وردت عن طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام، فسرت ب «الغناء» أى تلك المجالس التي يتم فيها إنشاد اللهو مصحوبا بأنغام الآلات الموسيقية أو بدونها.

لا- شك أن مراد هذا النوع من الروايات ليس هو تحديد مفهوم «الزور» الواسع ب «الغناء»، فالغناء واحد من مصاديقه البارزه إنه يشمل سائر مجالس اللهو و اللعب و شرب الخمر و الكذب و الغيبه و أمثال ذلك.

ولا- يستبعد أيضا أن يجتمع كلا- التفسيرين في معنى الآيه، و على هذا فعباد الرحمن لا يؤدون الشهاده الكاذبه، و لا يشهدون مجالس اللهو و الباطل و الخطيئه، ذلك لأن الحضور في هذه المجالس-فضلا عن ارتكاب الذنب- فإنه مقدمه لتلوث القلب و الروح.

ثم يشير تعالى في آخر الآيه إلى صفتهم الرفيعه العاشره، و هي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياه، فيقول: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا .

إنهم لا يحضرون مجالس الباطل، و لا يتلوثون باللغو و البطلان. و مع الالتفات إلى أن «اللغو» يشمل كل عمل لا ينطوى على هدف عقلائي، فإن ذلك يدل على أن «عباد الرحمن» يتحرون دائما الهدف المعقول و المفيد و البناء، و ينفرون من

اللاهديه و الأعمال الباطله، فإذا اعترضهم هذا النوع من الأعمال فى مسير حياتهم، مروا بمحاذاتها مرور اللامبالى، و لا مبالاهم نفسها دليل على عدم رضاهم الداخلى عن هذه الأعمال، فهم عظماء بحيث لا تؤثر عليهم الأجواء الفاسده و لا تغيرهم.

و لا- شك أنّ عدم اعتنائهم بهذه الأمور من جهه أنّهم لا طريق لهم إلى مواجهه الفساد و النهى عن المنكر، و إلا فلا شك أنّهم سوف يقفون و يؤدون تكاليفهم حتى المرحله الأخيره.

□  
الصفه الحاديه عشر لهذه النخبه امتلاك العين الباصره و الأذن السامعه حين مواجهتهم لآيات الخالق، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا  
ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَ عُتُيَانًا .

من المسلم أنّ المقصود ليس الإشاره إلى عمل الكفار، ذلك لأنهم لا اعتناء لهم بآيات الله أصلا، بل إن المقصود: فئه المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات الله بأعين و آذان موصده، دون أن يتدبروا حقائقها و يسبروا غورها، فيعرفوا ما يريد الله و يتفكروا فيه، و يستهدوه فى أعمالهم.

و لا- يمكن طى طريق الله بعين و أذن موصدتين، فالأذن السامعه و العين الباصره لازمتان لطفى هذا الطريق، العين الناظره فى الباطن، المتعمقه فى الأشياء، و الأذن المرهفه العارفه بلطائف الحكمه.

و لو تأملنا جيدا لأدركنا أن ضرر هذه الفئه ذات الأعين و الآذان الموصده و فى ظننا أنّها تتبع الآيات الإلهيه، ليس أقل من ضرر الأعداء الذين يطعنون بأصل شريعته الحق عن وعى و سبق إصرار، بل أن ضررهم أكثر بمراتب أحيانا.

التلقى الواعى عن الدين هو المعين الأساس للمقاومه و الثبات و الصمود، لأن من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، و بتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادى الكفر و الضلاله و عدم الإيمان.

هذا النوع من الأفراد أده بيد الأعداء، و لقمه سائغه للشياطين، المؤمنون وحدهم هم المتدبرون المبصرون السامعون كمثل الجبل الراسخ، فلا يكونون لعه بيد هذا أو ذاك.

نقرأ فى حديث عن أبى بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا، قال:

«مستبصرين ليسوا بشكاك». (١)

الصفه الثانيه عشر الخاصه لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هى التوجه الخاص إلى تربيه أبنائهم و عوائلهم، و إيمانهم بمسئوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُوَّةَ أَعْيُنٍ .

بديهى أن معنى هذا ليس أن يقبعوا فى زاويه و يتضرعوا بالدعاء، بل إن الدعاء دليل شوقهم و عشقهم الداخلى لهذا الأمر، و رمز جدتهم و اجتهادهم.

من المسلم أنّ أفرادا كهؤلاء لا- يقصرون فى بذل ما لديهم من طاقه و قدره فى تربيه أبنائهم و أزواجهم، و تعريفهم بأصول و فروع الإسلام، و سبل الحق و العداله و فى ما لا تصل إليه قدرتهم و طاقتهم، فإنهم يدعون الله، يسألونه التوفيق بلطفه.

فالدعاء الصحيح من حيث الأصل، ينبغى أن يكون هكذا: السعى بمقدار الاستطاعه، و الدعاء خارج حدّ الاستطاعه.

«قره العين» كناية عمّن يسرّ به، هذا التعبير أخذ فى الأصل من كلمه «قر» التى بمعنى البرد، و كما هو معروف (و قد صرح به كثير من المفسرين) أن دمه الشوق و السرور بارده، و دموع الحزن و الغم حاره حارقه، لذا ف «قره عين» بمعنى الشىء الذى يسبب بروده عين الإنسان، يعنى أن دمه الشوق تنسكب من عينيه، و هذه كناية جميله عن السرور و الفرح. (٢)

ص: ٣٢٠

١-١) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٣.

٢-٢) -الشاهد على هذا القول، الشعر الذى نقله القرطبى فى تفسيره عن أحد الشعراء العرب. فكم سخنت بالأمس عين قريره و قرت عيون دمعها اليوم ساكب

مسأله تربيہ الأبناء و إرشاد الزوجات، و مسؤوليه الآباء و الأمهات إزاء أطفالهم من أهم المسائل التي أكد عليها القرآن، و سنفصل القول فيها إن شاء الله في ذيل الآيه (٦) من سورة التحريم.

و أخيرا فالصفه الرفيعه الثالثه عشر لعباد الرحمن التي هي أهم هذه الصفات من وجهه نظر معينه: هي أنهم لا يقنعون أبدا أنهم على طريق الحق، بل أن همتهم عاليه بحيث يريدون أن يكونوا أئمه و قدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضا.

إنهم ليسوا كالزهاد المنزوين في الزوايا، و ليس همهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إن سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى.

لذا يقول في آخر الآيه، إنهم الذين يقولون: **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**.

ينبغي الالتفات إلى هذه النكته أيضا، إنهم لا يدعون ليكونوا في موقع العظماء جزافا، بل إنهم يهيئون أسباب العظمه و الإمامه بحيث تجتمع فيهم الصفات اللائقه بالقدوه الحقيقيه، و هذا عمل عسير جدا، و له شرائط صعبه و ثقيله.

و لا ننس أن القرآن لا يذكر في هذه الآيات صفات جميع المؤمنين، بل أوصاف نخبه ممتازه من المؤمنين في الصف المتقدم بعنوان «عباد الرحمن». نعم، إنهم عباد الرحمن، و كما أن رحمه الله العامه تشمل الجميع فإن رحمه الله بهؤلاء العباد عامه أيضا من أكثر من جهه، فعلمهم و فكرهم و بيانهم و قلمهم و مالهم و قدرتهم تخدم بلا انقطاع في طريق هدايه خلق الله.

أولئك نماذج و أسوات المجتمع الإنساني.

أولئك قدوات المتقين.

إنهم أنوار الهدايه في البحار و الصحارى. ينادون التائبين إليهم لينقذوهم من الغرق في الدوامه، و من السقوط في المزالق.



نقرأ فى روايات متعدده أنّ هذه الآيه نزلت فى على عليه السّلام و ائمه أهل البيت عليهم السّلام.

و نقرأ

فى روايه أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إيانا عنى». (١)

و لا شك أنّ أئمه أهل البيت عليهم السّلام من أوضح مصاديق هذه الآيه، لكن هذا لا يمنع من اتساع مفهوم الآيه، فالمؤمنون الآخرون أيضا يكون كل منهم إماما و قدوه للآخرين بمستويات متفاوتة.

و استنتج بعض المفسّرين من هذه الآيه أنّ طلب الرئاسه المعنويه و الروحانيه ليس غير مذموم فقط، بل إنه مطلوب و مرغوب فيه أيضا. (٢)

و ينبغى الالتفات ضمنا إلى أنّ كلمه «إمام» و إن كانت للمفرد، إلا أنّها تأتى بمعنى الجمع، و هكذا هى فى الآيه.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثه عشره، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، و فى صوره الكوكبه الصغيره، فيبين جزاءهم الإلهى أو لئلك يُجزَوْنَ العُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا .

«غرفه» من ماده «غرف» (على وزن حرف): بمعنى رفع الشىء و تناوله، و يقال لما يغترف و يتناول «غرفه» (كاغتراف الإنسان الماء من العين بيده للشرب) ثم أطلقت على الأقسام العليا من البناء، و منازل الطبقات العليا، و هى هنا كناية عن أعلى منازل الجنّه.

لذلك فإنّ «عباد الرحمن» بامتلاكهم هذه الصفات، يكونون فى الصف الأوّل من المؤمنين، و ينبغى أنّ تكون درجتهم فى الجنّه أعلى درجه أيضا.

المهم أنّه يقول: إن هذا المقام العالى قد أعطى لهم بسبب ما قدموا من ضريبه الصبر و الاستقامه فى طريق اللّه، و من الممكن أن يتصور أنّ هذا وصف آخر من

ص: ٣٢٢

١-١) -أورد هذه الروايات فى تفسير آخر هذه الآيه «على بن إبراهيم»، و مؤلف كتاب نور الثقلين فى تفسيريهما.

٢-٢) -يراجع تفسير «القرطبي» و تفسير «الفخر الرازى».

أوصافهم، لكن هذا في الحقيقة ليس وصفاً جديداً، بل هو ضمانه تطبيق جميع الصفات السابقة، وإلا فهل يمكن أن نتصور عبادة الخالق، وواجهه الطغيان والشهوات، وترك شهادته الزور، والتواضع والخشوع وغيرها من الصفات بدون صبر واستقامه.

هذا البيان يذكر الإنسان بالحديث المعروف

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول: «و الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» فبقاء الجسد من بقاء الرأس، ذلك لأن قياده جميع أعضاء البدن تستقر في دماغ الإنسان.

و على هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهه ضد العصاه، والوقوف أمام دواعي الذنوب، تجتمع كلها في ذلك المفهوم، وإذا فسر في بعض الروايات بالصبر على الفقر والحرمان المالى، فمن المسلم أن ذلك من قبيل بيان المصدق.

ثم يضيف تعالى: وَيُلَقُّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا .

أهل الجنة يحيى بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أن الله يحييهم ويسلم عليهم، كما نقرأ في الآية (٥٨) من سورة يس سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ، ونقرأ في الآية (٢٣ و ٢٤) من سورة يونس وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ....

ترى هل ل«التحية» و«السلام» هنا معنيان، أم معنى واحد؟! ثمه أقوال بين المفسرين، لكن مع الالتفات إلى أن«التحية» فى الأصل بمعنى الدعاء لحياء الغير، و«سلام» من مادة السلامه، وبمعنى الدعاء للغير.

على هذا نستنتج: أن الكلمه الأولى بعنوان طلب الحياه، للمخاطب و الكلمه الثانيه طلب اقتران هذه الحياه مع السلامه، و لو أن هاتين الكلمتين تأتيان بمعنى واحد أحياناً.

«التحية» فى العرف لها معنى أوسع، فهى كل ما يقولونه فى بيان اللقاء مع الآخرين، فىكون سبباً فى سرورهم و احترامهم و إظهار المحبة لهم.

ثم يقول تبارك و تعالى للتأكيد أكثر: **خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا و مُقَامًا .**

ص: ٣٢٤

اشاره

قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

التفسير

اشاره

لو لا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمه:

هذه الآيه التي هي الآيه الأخيره فى سوره الفرقان، جاءت فى الحقيقه نتيجه لكل السوره، وللأبحاث التي بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقه، فيقول تبارك و تعالى مخاطبا النبي صلى الله عليه و آله و سلم: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ .

«يعبؤ» من ماده «عبء» بمعنى «الثقل»، و على هذا فجمله لا يعبأ يعنى لا يزن، و بعبارة أخرى لا يعتنى.

و لو أن احتمالات كثيره ذكرت هنا فى مسأله معنى الدعاء، لكن أساس جميعها يعود إلى أصل واحد.

فذهب البعض: إن الدعاء هو نفس ذلك المعنى المعروف للدعاء.

بعض آخر فسره بمعنى الإيمان.

و بعض بمعنى العباده و التوحيد.

و آخر، بمعنى الشكر.

و بعض:بمعنى التضرع إلى الله فى المحن و الشدائد.

لكنّ أساس جميعها هو الإيمان و التوجه إلى الله.

و بناء على هذا، يكون مفهوم الآيه هكذا: إن ما يعطيكم الوزن و القيمه و القدر عند الله هو الإيمان بالله و التوجه إليه، و العبوديه له.

ثمّ يضيف تعالى: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا .

من الممكن التصور أن تضادا بين بدايه الآيه و نهايتها، أو أنه لا- يبدو على الأقل الارتباط و الانسجام اللازم بينهما، و لكن إذا دققنا قليلا يتّضح أنّ المقصود أساسا هو: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات الله و بأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى الله، و لم تسلكوا طريق الإيمان به و العبوديه له، فلن تكون لكم أيه قيمه أو مقام عنده، و ستحيط بكم عقوبات تكذيبكم. (١)

و من جمله الشواهد الواضحه التى تؤيد هذا التفسير،

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه سئل: «كثره القراءه أفضل أو كثره الدعاء»؟ فقال عليه السلام: «كثره الدعاء أفضل و قرأ هذه الآيه». (٢)

ص: ٣٢٦

١- ١) -الآيه أعلاه من الآيات التى هى مورد مناقشات كثيره بين المفسرين، و ما قلناه فى تفسيرها هو أوضح تفسير، لكن جماعه من المفسرين المعروفين ذكروا لها تفسير آخر خلاصته هكذا. لا اعتناء لله بكم، ذلك لأنكم كذبتم بآياته، إلا أن الله يدعوكم إلى الإيمان (طبقا لهذا التفسير: «دعأؤكم» من قبيل إضافة المصدر إلى المفعول، و فاعله ضمير يعود إلى «ربى»). لكن طبقا للتفسير الذى اخترناه فإن «دعأؤكم» من قبيل إضافة المصدر إلى الفاعل، و ظاهر إضافة المصدر إلى الضمير هى أن تكون الإضافة إلى الفاعل، إلا أن تظهر قرينه على خلافه). ثمه تفسير ثالث لهذه الآيه و هو أنّ الهدف بيان: إنّكم أيها البشر، غالبا ما سلكتم طريق التكذيب، فلا- وزن و لا- قدر لكم عند الله، إلا- لأجل تلك الأقلية مثل «عباد الرحمن» الذين يتوجهون إلى الله و يدعونه بإخلاص (هذا التفسير و إن كان صحيحا من ناحيه المعنى و المضمون، لكنّه لا- يوافق ظاهر الآيه كثيرا، ذلك لأنّ الضمير فى «دعأؤكم» و «كذبتم» يعود ظاهرا إلى فته واحده لا فثتين (فتأمل!).

٢- ٢) -تفسير الصافى، ذيل هذه الآيه- نقلوا لهذه الروايه أيضا تفاسير أخرى يتفاوت يسير، نقلت أيضا روايات أخرى شاهده على التفسير أعلاه، بعضها عن أمالى الشيخ الطوسى، و بعضها عن تفسير على بن إبراهيم ذيل هذه الآيه.

## الدعاء طريق إصلاح النفس و معرفه الله:

معلوم أن مسأله الدعاء أعطيت أهميه كبيره فى آيات القرآن و الروايات الإسلاميه، حيث كانت الآيه أعلاه أنموذجا منها، غير أن قد يكون القبول بهذا الأمر ابتداء صعبا على البعض، كأنه يقال: الدعاء عمل سهل جدًا، و يمكن أن يؤديه الجميع أو يتوسعون أكثر فيقولون: الدعاء عمل المغلوبين على أمرهم، الأمر الذى لا أهميه له.

لكن الاشتباه هنا ينشأ من أنهم ينظرون إلى الدعاء الخالى من شرائطه، فى حين إذا أخذت الشرائط الخاصه للدعاء بنظر الإعتبار، فإن هذه الحقيقه تثبت بوضوح. و هى أن الدعاء وسيله مؤثره فى إصلاح النفس، و الارتباط القريب بين الله و الإنسان.

أول شرائط الدعاء، معرفه المدعو.

الشرط الثانى: تخليه القلب و إعداد الروح لدعائه تبارك و تعالى، ذلك لأن الإنسان حينما يذهب باتجاه أحد، ينبغى أن يملك الاستعداد للقاءه.

الشرط الثالث للدعاء: هو جلب رضاه من يدعو الإنسان، ذلك لأنه لا يحتمل التأثير بدون ذلك إلا نادرا.

و أخيرا فالشرط الرابع لاستجاب الدعاء: هو أن يستخدم الإنسان كل قدرته، و قوته و استطاعته فى عمله، و يؤديه بأعلى درجه من الجهد و الاجتهاد، ثم يرفع يديه و يوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء فى ما وراء ذلك.

ذلك لأنه ورد صريحا فى الروايات الإسلاميه، أن الإنسان إذا قصر فى العمل الذى يستطيع أن يؤديه بنفسه، ثم يتوسل بالدعاء فلن يستجاب دعاؤه.

من هنا، فإن الدعاء وسيله لمعرفه الخالق و معرفه صفاته الجماليه و الجلاليه،

و وسيله أيضا للتوبه من الذنب، و لتطهير الروح، و سبب أيضا لأداء الحسنات للجهاد و الجّد و الاجتهاد إلى منتهى الاستطاعه.

لهذا نجد عبارات مهمّه حول الدعاء لا يمكن فهمها إلا على ضوء ما قلناه، مثلا:

نقرأ

في روايه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «الدعاء سلاح المؤمن، و عمود الدين، و نور السماوات و الأرض». (١)

و نقرأ

في حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح و مقاليد الفلاح، و خير الدعاء ما صدر عن صدر نقي، و قلب تقي». (٢)

و نقرأ

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الدعاء أنفذ من السنان». (٣)

فضلا عن كل ذلك، فإن من الطبيعي أن حوادث تقع في حياه الإنسان، فتغرقه في اليأس من حيث الأسباب الظاهرية، فالدعاء يمكنه أن يكون شرفه على أمل الفوز، و وسيله مؤثره في مواجهه اليأس و القنوط.

لهذا فالدعاء إزاء الحوادث الصعبه المرهقه، يمنح الإنسان قدره و قوه و أملا و طمأنينه، و أثرا لا يمكن إنكاره من الناحيه النفسيه.

و قدّمنا بحثا مفصلا بصدّد مسأله الدعاء، و فلسفته، و شرائطه، و نتائجه، في التفسير الأمثل ذيل الآيه (١٨٦) من سوره البقره، فتفضل بمراجعته هناك من أجل التوضيح أكثر.

اللهم، اجعلنا من خاصّه عبادك، و ترحم علينا بتوفيق اكتساب خصائص و صفات «عباد الرحمن».

ص: ٣٢٨

---

١-١) - اصول الكافي، الجزء الثاني، أبواب الدعاء باب أن الدعاء سلاح المؤمن.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - المصدر السابق.

رَبَّنَا، افْتَحْ لَنَا أَبْوَابَ الدَّعَاءِ وَاجْعَلْ ذَلِكَ سَبِيلاً لِّثَمِينٍ وَجُودِنَا بَيْنَ يَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ، تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِتَوْفِيقَاتِ الدَّعَاءِ الْمَطْلُوبَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَا تَحْرِمْنَا مِنَ الْإِسْتِجَابَةِ.

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

نَهَايَةُ سُورَةِ الْفِرْقَانِ

ص: ٣٢٩





## سوره الشعراء

### اشاره

مكيه و عدد آياتها مائتان و سبع و عشرون آيه

ص: ۳۳۱



## محتوى سوره الشعراء:

المعروف بين المفسرين أنّ جميع آيات هذه السوره المائتين و سبع و عشرين نزلت فى مكّه عدا الآيات الأربع الأخيره. (1) إيقاع آيات هذه السوره يتناغم أيضا مع إيقاعات السور المكيه الأخرى، و نعلم أنّ السور المكيه التى أنزلت فى بدايه دعوه الإسلام، تستند على بيان الأصول الاعتقاديّه: التوحيد و المعاد، و دعوه أنبياء الله، و أهميه القرآن.

و تدور جميع موضوعات سوره الشعراء حول هذه المسائل تقريبا.

و يمكن تلخيص محتوى هذه السوره فى عدّه أقسام:

القسم الأول: مطلع هذه السوره الذى يتكون من الحروف المقطعه، ثمّ يتحدث فى عظمه القرآن، و تسليه النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فى مواجهه إصرار و حماقه المشركين، و الإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، و صفات الله تبارك و تعالى.

القسم الثانى: يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام و مواجهاتهم مع أقوامهم، و فى مكابرات و حماقات أولئك حيال هؤلاء الأنبياء، حيث فضّل الحديث أكثر فى بعض منها، كما فى قصه موسى و فرعون، و اختصره فى بعض آخر منها، كما فى قصه إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب.

ص: ٣٣٣

---

١ - ١) - تفسير «مجمع البيان» و تفسير «الفخر الرازى» و تفسير «القرطبى» و تفسير «التبيان»، و استثنى فى تفسير «روح المعانى» خمس آيات. لكن بعض المفسرين مثل العلامة الطباطبائى فى «الميزان» لم يقبل استثناء هذه الآيات. و سوف يكون لنا بحث أكثر إن شاء الله فى ذيل هذه الآيات.

فى هذا القسم بخاصة، أشير إلى منطق المشركين. الضعيف الممزوج بالتعصب فى كل عصر و زمان فى مواجهه أنبياء الله، و الذى يشبه كثيرا منطق مشركى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فكان هذا سببا فى تسليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين الأوائل؛ ليعلموا تاريخ هذا الصنف من الناس و منطقتهم، حتى لا يتأثروا و يتراخوا، و حتى لا يفسحوا للضعف و الفتور ليجد طريقا إلى أنفسهم.

و فيه بشكل خاص أيضا، تركيز على العذاب العظيم و الابتلاءات المروعة التى حلت بهذه الأمم، و الذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبى فى تلك الشرائط.

القسم الثالث: و تغلب عليه جنبه الاستنتاج من القسمين الأولين، يتناول الحديث حول النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و عظمه القرآن، و تكذيب المشركين، و الأوامر الصادره إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما يتعلق بطريقه الدعوه، و كيفية التعامل مع المؤمنين، و يختم السوره بالبشرى للمؤمنين الصالحين، و بالتهديد الشديد للظالمين.

و بالمناسبة، فإن اسم هذه السوره أخذ من مجموعه الآيات الأخيرة التى تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

و هناك نكته جديره بالاهتمام أيضا، و هى أن هذه السوره تعتبر من أكبر السور بعد سوره البقره من حيث عدد الآيات، و إن كانت ليست كذلك من حيث عدد الكلمات، بل هى أقصر من كثير من السور.

### فضيله سوره الشعراء:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فى بيان أهميه تلاوه هذه السوره أنه قال:

«من قرأ سوره الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدق بنوح و كذب به، و هود و شعيب و صالح و ابراهيم، و بعدد كل من كذب بعيسى و صدق بمحمد».

ولا يخفى أن كل هذا الأجر و الثواب ليس على التلاوه بدون التفكير و العمل بها، بل ان القرائن المتعدد فى روايات فضائل السور تحكى عن أن المراد من التلاوه هى ما كانت مقدمه للتفكر، ثم العزم و العمل، وقد أشرتا الى ذلك سابقا.

و مما يؤيد هذا المعنى التعبير الوارد فى نفس الحديث أعلاه، لأن استحقاق الحسنات بعدد المصدقين و المكذبين للأنبياء من أجل أن يكون الشخص فى صف المصدقين و يتجنب منهج المكذبين.

ص: ٣٣٥

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَآخِجٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَهْلًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٦)

التفسير

اشاره

إنهم يعرضون عن كل جديد!

مره أخرى نواجه في بدايه هذه السوره مثلا آخر من الحروف المقطعه و هو:

طسم

و كان لنا في تفسير هذه الحروف المقطعه بحوث مسهبه و مستقله في مستهل سوره البقره و سوره آل عمران و سوره الأعراف! فلا نرى حاجه إلى التكرار و الإعادة! إلا أنّ ما ينبغي أن نضيفه هنا هو ما ورد من روايات متعدده عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو

بعض أصحابه في تفسير «طسم» و يدلّ جميعها على أنّ هذه الحروف علامات «مختصره» عن أسماء الله تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنه المقدسه، أو بعض أشجار الجنّه!...

و هذه الزوايات تؤيد التفسير الذي نقلناه في مستهلّ سورة الأعراف في هذا الصدد، كما أنّها في الوقت ذاته لا تنافي ما قلناه في مستهلّ سورة البقره من أن المراد من هذه الحروف بيان أعجاز القرآن و عظّمته، حيث أن هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطه و صغيره! و الآيه التاليه تبين عظمه القرآن بهذا النحو: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

و بالطبع فإنّ «تلك» في لغة العرب اسم إشاره للبعيد، و يشار بها للمؤنث «المفرد» و «الجمع»، كما قد يشار بها لجمع التفسير. (١)

و كما بينا آنفا فقد يعبر في لغة العرب عن عظمه الشيء -و إن كان قريبا- باسم الإشاره (للبعيد) فكان الموضوع لأهميته و ارتفاع «و علو» مرتبه بعيد عنّا، و مكانه في السماوات العلى! و ممّا ينبغي الالتفات إليه و ملاحظته أنّ هذه الآيه بنصّها وردت في بدايه سورة يوسف و سورة القصص -أيضا- دون زياده أو نقصان. كما أنّها وردت بعد الحروف المقطعه في مستهلّ السور آنفه الذكر، و هي تدل على ارتباط هذه الحروف بعظمه القرآن.

و وصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشاره إلى كونه جليّا بينا عظيما معجزا -فكلّما أمعن الإنسان النظر في محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر... ثم بعد هذا فإنّ القرآن يبين الحق و يميزه عن الباطل، و يوضّح سبيل السعاده و النصر و النجاه من الضلال!

ص: ٣٣٧

(١-١) - كقوله تعالى وَ تِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ .



و الآيه التاليه تسرى عن قلب النبى و تثبته فتقول: لَعَلَّكَ بِاِخْتِافِ نَفْسِكَ اَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

كلمه «باخع» مشتقه من (البخع) (على وزن الدمع)! و معناه إهلاك النفس من شده الغم... و هذا التعبير يدل على مدى تحرق قلب النبى و شففته لأمته، و أداء رسالته، و ما كان عليه من إصرار فى خطته، و تجلده فى مواجهه شدته و محتته، لأنه يرى القلوب المتعطشه الضامه فى جوار النبع القرآنى الزلال، و لكنّها لا- تزال على ظمئها و لا ترتوى من معينه العذب، فكان يتحرق لذلك! كان قلقا- و باخعا نفسه- أن يرى الإنسان الذى منحه الله العقل و اللب يسير فى الطريق المظالم، بالرغم من كل هذا الضياء، و يهوى فى الوادى السحيق ليكون من الهالكين! أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على أممهم و لا سيما الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم الذى ورد فى شأنه هذا التعبير القرآنى أكثر من مره...

قال بعض المفسرين: إن سبب نزول الآيه الأنفه الذكر هو أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يدعو أهل مكه إلى توحيد الله باستمرار، إلا- أنهم لم يؤمنوا. فأسف النبى و تأثر تأثرا بالغا حتى بدت أماراته فى وجهه، فنزلت الآيه آنفه الذكر لتسرى عن قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم. (١)

و لبيان أن الله على كل شىء قدير حتى أنه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقا و يضطرهم إلى ذلك، فإن الآيه التاليه تقول:  
إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ .

و هى إشاره إلى أن الله قادر على إنزال معجزه مذهله- من السماء- أو أن يرسل عليهم عذابا شديدا فيذعنوا له، يطأطأوا برؤوسهم خضوعا له، يستسلموا

ص: ٣٣٨

لأمره و حكمه، إلا أن الإيمان يكرهه لا قيمه له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادته و وعى و إدراك و تفكر.

و من الواضح أنّ المراد بخضوع الأعناق خضوع أصحابها... فاللغة العربية تذكر الرقبه أو العنق كناية عن الإنسان لأنها جزء مهمّ منه، و يقال مثلاً- كناية عن البغاه القساة: غلاظ الرقاب، و عن المضطهدين و الضعفاء: الرقاب الذليله! و بالطبع فهناك احتمالات آخر لتفسير «أعناقهم» من جملتها أنّ الأعناق تعنى الرؤساء، كما أن من التفاسير أن الأعناق تعنى طوائف من الناس. و جميع هذه الاحتمالات ضعيفه.

ثمّ يتحدث القرآن عن مواقف المشركين و الكفار من آيات القرآن فيقول:

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

و التعبير ب«ذكر» هو إشاره إلى أن القرآن موقظ و متبه، و هذا الأمر متحقق في جميع آياته و سوره! إلا أن هذه الجماعه معرضه عن ذكره و تنبيهه، فهى تفرّ عن كل ذلك!...

و التعبير ب«الرحمن» إشاره إلى أن نزول هذه الآيات من قبل الله إنّما هو من رحمته العامه، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعاده و الكمال! كما أن هذا التعبير- أيضا- ربّما كان لتحريك الإحساس بالشكر لله، فهذا الذكر من الله الذى عمّت نعمه وجودكم من القرن إلى القدم، فكيف يمكن الإعراض عن ولى النعمه؟! و إذا كان سبحانه لا- يتعجل بإنزال العذاب عليكم، فذلك من رحمته أيضا...

و التعبير ب«محدث»- أى جديد- إشاره إلى أن آيات القرآن تنزل واحده تلو الأخرى، و كلّ منها ذو محتوى جديد، و لكن ما جدوى ذلك، فهم مع كل هذه الحقائق الجديده- معرضون... فكأنهم اتفقوا على خرافات السلف و تعلّقوا بها- فهم لا يرضون أن يودّعوا ضلالهم و جهلهم و خرافاتهم!! أساسا مهما كان

الجديد موجبا للهدايه،فإنّ الجهله و المتعصيين يخالفون الحق و لا يدعون له...

و نقرأ فى سورة «المؤمنون» الآيه ٦٨ منه إذ تقول: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فبذريعه ما لم يأت آباءهم تجدهم متعصيين مخالفين! ثم يضيف القرآن: أُنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَفْقَهُونَ عِنْدَ حُدُودِ الْإِعْرَاضِ، بل يتجاوزون إلى مرحله التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الاستهزاء به، فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَلْبَابٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

«الأنباء»: جمع «نبا»، أى الخبر المهم، و المراد من هذه الكلمه ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوى و الآخرى. على أنّ بعض المفسرين كالشيخ الطوسى فى «التبيان»، قال بأن هذا العقاب منحصر العقاب الآخره. إلا أن أغلب المفسرين يعتقدون بشموله لعقاب الدارين، و هو فى الواقع - كذلك!... لأنّ الآيه مطلقه.

و بغض النظر عن كل ذلك فإنّ للكفر و الإنكار انعكاسات واسعه و شامله فى جميع حياه الإنسان... فكيف يمكن السكوت عنها! و التحقيق فى هذه الآيه و الآيه السابقه يكشف أن الإنسان حين ينحرف عن الجاده المستقيمه فإنه يفصل نفسه عن الحق - بشكل مستمر -.

ففى مرحله الأولى يعرض عن الحق و يصرف بوجهه عنه... ثمّ بالتدريج يبلغ مرحله الإنكار و التكذيب.. ثمّ يتجاوز هذه مرحله إلى السخرية و الاستهزاء... و نتيجة لذلك ينال عقاب الله و جزاءه «و قد ورد نظير هذا التعبير فى الآيتين ٤ و ٥ من سورة الأنعام».

## ملاحظتان

١- ورد فى بعض خطب أمير المؤمنين «فى نهج البلاغه» المعروفه بالخطبه

القاصعه إشاره إلى هذه الحقيقه، و هي أن الله أرسل الأنبياء على شاكلة يستطيع معها أن يؤمن الناس بدعوتهم إلى الله دون إكراه، بحيث لو لم يكونوا كذلك لكان الإيمان إجباريا، إذ

يقول: «و لو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان و معادن العقيان و مغارس الجنان و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرضين لفعل... و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء...» (١).

و

ورد في كتاب الكافي ذيل الآيه محل البحث «لو أنزل الله من السماء آيه فظلت أعناقهم لها خاضعين. و لو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين». (٢)

و مما يسترعى النظر أنه

ورد في بعض الكتب المعروفة كالإرشاد للشيخ المفيد، و روضه الكافي، و كمال الدين للشيخ الصدوق، و تفسير القمي، أن الإمام الصادق عليه السلام قال في تفسير الآيه: إِنْ نَشَأَ نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً... قال:

«تخضع رقابهم-يعنى بنى أميه- و هي الصيحه فى السماء باسم صاحب الأمر-صلوات الله عليه-». (٣)

و واضح أن المراد من هذه الروايات هو بيان مصداق من هذا المفهوم الواسع للآيه، إذ ستخضع أخيرا جميع الحكومات الباغيه و المتجبره و الظالمه التى تواصل السير على منهج حكومه بنى أميه، و ذلك عند ما يظهر المصلح المهدي عليه السلام إمام الحكومه العالميه، فتستسلم إذعانا لقدرته و حمايه الله له و تتحنى له إجلالا.

٢- أحد البحوث التى كثر الكلام فيها و التعليق عليها فى القرون الأولى- أو الصدر الأول- للإسلام هو البحث أو الكلام عن كون كلام الله قديما أو حادثا؟! و قد انجز هذا الكلام إلى كتب التفسير أيضا، و قد استدل جماعه من المفسرين بالتعبير الوارد فى الآيه أنفا «محدث» على كون القرآن حادثا.

ص: ٣٤١

١-١) -راجع نهج البلاغه، الخطبه القاصعه، رقم ١٩٢ «تواضع الأنبياء».

٢-٢) -الكافي حسب نقل تفسير نور الثقلين ذيل الآيه محل البحث.

٣-٣) -تفسير الميزان، و نور الثقلين ذيل الآيات محل البحث.

إلا أنه- كما أشرنا من قبل أيضا- فإن أساس هذا البحث لا يمكن أن يكون منطقياً بأي وجه، ويبدو أن ذوى السلطة أو أولى الأمر فى ذلك الزمان من بنى أميه و بنى العباس، كان لهم الأثر الكبير فى هذه البحوث المضله ليحرفوا أفكار المسلمين عن المسائل المهمه و الجدیه، و ليشغلوا علماء المسلمين بهذه المسائل حفاظا على حكومتهم و سلطتهم.

لأنه إذا كان المراد من كلام الله هو محتوى القرآن، فهو من الأزل فى علم الله و الله خبير بكل ما فيه، و إذا كان المراد منه نزول الوحي و كلمات القرآن و حروفه، فذلك حادث قطعا و لا خلاف فيه.

فبناء على ذلك فالقرآن تاره هو قديم بذلك النحو، و أخرى هو حادث قطعا بهذه الصوره، فعلى المجتمع الإسلامى أن يكون فطنا و لا سيما العلماء، فلا يبتلوا بالبحوث المضله الانحرافيه المبتدعه من قبل الجبابره و أعداء الإسلام.

ص: ٣٤٢

اشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَهٗ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

التفسير

اشاره

الزوجه في النباتات:

كان الكلام في الآيات المتقدمه عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعيه (أى القرآن المجيد)، أميا في الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينيّه و دلائل الله في خلقه و ما أوجده سبحانه، فالكفار لم يصمّوا آذانهم و يوصدوا أبواب قلوبهم بوجه أحاديث النبى و كلماته فحسب، بل كانوا يحرمون أعينهم رؤيه دلائل الحق المنتشره حولهم.

فتقول الآيه الأولى من هذه الآيات: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. (١)

ص: ٣٤٣

١ - ١) - يتعدى الفعل «يرى» عاده إلى المفعول بدون حرف الجر (إلى) وقد تتعدى إلى المفعولين، وإنما تعدت هنا بحرف الجر (إلى) لأن المراد منها النظر العميق الدقيق لا الرؤيه السطحيه...

والتعبير ب«زوج» في شأن النباتات يستحق الدقّه...فبالرغم من أنّ أغلب المفسّرين قالوا بأنّ الزوج يعنى النوع أو الصنف، وأنّ الأزواج معناها الأصناف و الأنواع، إلّا أنّه ما يمنع أن يفسر معنى الزوج بما يتبادر إلى الذهن من المعنى المعروف و هو الإشاره إلى الزوجيّة في النباتات؟! كان الناس فيما مضى يدركون أن بعض النباتات لها جنسان (ذكر و أنثى) و كانوا يستعينون بتلقيح النباتات لثمر...و كانت هذه المسأله معروفه و واضحه تماما في النخيل...

إلّا أنّ العالم السويدي و الخبير بعلم النبات «لينه» ووفق لأول مرّه في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي لاكتشاف هذه الحقيقه، و هي أن الزوجيه في عالم النباتات قانون عام تقريبا، و النباتات كسائر الحيوانات تحمل عن طريق تلقيح الذكر لأنثاه ثمّ تقذف بالثمار...

غير أنّ القرآن المجيد أشار إلى هذه الظاهره «الزوجيه في النبات» في آيات مختلفه مرارا قبل هذا العالم السويدي بقرون، كما هي الحال في الآيات محل البحث. و في الآيه الرابعه من سوره الرعد، و الآيه العاشره من سوره لقمان، و الآيه السابعه من سوره ق. و هذه الإشاره بنفسها إحدى معاجز القرآن العلميه! و كلمه «كريم» في الأصل تعنى كل شىء قيم و ثمين، فقد تستعمل في الإنسان، و قد تستعمل في النبات، و قد تستعمل في الكتاب [أى الرساله المعهوده بين المتراسلين]

أيضا... كما هي الحال في شأن حديث ملكه سبأ عن كتاب سليمان إليها إذا قالت: **إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ** . (١)

و المراد من كمّ **أَنْبَتْنَا فِيهَا** مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هو النباتات المهمّه ذوات الفائده، و طبعا ما من نبات إلّا و له فائده أو فوائد جمّه، و مع تقدم العلم تتجلى هذه

ص: ٣٤٤

الحقيقه يوما بعد يوم.

و تأتي الآيه التاليه لتقول مؤكده بصراحه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً .

أجل إن الالتفات إلى هذه الحقيقه، و هي أن هذا التراب الذى لا- قيمه له ظاهرا، بما فيه من تركيب معين هو مبدأ ظهور أنواع الأزهار الجميله، و الأشجار المثمره الظليله، و الفواكه ذات الألوان الزاهيه، و ما فيها من خواص مختلفه. و هو- أى التراب- يبين منتهى قدره الله، إلا- أن أولئك الذين طبع على قلوبهم فى غفله و جهل إلى درجه يرون معها آيات الله بأعينهم، و مع ذلك يجحدونها و يكفرون بها، و يترسخ فى قلوبهم العناد و الجدل! لذلك فإن الآيه هذه تعقب قائله: وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

أى إن عدم الإيمان لدى أولئك أمسى كالصفه الراسخه فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات، لأن قابليه المحل من شرائط التأثير الأصله أيضا كما نقرأ قوله تعالى: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . (١)

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدل على التهديد و الترهيب و التشويق و الترغيب، فيقول سبحانه: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ...

«العزیز» معناه المقتدر الذى لا- يغلب و لا- يقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنه قادر على إهلاك المكذبين و تدميرهم.. إلا أنه مع كل ذلك رحيم، و رحمته وسعت كل شىء، و يكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظه قصيره! لتشمل رحمته من أناب إليه و تاب، فيعفو عنه بلطفه و رحمته! و لعل تقديم كلمه «العزیز» على «الرحيم» لأنه لو تقدمت كلمه الرحيم على العزیز لأشعرت الإحساس بالضعف، إلا أنه قدم سبحانه الوصف بالعزیز ليعلم أنه و هو فى منتهى قدرته ذو رحمه واسع!

ص: ٣٤٥



إشارة

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ إِنَّا لَأَظَالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَيْدِرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِيَالِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) وَقَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)

التفسير

إشارة

بداهة رساله موسى:

قلنا إنّ في هذه السوره بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم...

فأول قصه تتناولها هذه السوره هي قصه موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفه من حياته وواجهته لفرعون واتباعه حتى هلاكهم بالغرق في النيل! وقد جاء الكلام عن بنى إسرائيل و موسى و فرعون و قومه حتى الآن في سور شتى «كالبقره و المائده و الأعراف و يونس و الإسراء و طه» كما ورد الكلام في هذا الشأن أيضا في بعض السور التاليه!...

و هذه البحوث و إن تكررت-بحسب الظاهر-إلا أن الإمعان أو التدقيق فيها يكشف عن أن كل بحث منها يتناول جانباً خاصاً من هذه القصه ذات المحتوى العزيز،و يعول على هدف معين!...

مثلاً..حين نزلت الآيات-محل البحث-كان المسلمون قلّه ضعافاً و كان أعداؤهم كثره أولى قوه و بأس شديد،بحيث لا يمكن الموازنه بين الفرقتين،فكان ينبغي أن يبين الله قصص الأمم السابقه المشابهه لحال هؤلاء،ليعلم المسلمون أن هذه القوه التي يمتلكها الأعداء و هذا الضعف الظاهري الذي يكتنف المسلمين لن يؤدي أى منهما بنفسه إلى اندحار المسلمين،و لتزداد معنويات المسلمين و تثبت استقامتهم و مقاومتهم...

و ممّا يلفت النظر تكرار عبارته: وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ بعد تمام الحديث عن كل نبي...و هو التعبير ذاته الوارد في بدايه هذه السوره في شأن النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ..و هذا الاتساق في التعبير شاهد حي على أن ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنما هو للظروف المتشابهه التي اكتنفت المسلمين من حيث الحاله النفسيه و الاجتماعيه كما كان عليها الأنبياء السابقون...

فتقول الآياتان الأوليان من الآيات محل البحث وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَّا يَتَّقُونَ. و يتركون ظلمهم و فسادهم و عنادهم للحق.

و ينبغي الالتفات إلى أنّ الصفه الوحيده المذكوره عن قوم فرعون هنا هي الظلم،و من الواضح أن الظلم له معنى جامع واسع و من مصاديقه الشرك كما تقول الآية(١٣)من سوره لقمان إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ...

كما أنّ استعباد بنى إسرائيل و استثمارهم و ما قارنهما من زجر و تعذيب من المصاديق الأخرى أيضاً،ثم بعد هذا كله فإن قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفه،و هكذا يمكن تلخيص أهداف دعوه الأنبياء جميعهم بمبارزه الظلم

بجميع أبعاده!...

و يحكى القرآن مقاله موسى الكليم لربّ العزه و ما طلبه منه من مزيد القوه و العون لحمل الرساله العظمى، فيقول فى الآيه التاليه:  
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَأَخْشَى أَنْ أُطْرَدَ قَبْلَ أَنْ أَكْمَلَ أَدَاءَ رِسَالَتِي بِمَا أَلَاقِيهِ مِنْ صَخْبٍ وَ تَكْذِيبٍ فَلَا يَتَحَقَّقُ الْهَدَفُ الْمَنْشُودُ...

و كان لموسى الحق فى كلامه هذا تاما، لأنّ فرعون و أتباعه و حاشيته كانوا مهيمين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم و لو برأيه، و إذا أحسوا بأدنى نغمه مخالفه لأى شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فورا..

و إضافه إلى ذلك فان صدرى لا يتسع لاستيعاب هذه الرساله الالهيه:

وَ يَضِيقُ صَدْرِي

ثم بعد هذا كله فلسانى قد يعجز عن بيانها: وَ لَا يَنْطَلِقُ لِلسَّانِي...

فلذلك فإنى أطلب أن تشدّ أزرى بأخى فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ . (١)

لنؤدى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا فى مواجهه الظالمين و المستكبرين.

و بغض النظر عن كلّ ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردوننى وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ كما يعتقدون لأننى قتلت واحدا منهم-حين كان يتنازع مع إسرائيلى مظلوم-بضربه حاسمه! و أنا قلق من ذلك فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ .

و فى الحقيقه إنّ موسى عليه السّلام كان يرى أربع مشاكل كبرى فى طريقه، فكان يطلب من الله حلّها لأداء رسالته و هذه المشاكل هى...

مشكله التكذيب.

مشكله ضيق الصدر.

ص: ٣٤٨

(١- ١) - فى هذه الجملة حذف و تقديره: فأرسل جبرئيل إلى هارون.

مشكله عدم الفصاحه الكافيه.

و مشكله القصاص! و يتضح ضمنا أنّ موسى لم يكن خائفا على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف و المقصد للأسباب آنفه الذكر، لذلك فقد كان يطلب من الله سبحانه مزيد القوّه لهذه المواجهه!...

طلبات موسى عليه السلام من الله في هذا الصدد خير شاهد على هذه الحقيقه، إذ طلب أن يشرح صدره و حلّ عقده لسانه و أن يرسل إلى هارون للمعاوضه في التبليغ كما جاء ذلك في سوره طه بصوره أكثر تفصيلا إذ قال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ اخْلُصْ عُنُقَهُ مِنْ لَبِّئْسَ بِنِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيْرًا .

فاستجاب الله طلب موسى و دعوه الصادقه و قَالَ كَلَّا فَلَئِنْ يَسْتَعْجِلُوْا قَتْلَكَ، أَوْ كَلَّا لَنْ يَضِيْقَ صَدْرُكَ وَ يَنْعَقِدَ لِسَانُكَ، وَ قَدْ أَجْبَنَّا دَعْوَتَكَ أَيْضًا فِي شَأْنِ أَخِيكَ، فَهُوَ مَأْمُوْرٌ مَعَكَ فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ: فَادْهَبَا يَا بَنِيَّادْهَبَا يَا بَنِيَّادْهَبَا لِتَدْعُوا فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيْدِ اللّٰهِ. وَ لَا تَطْنَأْ بِأَنَّ اللّٰهَ بَعِيْدٌ عَنْكُمْ أَوْ لَا يَسْمَعُ مَا تَقُوْلَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُوْنَ...

فأنا معكما و لن أترككما أبدا، و سأنصركما في الحوادث الصعبه، فاذهبا مطمئني خاطر، و امضيا في هذا السبيل بأقدام ثابتة و عزيزه راسخه!...

و هكذا فإنّ الله سبحانه أعطى لموسى الاطمئنان الكافي في جمل ثلاث و حقّق له طلبه... إذ طمأنه بقوله: كَلَّا عَلَى أَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لَنْ يَقْتُلُوْهُ وَ لَنْ يَسْتَعْجِلُوْا ذَلِكُمْ... و لن تحدث له مشكله بسبب ضيق صدره أو التلكؤ في لسانه و بقوله: فَادْهَبَا يَا بَنِيَّادْهَبَا يَا بَنِيَّادْهَبَا لِتَدْعُوا فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيْدِ اللّٰهِ. وَ لَا تَطْنَأْ بِأَنَّ اللّٰهَ بَعِيْدٌ عَنْكُمْ أَوْ لَا يَسْمَعُ مَا تَقُوْلَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُوْنَ وَعَدَهُمَا أَنَّهُمَا سَيَكُونَانِ أَبَدًا تَحْتَ ظِلِّ خِيْمَتِهِ وَ حِمَايَتِهِ!...

و مما ينبغى الالتفات إليه ورود الضمير فى آخر الجملة بصيغه الجمع فى قوله: إِنَّا مَعَكُمْ و لعل ذلك إشاره إلى أن الله حاضر مع موسى و هارون و من يواجهانها من الطغاه و الفراعنه فى جميع المحاورات، و يسمع ما يدور بينهم جميعا، فينصر موسى و أخاه هارون على أولئك الطغاه!...

و ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن كلمه «مع» داله على النصره و حمايه فلا تشمل قوم فرعون، غير سديد، بل إن «مع» تعنى حضور الخالق الدائم فى جميع الميادين و المحاورات حتى مع المذنبين، حتى مع المذنبين، و حتى مع الموجودات التى لا روح فيها، فهو فى كل مكان و لا يخلو منه مكان.

و التعبير ب«مستمعون»، أى الإصغاء المقرون بالتوجه هو تأكيد على هذه الحقيقه أيضا.

اشاره

فَأَيُّهَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)

التفسير

اشاره

مواجهه فرعون مواجهه منطقيه و قاطعه:

انتهت فى الآيات المتقدمه المرحله الأولى لمأموريه «موسى عليه السلام» و هى موضوع الوحي «و الرساله» و طلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير!...

و تعقيبا على المرحله الآنفه تأتى الآيات -محل البحث- لتمثل المرحله الثانيه، أى مواجهه موسى و هارون لفرعون، و الكلام المصيرى الذى جرى بينهم! تقول الآيه الأولى من هذه الآيات مقدمه لهذه المرحله: فَأَيُّهَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا

و جملة فَأَيُّا فِرْعَوْنَ تكشف عن أنهما ينبغي أن يواجهها فرعون نفسه بأية قيمه أو أى ثمن كان...

و التعبير ب«رسول» بصيغه الإفراد مع أنهما «موسى و هارون» نبيان مرسلان، يشير إلى وحده دعوتهما، فكأنهما روحان فى بدن واحد لهما خطّه واحده و هدف واحد. (١)

و ضمن دعوتكما لفرعون بأنكما رسولا- رب العالمين اطلبنا منه أن يرسل بنى إسرائيل و يرفع يده عنهم: أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

و بديهى أن المراد من الآيه أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبوديّة و القهر و الاستعباد، ليتحرروا و يأتوا مع موسى و هارون، و ليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

و هنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسه و ممزوجه بالخبث و الشيطنة لينفى الرساله و يقول لموسى: أَلَمْ نُزَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...

إذ التقطناك من أمواج النيل الهادره فأنقذناك من الهلاك، و هيأنا لك مرضعه، و عفونا عن الحكم الصادر فى قتل أبناء بنى إسرائيل الذى كنت مشمولاً به، فتربيت فى محيط هادئ آمن منعمًا... و بعد أن تربيت فى بيتنا عشت زماناً وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ .

ثم توجه إلى موسى و ذكره بموضوع قتل القبلى فقال: وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ .

ص: ٣٥٢

١ - ١) - يقول الراغب فى «المفردات»: «الرسول» من الكلمات التى تطلق على المفرد و الجمع، و إن جمعت أحيانا على «الرسول» فمنهم من يرى أنها مصدر أيضا و معناها الرساله، و نعرف أنه لا تشبيه و لا جمع فى المصدر. و قد ورد فى لسان العرب أن الرسول بمعنى الرساله، إلا أن هذه الكلمه تحمل المعنى الوصفى حتما، و كثيرا ما تجمع أو تشنى و قد ورد فى سوره طه عن هذه القصه و قصه موسى و هارون: «إنا رسولا ربك»!...

إشاره إلى أنه كيف يمكنك أن تكون نبيا و لديك مثل هذه السابقة؟! ثم بعد هذا كله: وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ! (أى بنعمه فرعون) فلطالما جلست على مائدتنا و تناولت من زادنا فكيف تكون نبيا و أنت كافر بنعمتي؟! و فى الحقيقه، كان فرعون يريد أن يجعل موسى محكوما بهذه التهم المواجهه إليه، و بهذا المنطق الاستدراجى.

و المراد من قصه القتل المذكوره هنا هو ما جاء فى سوره القصص «الآيه ١٥ منها» حيث جاء فيها أن موسى وجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوه، فاستغاثه الذى هو من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى ففضى عليه انتصارا لشيعته!...

و عند ما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجه بالخبث و الشيطنه أجاب على إشكالات فرعون الثلاثه، إلا أنه قدّم الإجابه على الإشكال الثانى نظرا لأهميته.

(أو أنه أساسا لم يجد الإشكال الأول يستحق الإجابه، لأن تربيته الشخص لا تكون دليلا على عدم جواز هدايه مرّيه إن كان المربى ضالا، ليسلك سبيل الرشاد).

و على كل حال أجابه موسى عليه السلام: قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ .

و هنا كلام طويل بن المفسرين على المراد من كلمه «الضالين» الوارده فى تعبير موسى عليه السلام... لأنه كما نعلم لا مجال لأن تكون للنبي سابقه سوء حتى قبل مرحله النبوه.. لأنها تزلزل موقعه فى أفكار عامه الناس، و يبقى الهدف من بعثته ناقصا غير تام، و لذلك فإن العصمه فى الأنبياء لازمه حتى قبل زمان نبوتهم!... هذا من جهه...

و من جهه أخرى ينبغى أن يكون هذا الكلام جوابا مسكنا و مفحما لفرعون! لذلك فإن كثيرا من المفسرين يعتقدون أن المراد من «الضال» هنا هو كونه أخطأ فى الموضوع، أى أن موسى كانت ضربته للرجل القبطى لا بقصد القتل، بل لكى



يحمى المظلوم و يدافع عنه،و لم يدر أنه ستؤول ضربته إلى الإجهاز عليه و قتله، فبناء على ذلك فإن الضالّ هنا معناه «الغافل» و المراد منه الغافل عن العاقبه التي أدى عمله إليها.

و قال بعض المفسرين: إنّ المراد من ذلك أنّه لم يكن أيّ خطأ في قتل القبطى الظالم لأنّه كان مستحقا، بل إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يقول: إنّه لم يدر أن عاقبه عمله ستكون على هذا الوجه، و أنّه لا- يستطيع البقاء في مصر و عليه أن يخرج بعيدا عن وطنه، و أن يتأخر منهجه «في أداء رسالته».

و لكن الظاهر أنّ هذا لا- يعدّ جوابا لفرعون، بل هو موضوع كان لموسى أن يبيّنه لأتباعه و من حوله من محبيه! إلا أنه ردّ على إشكال فرعون! و التفسير الثالث الذى من المحتمل أن يكون مناسبا أكثر لمقام موسى عليه السّلام -من جهات متعدده- و يتلاءم و عظمه كيانه، أن موسى عليه السّلام استخدم التوريه في تعبيره جوابا على كلام فرعون، فقال كلاما ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق في ذلك الزمان... لكنّ الله عزّفه إياه بعدئذ، و وهب له حكما- فجعله من المرسلين، إلا أنّه كان يقصد في الباطن أنه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدى إلى هذه النتيجة! من الجهد و العناء و اضطراب البال- مع أنّ أصل عمله كان حقا و مطابقا لقانون العدالة «أو أنه يوم كانت هذه الحادثه قد وقعت كان موسى عليه السّلام قد ضلّ طريقه فصادف أمامه هذه القضيه»...

و نحن نعرف أن «التوريه» هي أن يقول الإنسان كلاما باطنه حق، إلا أن الطرف الآخر يفهم من ظاهره شيئا آخر، و هذا الأمر يقع في موارد خاصه يتلى الإنسان فيها بالحرص أو الضيق، و لا يريد أن يكذب، و هو في الوقت ذاته على ظاهر كلامه... (1)

ص: ٣٥٤

---

١- ١) - هذا الكلام يوافق مضمون الحديث الوارد عن الإمام الرضا عليه السّلام في تفسير الآيه، راجع كتاب عيون اخبار الرضا، ج ٤، ص ٤٨ نقلا عن «نور الثقلين».

ثم يضيف موسى قائلا: فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتَكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ! وهناك اختلاف بين كلمات المفسيّرين في المراد من «الحكم» في هذه الآية، أهو مقام النبوه، أم مقام العلم، أم سواهما؟! لكن مع ملاحظه ذيل الآية نفسها المذكور فيها مقام رساله بإزاء الحكم يتضح أنه غير رساله و النبوه! والشاهد الآخر على هذا الموضوع الآية (٧٩) من سوره آل عمران إذ قال:

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ... .

إن كلمه «الحكم» تعنى فى اللغة: المنع من أجل الإصلاح، هذا هو الأصل فى ما وضعت له، ولذا سمّوا لجام الحيوان «حكّمه» على وزن (صدقه) ثم أطلقت هذه الكلمه على ما يطابق الحكمه، و من هنا سمى العقل و العلم حكما أيضا لهذا التناسب، و قد يقال: إنه يستفاد من الآية (١٤) من سوره القصص أن موسى عليه السلام كان قد بلغ مقام الحكم و العلم قبل هذه القضية إذ تقول: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا .

فنجيب على ذلك أن للعلم و الحكمه مراحل مختلفه، فكان موسى عليه السلام قد بلغ مرحله منهما من قبل، و حين بلغ مقام النبوه أدرك مرحله الأكمل!...

ثم يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه فى أنه رباه و تعهده منذ طفولته و صباه، معترضا عليه بلحن قاطع فيقول: وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

صحيح أن يد الحوادث ساقنتنى -و أنا طفل رضيع- إلى قصر ك، لأتربى فى كنفك، و كان فى ذلك بيان لقدره الله، لكن ترى كيف جئت إليك؟ و لم لا تربيت فى أحضان والدى و فى بيتهما؟! ألم يكن ذلك لأنك عبّدت بنى إسرائيل و صفّدت أيديهم بنير الأسر! حتى

أمرت أن يقتل الأطفال الذكور و تستحيا النساء للخدمه؟! فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سببا لأن تضعنى أُمى فى الصندوق حفاظا علىّ، و تلقينى فى أمواج النيل، و كانت مشيئه الله أن تسوق الأمواج «زورقى» الصغير حتى توصله إلى قصرك...أجل إن ظلمك الفاحش هو الذى جعلنى رهين ممتك و حرمنى من بيت أبى الكريم، و صيرنى فى قصرك الملوّث!...

و بهذا التفسير يتّضح ارتباط جواب موسى بسؤال فرعون تماما.

كما يحتمل فى تفسير هذه الآيه أنّ مراد موسى عليه السّلام هو الاعتراض على فرعون بأنّه لو كانت تربيتى عندك نعمه من قبلك، فهى إزاء ظلمك لبنى إسرائيل بمشابه القطره فى مقابل البحر، فأيه نعمه لك علىّ مع ما عندك من الظلم و الجور على الناس؟! و التفسير الثالث لجواب موسى لفرعون، هو أنّه لو تربيت فى قصرك و تمتعت بنعمك المختلفه، فلا تنس بناه قصرك الأوائل فهم أرقّاء من قومى، و الموجودون لجميع تلك النعم هم أسراؤك من بنى إسرائيل، فكيف تمنّ علىّ بجهود قومى و أتعابهم؟! و هذه التفاسير الثلاثه لا تتنافى جميعا، و إن كان التفسير الأوّل من بعض الجهات أكثر وضوحا! و يستفاد من عبارته: «من المرسلين» ضمنا بأننى لست الوحيد المرسل من قبل الله. فمن قبلى جاء رسل عدّه، و أنا واحد منهم، إلّا أن فرعون نسيهم أو تناساهم!!

ص: ٣٥٦

اشاره

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لئنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

التفسير

اشاره

الاتهام بالجنون و التهديد بالسجن:

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجه شديده: و أجابه بضرس قاطع، و أفحم فرعون فى ردّه، غير فرعون مجرى كلامه، و سأل موسى عن معنى كلامه أنه رسول رب العالمين، و قال فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ..

و من المستبعد جدًا أن يكون فرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال لفهم الحقيقه و معرفه الموضوع، بل يبدو أنه سألته متجاهلا و مستهزئا.

إلا- أن موسى-على كل حال-لم يجد بدا كسائر الباحثين الواعين اليقظين، أن يجيب على فرعون بجد...و حيث أن ذات الله سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنه أخذ يحدثه عن آيات الله في الآفاق و آثاره الحيّة إذ قال رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

فالسماوات بما فيهن من عظمه، و الأرض على سعتها...و الموجودات المتعدده بألوانها بحيث لا تساوى أنت و قصرك بإزائها إلا ذره في مقابل المجره! كلها من خلق ربّي، فمثل هذا الخالق المدبّر لهذا العالم جدير بالعباده، لا الموجود الضعيف التافه مثلك!...

و ينبغي الالتفات إلى أن عبده الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكلّ موجود في هذا العالم ربّاً، و كانوا يعدّون العالم تركيباً من نظم متفرقه، إلا أن كلام موسى عليه السّلام يشير إلى أن هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعه في عالم الوجود دليل على أن له ربّاً واحداً...

و جمله إن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ لعلها إشاره إلى أن موسى عليه السّلام يريد أن يفهم فرعون و من حوله-و لو تلويحاً-أنه يعرف أن الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقه...لأنّه لو أراد إدراك الحقيقه و البحث عنها لكان استدلاله كافياً...فكأنه يقول لهم:افتحوا أعينكم قليلاً و تفكروا ساعه في السماوات و الأرض بما فيهما من الآثار و عجائب المخلوقات...لتطلعوا على معالمها و تصححوا نظرتكم نحو الكون! إلا- أن فرعون لم يتيقظ من نومه الغافلين بهذا البيان المتين المحكم لهذا المعلم الكبير الرّباني السماوى...فعاد لمواصله الاستهزاء و السخرية، و اتبع طريقه المستكبرين القديمه بغرور، و قال لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ .

و معلوم من هم الذين حول فرعون؟فهم أشخاص من نسيجه و جماعه من أصحاب القوّه و الظلم و القهر و المال.

يقول ابن عباس: كان الذين حول فرعون هناك خمسمائه نفر، و هم يعدّون من خواص قومه. (١)

و كان الهدف من كلام فرعون أن لا- يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأولئك الرهط...فعده كلاما بلا محتوى و غير مفهوم.

إلا- أن موسى عليه السلام عاد مرّه أخرى إلى كلامه المنطقي دون أى خوف و لا وهن و لا إيهام، فواصل كلامه و قال رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .

إن موسى عليه السلام بدأ فى المرحلة الأولى ب«الآيات الآفاقية»، و فى المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الانفسية»، و أشار إلى أسرار الخلق فى وجود الناس أنفسهم و آثار ربوبيه الله فى أرواح البشر و أجسامهم، ليفكر هؤلاء المغرورون على الأقل فى أنفسهم و يحاولوا التعرّف عليها و بالتالى معرفه من خلقها.

إلا- أن فرعون تمادى فى حماقته، و تجاوز مرحله الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف قال إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ...

و ذلك ما اعتاده الجبابره و المستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الزبانيين!...

و ممّا يستجلب النظر أن هذا الضالّ المغرور لم يكن مستعدّا حتى لأنّ يقول:

«إنّ رسولنا الذى أرسل إلينا»، بل قال: «إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم»، لأنّ التعبير برسولكم- أيضا- له طابع الاستهزاء المقترن بالنظره الاستعلائية... يعنى:

إننى أكبر من أن يدعونى رسول... و كان الهدف من اتهامه موسى بالجنون هو إحباط و إفشال منطقه القوى المتين لثلا يترك أثرا فى أفكار الحاضرين.

إلا- أن هذه التهمه لم تؤثر فى روح موسى عليه السلام و معنوياته العاليه، و واصل بيان آثار الله فى عالم الإيجاد فى الآفاق و الأنفس، مبينا خط التوحيد الأصيل ف

ص: ٣٥٩

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

فإذا كنت-يا فرعون-تحكم حكما ظاهريا في أرض محدوده تدعى مصر، فإنّ حكمه ربّي الواقعيه تسع المشرق و المغرب و ما بينهما جميعا، و آثاره تشرق في وجوه الموجودات!...و أساسا فإنّ هذه الشمس في شروقها و غروبها و ما يتحكم فيها من نظام، كل ذلك بنفسه آيه له و دليل على عظمته...إلا- أنّ العيب كما من فيكم، لأنكم لا- تعقلون، و لم تعتادوا التفكير (و ينبغي الالتفات إلى أن جملة إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هي إشاره إلى أنه لو كنتم تتفكرون و تستعملون العقل في ماضى حياتكم و حاضرها لتوصلتم إلى إدراك هذه المسأله).

و في الواقع إن موسى عليه السّلام أجاب على اتهامهم إياه بالجنون بأسلوب بليغ بأنّه ليس مجنونا، و أنّ المجنون هو من لا يرى كل هذه الآثار و دلائل وجود الخالق، و العجيب أنه مع وجود الآثار على باب الدار و الجدار، فانه يوجد من لا يفكر في هذه الآثار!.

و صحيح أنّ موسى عليه السّلام أشار بادئ الأمر إلى تدبير أمر السماوات و الأرض، إلاّ أنه حيث أنّ السماء عاليه جدا، و أنّ الأرض ذات أسرار غريبه، فقد وضع موسى عليه السّلام أخيرا إصبعه على نقطه لا يمكن لأحد إنكارها، و يواجهها الإنسان كلّ يوم، و هي نظام طلوع الشمس و غروبها و ما فيها من منهج دقيق...و ليس لأحد من البشر أن يدعى أنّ بيده نظامها أبدا...

و التعبير ب«ما بينهما» إشاره إلى الوحده و الارتباط في ما بين المشرق و المغرب، و هكذا كان التعبير في شأن السماوات و الأرض. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .

و يبين التعبير رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ أيضا ارتباط النسل و الوحده فيه...

غير أن هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشده، فالتجأ إلى

استعمال «حربه» يفرع إليها المستكبرون عند الاندحار، فجابه موسى و قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ .

فأنا لا أعرف كلماتك، إنما أعرف وجود إله و معبود كبير و هو أنا... و من قال بغيره فهو محكوم بالإعدام أو السجن!...

و يعتقد بعض المفسرين أن الألف و اللام في «من المسجونين» هما للعهد، و هي إشارة إلى سجن خاص من ألقى فيه يبقى سجيناً حتى تخرج جنازته. (١)

و في الواقع كان فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الراهبى، لأن مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس، و ليس أخطر على الجابره من شيء كإيقاظ الناس!...

ص: ٣٦١

---

١- ١) - راجع تفسير الميزان، و الفخر الرازى، و روح المعانى ذيل الآيه محل البحث.



اشاره

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٣١) فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَعْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧)

التفسير

اشاره

بلادكم في خطر:

رأينا في الآيات المتقدمه كيف حافظ موسى عليه السّلام على تفوّقه-من حيث المنطق-على فرعون، و بين للحاضرين إلى أيّه درجه يعوّل مبدؤه على منطقته و عقله،و أن ادعاء فرعون واه و ضعيف،فتاره يسخر من موسى،و تاره يرميه بالجنون،و أخيرا يلجأ إلى التهديد بالسجن و الإعدام!...

و هنا يقلب موسى عليه السّلام صفحه جديده،فعليه أن يسلك طريقه أخرى يخذل

فيها فرعون و يعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوه أيضا، القوه الإلهيه التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحديا و قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ...

و هنا وجد فرعون نفسه فى طريق مغلق مسدود... لأن موسى عليه السلام أشار إلى خطه جديده! و لفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتد بكلامه، لا اعتراض عليه الجميع و لقالوا: دعه ليرينا عمله المهم، فلو كان قادرا على ذلك فلنرى، و نعلم حينئذ أنه لا يمكن الوقوف امامه، و إلا فستكشف مهزلتة!! و على كل حال ليس من اليسير تجاوز كلام موسى ببساطه...

فاضطر فرعون إلى الاستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ

«بأمر الله».

ثم أظهر إعجازا آخر حيث أدخل يده فى جيبه (أعلى الثوب) و أخرجها فإذا هى بيضاء منيره: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ .

فى الحقيقه إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، و الأخرى مظهر الأمل، فالأولى تناسب مقام الإنذار، و الثانیه للبشاره! و الأولى تبين عذاب الله، و الأخرى نور و آيه رحمة! لأن المعجزه ينبغى أن تكون منسجمه مع دعوه النبى عليه السلام.

«الثعبان» معناه الحيه العظيمة، و يحتمل الراغب فى مفرداته أن «الثعبان» من ماده (ثعب) المأخوذ معناه من جريان الماء، لأن حركه هذا الحيوان تشبه الأنهار المتحركه! و التعبير ب«المبين» لعله إشاره إلى هذه الحقيقه! و هى أن عصا موسى عليه السلام تبدلت إلى ثعبان عظيم فعلا، و لم يكن فى الأمر من إيهام أو سحر.

و لا بأس بذكر هذه اللطيفه الدقيقه هنا، و هى أن الآيه محل البحث عبرت [عن تبدل العصا]

ب«ثعبان». أما الآيه العاشره من سوره النمل، و الآيه الحاديه

و الثلاثون من سورة القصص، فقد عبرت عنها بـ«جان» «ما تجنّه (1) الأرض و ما يمشى عليها من الأفاعى الصغار بسرعه و قفز». أما الآيه العشرون من سورة طه فقد عبرت عنها بأنها «حيه» «المشتقه من الحياه».

و هذا التفاوت أو الاختلاف فى التعابير مثير للسؤال فى بدو النظر، إلا أنّ الاختلاف أو التفاوت إنّما هو لبيان واحد من أمرين:

١- لعله إشاره إلى حالات ذلك الثعبان المتباينه، ففى البدايه تبدلت العصا إلى جانّ أو حيه صغيره، ثم بدأت تكبر حتى صارت ثعبانا مينا!...

٢- أو أنّ هذه الألفاظ الثلاثه «الثعبان، و الجان، و الحيه» كلّ منها يرمز إلى بعض الخصائص الموجوده فى تلك العصا المتبدله إلى حاله جديده! فالثعبان إشاره إلى عظمتها، و الجان إشاره إلى سرعتها، و الحيه إشاره إلى حياتها! غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول و غرق فى وحشه عميقه و لكى يحافظ على قدرته الشيطانيه التى أحرق بها الخطر بظهور موسى عليه السّلام، و كذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه و الملاء من حوله فى توجيه معاجز موسى و لفت نظرهم عنها، فقد قالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

ذلك الإنسان الذى كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفه، و إذا هو الآن يعبر عنه بالعليم، و هكذا هى طريقه الجباريه و أسلوبهم، حيث تتبدل كلماتهم فى مجلس واحد عدّه مرّات، و يحاولون التشبث بأى شىء للوصول إلى هدفهم.

و كان فرعون يعتقد أن اتهام موسى بالسحر ألصق به و أكثر قبولاً عند السامعين، لأنّ ذلك العصر كان عصر السحر، فإذا أظهر موسى عليه السّلام معاجزه فمن اليسير توجيهها بالسحر.

و من أجل أن يعبئ الملاء و يثير حفيظتهم ضد موسى عليه السّلام، قال لهم:

ص: ٣٦٤

١- ١) -جن يجن «من الأضداد فى اللغه» و الضد فى الألفاظ ما يحمل معنيين متضادين، مثل الجون يطلق على الأسود و الأبيض، و جن بمعنى ستره و أظهره.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟

و الغريب فى الأمر أن فرعون الذى قال هذا الكلام هو الذى كان يقول من قبل: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟! و الآن حيث يرى عرشه متزعزعا ينسى مالكته المطلقة لهذه الأرض، و يعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم فى خطر، إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، ففكروا فى حيله!...

فرعون هذا لم يكن قبل ساعه مستعدا لأن يصغى لأحد، كان الأمر بلا منازع، أما الآن فهو فى حرج شديد يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟! إنها استشاره عاجزه و من موقف الضعف فحسب!...»

و يستفاد من الآية (١١٠) من سوره الأعراف أنّ اتباع فرعون و من حوله ائتمروا فيما بينهم و تشاوروا فى الأمر، و كانوا فى حاله من الاضطراب النفسى بحيث كان كلّ منهم يسأل الآخر قائلا: و أنت ما تقول؟! و ماذا تأمرون؟! أجل هذه سنّه الجابره فى كل عصر و زمان... فحين يسيطرون على الأوضاع يزعمون أن كل شىء لهم، و يعدون الجميع عبيدهم، و لا يفهمون شيئا سوى منطق الاستبداد. إلا أنّهم حين تهتّز عروشهم الظالمه و يرون حكوماتهم فى خطر، ينزلون مؤقتا عن استبدادهم و يلجأون إلى الناس و يتحدّثون باسم الناس، فالأرض أرض الشعب، و الحكومه تمثل الشعب و يحترمون آراء الشعب، و لكن حين يستقر الطوفان و يهدأ التيار، فإذا هم أصحاب الأمس و «عادت حلّمه إلى عادتها القديمه».

و رأينا فى عصرنا بقايا السلاطين القدامى كيف يحسبون أن الدوله ملكهم المطلق حين تقبل الدنيا عليهم، و يأمرون من يرفض إبتاعهم بالخروج عن تلك البلاد قائلين له: اذهب فى أرض الله العريضه الواسعه، ففى هذا البلد لا بدّ من تنفيذ ما نقول لا غير. و رأينا هذه الحاله عند ما بدأت هبّت رياح الثوره الإسلاميه كيف

أن الطواغيت أخذوا باحترام الشعب و تعظيمه، و حتى أنهم أقروا بذنوبهم و طلبوا العفو، و لكن الناس الذين عرفوا سجيتهم طوال سنين مديده لم ينخدعوا بذلك.

و بعد المشاوره فيما بينهم التفت الملاً من قوم فرعون إليه و قالوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . (١) أى أمهلها و ابعث رسلك الى جميع المناطق و الأمصار.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ

و فى الواقع أن رهط فرعون إمّا أنهم غفلوا، و إمّا أنهم قبلوا اتهامه لموسى و أعين للأمر. فهياًوا خطه على أنه ساحر، و لا بدّ من مواجهته بسحره أعظم منه و أكثر مهاره!...

و قالوا: لحسن الحظّ إنّ فى بلادنا العريضة سحره كثيرين، فلا بدّ من جمع السحره لإحباط سحر موسى عليه السّلام.

و كلمه (حاشرين) مأخوذه من ماده (الحشر) و معناه التعبئه و السوق لميدان الحرب و أمثال ذلك، و هكذا فينبغى على المأمورين أن يعبثوا السحره لمواجهه موسى عليه السّلام بأى ثمن كان!...

ص: ٣٦٦

---

١ - ١) - (أرجه) مشتقه من «الإرجاء»، و معناها التأخير و عدم الاستعجال فى القضاء، و الضمير فى (أرجه) يعود على موسى، و أصل الكلمه كان (أرجئه) و حذف الهمزه للتخفيف!

اشاره

فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

التفسير

اشاره

اجتماع السحره من كل مكان:

في هذه الآيات يعرض مشهدا آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحره و البحث عنهم،و كان الوعد المحدد فجمع السحره لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

و بتعبير آخر:إنهم هيئوهم من قبل لمثل هذا اليوم، كي تجتمعوا في الوعد المقرر في «ميدان العرض»..

و المراد من «اليوم المعلوم» كما يستفاد من بعض الآيات في سوره الأعراف، أنه بعض أعياد أهل مصر،وقد اختاره موسى عليه السلام للمواجهه و منازلله السحره...

و كان هدفه أن يجد الناس فرصه أوسع للاجتماع،لأنه كان مطمئنا بأنه سينتصر،

و كان يريد أن يظهر آيات الله و ضعف فرعون و الملاء من حوله للجميع، و ليشرق نور الإيمان في قلوب جماعه كثيرين!...

و طلب من الناس الحضور في هذا المشهد: وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ و هذا التعبير يدل على أنّ المأمورين من قبل فرعون بذلوا قصارى جهودهم في هذا الصدد... و كانوا يعلمون أنّهم لو أجبروا الناس على الحضور لكان ردّ الفعل سلبياً، لأنّ الإنسان يكره الإجبار و يعرض عنه بالفطره! لذلك قالوا: هل ترغبون في الحضور؟ و هل أنتم مجتمعون؟ و من البديهي أن هذا الأسلوب جرّ الكثير إلى حضور ذلك المشهد.

و قيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور و الاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الالهة و ينبغي علينا اتباعهم: لَعَلَّنَا تَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فلا بدّ من تهيج الساحة للمساعدة في هزيمه عدو الالهة إلى الأبد.

و واضح أنّ وجود المتفرجين كلّما كان أكثر شدّ من أزر الطرف المبارز، و كان مدعاه لأن يبذل أقصى جهده، كما أنه يزيد من معنوياته و عند ما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب و الضجيج إلى درجة يتوارى بها خصمه، كما أن وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحية الطرف المواجه «الخصم» فلا يدعه ينتصر! أجل إن اتباع فرعون بهذه الآمال كانوا يرغبون أن يحضر الناس، كما أنّ موسى عليه السّلام كان يطلب -من الله- أن يحضر مثل هذا الجمع الحاشد الهائل لليبين هدفه بأحسن وجه.

كل هذا من جهه، و من جهه أخرى كان السحرة يحلمون بالجائزه من قبل فرعون فلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ...

و كان فرعون قلقا مضطرب البال، لأنّه في طريق مسدود، و كان مستعداً لأن

يمنح السحرة أقصى الامتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و قَالَ نَعَمْ وَ إِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .اي إن فرعون قال لهم: ما الذى تريدون و تبتغون؟! المال أم الجاه، فكلاهما تحت يدى!...

و هذا التعبير يدلّ على أن التقرب من فرعون فى ذلك المحيط كان مهمّا إلى درجه قصوى! بحيث يذكره فرعون للسحرة و يعدّه أجرا عظيما، و فى الحقيقه لا أجر أعظم من أن يصل الإنسان إلى مقربه من القدره المطلوبه!...

فإذا كان الضالّون يعدّون التقرب من فرعون أعظم أجر، فإنّ عباد الله لا يرون أجرا أعظم من التقرب الى الله تعالى حتى الجنّه بما فيها من النعيم المقيم لا تقاس بنظره من وجهه الكريم لهم!...

و لذلك فإنّ الشهداء فى سبيل الله الذين ينبغى أن ينالوا أعظم الأجر لإيثارهم الكبير، ينالون التقرب من الله بشهادته القرآن! و التعبير القرآنى عِنْدَ رَبِّهِمْ شاهد بليغ على هذه الحقيقه!...

و كذلك فإنّ المؤمن السليم القلب حين يؤدى العباده لله، يؤديها بهدف «قربه الى الله»...



اشاره

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلْيَسُوْفَ تَعْلَمُونَ لِمَ قَطَعْنَا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصِيبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

التفسير

اشاره

نور الإيمان في قلوب السحرة:

حين اتفق السحرة مع فرعون و وعدهم بالأجر و القرب منه، و شد من عزمهم، فإنهم بدأوا بتهيئه المقدمات و وفروا خلال ما سخط لهم الفرصه عصيهم و حبالهم، و يظهر أنهم صيروها جوفاء و طلوها بماده كيميائيه كالزئبق-مثلا-بحيث تتحرك

و تلمع عند شروق الشمس عليها! و أخيرا كان اليوم الموعود و الميقات المعلوم، و انشال الناس إلى ساحه العرض ليشهدوا المبارزه التاريخيه، ففرعون و قومه من جانب، و السحره من جانب آخر، و موسى و أخوه هارون من جانب ثالث، كلهم حضروا هناك! و كعاده القرآن في حذف المقدمات المفهومه من خلال الآيات المذكوره، و الشروع بذكر أصل الموضوع، فيتحدث عن مواجهه موسى للسحره حيث التفت إليهم و: **قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ .**

و يستفاد من الآيه (١١٥) من سوره الأعراف، أنّ موسى عليه السلام قال ذلك عند ما سأله السحره: هل تلقى أنت أولا أم نلقى نحن أولا؟ و هذا الاقتراح من قبل موسى عليه السلام يدلّ أنّه كان مطمئنا لانتصاره، و دليلا على هدوئه و سكينته أمام ذلك الحشد الهائل من الأعداء و أتباع فرعون... كان هذا الاقتراح يعدّ أول «ضربه» يدمغ بها السحره، و يبيّن فيها أنه يتمتع بالهدوء النفسى الخاص، و أنّه مرتبط بمكان آخر و متصل به.

و أمّا السحره الغارقون بغرورهم، و الذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين و مؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام **فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ . (١)**

أجل، لقد استندوا إلى عزّه فرعون كسائر المتملقين، و بدأوا باسمه و قدرته الواهيه! و هنا- كما يبيّن القرآن في مكان آخر من سوره و آياته- تحركت العصي كأنها الأفاعى و الثعابين و يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . (٢)

و قد انتخب السحره العصى كوسائل لسحرتهم، لتتغلب حسب تصوّرهم على

ص: ٣٧١

١-١) -«الجبال» جمع «جبل» على وزن (طبل) و معناها واضح، و العصى جمع العصا.

٢-٢) -سوره طه، الآيه ٦٦.

عصى موسى، و أضافوا عليها الحبال لثبوتها علوهم و فضلهم عليه...

فتهللت أسارير وجوه الناس و وجه فرعون فرحا، و أشرق الأمل فى عيني فرعون و أتباعه، و سرّوا سرورا لم يكن ليخفى على أحد، و سرت فيهم نشوة اللذة من هذا المشهد! إلا أنّ موسى عليه السّلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد و يدوم هذا الفصل المثير، فتقدم فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فتحولت الى ثعبان عظيم و بدأت بالتهام وسائل و أدوات السحره بسرعه بالغه فإذا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ . (١)

و هنا طاف صمت مهيب على وجوه الحاضرين و غشاهم الوجوم و فغرت الأفواه من الدهشه و العجب، و جمدت العيون، و لكن سرعان ما انفجر المشهد بصراخ المتفرجين المذعورين ففر جماعه من مكانهم و بقى آخرون يتربعون نهايه المشهد، و أفواه السحره فاغره من الدهشه...

و تبدّل كل شىء، و ثاب السحره إلى رشدهم بعد أن كانوا- إلى تلك اللحظه- مع فرعون غارقين فى الشيطنه، و لأنهم كانوا عارفين بقضايا السحر و دقائقه، فإنهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحرا، بل هى معجزه إلهيه كبرى فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ .

الطريف أنّ القرآن يعبر عن خضوع السحره ب«ألقى» و هذا التعبير إشاره إلى منتهى التأثير و جاذبيه معجزه موسى لهم، حتى كأنهم سقطوا على الأرض و سجدوا دون اختيارهم...

و اقترن هذا العمل العبادى- هو السجود- بالقول بلسانهم ف قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

و لئلا يبقى مجال للإبهام و الغموض و التردد، و لئلا يفسر فرعون ذلك تفسيرا

ص: ٣٧٢

---

١ - ١) - (تلقف) مشتق من (اللقف) على زنه (السقف) و معناه إمساك الشىء بسرعه، سواء كان ذلك باليد أم الفم، و معلوم أن المراد هنا الإمساك بالفم و الابتلاع، و (يأفكون) مشتق من (الإفك) و معناه الكذب، و هى إشاره إلى وسائلهم الباطله.

آخر فإنهم قالوا: رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ .

و هذا التعبير يدلّ على أنّه و إن كان موسى عليه السّلام متكفلا- لأمر المبارزه و إلقاء العصا و محاججه السحره، إلا أنّ أخاه هارون كان يعاضده في الأمر، و كان مستعدا لتقديم أي عون لأخيه.

و هذا التبدل و التغيّر المفاجئ العجيب في نفوس السحره بحيث خطوا في لحظه واحده من الظلمه المطلقه إلى النور المبين. و لم يكتفوا بذلك حتى أقحموا أنفسهم في خطر القتل، و أعرضوا عن مغريات فرعون و مصالحتهم الماديه... كلّ ذلك لما كان عندهم من «علم» استطاعوا من خلاله أن يتركوا الباطل و يتمسكوا بالحق! إنهم لم يجوبوا باقي الطريق بخطى العقل فحسب، بل ركبوا خيول العشق، و قد سكروا من عطر أزهاره، حتى كأنهم لم يفيقوا من سكرتهم، و سنرى أنّهم لهذا السبب استقاموا بشجاعه أمام تهديدات فرعون الرهيبه...

نقرأ

حديثا عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمان، إن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه» (١) (و بديهي أن مشيئه الله في هاتين المرحلتين تتعلق باستعداد الإنسان، و هذا التوفيق أو سلب التوفيق إنّما هو لأجل قابليه القلوب المختلفه، و ليس اعتباطا).

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوما معنويا و يرى من جانب آخر أن وجوده و سلطانه في خطر، و خاصّه أنه كان يعرف أيّ تأثير عميق لإيمان السحره في قلوب سائر الناس، و من الممكن أن يسجد جماعه آخرون كما سجد السحره، فقد تذرّع بوسيله جديده و ابتكار ماكر، فالتفت إلى السحره و قال آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ . (٢)

ص: ٣٧٣

(١-١) - تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٢٠٨.

(٢-٢) - جاء التعبير في هذه الآيه (٧١) من سوره طه ب آمَنْتُمْ لَهُ و جاء التعبير في الآيه (١٢٣) من سوره الأعراف

لقد تربع على عرش الاستبداد سنين طوالاً، ولم يكن يتربص من الناس أن لا يسجدوا أو يقوموا بعمل دون إذنه فحسب، بل كان ترقبه أن تكون قلوب الناس و أفكارهم مرهونه به و بأمره، فليس لهم أن يفكروا دون اذنه!! و هكذا هي سنه الجبارة و المستكبرين!.

هذا المغرور الطائش لم يكن مستعداً لأن يذكر اسم الله و لا اسم موسى، بل اكتفى بالقول (آمنتم له) او المراد من هذا التعبير هو التحقير!! إلا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أخريين ليثبت موقعه كما يتصور أولاً، و ليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفله نياماً.

فأتهم السحرة أولاً بأنهم تواطؤوا مع موسى عليه السلام و تأمروا على أهل مصر جميعاً، فقال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .

و قد اتفقت مع موسى من قبل أن تردوا هذه الساحه، فنضلوا أهل مصر و تجرّوهم إلى الخضوع تحت سيطره حكومتكم، و تريدون أن تطردوا أصحاب هذا البلد و تخرجوهم من ديارهم و تحلّوا العبيد محلهم...

إلا- أننى لا- أدعكم تنتصرون فى هذه المؤامره، و سأخنق المؤامره فى مهدها فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَمَاقَطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى: لا- أكتفى بإعدامكم فحسب، بل أقتلكم قتلاً- بالتعذيب و الزجر بين الملاء- العام، و على جذوع النخل، (لأن قطع الأيدي و الأرجل من خلاف يؤدي إلى الموت البطيء، فيذوق معه الإنسان التعذيب أكثر).

و هذه هي طريقه الجبارة و الحكام الظلمه فى كل عصر و زمان، ففى البدء يتهمون الرجال المصلحين بالتآمر ضد الناس، و بعد الاستفاده من حربه التهمه يعملون السيف فى رقاب ليضعف موقع المطالبين بالحق و لا- يجدوا معاضدا لهم، فيزيحوهم من طريقهم.

إلا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظه- و المؤمنين فى هذه

اللحظه-قد غمر قلوبهم الإيمان، وأضرهم عشق الله، بحيث لم يهزهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع و احتبطوا خطته و قالوا  
لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ .

فأنت بهذا العمل لا تنقص منّا شيئاً، بل توصلنا إلى معشوقنا الحقيقي و المعبود الواقعي، فيوم كانت هذا التهديدات تؤثر فينا لم  
نعرف أنفسنا و لم نعرف ربنا، و كنا، ضالين مضلين، إلا أننا عثرنا اليوم على ضالتنا (فاقض ما أنت قاض)! ثم أضافوا بأنهم واجهوا  
النبي موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب و أذنبوا كثيراً، و لكن مع ذلك ف إِذَا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ  
الْمُؤْمِنِينَ ...

إننا لا نستوحش اليوم من أى شىء، لا من تهديداتك، و لا من تقطيع الأيدي و الأرجل من خلاف و لا من الصلب على جذوع  
النخل.

و إذا كنا نخاف من شىء، فإنما نخاف من ذنوبنا الماضية، و نرجو أن تمحى فى ظل الإيمان و بفضل الله و لطفه! أيه طاقة و قوه  
هذه التى إن وجدت فى الإنسان صغرت عندها أعظم القوى، و هانت عنده أشد الأمور، و كرمت نفسه بسخاء فى موقف التضحية  
و الإيثارة؟! إنها قوه الإيمان.

إنها شعله العشق النيره، التى تجعل الشهاده فى سبيل الله أحلى من الشهد و العسل، و تصير الوصال إلى المحبوب أسمى الأهداف!  
هذه هى القوه التى استعان بها النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ربي المسلمين الأوائل عليها، و أوصل أمه جهلاء متأخره إلى  
أوج الفخر بسرعه مذهله، فكانت الأمه المسلمه التى أذهلت الدنيا! إلا أن هذا المشهد-على كل حال- كان غاليا و صعبا على  
فرعون و قومه، بالرغم من أنه طبق تهديداته-طبقا لبعض الروايات- فاستشهد على يديه السحره المؤمنون- إلا أن ذلك لم يطفىء  
عواطف الناس تجاه موسى فحسب، بل أثارها

أكثر فأكثر!...

ففى كل مكان كانت اصداء النبى الجديد...و فى كل حذب و صوب حديث عن أوائل الشهداء المؤمنين، و هكذا آمن جماعه بهذا النحو، حتى أن جماعه من قوم فرعون و أصحابه المقربين حتى زوجته، آمنوا بموسى ايضا.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: كيف عبر السحره التائبون المؤمنون عن أنفسهم بأنهم أول المؤمنين...

هل كان مرادهم أنهم أول المؤمنين فى ذلك المشهد؟! أو كان مرادهم أنهم أول المؤمنين من حماه فرعون؟! أو أنهم أول المؤمنين الذين وردوا «الشهاده».

كل هذه الأمور محتمله، و لا تتنافى فى ما بينها.

و هذه التفاسير إنما تصحّ فى صورته ما لو قلنا بأن جماعه من بنى إسرائيل أو من غيرهم آمنوا بموسى قبل ذلك، أما لو قلنا بأنهم أمروا بعد البعثه أن يتصلوا بفرعون مباشره و أن يوردوا الضربه الأولى عليه، فلا يبعد أن يكونوا أول المؤمنين، و لا حاجه عندئذ إلى تفسير آخر.

ص: ٣٧٤

إشارة

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكُمْ مَّتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَكَاغِبُونَ (٥٥) وَ إِذَا لَجِمْتُمْ لَاجِزُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَا هُمْ مِنْ جَنَاتٍ وَ عَيْوُنٍ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)

التفسير

إشارة

مصير الفراعنة:

في الآيات المتقدمة... رأينا كيف أن موسى خرج منتصرا من تلك المواجهه.

رغم عدم إيمان فرعون و قومه إلا أن هذه القضية كان لها عده آثار مهمه، يعد كل منها انتصارا مهما:

١- آمن بنو إسرائيل بنبينهم «موسى عليه السلام» و التفوا حوله بقلوب موّده... لأنهم بعد سنوات طوال من القهر و التعسف و الجور يرون نبيا سماويا في أوساطهم يضمن هدايتهم و على استعداد لأن يقود ثورتهم نحو الحريه و تحقيق النصر على فرعون.



٢- لقد شقّ موسى عليه السّلام طريقه وسط أهل مصر من الأقباط وغيرهم... و مال إليه جمع منهم، أو على الأقل خافوا من مخالفته، و طافت أصداء دعوته موسى في أرجاء مصر جمعاء! ٣- و أهمّ من كل ذلك أنّ فرعون لم ير في نفسه القدرة-لا من جهة أفكار عامّة الناس، و لا من جهة الخوف على مقامه-على مواجهه رجل له عصا كهذه العصا، و لسان مؤثر كلسان موسى.

هذه الأمور هيأت أرضيه ملائمه لأن ينشر موسى عليه السّلام دعوته بين الناس، و يتمّ الحججه عليهم! و مرّت سنون طوال على هذا المنوال، و موسى عليه السّلام يظهر المعاجز تلو المعاجز -كما أشارت إليها سوره الأعراف و بيّناها في ذيل الآيات ١٣٠-١٣٥ منها-إلى جانب منطقته المتين، حتى ابتلى الله أهل مصر بالقحط و الجذب لسنوات لعلمهم يتّقون «المزيد الإيضاح لا بأس بمراجعته تفسير الآيات آنفه الذكر»...

و لثمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحججه البالغة، و امتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحي على موسى أن يخرج بقومه من مصر، و الآيات التاليه تجسد هذا المشهد فتقول أوّلا: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ .**

و هذه خطه إلهيه على موسى عليه السّلام أن يمتثلها و يسرى بقومه ليلا، و إنّ على فرعون و قومه أن يعلموا ذلك فيتبعوهم ليحدث ما يحدث بأمر الله.

و التعبير ب«عبادى» بضمير الإفراد، مع أن الفعل (أوحينا) فى الجملة ذاتها مسند إلى ضمير الجمع، إنّما هو لبيان منتهى محبه الله لعباده المؤمنين...

و فعلا امتثل موسى عليه السّلام هذا الأمر، و عبأ بنى إسرائيل بعيدها عن أعين أعدائهم، و أمرهم بالتحرك، و اختار الليل خاصيه لتنفيذ أمر الله لتكون خطته نافذه.

إلا أن من البديهي أن حركة جماعه بهذا الشكل ليس هينا يسيرا يمكن

إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، و كما يحدثنا القرآن عن ذلك أن فرعون أرسل رسله و أعوانه الى المدن لجمع القوات: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ .

بالطبع فإنّ في تلك الظروف، وصول إبلاغ فرعون إلى المدائن، و جميع مناطق مصر، يحتاج إلى زمان معتنى به لكن من الطبيعي أن يصل هذا البلاغ المدن القريبه بسرعه و تتحرك القوى المعده فورا، و تؤدي مقدمه الجيش مهمتها، و تتبعها بقية الأفواج بالتدرج...

و لتعبئه الناس -ضمنا- و تهيئه الأرضيه لإثارتهم ضد موسى و قومه، أمر فرعون أن يعلن إنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُذْمَةٌ قَلِيلُونَ .

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليله حتما.

و«الشردمه» في الأصل تعنى القله من الجماعه، كما تعنى ما تبقى من الشىء، و يطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أن هَؤُلَاءِ «أى موسى و قومه» بالإضافه إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسم عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث أعداد الجيش فيهم...

ثمّ تضيف الآيه الأخرى حاكيه عن لسان فرعون وَ إِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ فَمَنْ يَسْقَى مَزَارِعَنَا غَدًا، و من بينى لنا القصور؟ و من يخدم فى البيوت و القصور غيرهم؟! ثمّ إنّنا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: وَإِذَا لَجِمِيعٌ لِحَاذِرُونَ و مستعدون جميعا لمواجهتهم.

و قد فسّر بعضهم «حاذرون» على أنها من الحذر، بمعنى الخوف و الخشيه من التآمر، و فسّر بعضهم (حاذرون) على أنها من الحذر، بمعنى الفطنه و التهيؤ من حيث السلاح و القوه. إلا أن هذين التفسيرين لا منافاه بينهما، فربما كان فرعون

و قومه قلقين من موسى و مستعدين لمواجهته أيضا.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبه فرعون و قومه و زوال حكومته، و قيام حكومه بنى إسرائيل، فيقول: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ... وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ .

أجل كذلك و أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

و هناك اختلاف بين المفسرين فى المراد من كلمه مَقَامٍ كَرِيمٍ، فقال بعضهم بأنّها القصور المجلله و المساكن المظلمه...

و قال بعضهم بأنّها المجالس المنعقده بالحبور و السرور و النشاط.

و قال بعضهم: المراد مقام الحكام و الأمراء، الذين يجلسون على كراسيهم و من حولهم أتباعهم و جنودهم يمثلون أوامرهم...

و قال بعضهم: بل يعنى المنابر التى كان يصعدها الخطباء «المنابر التى كانت لصالح فرعون و حكومته و جهازه فهى بمثابة أبواق إعلام له».

و بالطبع فإن المعنى الأول أنسب من الجميع كما يبدو، رغم أن هذه المعانى غير متباينه و من الممكن أن تجتمع هذه المعانى جميعا فى مفهوم الآيه...

فالمستكبرون (فرعون و قومه) أخرجوا من قصورهم و حكومتهم و موقعهم و قدرتهم، كما أخرجوا من مجالسهم المنعقده بالحبور و السرور.

## ملاحظات

### إشارة

#### ١- هل حكم بنو إسرائيل فى مصر!؟

على أساس تعبير الآيات المتقدمه كذلك و أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... فَإِنَّ جَمْعًا مِنَ الْمَفْسَّرِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَادُوا إِلَى مِصْرَ وَ سَيَطْرُقُوا عَلَى

الحكم، و مكثوا في مصر حاكمين مدّه. (١)

و ظاهر الآيات المتقدمه يناسب هذا التفسير.

في حين أن بعض المفسرين يعتقد أن بنى إسرائيل تحركوا نحو بيت المقدس بعد هلاك فرعون و أتباعه، إلا أنهم بعد مدّه مديده رجعوا إلى مصر و شكلوا فيها حكومتهم. (٢)

و تتطابق فصول التوراه الحاليه المتعلقه بهذا القسم مع هذا التفسير.

و يعتقد بعض آخر من المفسرين أن بنى إسرائيل صاروا جماعتين أو فئتين، فجماعه منهم بقيت في مصر و حكمت فيها، و تحركت جماعه منهم مع موسى نحو بيت المقدس.

و ذكر احتمال آخر، و هو أن بنى إسرائيل حكموا مصر بعد موسى عليه السلام و في زمان النبي سليمان بن داود، و الآية كذلك و أوردتها بنى إسرائيل ناظره إلى هذا المعنى! إلا أنه مع ملاحظه أن موسى عليه السلام نبي ثائر كبير، فمن البعيد جدًا أن يترك هذه الأرض التي تهاوت أركان حكومتها و قد أصبحت مقاليد أمورها بيده فيذرهما كلياً دون أن يخطط لها خطه و يتجه نحو فلسطين و بيت المقدس و الصحارى الشاسعه، و لا سيما أن بنى إسرائيل قد سكنوا مصر لسنين طوال، و تعودوا على محيطها، فبناء على هذا لا يخرج الأمر من أحد حالين... أما أن نقول: إن بنى إسرائيل عادوا جميعاً إلى مصر و حكموا فيها، أو أن نقول: إن قسماً منهم بقوا في مصر بأمر موسى عليه السلام و استولوا على العرش و حكموا في مصر!... و في غير هاتين الحالين لا يتجلى مفهوم لإخراج الفراعنه منها و وراثه بنى إسرائيل لها...

ص: ٣٨١

١ - ١) - راجع مجمع البيان و القرطبي: ذيل الآيات محل البحث، كما أن الألوسى فسّر هذا الموضوع في روح المعاني تفسيراً يستحق النظر!

٢ - ٢) - روح المعاني ذيل الآيات محل البحث.

## ٢- ترتيب الآيات

يشرح القرآن فيما يأتى من الآيات كيفه غرق فرعون و اتباعه، و هذا الأمر يدعو إلى التساؤل: كيف يذكر القرآن إخراج فرعون و قومه من جنات و عيون و كنوز و مقام كريم و إيراثه «ذلك» بنى إسرائيل! ثم يذكر كيفه غرق فرعون و قومه؟ مع أن الترتيب الطبيعى للآيات ليس كذلك...

هذا الأمر ربّما يكون من قبيل بيان الإجمال ثم التفصيل، أى أن القرآن ذكر الموضوع أولاً بصوره مجمله، ثم وضحه فى الآيات الاخر! كما يمكن أن يكون من قبيل ذكر النتيجة، ثم شرح المقدمات «فتدبر».

ص: ٣٨٢

اشاره

فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا بَرَأْنَا الْجَمْعَانَ قَالُوا أَصْرِحْ بِمُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فُوْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

التفسير

اشاره

عاقبه فرعون و أتباعه الوخيمه

في هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصه موسى و فرعون، و هو كيفية هلاك فرعون و قومه، و نجاه بنى إسرائيل و انتصارهم! و كما قرأنا في الآيات المتقدمه فإن فرعون أرسل المدائن حاشرين، و هيا مقداراً كافياً من «القوه» و الجيش، قال بعض المفسرين: كان ما أرسله فرعون على أنه مقدمه الجيش ستمائه ألف مقاتل، و تبعهم نفسه بألف ألف مقاتل «أى

تحركوا في جوف الليل ليدر كوههم بسرعه، فبلغوهم صباحا كما تقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٢)

فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ .

فأما منا بحر خضم متلاطم بالأمواج، و من ورائنا بحر من الجيوش المتعطشه للدماء بتجهيزاتها الكامله... هؤلاء الغاضبون علينا و هم الذين قتلوا أطفالنا الأبرياء سنين طوالا... و فرعون نفسه رجل دموى جبار... فعلى هذا سيحاصروننا بسرعه، و يقتلوننا جميعا بحد السيوف، أو سيأسروننا و يعذبوننا، و القرائن جميعها تدل على ذلك.

و هنا مرّت لحظات عسيره على بنى إسرائيل... لحظات مرّه لا يمكن وصف مرارتها... و لعل جماعه منهم تزلزل إيمانهم و فقدوا معنوياتهم و روحياتهم.

إلا- أنّ موسى عليه السلام كان مطمئنا هادئ البال، و كان يعرف أنّ وعد الله فى هلاك فرعون و قومه و نجاه بنى إسرائيل لا يتخلف أبدا و لن يخلف الله وعده رسله!...

لذلك التفت إلى بنى إسرائيل الفرعين بكمال الاطمئنان و الثقه و قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

و لعلّ هذا التعبير يشير إلى وعد الله لموسى و أخيه هارون حين أمرهما بإنذار قومهما، إذ قال لهما: إنى معكما أسمع و أرى. (٣)

إذ كان موسى يعلم أنّ الله معه فى كل مكان، و خاصّه تعويله فى كلامه على كلمه (ربّي) أى الله المالك و المرّبى هذا يدل على أنّ موسى عليه السلام كان يدري أنّه

ص: ٣٨٤

---

١- ١) - كلمه مليون و أخواتها (مليار، بليون إلخ) من مصطلحات العصر و هى غير عربيّه، و كان العرب يقولون ألف ألف.  
٢- ٢) - قال بعض المفسرين: المراد من «مشرقين»، أنّ بنى إسرائيل ساروا نحو الشرق، و اتّباع فرعون و قومه بالاتجاه نفسه، لأنّ بيت المقدس يقع شرق مصر!  
٣- ٣) - سورة طه، الآيه ٤٦.

لا يطوى هذا الطريق بخطاه، بل بلطف الله القادر الرحيم...

و فى هذه الحال التى قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، و كانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ... .

تلك العصا التى هى فى يوم آيه إنذار، و فى يوم آخر آيه رحمه و نجاه! فامتثل موسى عليه السلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بنى إسرائيل، إذا انشقَّ البحرَ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ! و«انفلق» مأخوذ من «الفلق» و معناه الإنشقاق و«فرق» من ماده «فرق» على زنه «حلق» و معناه الانفصال! و بتعبير آخر، كما يقول الراغب فى مفرداته: أن الفرق بين (فلق) و(فرق) هو أن الأول يشير إلى الإنشقاق (أو الانشطار) و الثانى يشير إلى الانفصال، و لذا تطلق الفرقه و الفرق على القطعه أو الجماعه التى انفصلت عن البقيته!...

«الطود» معناه الجبل العظيم، و وصف الطود بالعظمه فى الآيه تأكيد آخر على معناه.

و على كل حال، فإنَّ الله الذى ينفذ أمره فى كل شىء، و بأمره تموج البحار و تتصرف الرياح و تتحرك العواصف و كل شىء فى عالم الوجود من رشحات فضله و قدرته أصدر أمره الى البحر، و أمواجه، فالتحمت الأمواج و تراكمت بعضها إلى بعض، و ظهرت ما بينها طرق سالكه، فمرّت كل فرقه من بنى إسرائيل فى إحدى الطرق! إلاَّ أنَّ فرعون و أتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزه الكبرى الواضحه لم يذعنوا للحق، و لم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى و رهطه ليلبغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن فى هذا الشأن: وَ أَرْزَلْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ...



و هكذا ورد فرعون و قومه البحر أيضا، و اتبعوا عبيدهم القدماء الذين استرقوهم بطغيانهم، و هم غافلون عن أن لحظات عمرهم تقترب من النهايه، و أن عذاب الله سينزل فيهم! و تقول الآيه التاليه: **وَ أَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ** .

و حين خرج آخر من كان من بنى إسرائيل من البحر، و دخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعادت الأمواج إلى حالتها الأولى فانهاالت عليهم فجأه، فهلك فرعون و قومه في البحر، و صار كل منهم كالقشبه في وسط الأمواج المتلاطمه.

و يبين القرآن هذه الحاله بعباره موجزه متينه فيقول: **ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ...**

و هكذا انتهى كل شىء في لحظه واحده... فالأرقاء أصبحوا أحرارا، و هلك الجبابره، و انطوت صفحه من صفحات التاريخ، و انتهت تلك الحضاره المشيده على دماء المستضعفين، و ورث الحكومه و الملك المستضعفون بعدهم.

**أَجَلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ فَكَأَنَّ فِي أَعْيُنِهِمْ عَمَىٰ، و في آذانهم و قراء، و على قلوب أقفالا.**

فحيث لا- يؤمن فرعون و قومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبه، فلا- تعجب إذا ألا- يؤمن بك المشركون- يا محمد- و لا تحزن عليهم لعدم إيمانهم، فالتاريخ- يحمل بين طياته و ثناياه كثيرا من هذه المشاهد! و التعبير ب«أكثرهم» إشاره إلى أن جماعه من قوم فرعون آمنوا بموسى و التحقوا بأصحابه، لا آسبه امرأه فرعون فحسب، و لا رفيق موسى المخلص المذكور في القرآن على أنه مؤمن من آل فرعون، بل آخرون أيضا كالسحره النائين مثلا.

أما آخر آيه من هذه الآيات فتشير في عباره موجزه و ذات معنى غزير إلى قدره الله و رحمته المطلقه و اللامتناهيه، فتقول: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .**

فمن عزته أنه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفه الباغيه أصدر أمره فأهلكها، و لا- يحتاج أن يرسل جنودا من ملائكه السماء لإهلاك أمته جباره...فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون و قومه بالنيل الذي كان أساس حياتهم و ثروتهم و قدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه!! و من رحمته أنه لا يعجل في الأمر أبدا، بل يمهل سنين طوالا. و يرسل معاجزه إتماما للحجه، و من رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضه الجبابره الظالمين.

## مسائل مهمه:

### اشاره

#### ١- معبر بني إسرائيل!

ورد التعبير في القرآن مرارا عن موسى أنه عبر بقومه «البحر» (١) كما جاء في بعض الآيات لفظ «اليم» بدلا من البحر. (٢)

و الآن ينبغي أن نعرف ما المراد من «البحر» و «اليم» هنا، أهو إشاره إلى النهر الكبير الواسع في مصر، النيل الذي يروى جميع أراضيها؟ أم هو إشاره إلى البحر الأحمر «المعروف ببحر القلزم في بعض المصطلحات»؟ يستفاد من التوراه الحاليه-و كذلك من كلمات بعض المفسرين- أنه إشاره إلى البحر الأحمر... إلا أن القرائن الموجوده و المتوفره تدل على أن المراد منه هو نهر النيل، لأن «البحر» كما يقول الراغب في مفرداته يعنى في اللغه الماء الكثير الواسع، و اليم بهذا المعنى أيضا. فلا- مانع إذا من إطلاق الكلمتين على نهر النيل.

و أما القرائن المؤيده لهذا الرأى فهى:

ص: ٣٨٧

١- ١) -اقرأ في سوره «يونس»: الآيه ٩٠- و طه الآيه ٧٧- و الشعراء الآيه ٦٣، و الآيه محل البحث أيضا.

٢- ٢) -اقرأ سوره طه الآيه ٧٨- و القصص الآيه ٤٠- و الذاريات الآيه ٤٠.

١- أن منطقته سكن الفراعنه التي كانت مركزا لمدن مصر العامره كانت نقطه قريه من النيل حتما...و إذا أخذنا بنظر الإعتبار معيار محلهم الفعلى «الأهرام» أو ما حولها، فإنّ بنى إسرائيل لا بدّ لهم أن يعبروا نهر النيل ليصلوا إلى الأرض المقدسه، لأن هذه المنطقه تقع غرب النيل و لا بدّ لهم من أن يتجهوا نحو الشرق للوصول إلى الأرض المقدسه! «فلاحظوا بدقه»! ٢- أن الفاصله بين المناطق العامره (١) من مصر و التي هى قريه من النيل بالطبع،بعيده عن البحر الأحمر بحيث لا يمكن أن تطوى المسافه بينها و بين البحر بليله أو نصف ليله...

و يستفاد من الآيات المتقدمه بوضوح أن بنى إسرائيل غادروا أرض الفراعنه ليلا، و طبيعى أن تكون المغادره فى الليل. أمّا فرعون و جيشه فقد اتبعوهم حتى بلغوهم مشرقين «عند الصباح».

٣- لم تكن حاجه ليعبر بنو إسرائيل البحر الأحمر حتى يصلوا الأرض المقدسه، إذ كانت هناك منطقته يابسه ضيقه قبل حفر ترعه السويس «أو ما يصطلح عليها بقناه السويس»... إلّا... أن نفترض أن البحر الأحمر كان متصلا بالبحر الأبيض المتوسط فى الزمن السابق، و لم تكن هناك منطقته يابسه، و هذا الفرض غير ثابت بأى وجه!...

٤- يعبر القرآن عن قصه موسى بإلقائه فى «اليم» «من قبل أمه» الآية ٣٩ من سوره طه، كما يعبر عن غرق فرعون و أتباعه بقوله: فَغَشَّيْهُمْ مِنَ الِّيمِ مَا غَشَّيْهُمْ الْآيَهُ ٧٨ من السوره ذاتها. و كلتا القضييتين فى قصه واحده و سوره واحده أيضا(طه) و كون اللفظين مطلقين - (اليم) فى الآيه السابقه و (اليم) فى الآيه اللاحقه - يشعر بأنهما واحد... و مع ملاحظه أن أمّ موسى لم تلق موسى فى

ص: ٣٨٨

١- ١) - العامره هنا اسم فاعل بمعنى المفعول أى المعموره.

البحر الأحمر قطعاً، بل ألقته في النيل طبقاً لما تذكره التواريخ، فيعلم أن غرق فرعون و قومه كان في النيل «فلاحظوا بدقه».

## ٢- كيفية نجاه بنى إسرائيل و غرق فرعون و قومه

هناك بعض المفسرين ممن لا يميل إلى كون نجاه بنى إسرائيل و غرق فرعون و قومه معجزه، بل حادثه طبيعيه، كما يصرون على ذلك، فوجهوا ذلك كله بأسباب طبيعيه.

لذلك قالوا: إن هذا الموضوع يمكن تطبيقه بواسطة الجسور المتحركه المستعمله في العصر الحديث. (١)

و قال بعضهم: إن موسى عليه السلام كان مطلعاً على طرق خاصه، و كان يمكنه العبور من البرازخ (أو الطرق الموجوده في بحر سوف) أى خليج السويس، إلى جزيره سيناء. و انفلاق البحر- فى الآيات محل البحث- إشاره إلى هذا المعنى (٢) ...

و قال بعضهم: من المحتمل جداً أن يكون وصول موسى و قومه البحر عند منتهى جزره، فاستطاع أن يعبر بهم من النقاط اليابسه و يجتازها بسرعه، و لكن عند ما ورد فرعون و قومه البحر شرع المدّ فوراً فأغرقوا بالنيل حينئذ و هلكوا...

و لكن الحق أن أيّاً من هذه الاحتمالات لا ينسجم و ظاهر الآيات- إن لم نقل و صريح الآيات- و مع قبول معاجز الأنبياء الوارد بيانها مراراً فى سور القرآن، و خاصه معجزه عصا موسى نفسها، فلا حاجه لمثل هذه التوجيهات...

فما يمنع أن تتراكم أمواج النيل بعد ضربها من قبل موسى بالعصا بأمر الله الحاكم على قانون العليّه فى عالم الوجود، و تنجذب متأثره بما فيها من سرّ غامض، لتترك طريقاً يبسا بيناً (يمرّ فى وسط البحر) ثم تتلاشى هذه الجاذبيّه بعد

ص: ٣٨٩

١-١) - أعلام القرآن، ص ٦٢٢.

٢-٢) - المصدر السابق.

مده، و يعود البحر إلى حالته الطبيعيه و إلى أمواجه المتلاطمه!... و ليس هذا استثناء في قانون العليّه، بل هو اعتراف بتأثير علل غير معتاده، لا نعرفها لقصور علمنا أو لقله معلوماتنا!

### ٣- الله عزيز رحيم

ينبغي ملاحظه هذه اللطيفه، إذ جاءت الآيه الأخيره- من الآيات محل البحث- بمثابة استنتاج لما جرى من أمر موسى و فرعون و قومهما، و انتصار جيش الحق و انهزام الباطل! إذ تصف هذه الآيه «الله» سبحانه بالعزيز الرحيم...

فالوصف الأول إشاره إلى أنّ قدرته لا تضعف و لا تقهر، و الوصف الثاني إشاره إلى أنه يوصل رحمته لعباده جميعا، و خاصيه بتقديم وصف (العزيز) على (الرحيم) لئلا يتوهم أن رحمته من منطلق الضعف، بل هو مع قدرته رحيم!...

و بالطبع فإنّ من المفسّرين من يرى أن وصفه بالعزيز إشاره إلى اندحار أعدائه، و وصفه بالرحيم إشاره إلى انتصار أوليائه، إلا أنه لا مانع أبدا أن يشمل الوصفان الطائفتين معا... لأنّ الجميع ينعمون برحمته حتى المسيئون... و الجميع يخافون من سطوته حتى الصالحون...

إشارة

وَ أَتٰل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِي (٧٩) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

التفسير

إشارة

أعبد ربنا... هذه صفاته:

كما ذكرنا في بدايه هذه السوره، فإنَّ الله يبيّن حال سبعة من الأنبياء العظام، و مواجهاتهم أقوامهم لهدايتهم، لتكون «مدعاه» تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين القلّه معه في عصره، و في الوقت ذاته إنذار لجميع الأعداء و المستكبرين أيضا...

لذلك تعقب هذه الآيات على قصه موسى و فرعون المليئه بالدروس لتبين قصه إبراهيم و مواجهاته المشركين، و تبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر (١) فتقول:

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ

و من بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبي العظيم يركز القرآن الكريم على هذا القسم: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ؟ و من المسلم به أن إبراهيم كان يعلم أى شىء يعبدون، لكن كان هدفه أن يستدرجهم ليعترفوا بما يعبدون، و التعبير ب«ما» مبین ضمنا نوعا من التحقير! فأجابوه مباشرة قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ! و هذا التعبير يدل على أنهم يحسوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافيا أن يجيبوه:

نعبد أصناما، إلا- أنهم أضافوا هذه العبارة: فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ! التعبير ب«نظّل» يطلق عادة على الأعمال التى تؤدى خلال اليوم، و ذكره بصيغه الفعل المضارع إشاره إلى الاستمرار و الدوام.

كلمه «عاكفين» مأخوذه من «العكوف»، و معناه التوجه نحو الشىء و ملازمته باحترام، و هى تأكيد لما سبق من التعبير.

«الأصنام» جمع الصنم، و هو الهيكل أو التمثال المصنوع من الذهب أو الخشب أو ما شاكلهما للعباده، و كانوا يتصورون أنها مظهر للتقديس...

و على كل حال، فإن إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال و الاعتراض بشده، و قمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم فى طريق مغلق، ف قَالَ هَلْ يَشْعُرُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ؟! إن أقل ما ينبغى توفره فى المعبود هو أن يسمع نداء عباده، و أن ينصره فى

ص: ٣٩٢

١- ١) - بينا مرارا أن لفظ «الأب» يطلق فى لغة العرب و القرآن على الوالد كما يطلق على العم، و هنا استعمل هذا اللفظ بمعناه الثانى.

البلاء، أو يضره عند مخالفه أمره!...

إلا أن هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أن لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير في عواقب الناس، فهي أحجار أو فلزات أو معادن أو خشب لا قيمة لها! وإنما أعطتها الخرافات هذه الهاله و هذه القيمة الكاذبه!...

إلا أن عبده الأصنام الجهله المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذى يكررونه دائماً، فـ قَالُوا يَلْبَسُونَ أَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

و هذا الجواب الذى يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهله هو الجواب الوحيد الذى استطاعوا أن يردوا به على إبراهيم عليه السلام، و هو جواب دليل بطلانه كامن فيه، و ليس أى عاقل يجيز لنفسه أن يقفو أثر غيره و يصم أذنيه و يغمض عينيه، و لا سيما أن تجارب الخلف أكثر من السلف عاده، و لا يوجد دليل على تقليدهم الأعمى!...

و التعبير كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ تأكيد أكثر على تقليدهم، أى نفعل كما كانوا يفعلون، سواء عبدوا الأصنام أم سواها.

فالتفت إبراهيم موبخاً لهم و مبينا موقفه منهم و قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ...

أجل...إنهم جميعاً أعدائى و أنا معاديتهم، و لا أسألهم أبداً...

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن إبراهيم الخليل عليه السلام يقول: «فإنهم عدو لى» و إن كان لازم هذا التعبير أنه عدو لهم أيضاً، إلا أن هذا التعبير لعله ناشئ من أن عباده الأصنام أساس الشقاء و الضلال و عذاب الدنيا و الآخرة «للإنسان»، و هذه الأمور فى حكم عداوتها للإنسان. أضف إلى ذلك أنه يستفاد من آيات متعددة من القرآن أن الأصنام تبرأ من عبدتها يوم القيامة و تعاديتهم، و تحاججهم بأمر الله و تنفر



و استثناء رب العالمين مع أنه لم يكن من معبوداتهم، و كما يصطلح عليه استثناء منقطع، إنما هو للتأكيد على التوحيد الخالص. كما يرد هذا الاحتمال و هو أن من بين عبده الأصنام من كان يعبد الله إضافة إلى عباده الأصنام، فاستثنى إبراهيم «رب العالمين» من الأصنام، رعايه لهذا الموضوع...

و ذكر الضمير «هم» الذي يستعمل عادة للجمع «في العاقلين» و قد ورد في شأن الأصنام، لما ذكرناه من بيان آنفا...

ثم يصف إبراهيم الخليل رب العالمين و يذكر نعمه المعنوية و الماديّة، و يقايسها بالأصنام التي لا تسمع الدعاء و لا تنفع و لا تضر، ليتضح الأمر جليًا...

فيبدأ بذكر نعمه الخلق و الهدايه فيقول: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ فقد هداني في عالم التكوين، و وفر لي وسائل الحياه الماديه و المعنويه، كما هداني في عالم التشريع فأوحى إليّ و أرسل إليّ الكتاب السماوي...

و ذكر «الفاء» بعد نعمه الخلق، هو إشارة إلى أن الهدايه لا- تنفصل عن الخلق أبدا، و جملته (يهدين) الوارده بصيغه الفعل المضارع، دليل واضح على استمرار هدايته، و حاجه الإنسان إليه في جميع مراحل عمره! فكأن إبراهيم في كلامه هذا يريد أن يبين هذه الحقيقه، و هي إنني كنت مع الله منذ أن خلقني، و معه في جميع الأحوال، و أشعر بحضوره في حياتي، فهو وليي حيث ما كنت و يقلبني حيثما شاء!...

و بعد بيان أولى مراحل الربوبيه، و هي الهدايه بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السلام النعم الماديه فيقول: وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي .

أجل، إننى أرى النعم جميعا من لطفه، فلهى و جلدى و طعامى و شرابى، كل ذلك من بر كاته!...

و لست مشمولاً بنعمه فى حال الصحة فقط، بل فى كل حال وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ .

و مع أنّ المرض أيضا قد يكون من الله، إلا أن إبراهيم نسه إلى نفسه رعايه للأدب فى الكلام...

ثم يتجاوز مرحلة الحياه الدنيا إلى مرحلة أوسع منها... إلى الحياه الدائمه فى الدار الآخرة، ليكشف أنه على مائدة الله حيثما كان، لا فى الدنيا فحسب، بل فى الآخرة أيضا. فيقول: وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ .

أجل، إن موتى بيده و عودتى إلى الحياه مرّه أخرى منه أيضا..

و حين أرد عرصات يوم القيامة أعلّق حبل رجائى على كرمه: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ .

و ممّا لا شك فيه أن الأنبياء معصومون من الذنب، و ليس عليهم و زر كى يغفر لهم... إلا أنه- كما قلنا سابقا- قد تعدّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين أحيانا، و قد يستغفرون أحيانا من عمل صالح لأنهم تركوا خيرا منه... فيقال عندئذ فى حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السّلام لا يعوّل على أعماله الصالحه، فهى لا شىء بإزاء كرم الله، و لا تقاس بنعم الله المتواتره، بل يعوّل على لطف الله فحسب، و هذه هى آخر مرحله من مراحل الانقطاع إلى الله!...

و ملخص الكلام أن إبراهيم عليه السّلام من أجل أن بيّن المعبود الحقيقى يمضى نحو خالقيّه الله أولا، ثم بيّن بجلاء مقام ربوبيته فى جميع المراحل:

فالمرحلة الأولى مرحلة الهدايه.

ثم مرحله النعم الماديّه، و هى أعمّ من إيجاد المقتضى و الظروف الملائمه أو

دفع الموانع...

و المرحلة الأخرى هي مرحلة الحياه الدائمه فى الدار الأخرى، فهناك يتجلى وجه الرب بالهبات و الصفح عن الذنوب و مغفرتها!...

و هكذا يبطل إبراهيم الخرافات التى كانت فى قومه، من تعدد الآلهه و الأرباب و ينحنى خضوعا للخالق العظيم.

ص: ٣٩٦

اشاره

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)

التفسير

اشاره

دعاء إبراهيم عليه السلام:

من هنا تبدأ أدعيه إبراهيم الخليل و سؤالاته من الله، فكأنه بعد أن دعا قومه الضالين نحو الله، و بين آثار الربوبية المتجليه في عالم الوجود... يتجه بوجهه نحو الله و يعرض عنهم، فكل ما يحتاجه فانه يطلبه من الله، ليكشف للناس و لعبده الأصنام أنه مهما أرادوه من شؤون الدنيا و الآخرة، فعليهم أن يسألوه من الله، و هو تأكيد آخر-ضمني- على ربوبيته المطلقة.

فأول ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسه هو رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

فالمقام الأول هنا الذي يريده إبراهيم لنفسه من الله هو الحكم، ثم الإلحاق

و«الحكم» و«الحكمة» كلاهما من جذر واحد... و«الحكمة» كما يقول عنها الراغب في مفرداته: هي الوصول إلى الحق عن طريق العلم و معرفه الموجودات و الأفعال الصالحه، و بتعبير آخر: هي معرفه القيم و المعايير التي يستطيع الإنسان بها أن يعرف الحق حيثما كان، و يميز الباطل في أى ثوب كان، و هو ما يعبر عنه عند الفلاسفه ب«كمال القوه النظرية».

و هي الحقيقه التي تلقاها لقمان من ربه وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ . (١) و عبر عنها بالخير الكثير في الآيه (٢٦٩) من سوره البقره وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا .

و يبدو أنّ للحكم مفهوم ما أسمى من الحكمة... أى إنه العلم المقترن بالاستعداد للتنفيذ و العمل، و بتعبير آخر: إن الحكم هو القدره على القضاء الصحيح الخالى من الهوى و الخطأ! أجل، إنّ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله قبل كل شىء المعرفة العميقه الصحيحه المقرونه بالحكميه، لأن أى منهج لا يتحقق دون هذا الأساس! و بعد هذا الطلب يسأل من الله إلحاقه بالصالحين، و هو إشاره إلى الجوانب العمليه، أو كما يصطلح عليها ب«الحكمه العمليه» في مقابل الطلب السابق و هو «الحكمه النظرية»!...

و لا- شك أن إبراهيم عليه السلام كان يتمتع بمقام «الحكم» و كان فى زمره الصالحين أيضا... فلم سأل الله ذلك؟! الجواب على هذا السؤال هو أنه ليس للحكمه حد معين، و لا لصلاح الإنسان حد، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم و العمل يوما بعد يوم، حتى و هو

فى موقع النبوه، و أنه من أولى العزم..لا يكتفى بهذه العناوين...

ثم-إضافه إلى ذلك-فإن إبراهيم عليه السلام يعلم أن كل ذلك من الله سبحانه،و من الممكن فى أى لحظه أن تسلب هذه المواهب أو تنزل به القدم،لذا فهو يطلب دوامها من الله إضافة إلى التكامل،كما أننا نخطو و نسير إن شاء الله فى الصراط المستقيم،و مع ذلك فكل يوم نسأل ربنا فى الصلاه أن يهدينا الصراط المستقيم، و نطلب منه التكامل و مواصله هذا الطريق! و بعد هذين الطلبين...يطلب موضوعا مهما آخر بهذه العبارة: وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ .

أى اجعلنى بحال تذكرنى الأجيال الآتية بخير،و اجعل منهجى مستمرا بينهم فيتخذونى أسوه و قدوه لهم فيتحركون و يسرون فى منهاجك المستقيم و سيالك القويم...

فاستجاب الله دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه فى القرآن الكريم: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا . (١)

و لا يبعد أن يكون هذا الطلب شاملا لما سأله إبراهيم الخليل ربه بعد بناء الكعبه،فقال: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ . (٢)

و نعرف أن هذا الدعاء تحقق بظهور نبي الإسلام.و ذكر إبراهيم الخليل بالخير فى هذه الأمه عن هذا الطريق،و بقى هذا الذكر الجميل مستمرا...

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا،و يتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ .

«جنة النعيم»التي تتماوج فيها النعم المعنويه و الماديه،النعم التي لا زوال لها

ص: ٣٩٩

١-١) -سوره مريم،الآيه ٥٠.

٢-٢) -البقره،الآيه ١٢٩.

و لا اضمحلل...النعمة التي لا يمكن أن نتصورها نحن-سجناء الدنيا-فهي ما لا عين رأت و لا أذن سمعت!...

و قلنا سابقا: إن التعبير بالإرث في شأن الجنة إما لأن معنى الإرث الحصول على الشيء دون مشقّه و عناء، و من المسلم أن تلك النعمة التي في الجنة تقاس بطاعاتنا، فطاعتنا بالنسبة لا تمثل شيئا إليها!... أو أنّ ذلك-طبقا لما ورد في بعض الروايات-لأن كل إنسان له بيت في الجنة و آخر في النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته في الجنة...

و في خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضالّ، و كما وعده أنّه سيستغفر له، فإنّه يقول في هذا الدعاء: **وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ** .

و هذا الوعد هو ما صرحت به الآية (١١٤) من سورة التوبة إذ تحكى عنه **وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدِهِ وَعَدِّهَا إِيَّاهُ** ! وعده من قبل، و كان هدفه أن ينفذ إلى قلبه عن هذا الطريق، و أن يجرّه إلى طريق الإيمان، لذلك قال له مثل هذا القول و عمل به أيضا... و طبقا لروايه عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام استغفر لعمّه آزر مرارا، إلا أنه حين غادر آزر الدنيا كافرا و ثبت عداؤه للدين الحق، قطع إبراهيم استغفار عن عمه، كما نرى في ذيل الآية النص التالي: **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** . (١)

و أخيرا فإنّ دعاءه السادس من ربّه في شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة **وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** .

(و لا تخزني)، مأخوذ من مادّه (خزى) على زنه (حزب) و كما يقول الراغب في مفرداته، معناه الذل و الانكسار الروحي الذي يظهر على وجه الإنسان من

ص: ٤٠٠

الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يخرجه و يخرجونه! و هذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية و الاعتماد على لطف الله العظيم.

ص: ٤٠١



اشاره

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صِدْقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

التفسير

اشاره

الخصام بين المشركين و معبوداتهم:

أشير في آخر آيه من البحث السابق إلى يوم القيامة و مسأله المعاد... أميا في هذه الآيات فنلاحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع

«فى تلك السوق»، وعاقبه المؤمنىن و عاقبه الكافرىن و الضالىن و جنود إبلىس، و يدلّ ظاهر الآيات أن هذا الوصف و هذا التصوير هو من كلام إبراهيم الخليل، و أنه ختام دعائه ربّه، و هكذا يعتقد-أىضا-أغلب المفسىرىن...و إن كان هناك من يحتمل أنه هو من كلام الله، و أن الآيات محل البحث هى منه سبحانه جاءت مكمله لكلام إبراهيم عليه السّلام و موضحه له، إلا أن هذا الاحتمال يبدو ضعيفا!...

و على كل حال، فأول ما تبدأ به هذه الآيات هو **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** .

و فى الحقيقة إن هاتىن الدعامتىن المهمتىن فى الحياه الدنيا «المال و البنون» لىس فىهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القىامه، و كل ما كان دون هاتىن الدعامتىن رتبه من الأمور الدنىويه-من باب أولى-لا نفع فىه، و لا فائده من ورائه! و بديهى أن المراد من المال و البنىن هنا لىس هو ما يكون-من المال و البنىن-فى مرضاه الله، بل المراد منه الاستناد إلى الأمور المادىيه، فالمراد إذا هو أن هذه الدعامات المادىيه لا-تحلّ معضلا فى ذلك اليوم...أما لو كان أى من البنىن و المال فى مرضاه الله فلن يكون ذلك مادىيا.. إذ يصطبغ بصىغه الله و يعدّ من «الباقىات الصالحات»!...

ثم يضيف القرآن فى ختام الآيه، على سبىل الاستثناء **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** .

و هكذا يتّضح أن أفضل ما ىنجى يوم القىامه هو القلب السلىم، و ىا له من تعبىر رائع جامع، تعبىر يتجسد فى الإىمان و النىيه الخالصه، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح! و لم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح؟! و بتعبىر آخر: كما أن قلب الإنسان و روحه يؤثران فى أعماله، فإن أعماله لها أثر واسع فى القلب أىضا، سواء كانت أعمالا رحمانىه أم شىطانىه!...

ثم يبين القرآن الجنه و النار بالنحو التالي فيقول: وَ أزلفت الجنه للمتقين (١) وَ برزت الجحيم للغاوين .أى الضالين.

و هذا الأمر فى الحقيقه-قبل ورود كل من أهل الجنه و النار إليهما!فكل طائفه ترى مكانها من قريب..فيسر المؤمنون و يستولى الرعب على الغاوين، و هذا أول جزائهما هناك! الطريف هنا أنّ القرآن لا يقول:اقترب المتقون أو أزلف المتقون إلى الجنه، بل يقول: وَ أزلفت الجنه للمتقين و هذا يدل على مقامهم الكريم و عظم شأنهم!...

كما ينبغي الإشارة إلى هذه اللطيفه،و هى أن التعبير بالغاوين هو التعبير ذاته الوارد فى قصه الشيطان،إذ طرده الله عن ساحته المقدسه فقال له: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . (٢)

ثم يتحدث القرآن عن ملامه هؤلاء الضالين،و ما يقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب،فيقول: وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَهَلْ يَسْتَطِيعُونَ مَعُونَتِكُمْ فِي هَذِهِ الشَّدَّةِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا،أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر و المعونه هل يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٣) ...

إلا أنهم لا يملكون جوابا لهذا السؤال!كما لا يتوقع أحد منهم ذلك!...

فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ

كما يقول بعض المفسرين:إن كلاً منهم سيلقى على الآخر يوم القيامة! وَ جُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ .

و فى الحقيقه أن هذه الفرق الثلاث،الأصنام و العابدين لها و جنود إبليس

ص: ٤٠٤

١- ١) -أزلفت:فعل مشتق من (الزلفى)على وزن (كبرى)و معنى الفعل «قربت».

٢- ٢) -سوره الحجر،الآيه ٤٢.

٣- ٣) -قد يكون المراد من «ينتصرون»هو أن يطلبوا العون و النصر لأنفسهم أو لغيرهم...أو مجموعهما،لأننا سنلاحظ فى الآيات المقبله أن العبد و معبوديهم يساقون إلى النار.

السدالين على هذا الانحراف، يساقون جميعا إلى النار... ولكن بهذه الكيفية... و هي أن تلقى الفرق فرقه بعد أخرى في النار. لأن «ككبوا» في الأصل مأخوذه من (كَبَ)، و(الكَبَ) معناه إلقاء الشيء بوجهه في الحفرة و ما أشبهها، و تكراره «ككب» يؤدى هذا المعنى من السقوط، و هذا يدلّ أنّهم حين يلقون في النار مثلهم كمثل الصخره إذ تهوى من أعلى الجبل أو تلقى من قمه الجبل، فهى تصل أولا نقطه ما فى الوادى ثم تندرج إلى نقاط آخر حتى تستقرّ فى القعر!.

إلا- أن الكلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل يقع النزاع و الجدل بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: **قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ** .

أجل... إن العبد الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: **تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ (١) اِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) وَ مَا أَضَلُّنَا اِلَّا الْمُجْرِمُونَ ...**

المجرمون الذين كانوا ساداه مجتمعاتنا و رؤساءنا و كبراءنا، فأضلونا حفظا لمنافعهم، و جزونا إلى طريق الشقوه و الغوايه... كما يحتمل أن يكون المراد من المجرمين هم الشياطين أو الاسلاف الضالين الذين جزوهم إلى هذه العاقبه الوخيمه.

**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**

...

و الخلاصه أن الأصنام لا تشفع لنا كما كنا نتصور ذلك فى الدنيا، و لا يتأتى لأى صديق أن يعيننا هنالك...

و ممّا ينبغى الالتفات إليه، أنّ كلمه (شافعين) جاءت فى الآيه السابقه بصيغه الجمع كما ترى، إلا أن كلمه (صديق) جاءت بصيغه الأفراد، و لعلّ منشأ هذا التفاوت و الاختلاف، هو أن هؤلاء الضالين يرون بأمر أعينهم المؤمنين الجانحين

ص: ٤٠٥

١- ١) - (إن كنا) مخففه من (إنا كنا)...

٢- ٢) - (يحتمل أن تكون (إذ) هنا للظرفيه، كما يحتمل أن تكون تعليليه...

يشفع لهم الأنبياء و الأوصياء أو الملائكة و بعض الأصدقاء الصالحين، فأولئك الضالون يتمنون الشافعين أيضا، و أن يكون عندهم صديق هنالك!...

إضافه إلى ذلك فإن كلمتي (الصديق) و(العدو) كما يقول بعض المفسرين، تطلقان على المفرد و الجمع أيضا...

إلا- أنهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا- جدوى هناك للحسره و لا مجال للعمل في تلك الدار لجبران ما فات في دنياهم، فيتمنون العوده إلى دار الدنيا... و يقولون: فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...

و صحيح أنهم في ذلك اليوم و في عرصات القيامة يؤمنون برّبهم، إلا أن هذا الإيمان نوع من الإيمان الاضطرارى غير المؤثر، و ليس كالإيمان الاختيارى، و في هذه الدنيا حيث يكون أساسا للهدايه و العمل الصالح.

و لكن لا يحقق هذا التمنى شيئا، و لا يحلّ معضلا، و لن تسمح سنه الله بذلك، و هم يدركون تلك الحقيقه، لأنهم يتفوهون بكلمه «لو» (1) ...

و أخيرا بعد الانتهاء من هذا القسم من قصه إبراهيم، و كلماته مع قومه الضالين، و دعائه ربّه، و وصفه ليوم القيامة، يكرر الله آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعا، و هاتان الآيتان وردتا في ختام قصه موسى و فرعون، كما وردتا في قصص الأنبياء الآخرين من السوره ذاتها فيقول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ...

و تكرر هاتين الآيتين، هو للتسريه عن قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و تسليته و من معه من الصحابه القله و كذلك المؤمنين في كل عصر و مصر لئلا يستوحشوا في الطريق من قله أهله و كثره الأعداء... و ليطمئنوا إلى رحمه الله و عزته، كما أن هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين. و إشاره إلى أنه لو وجدوا الفرصه في حياتهم و أمهلهم الله إمهالا فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته و كرمه!

ص: ٤٠٦

١-١) -تعدّ (لو) من حروف الشرط- و عادة- تستعمل حينما يكون الشرط محالا...

## ١- القلب السليم - وحده - وسيله النجاه

فى أثناء كلام إبراهيم الخليل عليه السلام قرأنا ضمن ما ساقته الآيات المتقدمه من تعابير فى وصف القيامه، أنه لا ينفع فى ذلك اليوم شىء إلا من أتى الله بقلب سليم .

(السليم) مأخوذ من السلامه، و له مفهوم واضح، و هو السالم و البعيد من أى انحراف أخلاقى و عقائدى، أو أى مرض آخر!...

ترى... ألم يقل الله القرآن فى شأن المنافقين فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . (١)

و نلاحظ تعاريف للقلب السليم فى عدد من الأحاديث الغزيره المعنى .

-١

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام - ذيل الآيه محل البحث (٢) - يقول فيه: «و كل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط».

٢- و نعلم من جهه أخرى أن العلائق الماديه الشديده و حب الدنيا... كل ذلك يجزّ الإنسان إلى كل انحراف و خطيئه، لأن

«حبّ الدنيا رأس كل خطيئه» (٣) .

و لذلك فالقلب السليم هو القلب الخالى من حبّ الدنيا، كما ورد هذا المضمون فى حديث للإمام الصادق عليه السلام - ذيل محل البحث - إذ

يقول: «هو القلب الذى سلم من حبّ الدنيا». (٤)

و مع الالتفات إلى الآيه (١٩٧) من سوره البقره إذ تقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ... يتضح أن القلب السليم هو القلب الذى يكون محلاً لتقوى الله .

ص: ٤٠٧

١-١) - سوره البقره، الآيه ١٠ .

٢-٢) - راجع مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث .

٣-٣) - بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣٩ .

٤-٤) - تفسير الصافى فى ذيل الآيه محل البحث .

٣-و آخر ما نقوله-هنا-أنّ القلب السليم هو القلب الذى ليس فيه سوى الله، كما يجب الإمام الصادق عليه السلام على سؤال فى هذا الشأن

فيقول: «القلب السليم الذى يلقى ربّه و ليس فيه أحد سواه». (١)

و لا يخفى أن المراد من القلب فى مثل هذه الموارد هو روح الإنسان و نفسه.

و هناك مسائل كثيره وردت فى الروايات الإسلاميه تتحدث حول سلامه القلب و الآفات التى تصيبه، و طريق مبارزتها و مكافحتها، و يستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامى المتين أن الإسلام يهتم قبل كلّ شىء بالأساس الفكرى و العقائدى و الأخلاقى، لان جميع المناهج التطبيقية و العمليه للإنسان هى انعكاسات لذلك الأساس و آثاره!...

فكما أنّ سلامه القلب الظاهريه سبب لسلامه الجسم، و أن مرضه سبب لمرض أعضائه جميعاً، لأنّ تغذيه الخلايا فى البدن تتم بواسطه الدم الذى يتوزع و يرسل إلى جميع الأعضاء بإعانه القلب على هذه المهمه... فكذلك هى الحال بالنسبه لسلامه مناهج حياه الإنسان و فسادها، كل ذلك انعكاس عن سلامه العقيدة و الأخلاق أو فسادهما...

و نختم هذا البحث

بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «إنّ القلوب أربعه:

قلب فيه نفاق و إيمان، و قلب منكوس، و قلب مطبوع، و قلب أزهر أجرد،» أجرد من غير الله» إلى أن قال عليه السلام: و أمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر و إن ابتلاه صبر. و أمّا المنكوس فقلب المشرك أ فَمَنْ يَمُشِي مَكِبّاً عَلَيَّ وَجْهَهُ أَهْدَى أَمَّنْ يَمُشِي سَوِيّاً عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فإن القلب الذى فيه إيمان و نفاق، فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، و إن أدركه على إيمانه نجا». (٢)

٢-و جاء فى الروايات متعدده عن الإمامين الصادقين (أبى جعفر و أبى

ص: ٤٠٨

١-١) -الكافى... طبقاً لما جاء فى تفسير الصافى- ذيل الآيه محل البحث.

٢-٢) -أصول الكافى ج ٢ ص ٤٢٢ ط الزّابعه، باب فى ظلمه قلب المنافق.

عبد الله عليهما السلام) في تفسير فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَ الْعَاوُونَ قولهما: «هم قوم وصفوا عدلا بألستهم ثم خالفوه إلى غيره». (١)

و هذا الحديث يدل على أنّ القول بلا عمل قبيح و مذموم جدًّا، إذ يلقي أصحابه في النار، فأولئك قوم ضالون مضلون، و كلامهم يهدى، الناس إلى الحق، بينما عملهم يجزّهم إلى الباطل، بل إن عملهم كاشف عن عدم إيمانهم بأقوالهم! و ينبغي الالتفات- ضمنا- إلى أن كلمه «غاوون» المأخوذه من «الغى» لا تعنى الضلال مطلقا، بل كما يقول الراغب في المفردات: هو نوع من الجهل و الضلال الناشئ عن فساد العقيدة.

٣-وردت في ذيل الآيه فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ روايات متعدده، و بعضها صريحه في أن:

«الشافعون الأئمه و الصديق من المؤمنين». (٢)

و

جاء في حديث آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يقول: «إن الرجل يقول في الجَنَّة: ما فعل صديقي فلان؟ و صديقه في الجحيم، فيقول الله: أخرجوا له صديقه إلى الجَنَّة، فيقول من بقى في النار: فما لنا من شافعين و لا صديق حميم». (٣)

و بديهي أنه لا الشفاعة بدون معيار و ملاك، و لا السؤال في شأن الصديق دون حساب، فلا بد من وجود ارتباط أو علاقه بين الشفيع و المشفوع له ليتحقق هذا الهدف... «بيّنا تفصيل هذا الموضوع في بحث الشفاعة، في تفسير الآيه ٤٨ من سورة البقره- فليراجع في محله».

ص: ٤٠٩

١-١) -نقل هذه الروايه مؤلف تفسير نور الثقلين عن أصول الكافي، و تفسير علي بن إبراهيم، و المحاسن للبرقي.

٢-٢) -المحاسن للبرقي. ذيل الآيه محل البحث.

٣-٣) -مجمع البيان ذيل الآيه.



إشاره

كذَّبتْ قَوْمٌ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنَّهُمْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمِمَّ عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمِمَّ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

التفسير

إشاره

يا نوح، لم يحف بك الأردلون!؟

يتحدّث القرآن الكريم بعد الانتهاء ممّا جرى لإبراهيم و قومه الضّالين، عن قوم نوح عليه السّلام حديثا للعبره و الاتعاظ... فيذكر عنادهم و شدّتهم فى موقفهم من نوح عليه السّلام و عدم حيائهم و عاقبتهم الأليمه ضمن عدّه آيات... فيقول أولا: كذّبتْ

و واضح أن قوم نوح إنما كذبوا نوحا فحسب...و لكن لما كانت دعوه المرسلين واحده من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذبا للمرسلين جميعا...و لذا قال القرآن كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ .

كما و يحتمل أن قوم نوح أساسا كانوا منكرين لجميع الأديان و المذاهب، سواء قبل ظهور نوح أو بعده...

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام،الذى سبق أن أشار إليه فى كلامه حول إبراهيم و موسى عليهما السلام،فيقول: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ...

و التعبير بكلمه «أخ»تعير يبين منتهى المحيّه و العلاقه الحميمه على أساس المساواه...أى أن نوحا دون أن يطلب التفوق و الاستعلاء عليهم، كان يدعوهم إلى تقوى الله فى منتهى الصفاء.

و التعبير بالأخوه لم يرد فى شأن نوح فى القرآن فحسب،بل جاء فى شأن كثير من الأنبياء، كهود و صالح و لوط،و هو يلهم جميع القاده و الأدلاء على طريق الحق أن يراعوا فى دعواتهم منتهى المحبه المقرونه بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق،و لا يستثقله الناس!...

و بعد دعوه نوح قومه إلى التقوى التى هى أساس كل أنواع الهدايه و النجاه، يضيف القرآن فيقول على لسان نوح و هو يخاطب قومه: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ فَإِنْ إِطَاعْتَنِ مِنْ إِطَاعَةِ اللَّهِ سَبِحَانَهُ...

و هذا التعبير يدل على أن نوحا عليه السلام كانت له صفه ممتده من الأمانه بين قومه،

ص: ٤١١

١ - ١) - تأنيث لفظ (كذبت) لأن (قوم) فى معنى الجماعه، و الجماعه فيها تأنيث لفظى...و قال بعضهم: إن كلمه (قوم) بذاتها مؤنثه، لأنهم قالوا فى تصغيرها «قويمه» نقل الوجه الأول الطبرسى فى مجمع البيان، و نقل الوجه الثانى الفخر الرازى فى تفسيره...إلا أن «الآلوسى» قال فى روح المعانى: إن لفظ «قوم» يستعمل فى المذكر و المؤنث على السواء...

و كانوا يعرفونه بهذه الصفه الساميه، فهو يقول لهم: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و لهذا فإِنِّي أمين أيضا فى أداء الرساله الالهيه، و لن تجدوا خيانه منى أبدا...

و تقديم التقوى على الإطاعه، لأنه ما لم يكن هناك إيمان و اعتقاد بالله و خشيه منه، فلن تتحقق الإطاعه لئبيّه...

و مرّه أخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانيه دعوته، و يأتى بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهيه، فيقول: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و معلوم أن الدوافع الإلهيه-عاده-دليل على صدق مدعى النبوه، فى حين أن الدوافع الماديه تدل بوضوح على أن الهدف من ورائها هو طلب المنفعه، و لا سيما أن العرب فى ذلك العصر كانوا يعرفون هذه المسأله فى شأن الكهنه و أضرابهم...

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذى جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته و أمانته، إذ يقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا... □

إِلَّا أَنْ الْمَشْرِكِينَ الْحَمَقَى، حين رأوا سبل ما تذرعوا به من الحجج الواهيه موصده، تمسكوا بهذه المسأله، ف قالوا أ نُنُومُنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ .

إن قيمه الزعيم ينبغى أن تعرف ممن حوله من الأتباع، و بعبارة أخرى «إن الولي يعرف من زوّاره- كما يقال» فحين نلاحظ قومك يا نوح، نجدهم حفته من الأراذل و الفقراء و الحفاه و الكسبه الضعاف، قد داروا حولك، فكيف تتوقع أن يتبعك الاثرياء الأغنياء الشرفاء و الوجهاء و يخضعوا لك؟! و صحيح أنّهم كانوا صادقين و مصيبين فى أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلا- أن خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصيه و معيارها... إذ كانوا يرون معيار القيم فى المال و الثروه و الألبسه و البيوت و المراكب الغاليه و الجميله، و كانوا غافلين عن النقاء و الصفاء و التقوى و الطهاره و طلب الحق، و الصفات العليا

للإنسانيه الموجوده فى الطبقات الفقيره و القله من الاشراف.

إن روح الطبقيه كانت حاكمه على أفكارهم فى أسوأ أشكالها،و لذلك كانوا يسمون الفقراء الحفاه بالأراذل.

و«الأراذل» جمع (أرذل) كما أنه جمع (للرذل) و معناه الحقير...و لو كانوا يتحررون من قيود المجتمع الطبقي،لأدركوا جيدا أن إيمان هذه الطائفه نفسها دليل على حقانيه دعوه النبى و أصلتها! إلا أن نوحا عليه السّلام جابهم و ردّهم بتعبير متين،و جرّدهم من سلاحهم و قالَ وَ مَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فما مضى منهم مضى،و المهم هو أنهم اليوم استجابوا لدعوه النبى،و قالوا له:

لبيك،و توجهوا لبناء شخصياتهم،و مكنوا الحقّ من أن ينفذ إلى قلوبهم!...

و إذا كانوا فى ما مضى من الزمن قد عملوا صالحا أو طالحا،فلست محاسبا و لا مسئولا عنهم آنئذٍ إن حسابهم إلا على ربّى لوّ تَشْعُرُونَ .

و يستفاد من هذا الكلام-ضمنا-أنهم كانوا يريدون أن يتهموا هؤلاء الطائفه من المؤمنين،بالإضافه إلى خلوّ أيديهم،بسوء سابقتهم الأخلاقيه و العمليه،مع أن الفساد و الانحراف الخلقى عاده فى المجتمعات المرفهه أكثر من سواها بدرجات...فهم الذين تتوفر لديهم كل وسائل الفساد،و هم سكارى المقام و المال، و قلّ أن يكونوا من الصالحين.

إلا- أن نوحا عليه السّلام-دون أن يصطدم بهم فى مثل هذه الأمور-يقول:ما علمى بهم و بما كانوا يعملون،فإذا كان الأمر كما تزعمون فإنما حسابهم على ربى لو تشعرون! و إنّما على أن أبسط جناحى لجميع طلاب الحقّ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ .

و هذه العبارة فى الحقيقه جواب ضمنى لطلب هؤلاء المثريين الأغنياء المغرورين،الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفه الفقراء من حوله،ليتقربوا

منه و يكونوا من أتباعه بعد طرد أولئك الفقراء...

و لكن المسؤوليه الملقاه على عاتقى هى أن أنذر الناس فحسب إن أنا إلا نذيرٌ مُبينٌ .

فمن سمع إنذارى و عاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله،فهو من أتباعى كائنا من كان،و فى أى مستوى طبقى و مقام اجتماعى أو مادى! و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن هذا الإيراد لم يتعرّض له نوح النّبى الذى هو أول الرسل من أولى العزم فحسب،بل و وجه الى النّبى محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و سائر الأنبياء به، فالأغنياء كانوا ينظرون بنظاراتهم الفكرية السوداء شخصيات هؤلاء الفقراء البيضاء،فيرونها سوداء،فيطلبون طردهم دائما.و لم يقبلوا برّبّ و لا نبى يتبعه مثل هؤلاء العباد الفقراء!...

إلا أنه ما أعذب و أحلى تعبير القرآن عنهم فى سورة الكهف، إذ يقول:

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا .

و هذا الإيراد أو الإشكال يوردونه حتى على قادة الحق و الأدلاء على الهدى فى كل عصر و زمان،و هو أن معظم أتباعكم المستضعفون!أو الحفاه الجائعون.

إنهم يريدون أن يعيوا بكلامهم هذا الرساله و المذهب،مع أنهم من حيث لا- يشعرون،يمدحون و يطرون ذلك المذهب و يوقعون على أصالته.

اشاره

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَأَفْتِيحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

التفسير

اشاره

نجاه نوح و غرق المشركين:

كان رد فعل هؤلاء القوم الضالين في مواجهه نبيهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ و هو الاعتماد على القوه و التهديد بالموت و الفناء: قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ .

و التعبير ب«من المرجومين» يدل على أنّ الرجم بالحجاره بينهم كان جاريا في شأن المخالفين...و في الحقيقه إنهم يقولون لنوح: إذا قررت أن تواصل دعوتك للتوحيد...و الاستمرار على عقيدتك و دينك، فستال ما يناله المخالفون

-عامّه- وهو الرجم بالحجاره،الذى يعد واحدا من أسوأ أنواع القتل. (١)

و لما رأى نوح أن دعوته المستمره الطويله بما فيها من منطق بين...و بما يقترون بها من اضطبار،لم تؤثر إلا فى جماعه قله آمنوا به...شكا إلى ربّه أخيرا، و ضمن بيان حاله،سأل ربه أن ينجيه من قبضه الظالمين،و أن يبعده عنهم...إذ قال رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ

و صحيح أن الله مطلع على كل شىء،إلا أنه لبيان الشكوى و تمهيدا للسؤال التالى،يذكر نوح مثل هذا الكلام.

و ممّا يلفت النظر أنّ نوحا لم يشتك من المصائب التى أتت بها،بل اشتكى من تكذيب قومه إياه فحسب،إذ لم يصدقوه و لم يقبلوا رسالته الالهيه لهدايتهم...

ثم يلتفت إلى ربّه فيقول:و الآن حيث لم يبق طريق لهدايه هؤلاء القوم فاقض بيننا و افصل بينى و بينهم: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا .

«الفتح»معناه واضح،و هو ما يقابل الغلق و يضاده،و له استعمالان...فتاره يستعمل فى القضايا الماديه كفتح الباب مثلا،و تاره يستعمل فى القضايا المعنويه كفتح الهمّ و رفع الغم،و كفتح المستغلق من العلوم،و فتح القضيّه،اى بيان الحكم حسم النزاع! ثم يضيف فيقول: وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و هنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة الله نوحا،و إهلاك المكذبين بعاقبه وخيمه مفعجه،إذ يقول: فَأَنْجِنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ اى الملىء بالناس و انواع الحيوانات ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ...

«المشحون»مأخوذ من ماده(شحن)على وزن(صحن)و معناه الملىء،و قد

ص: ٤١٦

١-١) -«الرجم»مأخوذ من(رجم)على وزن(كتاب)و هو جمع(رجمه)على وزن(لقمه)و معناها القطعه من الحجر التى توضع على القبر،أو ما يطوف حوله عبده الأوثان،كما يعنى الرجم القذف بالحجاره حتى القتل،كما يأتى أحيانا بمعنى القتل بأى شكل كان،لأن القتل كان بالحجر سابقا.

يستعمل بمعنى التجهيز... و«الشحناء» تطلق على العداوة التي تستوعب جميع جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أن ذلك الفلك [أى السفينه]

كان مملوءا من البشر و جميع الوسائل... و لم يكن فيه أى نقص... إى أن الله بعد ما جهز السفينه و أعدّها للحركة، أرسل الطوفان لثلا- يبتلى نوح و جميع من فى الفلك بأى نوع من أنواع الأذى... و هذا بنفسه إحدى نعم الله عليهم! و فى ختام هذه القصة القصيره، يقول القرآن ما قاله فى ختام قصه موسى و إبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّأَيِّ مَا جَرَىٰ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَ دَعْوَتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ وَ صَبْرِهِ وَ نَجَاتِهِ وَ غَرَقِ مَخَالَفِيهِ وَ مَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ .

و لهذا فلا تحزن يا رسول الله من إعراض المشركين و عنادهم، و استقم كما أمرت... فَإِنَّ عَاقِبَتَكَ وَ عَاقِبَةَ أَصْحَابِكَ عَاقِبَةُ نُوحٍ وَ أَصْحَابِهِ، وَ عَاقِبَةُ الضَّالِّينَ مِنْ قَوْمِكَ كَعَاقِبَةِ الضَّالِّينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ.

وَ

اعلم إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

فرحمته تقتضى أن يمهلهم و يتم عليهم الحجه بإعطاء الفرصه الكافيه، و عزته تستلزم أن ينصرک عليهم، و تكون عاقبه أمرهم خسرا!...

ص: ٤١٧



اشاره

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٢٦) وَ  
مَنْ أَسِيءَ لَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ  
تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ  
بِالنَّعَامِ وَ بَيْنَ (١٣٣) وَ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)

التفسير

اشاره

جنايات عاد و اعمالهم العدوانيه:

و الآن يأتى الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانبا من حياتهم و عاقبتهم، و ما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشره آيه من آياته!...

«عاد»- كما قلنا من قبل- جماعه كانوا يقطنون فى «الأحقاف»، و هى منطقه فى حضر موت تابعه لليمن، تقع جنوب الجزيره العربيه...

فيقول القرآن: كَذَّبَتْ لُحَادُ الْمُرْسَلِينَ . (١)

بالرغم من أنهم كذبوا هودا فحسب، إلا أنه لما كانت دعوه هود هي دعوه الأنبياء جميعا، فكأنهم كذبوا الأنبياء جميعا...

و بعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُوْدُ أَلَا تَتَّقُونَ .

لقد دعاهم إلى التوحيد و التقوى في منتهى الشفقة و العطف و الحرص عليهم، لذلك عبر عنه القرآن بكلمه «أخوهم»...

ثم أضاف قائلا: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و ما سبق من حياتي بين ظهرانكم يدل على هذه الحقيقة، فإنني لم أخنكم أبدا... و لم تجدوا مني غير الصدق و الحق!...

ثم يضيف مؤكدا: لما كنتم تعرفونني جيدا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ... لِأَنَّ إِطَاعَتَكُمْ إِنِّي إِطَاعَهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ... و لا تتصوروا بأنني أدعوكم لانتفع من وراء دعوتي إياكم في حياتي الدنيا و أنال المال و الجاه، فلست كذلك و مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ... فجميع النعم و البركات من قبله سبحانه، و إذا أردت شيئا طلبته منه، فهو رب العالمين جميعا...

و القرآن الكريم يستند في هذا القسم من سيره «هود» في قومه إلى أربعة أمور على الترتيب...

فالأمر الأول: هو محتوى دعوه «هود» الذي يدور حول توحيد الله و تقواه، و قرأنا ذلك بجلاء في ما مضى من الآي...

أما الأمور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكيا عن لسان هود في ثوب الاستفهام الإنكاري، فيقول: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ .

ص: ٤١٩

١ - ١) - لما كانت «عاد» قبيلة، و تتألف من جماعه من الناس أنث الفعل كما يرى، فجاء كَذَّبَتْ عَادٌ لِأَنَّ لفظي القبيله و الجماعه مؤنثان...

«الريع» فى الأصل يطلق على المكان المرتفع، أما كلمه (تعيشون) فمأخوذ من «العبث»، و معناه العمل بلا هدف صحيح، و مع ملاحظه كلمه (آيه) التى تدل على العلامه يتضح معنى العبارة بجلاء... و هو أنّ هؤلاء القوم المثرين، كانوا يبنون على قمم الجبال و المرتفعات الأخر مباني عاليه للظهور و التفاخر على الآخرين، و هذه المباني [كالأبراج و ما شاكلها]

لم يكن من روائها أى هدف سوى لفت أنظار الآخرين، و إظهار قدرتهم و قوتهم -من خلالها-!! و ما قاله بعض المفسرين من أنّ المراد من هذا التعبير هو المباني و المنازل التى كانت تبنى على المرتفعات، و كانت مركزا للهو و اللعب، كما هو جار فى عصرنا بين الطغاه... فيبدو بعيدا، لأن هذا التعبير لا ينسجم مع كلمتى (الآيه) و (العبث).

كما أنّ هناك احتمال ثالث ذكره بعض المفسرين، و هو أنّ عادا كانت تبنى هذه البنايات للاشراف على الشوارع العامه، ليستهزئوا منها بالماره، إلا أنّ التفسير الأول يبدو أكثر صحه من سواه...

و أما الأمر الثالث الذى ذكره القرآن حاكيا على لسان هود منتقدا به قومه، فهو قوله: **وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ .**

«المصانع» جمع «مصنع» و معناه المكان أو البناء المجلل المحكم، و النبى هود لا يعترض عليهم لأنّ لديهم هذه البنايات المريحه الملائمه، بل يريد أن يقول لهم: إنكم غارقون فى أمواج الدنيا، و منهمكون بعباده الزينه و الجمال و العمل فى القصور حتى نسيتم الدار الآخره!... فلم تتخذوا الدنيا على أنها دار ممر، بل اتخذتموها دار مقر دائم لكم...

أجل، إنّ مثل هذه المباني التى تذهل أهلها، و تجعلهم غافلين عن اليوم الآخر، هى لا شك مذمومه! و

فى بعض الروايات عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خرج فرأى قبه

فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و بالأعراض عنه، فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و الله إلىّ لأنكر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ما أدري ما حدث فيّ و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله فرأى قبّتك فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه، فرجع الى قبّته فسواها بالأرض، فخرج رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ذات يوم فلم ير القبّه فقال: ما فعلت القبّه التي كانت ها هنا قالوا: شكى إلينا صاحبها انحرصل عنه فأخبرناه فهدمها فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إن كلّ ما بينى و بال على صاحبه يوم القيامة، إلا ما لا بدّ منه». (١)

و يعرف من هذه الروايه و ما شابهها من الروايات نظر الإسلام بجلاء، فكل بناء «طاغوتي» مشيد بالإسراف و البذخ و مستوجب للغفله... يمقته الإسلام، و يكره للمسلمين أن يبنوا مثل هذه الأبنيه التي يبنوها المستكبرون المغرورون الغافلون عن الله، و لا سيما في محيط يسكن فيه المحرومون و المستضعفون...

إلا أن ما ينبغي التنويه به، أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يستعمل القوه للوصول إلى هذا الهدف الإنساني أبدا، و لم يأمر بتخريب البناء، بل استطاع أن يحقق هدفه برد فعل لطيف كالإعراض و عدم الاهتمام بالبناء مثلا!...

ثمّ ينتقد النبي «هود» قومه على قسوتهم و بطشهم عند النزاع و الجدل فيقول:

وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ

فمن الممكن أن يعمل الإنسان عملا- يستوجب العقوبه، إلا- أنّه لا يصح تجاوز الحد و الانحراف عن جاده الحق و العدل عند محاسبته و معاقبته، و أن يعامل ذو الجرم الصغير معاملة ذى الجرم الكبير... و أن تسفك الدماء عند الغضب و يقع التماصع بالسيف (٢)، فذلك ما كان يلجأ إليه الجبابره و الظلمه و الطغاه آنئذ...

ص: ٤٢١

١- ١) - مجمع البيان: ذيل الآيه محل البحث، نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٣.

٢- ٢) - التماصع، التطاحن و القتال. (المصحح).

و يرى الراغب فى المفردات أن «البطش» على زنه (نقش) هو أخذ الشئ بقوّه و قسّوه و استعلاء...

و فى الحقيقة أن هودا يوبخ عبده الدنيا عن طرق ثلاثة:

الأول: علاماتهم التى كانت مظهرا لحبّ الاستعلاء و حب الذات، و التى كانت تبنى على المرتفعات العالیه ليفخروا بها على سواهم.

ثمّ يوبخهم على مصانعهم و قصورهم المحكمه، التى تجرهم إلى الغفله عن الله، و إن الدنيا دار ممر لا مقر.

و أخيرا فإنه ينتقدهم فى تجاوزهم الحدّ و البطش عند الانتقام...

و القدر الجامع بين هذه الأمور الثلاثة هو الإحساس بالاستعلاء و حبّ البقاء. و يدلّ هذا الأمر على أن عشق الدنيا كان قد همين عليهم، و أغفلهم عن ذكر الله حتى ادعو الألوهيه... فهم بأعمالهم هذه يؤكّدون هذه الحقيقة، و هى أن

«حب الدنيا رأس كل خطيئه». (١)

و القسم الثالث من حديث هود ممّا بينه لقومه، هو ذكر نعم الله على عباده ليحرك فيهم -عن هذا الطريق- الإحساس بالشكر لعلمهم يرجعون نحو الله...

و فى هذا الصدد يتبع النبى هود أسلوبى الإجمال و التفصيل، و هما مؤثران فى كثير من الأبحاث، فإلتفت نحوهم أولا فيقول: وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . (٢)

و بعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم الله عليهم، فيقول: أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَيْنِينَ ...

فمن جهة وقرّ لكم الأمور الماديّه، و كان القسم المهم منها -خاصّه فى ذلك

ص: ٤٢٢

(١-١) -تفسير الفخر الرازى ذيل الآيه محل البحث.

(٢-٢) - (أمدّ) مأخوذ من «الإمداد»، و يطلق فى الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، و حيث أن الله يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمه هنا أيضا...

العصر-الأنعام و المطايا من النياق و غيرها.و من جهة أخرى وُفر لكم القوّه الكافيه و هي «الأبناء»للحفاظ على الأنعام و تدجينها...

و هذا التعبير تكرر في آيات مختلفه،فعند عدّ النعم الماديه تذكر الأموال أولا ثمّ الأبناء ثانيا،و هم الحفظه للأموال و منموها،و يبدو أن هذا ترتيب طبيعي،لا- أن الأموال أهم من الأبناء...إذ نقرأ في الآية(٦)من سوره الإسراء... وَ أَهْدَيْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ...

ثمّ يضيف بعد ذلك: وَ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ .

و هكذا فقد وفر الله لكم سبل الحياه جميعا،من حيث الأبناء أو القوّه الإنسانيه،و الزراعه و التدجين و وسائل الحمل و النقل،بشكل لا يحس الإنسان معه بأى نقص أو قلق في حياته!

لكن ما الذى حدث حتى نسيتم واهب هذه النعم جميعا،و أنتم تجلسون على مائدته ليل نهار،و لا تعرفون قدره؟! و أخيرا،فإنّ هودا في آخر مقطع من حديثه مع قومه يندرهم و يهددهم بسوء الحساب و عقاب الله لهم،فيقول: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

ذلك اليوم الذى ترون فيه نتائج أعمالكم و ظلمكم و غروركم و استكباركم، و حب الذات و ترك عباده الله...ترون كل ذلك بأم أعينكم.

و عاده-يستعمل لفظ(اليوم العظيم)في القرآن،و يراد منه يوم القيامه العظيم من كل وجه...إلا أنّه قد يستعمل في القرآن في اليوم الصعب الموحش المؤلم على الأمم...

كما نقرأ في هذه السوره في قصه«شعيب»،أن قومه بعد أن جحدوه و لم يؤمنوا به و عاندوه و استهزءوا به،أرسل الله عليهم صاعقه«و كانت قطعه من الغيم» فعاقبهم بها،فسمّى ذلك اليوم باليوم العظيم،كما تقول الآية: فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

فبناء على هذا قد يكون التعبير ب«يوم عظيم» في الآيه محل البحث، إشاره إلى اليوم الذى ابتلى به المعاندون من قوم هود(عاد) بالعذاب الأليم و هو الاعصار المدمر، و سيتجلى الشاهد على هذا المعنى فى الآيات المقبله...

كما يمكن أن يكون إشاره إلى يوم القيامة و عذابه...أو إلى العذابين معا، فيوم الاعصار يوم عظيم، و يوم القيامة يوم عظيم أيضا...

اشاره

فَالْوَا سِوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْ عَظَّتْ أُمٌّ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

التفسير

اشاره

لا تتعب نفسك في نصحننا:

رأينا في الآيات المتقدمه أحاديث النبي هود المحترق القلب شفقته لقومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غريزه ساميه... و الآن ينبغي أن نعرف جواب قومه الجارح و غير المنطقي و لا المعقول، يقول القرآن في هذا الصدد قالوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْ عَظَّتْ أُمٌّ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أما اعتراضك علينا بهذه الأمور فلا محل له من الاعراب إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ .

و ليس الأمر كما تقول، فإنه لا شيء بعد الموت وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ لا في هذا



العالم، ولا فى العالم الآخر.

و«الخلق»-بضم الخاء و اللام-معناه العاده و السلوك و الأخلاق لأن هذه الكلمه جاءت بصيغه الإفراد بمعنى الطبع و السجيه و العاده الأخلاقية...و هى هنا إشاره إلى الأعمال التى كانت تصدر منهم كعباده الأصنام، و بناء القصور العاليه الجميله، و حب الذات، و التفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعه، و كذلك البطش عند الانتقام أو الجزاء...أى إن ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض و الانتقاد!...

و فسر«الخلق»بعضهم بالكذب، أى إن ما تقوله فى شأن الله و القيامه كلام باطل قيل من قبل (إلا أن هذا التفسير إنما يقبل إذا قرئ النص: إن هذا إلا خلق الأولين. فيكون الخلق فيه على وزن(الحلق)إلا أن القراءه المشهوره ليست كذلك!).

و يبين القرآن عاقبه قوم هود الويله فيقول: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ .

و فى ختام هذه الاحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبرتين، اللتين تكررتا فى نهايه قصص نوح و إبراهيم و موسى عليهما السلام...فيقول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً عَلَىٰ قَدَرِهِ اللَّهُ، و استقامه الأنبياء و عاقبه المستكبرين السيئه، و لكن مع ذلك و مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

فيمهل إمهالا كافيا. و يمنح الفرصه. و يبين الدلائل الواضحه للمضلين ليهدوا...إلا أنه عند المجازاه و العقاب، و بعد إتمام الحجه يأخذ أخذا عسيرا لا مفر لأحد منه أبدا...

إشاره

كذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِهَامِينَ آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ يَمُّ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

التفسير

إشاره

لا تطيعوا المفسدين:

القسم الخامس من قصص الأنبياء فى هذه السوره، هو قصه «ثمود» الموجهه القصيره، و نبئهم «صالح» الذين كانوا يقنطون فى «وادي القرى» بين المدينه و الشام، و كانت حياتهم مترفه مرفهه... إلا أنهم لطغيانهم و عنادهم أبيدوا و أبيروا حتى لم يبق منهم ديار و لم تترك لهم آثار...

و بدايه القصة هذه مشابهه لبدايه قصه عاد«قوم هود»و بدايه قصه نوح و قومه،و هي تكشف كيف يتكرر التاريخ،فتقول: كَذَّبَتْ  
ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ...

لأنّ دعوه المرسلين جميعا دعوه واحده،فتكذيب ثمود نبيهم صالحا تكذيب للمرسلين أيضا...

و بعد ذكر هذا الإجمال يفصل القرآن ما كان بين صلاح و قومه،فيقول: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ...

لقد كان النبي صالح هاديا و دليلا لقومه مشفقا عليهم،فهو بمثابة«الأخ»لهم، و لم يكن لديه نظره استعلائية و لا منافع ماديّه،و  
لذلك فقد عبر القرآن عنه بكلمه «أخوهم»...و قد بدأ دعوته إيّاهم كسائر الأنبياء بتقوى الله و الإحساس بالمسؤوليه!...

ثم يقول لهم معرفا نفسه: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و سوابقي معكم شاهد مبين على هذا الأمر فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ إِذْ لَا أُرِيدُ إِلَّا  
رِضَا اللَّهِ وَ الْخَيْرَ وَ السَّعَادَةَ لَكُمْ...

و لذلك فأنا لا- أطلب عوضا منكم فى تبليغى إيّاكم... وَ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتَنِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فأنا أدعوكم  
له،و أرجو الثواب منه سبحانه...

كان هذا أول قسم من سيره صالح التى تلخصت فى دعوته قومه و بيان رسالته إليهم...

ثم يضع«صالح»إصبعه على نقاط حساسه من حياتهم،فيتناولها بالنقد و يحاكمهم محاكمه وجدانيه،فيقول: أَ تَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا  
أَمِينًا .

و تتصورون أن هذه الحياه الماديّه التى تستغفل الإنسان دائمه له و هو خالد فيها!فلذلك تأمنون من الجزاء،و أن يد الموت لا  
تنوشكم؟! و بالأسلوب المتين،أسلوب الإجمال و التفصيل...يشرح النبي صالح لقومه تلك الجمله المغلقه و المجله بقوله:و  
تحسبون أنّكم مخلدون فى جنّاتٍ و عُيُونٍ

ثمَّ يَنْتَقِدُهُمْ عَلَى بَيْوتِهِمُ الْمَرْفَهُهُ الْمَحْكَمَهُ فَيَقُولُ: وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ .

«الفاره» مشتق من (فره على وزن فرح) ومعناه فى الأصل السرور المقرون باللامبالاه و عباده الهوى... كما يستعمل فى المهاره عند العمل أحيانا...و مع أن المعنيين ينسجمان مع الآيه، إلا أنه مع ملاحظه توبيخ نبيهم صالح إياهم و ملامته لهم فيبدو أن المعنى الأول أنسب...

و من مجموع هذه الآيات و بمقايستها مع ما تقدم من الآيات فى شأن عاد، يستفاد أن عادا «قوم هود» كان أكثر اهتمامهم فى حب الذات و المقام و المفاخره على سواهم...فى حين أن ثمود «قوم صالح» كانوا أسرى بطونهم و الحياه المرفهه...و يهتمون أكبر اهتمامهم بالتنعم، إلا أن عاقبه الجماعتين كانت واحده، لأنهم جعلوا دعوه الأنبياء التى تحررهم من سجن عباده الذات للوصول إلى عباده الله، جعلوها تحت أقدامهم، فنال كل منهم عقابه الصارم الويبيل...

و بعد ذكر هذه الانتقادات يتحدث النبى صالح عليه السلام فى القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ .

ص: ٤٢٩

١ - ١) - «الطلع» مأخوذ من ماده «الطلع» و يستعمل فى ما يكون منه الرطب بعدئذ، و هو معروف و شكله جميل منضوم نضيد، له غلاف ينشق عنه العذق أول الربيع. ثم يلحق بيد الإنسان أو بالرياح ليكون الثمر...و قد يستعمل الطلع فى الثمره الأولى للنخل! و «الهضيم» من ماده «هضم»، و له معان مختلفه، فتاره يراد منه الثمره الناضجه، و تاره يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، و تاره يطلق على المهضوم، و قد يستعمل بمعنى المنضوم المنضد، فإذا كان الطلع فى الآيه محل البحث بمعنى العذق أول طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، و إذا كان الطلع أول الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف...

## العلاقه بين الإسراف و الفساد فى الأرض!

نعرف أن «الإسراف» هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين و قانون التشريع...

و واضح أيضا أنّ أىّ تجاوز عن الحد موجب للفساد و الاختلال و بتعبير آخر: إن مصدر الفساد هو الإسراف، و نتيجة الإسراف هى الفساد أيضا.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الإسراف له معنى واسع، فقد يطلق على المسائل الماديه كالأكل و الشرب، كما فى الآيه (٣١) من سوره الأعراف كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا .

و قد يرد فى الانتقام و القصاص -عند تجاوز الحد- كما فى الآيه (٣٣) من سوره الإسراء... فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا .

و قد يستعمل فى الإنفاق و البذل عند التبذير و عدم التدبير، كما فى الآيه (٦٧) من سوره الفرقان: وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

و قد يأتى فى الحكم أو القضاء الذى يجزّ إلى الكذب، كما فى الآيه (٢٨) من سوره غافر: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ! و قد يستعمل فى الإعتقاد المنتهى إلى الشك و التردد و الارتياب كما فى الآيه (٣٤) من سوره غافر إذ تقول: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ .

و قد يأتى بمعنى الاستعلاء و الاستكبار و الاستثمار كما جاء فى الآيه (٣١) من سوره الدخان فى شأن فرعون إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ .

و أخيرا فقد يأتى بمعنى مطلق الذنوب كما هو فى الآيه (٥٣) من سوره الزمر قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .

و بملاحظه كل ما بيناه آنفا، تتضح العلاقه بين الإسراف و الفساد بجلاء...

يقول العلامه الطباطبائى فى الميزان: «إن الكون على ما بين أجزائه من

التضاد و التراحم، مؤلف تأليفا خاصا يتلائم معه أجزاءه بعضها مع بعض فى النتائج و الآثار... فالكون يسير بالنظام الجارى فيه إلى غايات صالحه مقصوده، و هو بما بين أجزاءه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سيلا خاصا يسير فيها بأعمال خاصه، من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط، فإن فى الميل و الانحراف إفسادا للنظام المرسوم و يتبعه إفساد غايته و غايه الكل... و من الضرورى أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له، و إفساد النظم المفروض له و لغيره، يستعقب منازعه بقيه الأجزاء له، فإن استطاعت أن تقيمه و ترده إلى وسط الاعتدال فهو و إلا- أفنته و عفت آثاره، حفظا لصلاح الكون و استبقاء لقوامه و الإنسان الذى هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكليه، فإن جرى على ما يهديه إليه الفطره فاز بالسعاده المقدره له، و إن تعدى حدود فطرته و أفسد فى الأرض، أخذه الله سبحانه بالسنين و المثلات و أنواع النكال و النقمه، لعله يرجع إلى الصلاح و السداد، قال الله تعالى: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (١)**

و إن أقاموا مع ذلك على الفساد- لرسوخه فى نفوسهم- أخذهم الله بعذاب الاستئصال و طهر الأرض من قذاره فسادهم قال الله تعالى: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (٢) (٣)**

و من هنا يتضح بجلاء، لم ذكر الله سبحانه فى الآيات المتقدمه الإسراف و الفساد فى الأرض و عدم الإصلاح، فى سياق واحد و منسجم.

ص: ٤٣١

١- ١) - الروم، الآية ٤١.

٢- ٢) - الأعراف، الآية ٩٦.

٣- ٣) - راجع تفسير الميزان، الجزء ١٥، الصفحه ٣٣٣-٣٣٤.

اشاره

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

التفسير

اشاره

عناد قوم صالح و لجاجتهم:

لقد استمعتم إلى منطق صالح المتين و المحب للخير، مع قومه المضلين- في الآيات المتقدمه- و الآن لنستمع إلى جواب قومه في هذه الآيات.

إنهم واجهوه بكلام خشن و قالوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ فلذلك فقدت عقلك و تتكلم بكلمات غير موزونه و لا معقوله.

ثم بعد هذا كله مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا و كل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطع

إنسانا مثله فَأَتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ لَكِي تُوْمَن بَكِ وَ تَتَّبِعَكَ.

كلمه (المسحر) مشتقه من (السحر) ومعناها المسحور، أى المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أن السحره كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل، وهذا القول لم يتهم به النبى صالِحاً فحسب، بل اتهم به كثير من الأنبياء، حتى أن المشركين اتهموا نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم به فقالوا: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (١).

أجل، إنهم كانوا يرون معيار العقل أن يكون الإنسان متوقفاً مع البيئه والمحيط، فإكل الخبز-مثلاً-بسعر يومه، و يطبق نفسه على جميع المفاسد...فلو أن رجلاً مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام و النهوض بوجه العقائد الفاسده و إصلاحها،عدوه- بحسب منطقهم- مجنوناً «مسحوراً».

و هناك احتمالات آخر فى معنى «المسحرين»، صرفنا النظر عنها لعدم مناسبتها...

و على كل حال فإن هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزه لا من أجل معرفه الحق، بل تذرعا بالحجه الواهيه، و على نبينهم أن يتم الحجه عليهم، فاستجاب لهم-و بأمر الله-قال: هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ .

و«الناقه» معروفه عند العرب، و هى أنثى الجمل، و القرآن لم يذكر خصائص هذه الناقه التى كان لها حاله إعجازيه، إلا أنه ذكرها بنحو الإجمال... لكننا نعرف أنها لم تكن ناقه كسائر النياق الطبيعيه، فكما يقول جماعه من المفسرين: كانت هذه الناقه بحاله من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل. و من خصائصها أنها كانت تشرب ماء الحى فى يوم، و اليوم الآخر لأهل الحى «أو القرية» و هكذا دواليك... كما أشارت الآيه آنفه الذكر إلى هذا المعنى، و وردت الإشارة إلى هذا المعنى فى الآيه (٢٨) من سوره القمر أيضاً.

ص: ٤٣٣



و قد ذكر المفسرون لها خصائص آخر (١).

و على كل حال، كان على صالح عليه السّلام أن يعلمهم أن هذه الناقة ناقة عجيبة و خارقه للعاده، و هي آية من آيات عظمه الله المطلقه فعليهم أن يدعوها على حالها، و قال: **وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ...**

و بديهي أن المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظه الناس ستؤدى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتأمروا على نحر الناقة: **فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ (٢)** لأنهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الالهى.

و لما تجاوز طغيانهم الحدّ، و أثبتوا بأعمالهم أنهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادته الله و مشيئته أن يطهر الأرض من وجودهم الملوّث فأخذهم العذاب .

و كما نقرأ فى الآية (٧٨) من سوره الأعراف، و الآية (٦٧) من سوره هود، ما جاء عن عذاب الله لهم إجمالاً... أن الأرض زلزلت من تحتهم ليلاً، فانتبهوا من نومهم و جثوا على الركب فما أمهلهم العذاب و أخذتهم الرجفه و الصيحه، فاهترت حيطانهم و هوت عليهم فأماتتهم جاثمين على حالهم ففارقوا الدنيا بحال موحشه رهيبه!...

و يقول القرآن فى ختام هذه الحادثه ما قاله فى ختام حوادث قوم هود و قوم صالح و قوم نوح و قوم إبراهيم عليه السّلام، فيعتبر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبه أولئك الظالمين: إن فى قصه قوم صالح، و فى صبره و تحمله و استقامته و منطقته القويم من جهه، و عناد قومه و غرورهم و انكارهم للمعجزه البيئه، و المصير

ص: ٤٣٤

١- ١) - لمزيد الإيضاح فى هذا الصدد يراجع تفسير الآية (٦١) من سوره هود...

٢- ٢) - كلمه (عقروها) مأخوذه من ماده (عقر) على زنه (قفل) و معناها فى الأصل أساس الشىء و جذره، و قد تأتى بمعنى حز الرأس، و تأتى بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، و ما إلى ذلك.

الأسود الذى آلو إليه دروس و عبر: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

أجل، ليس لأحد أن يغلب ربه، فما فوق قوته من قوه!! وهذه القوه و هذه القدره العظيمه لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضا:  
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (١)

ص: ٤٣٥

---

١- ١) -تقول الروايات إن الذى قتل ناقه صالح كان واحدا لا غير...إلا أن القرآن يعبر عن هذا الفعل بصيغه الجمع (فعمروها). و هذا التعبير لأن الآخرين كانوا راضين بعمله و يضمون أصواتهم إلى صوته، و يعتقدون بمعتقده...و تفتح نافذه من هنا على أصل اسلامى، و هو أن العلائق الفكرية و المذهبيه تجعل المنتمين إليها فى صف واحد، و تكون عاقبتهم واحده. لمزيد الايضاح يراجع الآيه (٦٥) من سوره هود...

اشاره

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٦٣) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَ تَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)

التفسير

اشاره

السفله المعتدون:

سادس نبى-ورد جانب من حياته و حياه قومه المنحرفين فى هذه السوره- هو«لوط»عليه السلام،و مع أنه كان يعيش فى عصر إبراهيم الخليل،إلا- أن قصته لم تأت بعد قصه إبراهيم عليه السلام،لأن القرآن لم يكن كتابا تاريخيا ليبيّن الحوادث بترتيب وقوعها...بل يلفت النظر إلى جوانبه التربويه البناءه،و التى تقتضى تناسبا آخر...

و قصه لوط و ما جرى لقومه تنسجم فى حياه الأنبياء الآخرين الذين ورد ذكرهم فى ما بعد...

يقول القرآن أولا فى هذا الصدد: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ .

ورود «المرسلين» بصيغه الجمع، إما لأنّ دعوه الأنبياء عليهم السّلام واحده، فتكذيب الواحد منهم تكذيب للجميع، أو أن قوم لوط لم يؤمنوا بأى نبي قبل لوط واقعا و حقيقه...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى دعوه لوط التى تنسجم مع دعوه الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ**

و لحن كلماته و قلبه المتحرق لهم، العميق فى تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثمّ أضاف لوط قائلا: **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** فلم تعرفوا عنتى خيانه حتى الآن... و سأرعى الأمانه فى إيصال رساله الله إليكم أبدا... **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا فَنَا زَعِيمِكُمْ إِلَى السَّعَادَةِ وَ النَّجَاةِ.**

و لا تتصوروا أنّ هذه الدعوه وسيله اتخذها للحياه و العيش، و أنّ وراءها هدفا ماديا، كلاً: **وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .**

ثمّ يتناول بالنقد أعمالهم القبيحه، و قسما من انحرافاتهم الأخلاقية...

و حيث أنّ أهم نقطه فى انحرافاتهم... هى مسأله الانحراف الجنسى، لذلك فإنّه ركّز عليها و قال: **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ** فتختارون الذكور من بين الناس لإشباع شهواتكم!! أى، إنكم على الرغم ممّا خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشا طاهرا هادئا، إلا أنّكم تركتم نعمه الله هذه وراءكم، و لوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى...

كما و يحتمل فى تفسير هذه الآيه أن «من العالمين» جاء قيّدا لقوم لوط أنفسهم، أى إنكم من دون العالمين و حدكم المنحرفون بهذا الانحراف و المبتلون به... كما أن هذا الاحتمال ينسجم مع بعض التواريخ إذ يقال أن أوّل أمه ارتكبت

الانحراف الجنسي «اللواط» بشكل واسع هي قوم لوط، (١) إلا أن التفسير الأول مع الآية التالية-أكثر انسجاما.

ثم أضاف قائلا: وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ .

فالحاجه و الغريزه الطبيعیه، سواء كانت روحیه أم جسمیه لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافی الشنیع ابدأ، وإنما جرّكم الطغیان و التجاوز، فتلوّثتم و خزیتم به...

إن ما تقومون به يشبه من يترك الثمر الطيب و النافع و السالم، و يمضی نحو الغذاء المسموم الملوّث الممیت... فهذا الفعل ليس حاجه طبيعیه... بل هو التجاوز و الطغیان!

## بحثان

## اشاره

### ١- الانحراف الجنسي انحراف مخجل

أشار القرآن في سور متعدده منه-كالأعراف و هود و الحجر و الأنبياء و النمل و العنكبوت، إلى ما كان عليه قوم لوط من الوزر الشنیع... إلا أن تعابيره-في السور المذكوره آنفا-يختلف بعضها عن بعض... و في الحقيقه إن كل تعبير من هذه التعابیر يشير إلى بعد من أبعاد عملهم الشنیع:

ففي «الأعراف» نقرأ مخاطبه لوط إياهم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . (٢)

و في الآية (٧٤) سورة الأنبياء يتحدث القرآن عن لوط فيقول: وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ .

أمّا في الآية-محل البحث-فقد قرأنا مخاطبه لوط إياهم بقوله:

ص: ٤٣٨

١- ١) -في شأن انحراف هؤلاء القوم، يذكر التاريخ قصه يمكن مراجعتها في تفسير الآية (٨١) من سورة هود...

٢- ٢) -سورة الأعراف، الآية ٨١.

و جاء في الآية (٥٥) من سورة النمل قوله لهم: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ «الآية ٥٥».

كما جاء في الآية (٢٩) من سورة العنكبوت على لسان لوط مخاطبا إياهم إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ . (١)

و هكذا فقد ذكر هذا العمل القبيح بعناوين «إسراف»، «خبث»، «فسق»، «تجاوز»، «جهل»، و«قطع السبيل».

«الإسراف» من جهه أنهم نسوا نظام الخلق في هذا الأمر، و تجاوزوا عن الحد، و«التعدى» ذكر أيضا لهذا السبب.

و«الخبث» هو ما ينفر منه طبع الإنسان السليم، و أى عمل أقبح من هذا العمل الذى ينفر منه؟! «الفسق» معناه الخروج عن الطاعة- طاعة الله- و التعرى عن شخصيته الإنسانيه، و هو من لوازم هذا العمل حتما.

و«الجهل» لعدم معرفتهم بعواقب هذا الفعل الوخيمه على الفرد و المجتمع!...

و أخيرا فإن «قطع السبيل» هو النتيجة السيئه لهذا الفعل، لأنه سيؤدى إلى انقطاع النسل عند اتساع هذا الفعل، لأنّ العلاقة نحو الجنس المشابه ستحل محل العلاقة نحو الجنس المخالف بالتدريج (كما هي الحال بالنسبه للواط و السحاق).

## ٢-العواقب الوخيمه للانحراف الجنسي.

بالرغم من بحثنا لهذا الموضوع فى ذيل الآيات ٨١-٨٣ بحثا مفصّلا فى أضرار هذا العمل القبيح، إلا أنه- نظرا لأهميته- نرى هنا من اللازم أن نذكر

ص: ٤٣٩

١- ١) - قيل أن المراد من (تقطعون السبيل) أى تقطعون سبيل الفطره و تداوم النسل، و فسّره آخرون بأنّ المراد هو أن قوم لوط كانوا قَطّاع طرق و سَرّاقا!...

مطالب آخر مضافا إلى ما سبق!

في الحديث عن النبي (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يجد ريح الجنة زنوق و هو المخنث». (١)

و

في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «اللواط هو الكفر». (٢)

و

في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا في فلسفه تحريم اللواط و السحاق أنه قال: «عله تحريم الذكران للذكران، و الإناث للإناث، لما ركب في الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما في إتيان الذكران الذكران، و الإناث للإناث من انقطاع النسل، و فساد التدبير، و خراب الدنيا». (٣)

و هذه المسألة قبيحه جدًا في نظر الإسلام بحيث جعل في أبواب الحدود - حده القتل دون شك... حتى الذين يقومون بعمل أدنى من اللواط و السحاق جعل لهم عقابا صارما...

ففي حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قبل غلاما من شهوه، أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». (٤)

و عقوبه من يفعل مثل هذا الفعل تتراوح من ثلاثين سوطا إلى تسعه و تسعين سوطا...

و على كل حال، فلا شك أن الانحراف الجنسي من أخطر الانحرافات الاجتماعيه... لأنه يلقي بظله المشؤوم على جميع المسائل الأخلاقيه، و يجر الإنسان إلى الانحراف العاطفي.

«و كان لنا بحث مفصل في هذا الصدد في ذيل الآيه ٨١ من سوره هود».

ص: ٤٤٠

١-١) -بحار الأنوار، الطبعه الجديده، ج ٧٩، ص ٦٧.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق، ص ٦٤.

٤-٤) -بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٧٢.

إشاره

قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)  
فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ  
(١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

التفسير

إشاره

عاقبه قوم لوط:

إن قوم لوط الغارقين بالغرور و المتماديه بهم رياح الشهوه،بدلا من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهي،فتدخل مواعظه في قلوبهم و يخلصوا من تلك الأمواج الرهيبه،فإنهم نهضوا لمواجهته و قالوا لئن لَمْ تَنْتَه يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ...

إن كلامك يبلبل أفكارنا،و يسلب اطمئناننا و هدوانا،فنحن غير مستعدين



حتى للإصغاء إلى كلامك...و إذا واصلت هذا الأسلوب و لم تنته منه،فإنّ أقل ما تجزى به هو الإبعاد و الإخراج من هذه الأرض...

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن أن قوم لوط سعوا لتنفيذ تهديدهم،و أمروا بإخراج لوط و أهله،فقالوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

إن فعل هؤلاء الضالين-بلغ بهم أن يعدوا التقوى و التطهر بينهم أكبر عيب، و أن يفخروا بالرجس و عدم الطهاره،و هذه هى العاقبه المشؤومه للمجتمع المسرع نحو الفساد! و يستفاد من عبارته لتُكوَنَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أَنَّ هذه الجماعه الفاسده كانوا قد أخرجوا أناسا طاهرين من حيثهم فهتدوا لوطا بهذا الأمر أيضا،و هو أنه إذا لم تنته فستنال ما ناله سواك من الإبعاد و الإخراج...

و قد صرّح فى بعض التفاسير أنهم كانوا يخرجون المتطهرين من القرية بأسوأ الحال (1) ...

إلا أن لوطا لم يكثرث بتهديدهم،و واصل نصحه لهم و قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ .

إنه يريد أن يقول:سأواصل انتقادي إياكم...فافعلوا ما شئتم...فأنا لا أترك مواجهه هذه الأعمال القبيحه بالاعتراض و النقد!...

و التعبير ب«من القالين»يدلّ أيضا على أن جماعه كانوا مثل النبى لوط يرفضون هذه الأعمال و يعترضون عليها...رغم أن المنحرفين أخرجوهم من قريتهم آخر الأمر.

كلمه «القالين»جمع «قال»من ماده (قلى)أو(قلى)«على وزنى حلق و شرك»و معناها العداوه الشديده التى تترك أثرها فى قلب الإنسان،و هذا التعبير

ص: ٤٤٢

١-١) -تفسير روح المعانى،و التفسير الكبير للفخر الرازى،ذيل الآيات محل البحث.

يكشف عن شدّه تنفّر لوط من أعمالهم...

و الذى يسترعى النظر أن لوطا يقول:إتّى لعملكم من القالين.أى إتنى لا أعاديكم بأشخاصكم،بل أعادى أعمالكم المخزيه،فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم و غير قال لكم.

و أخيرا لم تؤثر مواعظ لوط و نصائحه فى قومه،فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع عفن...و تمّت الحجه عليهم بمقدار كاف، و بلغت رساله لوط مرحلتها النهائيه...فعليه أن يغادر هذه المنطقه العفنه،و أن ينجى من معه ممن استجاب دعوته،لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم،فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه،فقال: رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ .

و بالرغم من أنّ بعضهم احتمل أن يكون المراد من الأهل من الآيه جميع من آمن به...إلا أن الآيه(٣٦)من سوره الذاريات تقول: فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

و لكن كما أشرنا من قبل-فإن بعض التعابير الوارده فى الآيات محل البحث، تشير إلى أن جماعه من المؤمنين به كانوا قد أبعدا و أخرجوا من القرية...

و يستفاد ممّا قيل-ضمنا-أن دعاء لوط لأهله لم يكن بسبب العلاقه العاطفيه و الارتباط النسبى القربى،بل لإيمانهم به...

فاستجاب الله دعائه كما تقول الآيه التاليه: فَتَجِيئَاهُ وَ أَهْلُهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ . (١)

و هذه العجوز لم تكن سوى زوج النّبي لوط التى كانت منسجمه مع أفكار قومه الضالين و عقيدتهم،و لم تؤمن بلوط أبدا،و لذلك ابتليت بما أبتلى به قومه من العذاب و الهلاك.

ص: ٤٤٣

١-١) -«الغابر»من ماده(الغبور)و معناه الباقي،و متى ما تحركت جماعه و بقى شخص فى المكان فإنّه يدعى(غابرا)و لهذا السبب سمى التراب الباقي غبارا...و الغبره:الباقي من اللبن فى ثدى الحيوان.

و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع في ذيل الآيات «٨١-٨٣ من سورة هود».

أجل، لقد نجى الله لوطا و المؤمنين القلة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلا من تلك المدينة- أو القرية- فترك قومه الغارقين بالفسق و الفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداه، فتزلزلت بهم الأرض و انهارت عليهم الأبنية و القصور الجميله حتى أصبح عاليها سافلها و هلكوا جميعا في ديارهم، و قد عبّر القرآن عن كان ذلك بعباره موجزه بليغه، فقال: **ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ** و لم يكف ذلك بل **وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا** و أي مطر! إنه وابل من أحجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار. **فَلَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**!...

و الأمطار عاده تمنح الحياه، إلا أن هذا المطر كان موحشا مهلكا مخزّبا...

و يستفاد من الآيه (٨٢) من سورة هود أن قرى قوم لوط و مدنهم قلب عاليها سافلها أولا، ثم أمطرت بالحجر النضيد المتراكم، و لعله كان إمطارهم بالحجاره لمحو آثارهم، فلم يبق منها غير تل كبير من الأحجار و التراب بدل تلك المدن العامره...

ترى هل كانت هذه الأحجار قد حملت من الصحارى على أثر اعصار عظيم و سقطت على رؤوسهم؟ أو هي أحجار نزلت من السماء بأمر من الله عليهم؟! أو كما يقول بعض المفسّرين كان هناك بركان أو جبل نار قد خمد لفته، ثم انفجر بأمر الله فأمطرهم بالحجاره، ليس ذلك معلوما على نحو الدقه! إلا أن من المسلّم به أنّ هذه الأحجار- أو هذا المطر المهلك- لم يترك للحياه في تلك الأرض من أثر! «و تفصيل هذا الموضوع ذكرناه في ذيل الآيات ٨١-٨٣ من سورة هود، كما ذكرناه في الجزء الثامن مع «لطائف» مختلفه فلا بأس بمراجعتها»...

و مرّه أخرى نواجه في نهايه هذه القصّه الجملتين اللتين تكررتا في القصص المشابهه لها في هذه السوره، في شأن خمسه أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

وأيّه آيه أجلى من هذه الآيه التي تعرفكم على هذه المسائل المهمّة و البناءه، دون أن تحتاجوا إلى تجربه شخصيه! أجل إن تاريخ الماضين عبره و آيه للآتين، و ليس تجربه، لأنّ تجربه ينبغى على الإنسان أن يتحمل فيها خسائر ليحصل على نتائجها... إلا أننا هنا نحصل على النتائج من خسائر الآخرين!.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

وأيّه رحمه أعظم من أنه لا- يعاقب أقواما فاسقين كقوم لوط فورا، بل يمهلهم إمهالا كافيا لعلهم يهتدون، و يجددوا نظرهم فى أعمالهم!...

وأيّه رحمه أعظم من أن لا- يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان فى ألف ألف (1) أسره غير صالحه أسره واحده صالحه، فإنه ينجيها منها و ينزل العذاب على أولئك! و أيّه عزّه أعظم من أن ترى بطرفه عين واحده ديار الفاسقين قد دمرت تدميرا و لم يبق منها أى أثر! فالأرض التي كانت مهادا لأمنهم أمرت بإقبارهم، و المطر الذي تحيا به الأرض و الناس يكون مميتا لهم!

ص: ٤٤٥

---

١- ١) - ذكرنا آنفا أن مصطلح ألف ألف هو التعبير العربى الصحيح و أن كلمه مليون ليست عربيه بل هى غريبه فتأمل.

إشاره

كذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولَى (١٨٤)

التفسير

إشاره

شعيب و أصحاب الأيكة:

هذه هي القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة... وهي قصة «شعيب» عليه السلام و قومه المعاندين.

كان هذا النبي يقطن في «مدين»، و هي مدينة تقع جنوب الشامات.

و «أيكة» على وزن (ليلة) «قرية أو أرض معموره على مقربة من مدين».

و الآية (٧٩) من سورة الحجر تدل على أن «أيكه» كانت تقع في طريق أهل الحجاز إلى الشام.

تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ .

إنهم لم يكذبوا نبيهم شعيباً فحسب، بل كذبوا جميع الأنبياء، لأن دعوتهم واحده... أو لأنهم لم يصدقوا و يقبلوا بأى رساله سماويه أبدا...

و الأيكة معناها فى الأصل محل مكتظ بالأشجار، و هى هنا إشاره إلى منطقه تقع على مقربه من «مدين»، سميت بذلك لأن فيها أشجارا كثيره و ماء و ظللالا!...

و القرائن تشير إلى أنهم كانوا منعمين مترفين ذوى حياه مرفهه و ثروه كثيره، و ربّما كانوا لهذه الأمور غرقى الغرور و الغفله!...

ثم يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب عليه السلام و عنهم فيقول: إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ .

و فى الحقيقه فإن دعوه شعيب عليه السلام انطلقت من النقطه التى ابتدأها سائر الأنبياء، و هى التقوى و مخافه الله التى تعدّ أساس المناهج الإصلاحية و التغييرات الأخلاقية و الاجتماعيه جمعا...

و الجدير بالذكر أن التعبير «أخوهم» الوارد فى قصص صالح و هود و نوح و لوط عليهم السلام، لم يلاحظ هنا. و لعل منشأ ذلك يعود إلى أن «شعيباً» كان من أهل مدين أصلاً- و تربطه باهلها روابط نسيبه، و ليس كذلك مع اصحاب الأيكة... و لذلك نرى فى سورة هود حين يشير القرآن إلى إرسال «شعيب» إلى قومه من أهل مدين يقول: وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا إِلَّا أَنْ الْآيَةَ مَحَلَّ الْبَحْثِ لَمَّا كَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، و شعيب عليه السلام لا تربطه رابطة نسيبه بهم لم تذكر التعبير «أخاهم»...

ثم أضاف شعيب قائلاً: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا فِطَاعَتَكُمْ

لى طاعه لله .

و اعلموا ائى ائبغى ثوابه و وجهه و ما اسئلکم علیه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين .

و هذه التعابير هى التعابير ذاتها التى دعا بها سائر الأنبياء أممهم، فهى متحده المآل و مدروسه، إذ تدعو إلى التقوى، و تؤكد على سابقه أمانه النبى بين قومه، كما أنها تؤكد على أن الهدف من الدعوه إلى الله معنوى فحسب، و ليس ورائها هدف مادى، و لا يطمع أى من الأنبياء بما فى يد الآخرين، ليكون مثارا للشكوك و ذريعه للمتذرعين! و «شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حياتهم فى هذه السوره، فهو يدعو قومه بعد الدعوه العامه للتقوى و طاعه الله، إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية و الاجتماعيه و ينتقدهم على هذه الانحرافات، و حيث أن أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادى، و الاستثمار و الظلم الفاحش فى الأثمان و السلع، و التطفيف فى الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، و قال لهم: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ (١) الْمُسْتَقِيمِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

و فى هذه الآيات الأخيره الثلاث يأمر شعيب هؤلاء القوم الضالين بخمسه أوامر فى عبارات موجزه، و يتصور بعض المفسرين أن هذه العبارات بعضها يؤكد بعضها، إلا أن التدقيق فيها يدل على أن هذه الأوامر الخمسه فى الواقع تشير إلى خمسه مطالب أساسيه و مختلفه، أو بتعبير آخر: هى أربعة أوامر و نتيجته كليته!...

و لكى يتضح هذه الاختلاف أو التفاوت، فإنه يلزم الالتفات إلى هذه

ص: ٤٤٨

١ - ١) - «القسطاس»، «على وزن نسناس» معناه «ميزان»... قال بعضهم: أصل هذه الكلمه روميّه، و قال بعضهم: بل هى عربيّه، و يعتقد بعضهم أن القسطاس ميزان كبير، أما الميزان نفسه المستعمل فى لغه العرب فهو الصغير، و قالوا: إن للقسطاس مؤشرا و لسانا فهو لذلك دقيق الوزن!...

الحقيقه...و هي أن قوم شعيب(أهل مدين و أصحاب الأيكة)كانوا مستقرين فى منطقہ حساسه تجاريه،و هي على طريق القوافل القادمه من الحجاز إلى الشام، أو العائده من الشام إلى الحجاز،و من مناطق آخر.

و نحن نعرف أن هذه القوافل تحتاج فى أثناء الطريق إلى أمور كثيره...

و طالما يسيء أهل المنطقه الاستفاده من هذه الحاله،فهم يستغلونها فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن...و يبيعون عليهم المستلزمات بأعلى ثمن«و ينبغى الالتفات إلى أن أكثر المعاملات فى ذلك الحين كانت قائمه على أساس المعاوضه سلعه بسلعه»...

و ربما تذرعوا عند شراء البضاعه بأن فيها عدّه عيوب،و إذا أرادوا أن يبيعوا عليهم عرفوها بأحسن التعاريف،و عند ما يزنون لأنفسهم يستوفون الوزن،و إذا كالموا الآخرين أو وزنوا لهم لا يهتمون بالميزان الصحيح و الإستيفاء السليم، و حيث أن الطرف المقابل محتاج إلى هذه الأمور على كل حال و مضطر إليها،فلا بدله من أن يقبلها و يسكت عليها!...

و بغض النظر عن القوافل التى تمرّ عليهم، فإنّ أهل المنطقه نفسها المضطرين إلى التعامل ببضائعهم مع هؤلاء المطففين،و ليسوا بأحسن حظا من أصحاب القوافل أيضا.

فقيمته المتاع سواء كان الجنس يراد بيعه أو شراؤه تتعين بحسب رغبه الكسبه هؤلاء.و الوزن و المكيال على كل حال بأيديهم،فهذا المسكين المستضعف عليه أن يستسلم لهم كالميت بيد غاسله! و مع ملاحظه ما ذكرناه آنفا،نعود الآن إلى تعابير الآيات المختلفه...فتاره يقول شعيب لقومه:أوفوا الكيل،و فى مكان آخر يقول:زنوا بالقسطاس المستقيم، و نعرف أن تقويم الأجناس و البضائع يتم عن طريق الكيل أو الوزن،فهو يشير الى كل واحد منهما و يهتم به اهتماما خاصا...لمزيد التأكيد على أن لا يبخسوا الناس



ثم إنَّ التطفيف أن بخس الناس له طرق شتى، فتاره يكون الميزان صحيحاً إلا صاحبه لا يؤدي حقه، وتاره يكون اللعب أو العيب في الميزان...فهو يغش صاحبه بما فيه من عيب، وقد جاءت الإشارات في الآيات الآنفه إلى جميع هذه الأمور.

و بعد اتضاح هذين التعبيرين أَوْفُوا الْكَيْلَ ... وَ زِنُوا بِالْقَيْسِ طاسِ نأتى الى معنى (لا تبخسوا)المأخوذه من «البخس»،و هو فى الأصل النقص ظلما من حقوق الناس...وقد يأتى أحيانا بمعنى الغش أو التلاعب المنتهى إلى تضييع حقوق الآخرين...فبناء على ما تقدم،فإن الجملة الآنفه وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ لَهَا معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش و التزوير و التضليل،و التلاعب فى المعاملات،و غمط حقوق الآخرين! و أما جملة وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ فمع ملاحظه أن«المخسر»هو من يوقع الآخر أو الشىء فى الخسران...فمعناه واسع أيضا،إذ يشمل بالإضافة إلى البخس و التطفيف كل ما من شأنه أن يكون سببا للخساره و إيذاء الطرف الآخر فى المعامله! و هكذا فإن جميع ما ذكر من الاستغلال و سوء الاستفادة و الظلم،و المخالفه فى المعامله و الغش و الإخسار،سواء كان ذلك فى الكمية أو الكيفيه،كله داخل فى التعليمات آنفه الذكر...

و حيث أن الاضطراب الاقتصادى،أو الأزمه الاقتصاديه،أساس لاضطراب المجتمع،فإن شعبييا يختتم هذه التعليمات بعنوان جامع فيقول: وَ لَا تَعْتَوُوا فِي الْمَأْرُضِ مُفْسِدِينَ .فتجروا المجتمع الى هاويه الفساد و الانحطاط،فعليكم أن تضعوا حداً لأى نوع من الاستثمار و العدوان و تضييع حقوق الآخرين.

و هذه التعليمات ليست بناءه للمجتمع الثرى الظالم فى عصر شعيب فحسب،

بل هي بناءه و نافعها لكل عصر و زمان، و داعية إلى العدالة الاقتصادية!...

ثم إن «شعبيا» في آخر تعليماته-في هذا القسم- يدعوهم مرد أخرى إلى تقوى الله فيقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّ الْأُولِينَ .

فلستم أول قوم أو جماعه خلقوا على هذه الأرض، فأباؤكم و الأمم الأخرى جاءوا و ذهبوا، فلا تنسوا ماضيهم و ما تقبلون عليه...

(الجبله) مأخوذه من (الجبل) و هو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيرا» و يسمى الطود أحيانا... فالجبله تطلق على الجماعه الكثيره التي هي كالجبل في العظمه...

قال بعضهم: الجبله مقدار عددها عشره آلاف! كما تطلق الجبله على الطبيعه و الفطره الإنسانيه، لأنها لا تتغير، كما أن الجبل لا يتغير عادة...

و التعبير المتقدم لعله إشاره إلى أن شعيبا يقول: إنما أدعوكم إلى ترك الظلم و الفساد، و أداء حقوق الناس و رعايه العدل، لأن ذلك موجود في داخل الفطره الإنسانيه منذ الخلق الأول، و أنا جئتكم لإحياء هذه الفطره...

إلا أنه-و للأسف- لم تؤثر كلمات هذا النبي المشفق، فأجابوه بمنطق «مرّ و فظ» سنقرؤه في الآيات المقبله...

اشاره

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَيَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

التفسير

اشاره

عاقبه الحمقى:

لما رأى قوم شعيب الظالمون-أنهم لا- يملكون دليلا- ليواجهوا به منطقه المتين...و من أجل أن يسيروا على نهجهم و يواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التهم و الأكاذيب.

فالتهمه الأولى هي ما يلصقها الجبابره دائما و المجرمون بالأنبياء، و هي

السحر فاتهموه بها وقالوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَيَّرِينَ (١) و لا- يرى فى كلامك ما هو منطقي!! و تظن أنك بهذا الكلام تستطيع  
تقييد حريتنا فى التصرف فى أموالنا كما نشاء!! ثم ما الفارق بينك و بيننا لتتبعك؟! و لا مزيه لك علينا و مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَ  
إِنْ نُنْظَنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ .

و بعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تاره يدعونه (من الكاذبين) و رجلا انتهازيا، و تاره يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، و كان  
كلامهم الأخير هو: إن كنت نبياً فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من  
العذاب.

و «كسف» على وزن (فرق) جمع (كسفه) على وزن (قطعه) و معناها قطعه أيضاً و المراد من هذه «القطع من السماء» هى قطع الأحجار  
التي تهوى من السماء...

و هكذا يبلغ بهم صلفهم و وقاحتهم و عدم حيائهم إلى هذه الدرجة، و أظهروا كفرهم و تكذيبهم فى أسوأ الصور.

إلا أن شعيباً عليه السلام، و هو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة و الكلمات القبيحة و طلبهم عذاب الله، كان جوابه الوحيد لهم  
أن قال رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ...

و يشير إلى أن الأمر خارج عن يدي، و أن إنزال العذاب و إسقاط الكسف من السماء غير مخول بها ليطلب كل ذلك منى... فالله  
يعرف أعمالكم و يعلم بها، و ما أنتم أهل له، فمتى لم تنفع المواعظ و تمت الحجة اللازمه، فإن عذابه لا مرد له و سيقطع دابركم  
لا محاله!...

و هذا التعبير و أمثاله مما يرد على لسان الأنبياء، و ما نلاحظه فى آيات

ص: ٤٥٣

١- ١) - «المسحر» كما أشرنا من قبل إليه، هو المسحور... أو الذى يقع عليه السحر من قبل السحرة، لينفذوا فى عقله و يطلوا عمله!!

القرآن يدل على أنهم كانوا يوكلون جميع الأمور إلى الله، وإنها بإذنه وأمره، ولم يدعوا أنهم قادرون على كل شيء، أو أنهم يفعلون ما يشاءون!

و على كل حال فإن عذاب الله أذف موعده- و كما يعبر القرآن عنه فى الآيه التالىة قائلا: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

«الظله» فى الأصل معناها القطعه من السحاب المظلل: أى ذى الظل...

يقول أغلب المفسرين فى ذيل هذه الآيه: إن حرًا شديدًا محرقًا حلّ فى أرضهم سبعة أيام، و لم يهب نسيم بارد مطلقًا، فإذا قطعه من السحاب تظهر فى السماء-بعد السبعة أيام-و تحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، و استظلّوا تحت السحاب من شدّه الحرّ.

و فجأه سطعت من بين السحابه صاعقه مميته بصوتها المذهل، و أحرقتهم بنارها و زلزلت الأرض و هلكوا جميعًا.

و نعرف أن الصاعقه تنتج عن تلاقح القوى أو «الطاقه» الموجبه و السابقيه، أو ما يعبر عنها بالشحنات الكهربائيه و حين تتلاقح هذه الشحنات بين السحاب و الأرض ينتج عنها صوت مرعب و شعله موحشه، و قد تهتز الأرض عند وقوعها فيتزلزل محل سقوطها...و هكذا يتضح أن اختلاف التعابير فى آيات القرآن الوارده عن عذاب قوم شعيب، يعود إلى حقيقه واحده!ففى سوره الأعراف جاء التعبير بالرجفه (الآيه ٩١) و فى سوره هود جاء التعبير بالصيحه (الآيه ٩٤) أما فى الآيات محل البحث فقد جاء التعبير ب عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ ...

و بالرغم من أن بعض المفسرين «كالقرطبى و الفخر الرازى و غيرهم» يحتمل أن أصحاب الأيكه و أهل مدين كانوا جماعتين أو طائفتين، و كل طائفه نزل عليهم عذاب خاص، إلا أنه مع ملاحظه هذه الآيات المتعلقه بهذا القسم-بدقه-يتجلى أن هذا الاحتمال غير وارد!...

و تحتتم القصه هذه بما ختمت القصص الست السابقيه عن أنبياء الله الكرام، إذ

يقول القرآن: إن في حكاية أصحاب الأيكة و دعوته نبيهم شعيب و عنادهم و تكذيبهم، و بالتالى نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس و عبره لمن اعتبر إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين .

و مع ذلك كله فإن الله رحيم و دود يمهلهم لعلمهم يرجعون و يصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا فى الغى و استوجبوا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل و إن ربك لهو العزيز الرحيم .

## بحوث

## إشارة

### ١- الانسجام التام فى دعوات الأنبياء

فى ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة نجد أن هذه القصص تشكّل حلقة كاملة من حيث الدروس التربويه... و ينبغى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة» (١) و هى أن قصص هؤلاء الأنبياء جميعا جاءت فى سور آخر من القرآن أيضا. إلا أنها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أن بدايه دعوتهم منسجمه، كما أنّ نهاياتها منسجمه أيضا.

و لوحظ فى خمسة أقسام من هذه القصص أن محتوى الدعوه هو تقوى الله، ثم الإشاره إلى أمانه النبى، و عدم مطالبته قومه بالأجر على تبليغه إياهم... و بعد هذه المسائل تعالج المسائل الاجتماعيه، و الانحرافات الأخلاقيه، من قبل الأنبياء بلغه تنم عن الإشفاق و المحبه...

ثم يبين القرآن ردّ فعل الأمم المنحرفه تجاه أنبيائهم، و أخيرا عاقبتهم الوخيمه، و يذكر عذاب كل منهم و كيفيته...

ص: ٤٥٥

---

(١- ١) - اللطيفه، ممّا لطف و دقّ و هى الشىء الخفى الذى يحتاج إلى دقه لإدراكه. (المصحح).

و فى نهايه كل من هذه القصص السبع يشير القرآن إلى أن فى ذلك آيه و أن أكثرهم لا يؤمنون...

ثم يؤكد القرآن أيضا فى نهايه كل قصه منها على قدره الله (و عزته) و رحمته.

و هذا الانسجام-قبل كل شىء-يدلّ على تجلى مفهوم وحده دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد و بدايه واحده و نهايه واحده... و جميعهم كانوا معلمى مدارس الإنسانيه... و بالرغم من أن محتوى هذه المدارس كان ينبغى أن يتغير بتقدم الزمن و المجتمع الإنسانى، إلا أن الأصول و النتائج تبقى على حالها.

ثم بعد هذا كله، فإن هذه القصص كانت تسرى عن قلب النبى و المؤمنين القلّه فى ذلك العصر (و المؤمنون فى كل عصر) و تسلى خاطرهم، لئلا يحزنوا و يأسوا من كثره المشركين و الأعداء الضالين، و أن يثقوا و يتوقعوا العاقبه لهم... و أن يكون أملهم بذلك كبيرا...

كما أن ذلك إنذار للجباره و المستكبرين و الظالين- فى كل عصر و زمان- لئلا يتصوروا بأنّ عذاب الله بعيد عنهم... العذاب بأنواعه كالزله و الصاعقه، و الطوفان و البركان... و انشقاق الأرض و الخسف، و الأمطار الغزيره التى تعقبها السيول المدمره، و الإنسان المعاصر ضعيف أمامها كضعف الإنسان الغابر... لأن الإنسان المعاصر- بالرغم من جميع قواه و تقدمه الصناعى عاجز أمام الطوفان و الصاعقه و الزله... و يبقى ضعيفا لا حول له و لا طول!...

كل ذلك من أجل أن الهدف من قصص القرآن هو تكامل الناس و بلوغهم الرشد، و الهدف تنوير القلوب و معالجه الهوى بالتعقل... و أخيرا فإنّ الهدف هو مواجهه الظلم و الانحراف...

## ٢- التقوى، بدايه دعوه الأنبياء جميعا:

مِمَّا يَلْفَتُ النَّظْرَ أَنْ قَسَمَا مَهْمَا مِنْ قِصَصِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ-الوارد ذكرهم في سورة الشعراء-ذكر في سورة هود و الأعراف، إلا أن في بدايه ذكرهم و بيان سيرتهم في اقوامهم الدعوه إلى وحدانيه الله-عاده-و يتبدأ في تلك السور عند ذكرهم. بجمله يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ! إلا أنه في هذه السوره(الشعراء)-كما لاحظنا-كانت بدايه دعوتهم قومهم أَلَا تَتَّقُونَ... و الحق أنهما تعودان إلى نتيجة واحده...لأنه إذا لم توجد في الإنسان أدنى مراتب التقوى، و هي طلب الحق، فإنه لا- يؤثر فيه شيء، لا الدعوه إلى التوحيد و لا غيرها...لذا فإننا نقرأ في بدايه سورة البقره قوله تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

و بالطبع فإن التقوى لها مراحل-أو مراتب-و كل مرتبه هي درجه للرقى إلى المرحله التاليه أو المرتبه الأخرى...

كما نلاحظ اختلافا آخر بين هذه السوره و سورتى الأعراف و هود، ففي سورتى الأعراف و هود كانت دعوه الأنبياء تتركز على نبذ الأصنام، أمّا المسائل الأخر فكانت تحت الشعاع، إلا- أنه في سورة الشعراء هذه تتركز الدعوه على مكافحه الانحرافات الأخلاقيه و الاجتماعيه، كالمفاخره و طلب الاستعلاء، و الإسراف، و الانحراف الجنسي، و الاستثمار و التطفيف. إلخ... و هذا الأمر يكشف بأن تكرار هذه القصص في القرآن له حساب خاص، و لكل هدف معين يعرف من السياق!

## ٣- الانحرافات الاخلاقيه

مِمَّا يَلْفَتُ النَّظْرَ أَنَّ الْأَقْوَامَ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى انْحِرَافِهِمْ عَنْ أَصْلِ التَّوْحِيدِ نَحْوَ الشِّرْكِ وَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، الَّذِي يَعُدُّ أَصْلًا مَشْتَرَكًا



بينهم، فإنهم كانوا متورطين بانحرافات أخلاقية و اجتماعية خاصه «و كل قوم لهم انحرافات خاصه»...

فبعضهم كانوا أهل مفاخره و تكبر... كقوم هود عليه السلام.

و بعضهم كانوا أهل إسراف و ترف كقوم صالح عليه السلام.

و بعضهم كانوا مبتلين بالانحراف الجنسي كقوم لوط عليه السلام.

و بعضهم كانوا عبده المال بحيث كانوا يتلاعبون بالمعاملات كقوم شعيب عليه السلام.

و بعضهم كانوا مغرورين بالثروه كقوم نوح عليه السلام.

إلا أن عقابهم كان متشابها إلى حد ما، و كانت نهايتهم الهلاك...

فبعضهم أهلكوا بالصاعقه و الزلزله كقوم شعيب و قوم لوط و قوم صالح و قوم هود.

و بعضهم أهلكوا بالطوفان كقوم نوح عليه السلام.

و فى الحقيقه، فإن الأرض التى هى مهد للدعه و الاطمئنان، و كانوا يمرحون عليها، أمرت بإهلاكهم!...

و الماء و الهواء الذين هما سببا حياتهم نفذوا الأمر بإماتتهم! و ما أعجب أن تكون حياه الإنسان فى قلب الموت، و موته فى قلب الحياه، و هو مع كل ذلك غافل مغرورا!

اشاره

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)

التفسير

اشاره

عظمه القرآن في كتب «السابقين».

عظمه القرآن في كتب «السابقين». (١)

بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، و العبر الكامنه في تاريخ حياتهم، يعود القرآن مره أخرى إلى البحث الذي شرعت به السوره، بحث عظمه القرآن و حقانيه هذا الكلام الإلهي المبين، إذ يقول: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و أساسا فإن بيان جوانب مختلفه عن سير الأنبياء السابقين بهذه المدقه و الظرافه، و الخو من أى نوع من الخرافات و الأساطير الكاذبه، و فى محيط ملء بالأساطير و الخرافات، و من قبل إنسان لا يعرف القراءه و الكتابه، أو لم يسبق له

ص: ٤٥٩

أن تعلمهما... كل ذلك بنفسه دليل على أن هذا الكتاب تنزيل من رب العالمين، وهذا نفسه دليل على إعجاز القرآن!! لذلك تضيف الآية التالية قائلة: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .

و لو كان القرآن لم ينزله ملك الوحي «الروح الأمين من قبل الله» لم يكن بهذا الإشراق و الصفاء و الخلو من الخرافات و الأساطير و الأباطيل...

و ممّا يلفت النظر أن ملك الوحي وصف بوصفين فى الآية:الأول أنه الروح، و الوصف الثانى أنه الأمين...

فالروح هى أساس الحياه، و الأمانه، هى شرط أصيل فى الهدايه و القياده!...

أجل، إن هذا الروح الأمين نزل بالقرآن عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . (١)

فالهدف هو أن تنذر الناس، و أن تحذرهم من مغبه الانحراف عن التوحيد، ليحذروا من سوء العاقبه... إن الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرد شرفا فكريا و لملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤوليه و اليقظه، و الهدف هو الترييه و بناء شخصيه الإنسان!...

و لثلا تبقى حجّه لأحد و لا عذر، فإنّ القرآن أنزل بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ...

فهذا القرآن نازل بلسان عربى فصيح، خال من الإبهام، للإبهار و الإيقاظ، و لا- سيما أنه نزل فى محيط يتذرع أهله بالحجج الواهيه، نزل بليغا واضحا...

هذا اللسان العربى هو أكمل الألسنه و اللغات و أغناها أدبا و مقاما.

و الجدير بالذكر أن أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحه و البلاغه- بقطع النظر عن كيفيه اللسان، و كما يقول الراغب فى المفردات: العربى: الفصيح البين من الكلام...

و فى هذه الصوره فإنه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحه

ص: ٤٦٠

---

١- ١) -واضح- هنا- أن المراد من القلب هو روح النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلّم، لا القلب الذى يعدّ مضخّه للدم... و انتخاب هذا التعبير إشاره إلى أنّك يا رسول الله استوعبت القرآن بروحك و قلبك، و هذه المعجزه السماويه مقرّها قلبك.

القرآن و وضوح مفاهيمه، و الآيات التالية تؤيد هذا المعنى، كما جاء فى الآيه (٤٤) من سوره فصلت وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .

فالمراد من الأعجمى هنا هو الكلام غير الفصحى!...

و الآيه التاليه تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانيه القرآن فتقول: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ . (١)

و خاصه أن أوصاف هذا النبى العظيم و أوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراى موسى عليه السلام بحيث أن علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك، حتى قيل أن إيمان قبيلتى الأوس و الخزرج بالنبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم كان على أثر ما كان يتوقعه علماء اليهود عن ظهور هذا النبى العظيم، و نزول هذا الكتاب السماوى الكريم..

لذا فإن القرآن يضيف هنا قائلا: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

و واضح أنه مع وجود أولئك العلماء من بنى إسرائيل فى ذلك المحيط الملىء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافا» و اعتبارا..

لأنه كان سيرد عليه من كل حذب و صوب بالإنكار، و هذا بنفسه دليل على أن هذا الموضوع كان جليا فى ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات-محل البحث- و نقرأ فى الآيه (٨٩) من سوره البقره أيضا: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .

و كل هذا شاهد جلى على صدق آيات القرآن و حقانيه دعوته!...

ص: ٤٦١

١-١) - «الزبر» جمع: زبور و معناه الكتاب، و هو فى الأصل من ماده (زبر) على وزن (أسر) أى كتابه...



اشاره

وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَيَلَكُنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)

التفسير

اشاره

لو نزل القرآن على الأعاجم...

في هذه الآيات يتكلم القرآن على واحده من الذرائع الاحتماليه من قبل الكفار و موقفه منها، و يستكمل البحث السابق في نزول القرآن بلسان عربى مبین، فيقول: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ .

قلنا سابقا أن كلمه «عربى» قد يراد منها من ينتمى إلى العرب، و قد تطلق على الكلام الفصيح أيضا. و «عجمى» فى مقابل العربى كذلك له معنيان، فقد يراد منه من ينتمى إلى غير العرب، و قد يراد منه الكلام غير الفصيح، و كلا المعنيين فى الآيه الآنفة محتمل، إلا أن الاحتمال الأكثر هو أن المقصود غير العرب، كما يبدو.

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقه و يعبد القوميه كانوا متعصبين الى درجه

أجل، إنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فيأتيهم بعتته وهم لا يشعرون . (١)

لا شك أن المراد من هذا العذاب الذى يأخذهم بعتته، هو عذاب الدنيا و البلاء المهلك و عقاب الاستئصال!...

لذا فإن القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، و يندمون على أفعالهم، و يملكهم الخوف من المصير المرعب، و يودون بأن يعطوا فرصه لجبران ما فات و الإيمان بالرسالة الالهيه: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ...

**بحوث**

**اشاره**

### **١- العصبية القوميه و القبليه الشديده!...**

لا- شك أن كل إنسان يرتبط بأرض أو قبيله أو قوميه فإنه يعشقها، و هذه العلاقه بالأرض أو القبيله، ليست غير معييه فحسب، بل هى عامل بناء لأبناء المجتمع، إلا أن لهذا الأمر حدودا، فلو تجاوز الحدود فإنه سينقلب إلى عامل مخرب، و ربّما إلى عامل مفعج.

و المراد من التعصب أو العصبية القوميه أو القبليه المذمومه و السلبيه، هو الإفراط فى التعصب أو العصبية...

«التعصب» و «العصبية» فى الأصل من ماده (عصب) و معناه واضح، و هو الغضروف الذى يربط المفاصل، ثم أطلق التعصب و العصبية على كل ارتباط...

إلا أن هذا اللفظ أو هذين اللفظين يستعملان عادة فى المفهوم الإفراطى المذموم.

إن الدفاع المفرط عن القوم أو القبيله أو الأرض و الوطن، كان مصدرا لكثير

ص: ٤٤٤

---

(١- ١) -ينبغى الالتفات إلى أن جملة «فيأتيهم» منصوبه و معطوفه على «حتى يروا»، و ينبغى بيان معناها بهذه العلاقه.

من الحروب على طول التاريخ، و عاملاً على انتقال الخرافات و التقاليد السيئه على أنها آداب و سنن فى قبيله ما أو أمه ما!! إلى امم آخر! هذا الدفاع أو الانتماء المتطرف، قد يبلغ حدا بحيث يرى أسوأ أفراد قبيلته فى نظره جميلاً، و أحسن أفراد القبيله الأخرى فى نظره سيئاً... و كذلك الحال بالنسبه إلى السنن و الآداب السيئه و الحسنه... و بتعبير آخر: إنّ التعصب القومى يلقى ستارا من الجهل و الأنانيه على أفكار الإنسان و عقله، و يلغى التقييم الصحيح! هذه الحاله من العصبية كانت لها صورته أكثر حده بين بعض الأمم، و منهم العرب المعروفون بالتعصب.

و قد قرأنا فى الآيات الآنفه أنه لو أنزل الله القرآن على غير العرب لما كانوا به مؤمنين.

و قد ورد فى الروايات الإسلاميه التحذير من التعصب، على أنه خلق مذموم، حتى أننا نقرأ

حديثاً عن رسول صلي الله عليه و آله و سلم يقول فيه: «من كان فى قلبه حبه من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهليه». (١)

و

نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ريقه الإيمان من عنقه». (٢)

و يستفاد من الروايات الإسلاميه أيضاً، أن إبليس أول من تعصب...

يقول الإمام على عليه السلام فى بعض خطبه-المعروفه بالقاصعه-فى مجال التعصب كلاماً بليغاً مؤثراً، ننقل جانباً منه هنا:

«أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، و طعن عليه فى خلقته، فقال: أنا نارى

ص: ٤٦٥

---

١-١) -اصول الكافي، الجزء الثانى (باب العصبية ص ٣٢).

٢-٢) -المصدر السابق.



ثم

يضيف الإمام على فى خطبته هذه قائلاً: «فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأمور». (٢)

و يتّضح من هذا الحديث-بجلاء أن التعصب و الدفاع المستميت عن بعض الحقائق و الايجابيات ليس غير مذموم فحسب، بل بإمكانه أن يسدّ فراغاً روحياً قد ينشأ من ترك بعض العادات الجاهلية المقيته.

لذلك نقرأ

عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام حين سئل عن التعصب قوله: «العصبية التى يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، و ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، و لكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم». (٣) و التعبير الآخر عن العصبية الوارد فى بعض الروايات أو الآيات هو الحميه (حميه الجاهلية).

و بالرغم من أن الأحاديث فى هذا المجال كثيره، إلا أننا نختم بحثنا بحديثين منها:

يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام «إنّ الله يعذب سته بست-العرب بالعصبية، و الدهاقنه بالكبر، و الأمراء بالجور، و الفقهاء بالحسد، و التجار بالخيانة، و أهل الرستاق بالجهل». (٤)

و كان رسول الله يتعوذ فى كل يوم من ست «من الشكّ و الشرك و الحميه و الغضب و البغى و الحسد». (٥)

ص: ٤٤٤

١-١) -نهج البلاغه، الخطبه القاصعه، رقمها ١٩٢.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -اصول الكافى، ج ٢، باب العصبية، ص ٢٣٣.

٤-٤) -البحار، ج ٧٣، ص ٢٨٩.

٥-٥) -المصدر نفسه.

## ٢- طلب الرجوع إلى الدنيا...

من لحظه الموت تبدأ حسرات المجرمين وآهاتهم، وتشتعل في قلوبهم رغبة الرجوع إلى الدنيا، ويصرخون و يدعون و لات حين مناص... .

و في القرآن الكريم أمثله كثيره في هذا الصدد، أكثرها بساطه هذه الآيه محل البحث هل نَحْنُ مُنْظَرُونَ .

أما في الآيه (٢٧) من سوره الأنعام فنقرأ: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا .

أما في الآيه (٦٦) سوره الأحزاب فتقول منها: يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ .

و نقرأ في الآيتين ٩٩-١٠٠ من سوره المؤمنون: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .

و هذه الحاله تستمر حتى في صوره ووقوف المجرمين على حافه النار، كما في الآيه ٢٧ من سوره الأنعام، إذ تقول: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إلا أن هذه العوده لن تتحقق، لأنها سنه الله سبحانه، و لن تجد لسنه الله تبديلا، و لن تجد لسنه الله تحويلا، فلو قطعت ثمره غير ناضجه من الشجره ثم عادت، و لو سقط الجنين من بطن امه قبل اكتماله، ثم عاد الى الرحم... لأمكن أن يعود هؤلاء...

فبناء على ذلك فإن الطريق الوحيد المعقول، هو التوقى من حسره ما بعد الموت بالتوبه من الذنب، و الأعمال الصالحه، ما دامت الفرصه سانحه و إلا فلا ينفع الندم بعد فوات الأوان!...

## ٣- فضل العجم:

جاء في تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق ذيل الآيات محل البحث

ص: ٤٦٧

أنه قال: «لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب... وقد نزل على العرب فأمنت به العجم، فهذه فضيله العجم». (١)

«و في هذا الصدد كانت لنا إشارات ذيل الآيه ٥٤ من سوره المائده».

ص: ٤٦٨

---

١-١) -الجزء الرابع من تفسير نور الثقلين، ص ١٦٥.

إشاره

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ السَّيِّئَاتُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢١٢)

التفسير

إشاره

تهمه أخرى للقرآن:

حيث أن الآيات المتقدمه ختمت بجمله هَيْلٌ نَحْنُ مُنْظَرُونَ التي يقولها المجرمون عند ما يأتيهم العذاب بغته و هم علا أبواب الهلاك، طالبين الإمهال و الرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال. فالآيات محل البحث تردّ عليهم عن طريقين:

الأول قوله تعالى: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ .

إشاره إلى أنه طالما استهزأتم أيها المجرمون، و سخرتم من أنبيائكم، و طلبتم منهم نزول العذاب بسرعه... لكن حين أصبحتم في قبضه العذاب تطلبون الإمهال

لتعوضوا عمّيات من الأعمال، وكنتم ترون الأمر لهوا و لعبا فى يوم، لكن فى اليوم الآخر وجدتموه جدّيا- و على كل حال فإنّ سنه الله أن لا يعذب قوما حتى يتمّ عليهم الحجّه البالغه...

لكن إذا تمّت الحجّه، وفسح لهم المجال، و لم يثوبوا الى رشدهم أنزل عذابه فلا ينفع الابتهاال، و الرجوع نحو ساحه ذى الجلال.

و الآخر أنه أفرأيت إن منّناهم سنين ثمّ جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون .

فعلى فرض أنّهم أمهلوا ثانيه(و لن يمهّلوا بعد إتمام الحجّه عليهم) و على فرض أن يعمّروا سنين طوالا فى هذه الدنيا و يغرقوا فى بحر الغفله و الغرور، الا يكون عملهم التمتع و التلذذ بالمواهب الماديّه فحسب. و هل يعوضون عما فاتهم؟! كلاً أبدا.. فمن المسلم أنّهم لا يعرضون عمّا فاتهم. و هل تغنى المواهب الماديّه عنهم شيئا عند نزول العذاب؟ و هل تحلّ مشكلتهم أو تحدث تغييرا فى عاقبتهم؟! كما يرد هذا الاحتمال فى تفسير الآيات الآنفه، و هو أنّهم لا يطلبون الإمهال للرجوع نحو الحق و التعويض عما فات، بل يطلبون الإمهال لمزيد التمتع من النعم الزائله فى هذه الدنيا، إلا أن هذا التمتع لا يغنى عنهم شيئا، و لا بد أن يرحلوا- إن عاجلا و إن آجلا- من هذه الدار الفانيه إلى تلك الدار الباقيه، و أن يواجهوا أعمالهم هناك...

و هنا يشار سؤال- و هو أنّه مع الالتفات إلى أن الله بمستقبل كل قوم و جماعه، فما الحاجه إلى الإمهال؟ ثمّ أن الأمم السالفه كذبت أنبياءها واحدا بعد الآخر، و بمقتضى قوله تعالى:

وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ

الوارد فى نهايه تلك القصص إن أكثرهم لم يؤمنوا، فعلام يأتى الأنبياء منذرين و مبشرين؟! فالقرآن يجب على هذا السؤال بأن ذلك سنه الله و ما أهلكنا من قريّه إلا

فَنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجّة و تقديم النصح و الموعظه ليتذكروا و يستيقظوا من غفلتهم ذُكْرَى . (١)

و لو كنا نأخذهم بدون إتمام الحجّه، و ذلك بإرسال المنذرين و المبشرين-من قبل الله-لكان ظلما منا و مَا كُنَّا ظَالِمِينَ .

فمن الظلم أن نهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجّه عليهم...

و ما ورد في هذه الآيات هو في الحقيقة بيان للقاعده العقلية المعروفه ب«قاعده قبح العقاب بلا بيان» و شبهه لهذه الآيه ما جاء في الآيه (١٥) من سوره الإسراء: و مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا .

أجل.. إنَّ العقاب بدون البيان الكافي قبيح، كما أنه ظلم، و الله العادل الحكيم محال أن يفعل ذلك أبداً، و هذا ما يعبر عنه في علم الأصول ب(أصل البراءه) و معناه أن كل حكم لم يقم عليه الدليل، فإنه ينفي بواسطه هذا الأصل «لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآيه ٥٧ من سوره الإسراء»..

ثم يرد القرآن على إحدى الذرائع أو التهم الباطله من قبل اعداء القرآن و هي أن التّبي مرتبط ببعض الجن، و هو يعلمه هذه الآيات، و الحال أن القرآن يؤكد أن هذه الآيات هي من «تنزيل رب العالمين».

فيضيف هنا قائلاً: و مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ .

ثم يبين جواب هذه التهمه الواهيه التي اختلقها الأعداء فيقول: و مَا يَنْبَغِي لَهُمْ .

ص: ٤٧١

١ - ١) - للمفسرين في محل (ذكرى) من الإعراب أربعة احتمالات...الأول: أنه مفعول لأجله و العامل «منذرون» و التفسير المذكور آنفاً في المتن هو على هذا الأساس. الثاني: أنه مفعول مطلق لكلمه «منذرون» لأنّ معناهما واحد أو هما متقاربان في المعنى. الثالث: أنه حال من الضمير في منذرون. الرابع: أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه ذكرى).

أى أن محتوى هذا الكتاب العظيم الذى يدعو الى الحق و الطهاره و العدل و التقوى، و نفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلاله واضحه على أنه لا شباهه له بأفكار الشياطين و ما يلقونه. فالشياطين لا يصدر منهم إلا الشر و الفساد، و هذا كتاب خير و صلاح، فالدقه فى محتواه تكشف عن أصالته.

ثم إن الشياطين ليست لهم القدره على ذلك و مَا يَسْتَطِيعُونَ .

فإذا كانت لهم القدره فينبغى على سائر من كان فى محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين بالشياطين (أو على الأقل كان المشركون يدعون بأنهم مرتبطون بالشياطين) أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله، و هذا العجز أثبت أن القرآن فوق قدرتهم و مستوى بلاغتهم و أفكارهم!...

و مضافا إلى كل ذلك، فإن الكهنة أنفسهم كانوا يعترفون أنهم بعد ولاده النبى صلى الله عليه و آله و سلم انقطعت علاقتهم بالشياطين الذين كانوا يأتونهم بأخبار السماء و إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُؤُونَ .

و يستفاد من سائر آيات القرآن أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء و يسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلا أنه بظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و ولادته انقطع استراق السمع تماما، و زال الارتباط الخبرى بين الشياطين و أوليائهم...

و هذا الأمر كان يعلم به المشركون أنفسهم، و على فرض أن المشركين كانوا لا يعلمون، فإن القرآن أخبرهم بذلك. (1)

و لذا فقد جعله القرآن دليلا فى الآيات الأنفه لدحض ما يتقوله الأعداء...

و هكذا فقد أجاب القرآن على هذا الاتهام من ثلاثه طرق:

ص: ٤٧٢

---

١-١) -لمزيد الإيضاح فى منع الشياطين عن استراق السمع يراجع الجزء الأول من سيره ابن هشام، ص ٢١٧ فما بعد.

١-عدم التناسب بين محتوى القرآن و إلقاء الشياطين.

٢-عدم قدره الشياطين على ذلك.

٣-منع الشياطين من استراق السمع.

ص: ٤٧٣



إشاره

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَ اخْفِضْ جَنَاحَيْكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَ تَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

التفسير

إشاره

و أنذر عشيرتك الأقربين...

تعقيباً على الأبحاث الواردة في الآيات السابقة في شأن مواقف المشركين من الإسلام و القرآن... فإن الله سبحانه يبين لنبية-في الآيات محل البحث- منهجه و خطته في خمسه أوامر، في مواجهه المشركين...

و قبل كل شيء فإن الله يدعو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إلى الاعتقاد التام بالتوحيد، التوحيد الذي هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً... يقول سبحانه: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ...

و مع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان من المقطوع به أنه ينادى إلى التوحيد و لا يمكن أن

يتصور انحرافه عن هذا الأصل... إلا أن أهميه هذه المسأله كانت بحيث أن يكون شخص النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل كل شىء-مخاطبا بها. ليعرف الآخرون موقفهم... ثم إن بناء الآخرين يبدأ من بناء شخصيه الإنسان نفسه...

ثم يأمره الله فى مرحله اخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب فى دعوته قائلا:

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

(١).

و لا شك أنه للوصول إلى منهج تغييرى ثورى واسع، لا بدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى و الأصغر، فما أحسن أن يبدأ النبى دعوته من أقربائه و أرحامه، لأنهم يعرفون سوابقه النزيهه أكثر من سواهم كما أن علائق القربى و المودّه تستدعى الإصغاء إلى كلامه أكثر من غيرهم، و أن يكونوا أبعد من سواهم من حيث الحسد و الحقد و المخاصمه! إضافة إلى ذلك فإنّ هذا الأمر يدلّ على أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليس لديه أية مدهانه و لا مساومه مع أحد، ليستثنى أقرباءه المشركين عن دعوته إلى التوحيد و الحق و العدل!...

و عند ما نزلت هذه الآيه، قام النبى بما ينبغى عليه من أجل تنفيذ هذا الأمر الإلهى، و سيأتى تفصيل ذلك كله فى حقل البحوث بإذن الله...

أمّا المرحله الثالثه، فإنّ الله يوصى النبى فى دائره أوسع فيقول: عليك أن تعامل اتباعك بالطف و المحبه: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و هذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبه و اللطف، كما أن الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبه منها لها، و تجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانه من الحوادث المحتمله، و لتحفظها من التشتت و التفرّق! فكذلك الأمر بالنسبه للنبى إذ أمر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

ص: ٤٧٥

١-١) -العشيره مشتقّه من «العشره» العدد المعروف [١٠] و حيث أن العشره تعتبر فى نفسها عددا كاملا، فقد سمى أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيره، و لعل المعاشره مأخوذه من هذا المعنى، لأنها تجعل الناس بصوره مجموعته كامله.

و هذا التعبير الرائع ذو المعنى الغزير يبين دقائق مختلفه فى شأن محبه المؤمنين، و يمكن إدراكها بأدنى التفاته!...

و ذكر هذه الجملة-ضمنا-بعد مسأله الإنذار يكشف عن هذه الحقيقه، و هى إذا كان التعويل على الخشونه فى بعض الموارد بمقتضى الضرورات التربويه، فإنه و بلا فاصله يأتى التعويل على المحبه و العاطفه ليتوفر منهما نمط مناسب...

ثم تأتى المرحله الرابعه و هى أن الأعداء لم يقبلوا دعوتك و عصوا أوامرک.

فلا- تبتس و لا- تحزن: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ... ليعرفوا موقفك منهم! و الظاهر أن الضمير فى عصوك-يعود على عشيره النبى صلى الله عليه و آله و سلم الأقربين... أى إذا لم يذعنوا بعد دعوتك إياهم للحق، و واصلوا شركهم و عنادهم، فعليك أن تبين موقفك منهم، و هذا التوقع الذى احتمله القرآن حدث فعلا، كما سنذكر ذلك فى البحوث القادمه، إذ امتنع الجميع عن قبول دعوه النبى ما عدا عليا عليه السلام... فبعضهم لاذ بالصمت، و بعضهم أبدى مخالفته عن طريق الاستهزاء و السخرية...

و أخيرا فالأمر الالهى الخامس للنبى لإكمال مناهجه السابقه، هو: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ .

فلا- تدع لعنادهم مجالا للتأثير على عزيمتك... و لا لقله الأعوان و الأنصار طريقا لتوهين ارادتك، فلست وحدك... و سندك و ملاذك هو الله القادر العزيز الذى لا يقهر، و الرحيم الذى لا حد لرحمته...

الله الذى سمعت وصفه فى ختام قصص الأنبياء بالعزيز الرحيم!...

الله الذى بقدرته أحبط ظلم فرعون و غرور نمرود، و تمرّد قوم نوح، و أنانيه قوم هود، و اتباع الشهوات لقوم لوط. و كذلك أنقذ أنبياءه و رسله الذين كانوا قلّه، و شملهم برحمته الواسعه.

ذلك الله الذى يَرَاكَ جِئِن تَقُومُ وَ تَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ .

أجل إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ...

و هكذا تذكر الآيات ثلاث صفات لله بعد وصفه بالعزیز الرحيم و كلّ منها يمنح الأمل و يشدّ من عزم النّبي على مواصلة طريقه، إذ أن الله يرى جهوده و أتعابه و حركاته و سكناته، و قيامه و سجوده و ركعاته!..

ذلك الله الذي يسمع صوته.

الله الذي يعلم حاجاته و طلباته حاجته...

أجل، فعلى هذا الإله توكل، و أركن إليه أبدا.

## بحثان

### إشارة

#### ١- تفسير وَ تَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ .

بين المفسرين أقوال مختلفة في معنى قوله تعالى: الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ .

و ظاهر الآية هو ما ذكرناه آنفا، أن الله يرى قيامك و انتقالك و حركتك بين الساجدين.

و هذا القيام يمكن أن يكون قيما للصلاة، أو القيام للعبادة من النوم، أو القيام للصلاة فرادى، و في مقام تقلبك في الساجدين... الذي يشير إلى صلاة الجماعة.

«التقلب» معناه الحركة و الانتقال من حال إلى حال، و هذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبي بين الساجدين في أثناء الصلاة، أو إلى حركة النبي و تنقله بين أصحابه و هم مشغولون بالعبادة، و كان يتابع أحوالهم و يسأل عنهم...

و في المجموع فإنّ هذا التعبير إشارة إلى أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء من حالاتك و سعيك، سواء كانت شخصيته فردية، أم كانت مع المؤمنين في صورته جماعية، لتدبير أمور العباد و لنشر مبدأ الحق مع الالتفات إلى أن الأفعال الواردة

فى الآيه مضارعه و فىها معنى الحال و الاستقبال».

و هنا تفسيران آخران ذكرا فى معنى الآيه، إلا أنّهما لا ينسجمان مع ظاهرها، و لعلهما من بطون الآيه:

الأول: أنّ المراد من الآيه رؤيه النبى و نظره إلى المصلين و الساجدين خلفه، لأنّه كما يرى من أمامه يرى من خلفه كما

ورد فى الحديث: «لا ترفعوا قبلى و لا تضعوا قبلى، فأنى أراكم من خلفى كما أراكم من أمامى» (١) ثم تلا النبى صلى الله عليه و آله و سلم الآيه آنفه الذكر.

الثانى: أنّ المراد منه أنّ انتقال فى أصلاب النبيين من لدن آدم حتى أبيه عبد الله، كلّ تحت نظر الله سبحانه، أى حين تنتقل نطفتك المباركه من نبى موحد ساجد إلى ساجد آخر فإن الله عليم بذلك...

و

قد جاء فى تفسير على بن ابراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير وَ تَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ما يشير إلى هذا المعنى، قال عليه السلام: «فى أصلاب النبيين صلوات الله عليهم». (٢)

و

فى تفسير مجمع البيان فى توضيح هذه الجملة جاء عن الإمامين الباقر و الصادق عليه السلام ما يلى: «فى أصلاب النبيين نبى بعد نبى، حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم». (٣)

و بالطبع فإنّه بقطع النظر عن الآيات آنفه الذكر و تفسيراتها، فإن الدلائل المتوفره تدلّ على أن والد النبى و أجداده لم يكونوا مشركين أبدا، و ولدوا فى محيط منزّه عن الشرك و الدنس «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيه، ٧٤ من سورة الأنعام» إلاّ أن التفاسير الآنفه هى من بطون الآيه...

ص: ٤٧٨

١-١) -مجمع البيان ذيل الآيه محل البحث.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٩.

٣-٣) -مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

وفقا لما ورد في التواريخ الإسلامية، أمر النبي في السنة الثالثة بدعوته الأقربين من عشيرته، لأن دعوته حتى ذلك الحين كانت مخفيه «سريته»، و كان الذين دخلوا في الإسلام عددا قليلا، لذلك حين نزلت الآية: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَالْآيَةَ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١) أمر النبي أن يجعل دعوته عليه، وبدأ ذلك بدعوه أهله و أقربائه (٢).

و أمّا كيفية إبلاغه و إنذاره إيّاهم، فهو بإجمال أنّه دعا النبي «عشيرته» إلى بيت عمّه أبي طالب، و كانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلا، و كان ممن حضر هذه الدعوه بعض أعمام النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كأبي طالب و الحمزه و أبو لهب و العباس، و بعد أن تناولوا الطعام، و أراد النبي أن يؤدي ما عليه، تكلم أبو لهب كلمات أحبط بها خطه النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، لذا فقد دعاهم النبي في اليوم التالي أيضا.

و بعد أن تناولوا الطعام،

قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «يا بنى عبد المطلب، إني و الله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الدنيا و الآخرة... و قد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى على أمرى هذا، على أن يكون أخى و وصيى و خليفتى فيكم؟» فأحجم القوم عنها غير على، و كان أصغرهم (سنا)، فقال: «يا نبيّ الله، أنا أكون وزيرك عليه»، فأخذ رسول الله برقبته، و قال: «إنّ هذا وصيى و خليفتى فيكم فاسمعوا له و أطيعوا» فقام القوم يضحكون، و يقولون لأبي طالب:

قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع. (٣)

و قد نقل هذا الحديث كثير من أهل السنه كابن جرير الطبرى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى، و الثعلبى، كما نقله «ابن الأثير» فى

ص: ٤٧٩

١- ١) - سورة الحج، الآية ٩٤.

٢- ٢) - راجع سيره ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٠.

٣- ٣) - المراجعات، ص ١٣٠.

الجزء الثاني من كتابه «الكامل»، و أبو الفداء في الجزء الأول من تأريخه، و جماعه آخرون. (١)

و هذا الحديث يوضع لنا كيف كان النبي وحيدا حينذاك، و كيف ردّوا عليه دعوته بالسخرية و الاستهزاء، و كيف وقف على عليه السلام إلى جانب النبي في وحدته ناصرا و معيناً...

و

في حديث آخر أن النبي دعا قريشا واحدا واحدا و حذرهم من النار فقال:

«يا بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار».

و كان يدعو أحيانا بهذا الخطاب بني عبد شمس، و بني عبد مناف، و بني عبد المطلب، و بني هاشم فيقول: «أنقذوا أنفسكم من النار». (٢) فلست قادرا على الدفاع عنكم في حال كفركم.

ص: ٤٨٠

---

١-١) -لمزيد الإيضاح يراجع كتاب المراجعات، ص ١٣٠ فما بعد و كتاب إحقاق الحق، ج ٤، ص ٦٢.

٢-٢) -تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٥٩ ذيل الآيات محل البحث مع شيء من الاختصار.

اشاره

هَيْلٌ أُتْبِكُمْ عَلَيَّ مِنْ تَنْزَلِ الشَّيَاطِينِ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَيَّ كُلُّ أِفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ (٢٢٣) وَ الشُّعْرَاءُ  
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

التفسير

اشاره

النبي ليس شاعرا:

هذه الآيات-محل البحث-هي آخر الآيات من سوره الشعراء، تعود ثانيه لترد على الاتهام السابق-من قبل الأعداء-بأن القرآن من إلقاء الشياطين، تردهم ببيان أحاذ بليغ مفحم،فتقول: هَيْلٌ أُتْبِكُمْ عَلَيَّ مِنْ تَنْزَلِ الشَّيَاطِينِ تَنْزَلُ عَلَيَّ كُلُّ أِفَّاكٍ أَثِيمٍ أى الكاذب المذنب،حيث يلقون إليهم ما يسمعونه مع اضافه



أَكَاذِيبَ كَثِيرَةً عَلَيْهِ يُلْقَوْنَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . (١)

و ملخص الكلام أن ما تلقيه الشياطين له علائم واضحة، و يمكن معرفته بعلائمه أيضا. فالشيطان موجود مود و مخرب، و ما يلقىه يجرى فى مسير الفساد و التخريب، و أتباعه هم الكذابون المجرمون، و ليس شىء من هذه الأمور ينطبق على القرآن، و لا على مبلغه، و ليس فيها أى شبه بهما.

و الناس فى ذلك العصر -و ذلك المحيط- كانوا يعرفون النبى محمدا صلى الله عليه و آله و سلم و أسلوبه و طريقته، فى صدقه و أمانته و صلاحه فى جميع المجالات... و محتوى القرآن ليس فيه سوى العدل و الحق و الإصلاح، فكيف يمكن أن تتهموه بأنه من إلقاء الشياطين؟! و المراد من (الأفاك الأثيم) هو الكاهن المرتبط بالشياطين فتاره يقوم الشياطين باستراق السمع لأحاديث الملائكة، ثم بعد مزجه بأباطيل كثيرة ينقلونه الى الكهنة. و هم بدورهم يضيفون عليه عشرات الأكاذيب و ينقلونها إلى الناس...

و بعد نزول الوحي خاصه، و منع الشياطين من الصعود إلى السماء و استراق السمع. كان ما يلقىه الشياطين إلى الكهنة خفنه من الأكاذيب و الأراجيف...

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يقاس محتوى القرآن بما تلقيه الشياطين...

و أن يقاس النبى الصادق الأمين بحفنه من الكهنة الأفاكين الكاذبين!...

و هناك تفاسير مختلفه لجمله يُلْقَوْنَ السَّمْعَ :

فمنها: أن الضمير فى (يلقون) عائد على الشياطين و «السمع» المراد منه المسموعات، أى أن الشياطين يلقون مسموعاتهم إلى أوليائهم و أكثرهم كاذبون «و يضيفون على ما يلقىه الشياطين أكاذيب كثيرة!»...

ص: ٤٨٢

١ - ١) - «أفاك» من: «الإفك». و الإفك هو الكذب الكبير. فمعنى الأفلاك من يكذب كثيرا أكاذيب كبيره... و «أثيم» من ماده «إثم» على وزن (اسم) و معناه فى الأصل: العمل الذى يؤخر صاحبه عن الثواب، و يطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب...

و منها: إن الضمير في الفعل يعود على الأفاكين، إذ أنهم كانوا يلقون- ما يسمعون من الشياطين- إلى عامه الناس، إلا أن التفسير الأول أصح ظاهرا (١) ! و في الآيه الرابعه- من الآيات محل البحث- يردّ القرآن على اتهام آخر كان الكفار يرمون به النبي فيدعونه شاعرا، كما في الآيه (٥) من سورة الأنبياء **يَلْهُو شَاعِرٌ** وربما دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآيه (٣٦) من سورة الصافات **وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرِيكَوآلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ** .

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقي، بأن منهج النبي يختلف عن منهج الشعراء. فالشعراء يتحركون في عالم من الخيال، و هو يتحرك على أرض الواقع و الواقعيات، لتنظيم العالم الإنساني...

و الشعراء يبحثون عن العيش و اللذه و الغزل (كما هي الحال بالنسبه لشعراء ذلك العصر في الحجاز خاصه حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

و لذا فإن أتباعهم هم الضالون: **وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** .

ثم يضيف القرآن على الجملة آنفه الذكر معقبا **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** . (٢)

فهم غارقون في أخيلتهم و تشبيهاتهم الشعريه، حتى أن القوافي تجرهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، و يهيمون معها في كل واد...

و هم غالبا ليسوا أصحاب منطق و استدلال، و أشعارهم تنبع ممّا تهيج به عواطفهم و قرائحهم... و هذه العواطف تسوقهم في كل آن من واد لآخر!...

فحين يرضون عن أحد يمدحونه و يرفعونه إلى أوج السماء، و إن كان حقه أن

ص: ٤٨٣

١- ١) -لأن (يلقون) في مثل هذه الموارد معناها نقل الأخبار و المطالب، كما جاء في الآيه (٥٣) من سورة الحج **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَ جَمَلَهُ أَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ** تتناسب مع الشياطين، لأن الأفاكين كلهم كاذبون لا أكثرهم (فلاحظوا بدقه).

٢- ٢) -«يهيمون» فعل مضارع من «الهيام»، و معناه المشى بلا هدف...

يكون فى أسفل السافلين، و يلبسونه ثوب الملاك الجميل و إن كان شيطاننا لعينا...

و متى سخطوا على أحد هجوه هجوا مرا و أنزلوه فى شعرهم الى أسفل السافلين، و إن كان موجودا سماويا.

ترى هل يشبه محتوى القرآن الدقيق المنطلقات الشعريه أو الفكرية للشعراء و خاصه شعراء ذلك العصر، الذين لم تكن منطلقاتهم إلا وصف الخمر و الجمال و العشق و المدح لقبائلهم و هجو أعدائهم...

ثم إن الشعراء عادة هم رجال حطابه و جماهير لا أبطال قتال، و كذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإن الآيه التاليه تضيف فتقول عنهم: **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**.

غير أن النبى الكريم صلى الله عليه و آله و سلم رجل عمل من قرنه إلى قدمه، و قد اعترف بعزمه الراسخ و استقامته العجيبه حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبى صلى الله عليه و آله و سلم؟! و مما تقدم من الأوصاف التى ذكرها القرآن عن الشعراء، يمكن أن يقال بأن القرآن وصفهم بثلاث علامات:

الأولى: أنهم يتبعهم الغاوون الضالون، و يفرون من الواقع، و يلجئون إلى الخيال.

و الثانيه: أنهم رجال لا هدف لهم، و متقلبون فكريا، و واقعون تحت تأثير العواطف! و الثالثه: أنهم يقولون ما لا يفعلون... و حتى فى المجال الواقعى لا يطبقون كلامهم على أنفسهم...

إلا أنه لا شىء من هذه الأوصاف يصدق على النبى، فهو فى الطرف المقابل لها تماما! و لما كان بين الشعراء أناس مخلصون هادفون و أهل أعمال لا أقوال، و دعاه نحو الحق و الصدق «و إن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلا يومئذ»، فالقرآن من أجل

ألا- يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون في شعرهم أهدافا الهيية و انسانيه، و لا يغرقون في الأشعار فيغفلون عن ذكر الله، بل كما يقول القرآن: وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .

و أشعارهم تذكر الناس بالله أيضا...و إذا ما ظلموا كان شعرهم انتصارا للحق وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا .

فإذا هجوا جماعه هجوه من أجل الحق و دفاعا عن الحق الذي يهجو أولئك فيذبون عنه...

و هكذا فقد بين القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، و هى الإيمان، و العمل الصالح، و ذكر الله كثيرا، و الإنتصار للحق من بعد ما ظلموا، مستعينين بشعرهم فى الذب عنه...

و حيث أن معظم آيات هذه السوره هو للتسليه عن قلب النبى، و التسريه عنه، و عن المؤمنين القله فى ذلك اليوم فى قبال كثره الأعداء، و حيث أن كثيرا من آيات هذه السوره فى مقام الدفاع عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ضد التهم الموجهه إليه من قبل أعدائه، و غير اللائقه به-فإن السوره تختتم بجمله ذات معنى غزير، و فيها تهديد لأولئك الأعداء الألداء، إذ تقول: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

و بالرغم من أن بعض المفسرين أرادوا أن يحصروا هذا الانقلاب و العاقبه المره للظالمين بنار جهنم...إلا أنه لا دليل على تقييد ذلك و تحديده بها...بل لعله إشاره إلى هزائمهم المتتابعه و المتلاحقه فى المعارك الإسلاميه، كمعركه بدر و غيرها، و ما أصابهم من ضعف و ذله فى دنياهم، فمفهوم هذه الآيه عام، بالإضافة إلى ذلك عذابهم و انقلابهم إلى النار فى آخر المطاف.

## ١- لم كانوا يتهمون النبي بالشعر

إن واحده من التهم التي كانت توجه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هي الشعر، وأنه شاعر، فالآيات-آنفه الذكر- كانت رداً على هذا الاتهام أيضاً...

لقد كانوا يعرفون جيداً أن القرآن ليس له أقل شبه بالشعر، لا من حيث الشكل و الظاهر و لا من حيث المحتوى، فالشعر فيه وزن و قافيه و أبيات مشطره، و ليس كذلك القرآن. و الشعر فيه تخيل و تشبيهات كثيره و غزل ممّا ليس في القرآن أيضاً.

إلاّ- أنهم حيث كانوا يرون أثر القرآن الكبير في جذب أفكار الناس و إيقاعه الخاص في قلوبهم، فلإلقاء الستار على هذا النور الإلهي، سموه «سحراً» تاره، لأنّه كان ذا نفوذ و تأثير «خفي» في الأفكار. و دعوه «شعراً» تاره أخرى لأنّه كان يهزّ القلوب و يأخذها معه! لقد أرادوا أن يذمو القرآن فمدحوه بهذا الكلام، و كان كلامهم سندا و دليلاً حياً على نفوذ القرآن الخارق للعاده في أفكار الناس و في قلوبهم.

يقول القرآن في تنزيه النبي عن الشعر: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (١).

## ٢- الشعر و الشعريه في الإسلام

لا- شك أن الذوق الشعري و الفن الشعري كسائر رؤوس الأموال، له قيمته في صورته ما لو استعمل استعمالاً صحيحاً و له أثر إيجابى... إلاّ أنّه إذا صار وسيلة تخريب و هدم للبناء العقائدى و الأخلاقى في المجتمع، فلا قيمه له، بل يعتبر وسيلة

ص: ٤٨٦

ضاره عندئذ...

فالشعر ينبغي أن يؤدي دوره في وجود الإنسان ليكون ذا قيمة كبرى، وأن لا يسوق الناس نحو الخيال أو الضياع أو الإشغال دون جدوى، لأنه سيكون وسيلة للضرر و الإضرار.

و يتضح بهذا الجواب على السؤال التالي:

ماذا يفهم من الآيات المتقدمة، هل الشعريه أمر حسن أو غير حسن، و هل يوافق الإسلام الشعر أو يخالفه؟! فالجواب على ذلك أن تقويم (١) الإسلام في هذا المجال قائم على الأهداف و الوجوه و النتائج... و كما

قال الإمام على عليه السلام حين كان بعض أصحابه يتكلمون على مائدة الإفطار في إحدى ليالي شهر رمضان، و جرى كلامهم في الشعر و الشعراء، فخاطبهم أمير المؤمنين على عليه السلام قائلاً: «اعلموا أن ملاك أمركم الدين، و عصمتكم التقوى، و زيتتكم الأدب و حصون أعراضكم الحلم». (٢)

فكلام الإمام على عليه السلام إشاره إلى أن الشعر وسيله... و معيار تقويمه الهدف الذي قيل من أجله!...

إلا أنه -و للأسف- استغل الشعر على امتداد تاريخ آداب الأمم و الملل لأغراض سيئه، و تلوث هذا الذوق الإلهي اللطيف، فسقط في الوحل بسبب البيئه الفاسده، و بلغ الشعر أحياناً درجه من الانحطاط بحيث صار من أهم عوامل الفساد و التخريب، و لا سيما في العصر الجاهلي الذي كان عصر انحطاط الفكر العربي و أخلاقه! فكان الشعر و الشراب و الغارات بعضها إلى جنب بعض ممّا مميزات ذلك العصر!

ص: ٤٨٧

١ - ١) - «التقويم» له معان متعدده منها تقويم الأود أى إقامة الاعوجاج، و تقويم الشيء إعطاء قيمته أو معرفتها، و هو هنا بهذا المعنى. و ما يجرى على السنه الكتاب و أفلامهم بلفظ (تقسيم) خطأ مشهور و غير صحيح (المصحح).

٢ - ٢) - شرح نهج البلاغه، لابن أبى الحديد ج ٢٠، ص ٤٦١.

و لكن من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقه،و هي أن الأشعار البّنّاء و الهادفه على امتداد التاريخ،خلقت طاقات كثيره و حماسه قصوى،و ربّما عبّأت امه مغلوبه بوجه أعدائها،فشدتها على العدو فهزمته و انتصرت «بهذه الأشعار».

و فى فتره نضوج الثوره الإسلاميه رأينا بأم أعيننا كيف أثرت الأشعار الحماسيه فى نفوس الناس،فحركتهم و أثارتهم حتى جرت دماء الثوره فى مفاصلهم،و جعلتهم صفا واحدا و زلزلت قصور الأعداء و هزمتهم...

كما نسأل:من يستطيع أن ينكر أن شعرا أخلاقيا ينفذ فى أعماق الإنسان و يغيّر محتواه لدرجه لا- يبلغها كتاب علمى غزير المحتوى...

أجل،إن الشعر كما

قال عنه النبى صلى الله عليه و آله و سلم «إن من الشعر لحكمه و إنّ من البيان لسحرا». (١)

و للكلمات الموزونه و إيقاعها-أحيانا-مضاء السيف و نفوذ السهم فى قلب العدو...

ففى بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم-فى مثل هذه الأشعار-أنه قال: «...و الذى نفس محمد بيده فكأنما تنضحونهم بالنبل». (٢)

أجل...قال النبى ذلك حين كان العدو يهجو المسلمين ليضعف معنوياتهم و روحياتهم،فأمر النبى شعراء المسلمين أن يردّوا عليهم بالهجاء المقذع،لذمهم و تقويه روحيه المسلمين.

و

قال صلى الله عليه و آله و سلم فى شأن أحد الشعراء المدافعين عن الإسلام «أهجمهم فإنّ جبرئيل معك». (٣)

و خاصّه حين سأل كعب بن مالك «الشاعر المؤمن» الذى كان ينشد قصائد

ص: ٤٨٨

١-١) -نقل حديث الرسول هذا جماعه كثيره من علماء الشيعة و السنه فى كتبهم «يراجع كتاب الغدير، ج ٢، ص ٩».

٢-٢) -مسند أحمد، ج ٢، ص ٢٦٠.

٣-٣) -مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٩٩.

فى تقويه الإسلام-و كانت الآيات قد نزلت فى ذم الشعراء-فقال يا رسول الله: ما أصنع؟!

فقال صلى الله عليه و آله و سلم «إِنَّ المؤمن يجاهد بنفسه و سيفه و لسانه». (١)

و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام وصف كثير فى الشعر و الشعراء الهادفين و الدعاء لهم و إيصال الجوائز إليهم، بحيث يطول الكلام فى ذلك«إن أردنا نقل الروايات عنهم».

إلا- أنه من المؤسف أنه على طول التاريخ أسقط جماعه هذه المنحه الإلهيه و الذوق اللطيف، الذى هو من أجمل مظاهر الخلق، فأنزلوه من أوجه إلى الحضيض، و كذبوا فيه كثيرا حتى قيل فى المثل المعروف: «أعذبه أكذبه».

و ربّما سخّروه فى خدمه الجبابره و الظالمين و تملّقوا لهم، رجاء صلّه محتقره رخيصة...

أو أنّهم أفرطوا فى وصف الشراب و الفجور و الفسق أحيانا، إلى درجه يخجل القلم عن ذكرها! و ربّما أشعلوا الحروب بنيران أشعارهم، و جروا الناس إلى القتل و الغارات، و لطحوا الأرض بدماء الأبرياء.

إلا أن فى الطرف الآخر- و فى قباهم- الشعراء الذين آمنوا بمبدئهم، و اشتدت همتهم، فسخّروا هذه القريحه الملكوتيه فى سبيل حريه الناس و التقوى، و مواجهه اللصوص و المستكبرين و الجبابره، فبلغوا أوج الفخر! و ربّما دافعوا عن الحق فاشتروا بكل بيت من أبيات شعرهم بيتا فى الجنّه. (٢)

ربما وقفوا فى وجوه حكام الظلم و الجور كبنى أميه و بنى العباس الذين كانوا يحبسون الأنفاس فى الصدور، فتجلى القلوب بقصيده كقصيده دعبيل «مدارس

ص: ٤٨٩

١-١) -تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٨٦٩.

٢-٢) -جاء عن الإمام الصادق أنّه قال: «من قال فىنا بيت شعر بنى الله له بيتا فى الجنّه»، «الغدير، ج ٢، ص ٣».



آيات خلت من تلاوه» و أماطوا عن الحق لثام الباطل، فكأنما كان يجرى على لسانهم روح القدس. (١)

و ربّما أنشدوا الأشعار لإنهاض المضطهدين الذين كانوا يحسّون في أنفسهم الاحتقار و الازدراء من قبل الظلمه...فهاجوهم و أثاروهم بتلك الأشعار...

و القرآن يقول في شأن هؤلاء: **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا** .

مما يلفت النظر أن هؤلاء الشعراء قد يتركون شعرا خالدا مؤثرا بليغا...حتى أن أئمة الإسلام الكرام- كما تقول بعض الروايات- أوصوا شيعتهم و أصحابهم بحفظ أشعارهم كما ورد ذلك في شأن «أشعار العبدى». إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يا معشر الشيعة، علموا أولادكم شعر العبدى، فإنه على دين الله». (٢)

و نختم هذا البحث بقصيده للعبدى، و هى من قصائده المعروفة، فى شأن خلافة الإمام على عليه السلام وصى النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ قال:

و قالوا رسول الله ما اختار بعده

إماما و لكننا لأنفسنا اخترنا

أقمنا إماما إن أقام على الهدى

أطعنا و إن ضل الهدايه قومنا

فقلنا: إذا أنتم إمام إمامكم

بحمد من الرحمن تهتم و لا تهنا

و لكننا اخترنا الذى اختار ربنا

لنا يوم خم ما اعتدينا و لا حلنا

و نحن على نور من الله واضح

فيا رب زدنا منك نورا و ثبتنا (٣)

ص : ٤٩٠

(١- ١) - فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما قال فينا قائل بيت شعر حتى يؤيد بروح القدس» «عيون أخبار

الرضا...»

٢-٢) - نور الثقلين، ج ٤، ص ٧١.

٣-٣) - الكنى و الألقاب، ج ٢، ص ٤٥٥.

قرأنا في الآيات-آنفه الذكر- أن من خصائص الشعراء الهادفين هو أنهم يذكرون الله كثيراً...

و

نقرأ في بعض الأحاديث المرويّة عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه يقول: قول الله عز و جل: <sup>□</sup> وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبح تسبيح فاطمه الزهراء عليها السّلام فقد ذكر الله الذكر الكثير». (١)

كما

جاء عنه عليه السّلام أنه قال: من أشدّ ما قرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً... ثمّ قال عليه السّلام: «لا أعنى سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلاّ الله و الله أكبر، و إن كان منه، و لكن ذكر الله عند ما أحلّ و حرّم فإن كان طاعه عمل بها، و إن كان معصيه تركها!». (٢)

ربّنا، أملاً قلوبنا بذكرك، لنختار ما يرضيك، و نترك ما يسخطك...

ربّنا، اجعل ألسنتنا بليغه، و أقلامنا سيّالة، و قلوبنا مليئة بالإخلاص، لنستعمل ذلك في سبيلك و ابتغاء رضوانك، آمين ربّ العالمين.

انتهاء سورة الشعراء و نهايه المجلد الحادى عشر

ص: ٤٩١

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٣.

٢- ٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٣، نقلا عن اصول الكافي.































بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩